



العددان ٤٨٩ - ٤٩٠ شوال - ذو القعدة ١٤٣٨هـ يوليو - أغسطس ٢٠١٧م

الصحافة الورقية في زمن متغير

موت غير معلن

الصراع الطائفي في إسرائيل

علي فخرو: البترول فرصة تاريخية أضاعها الخليجيون

الكاتبات الإيرانيات والعيش في جحيم مفتوح

قراءة ثقافية لمفهوم الترفيه في السعودية

www.alfaisalmag.com



ص ب : ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية هاتف : ٠٠٩٦٦ ١١ ٤٦٥٢٢٥٥ فاكس : ٠٠٩٦٦ ١١ ٤٦٥٩٩٩٣

P.O. Box 51049 Riyadh 11543 Kingdom of Saudi Arabia Tel: 00966 11 4652255 Fax: 00966 11 4659993

الفيصل
Alfaisal

أسسها عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م
الأمير خالد الفيصل

يصدرها




العددان ٤٨٩-٤٩٠



كتاب الفيصل ١٧

- ترسل المواد إلى بريد المجلة الإلكتروني: editorial@alfaisalmag.com

ردمد
١١٤٠ - ٠٢٥٨
رقم الإيداع
مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

رئيس مجلس الإدارة
الأمير تركي الفيصل

الناشر
دار الفيصل الثقافية

رئيس التحرير
ماجد الحجيلان
editorinchief@alfaisalmag.com

دراسات



يُحدِّد العنوان لمنعطفات الرواية العربيّة، موضوع البحث، زمنًا تاريخيًّا يقع بين العامين ١٩٦٧ و٢٠٠٣م، أي بين هزيمتين هما هزيمة الجيش المصري أو ما عُرِف بالنكسة، وهزيمة الجيش العراقي أو احتلال العراق، ما يعني أنَّ العنوان يُضمر الإشارة إلى علاقةٍ بين الأدب والتاريخ، أو إلى أثرٍ يتركه الواقع التاريخي في الأدب الذي هو هنا الرواية.

فضاءات

بدأت تتشكل رحلة علاقتي بواحة سيوة عام ١٩٩٢م، عندما لجأت إليها فارًّا من موت أبي ومن مشكلاتي النفسية التي أورثتني إياها علاقات المدينة وزحامها الذي يختزل الموت وآثاره، ويضيِّعه في ثنايا العادة والتكرار. المدينة التي تختزل أي مسافة، وتضعك في عراك مع حافة جسمك، ومن دون أي براح إضافي، تنتقل فيه أنت وحياتك ومشكلاتك وموتك الشخصي إلى مكان جديد.

مقال



هل كان الرئيس هولاند، وهو يدعو الشاب ماكرون، ليلتحق به أمينًا عامًّا مساعدًا في قصر الإليزيه، قبل عامين فقط، وليعينه بعد عام في فرصة اهتزاز وتمرد لجناح من الاشتراكيين ليحل محل وزير الاقتصاد المتمرد مونتبورغ؛ هل كان هولاند عندئذ يحسب لحظة واحدة أن هذا الشاب الخجول، المتكتم، إنما المسلح بتكوين جامعي صلب، ويمتلك أسلوب عيش خصوصي، ويعرف كيف يحرق المراكب دون دخان، هو نفسه من سيودعه في نهاية مدته الرئاسية بمدخل قصر الرئيس.

تحقيقات



كشف الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠١م عن الدور البارز الذي لعبه الاستشراق الجديد في تشكيل مخيلة الغرب نحو المنطقة العربية، فعبر عدد من مراكز الأبحاث وأقسام الجامعات ووسائل الإعلام صدَّق العالم أن العراق مقبل على إبادة البشرية. يومها وقف وزير الخارجية الأميركي كولن باول يستعرض أمام مجلس الأمن علبة صفيح قديمة بوصفها دليلًا على مدى تطور البرنامج النووي العراقي، مطالبًا بتشكيل تحالف دولي لانتزاع قوى الشر من مكمنها.

سينما



شياطين الثورة الرقمية الكائن الإنساني المتفرد؟

(فجر يعقوب)

من المؤكد أن عباقرة الفن السابع الكبار يتحسرون على الأيام التي مضت حين كانت الكاميرا الثقيلة وحدها سيدة المشهد، وسيدة الفكرة والصورة والمحتوى. اليوم لا يبدو أن الاحتلال الرقمي للسينما قد صنع المعجزات بخصوص اللغة السينمائية التي طورها هؤلاء الكبار من وراء كراسيهم، وصنعوا أمجاد النجوم والنجمات من خلالها.

بورتريه



وداعًا غويتيسولو.. ضمير إسبانيا وصوت العرب في أوربا (أحمد عبداللطيف)

في يونيو الماضي، في مدينة مراكش، ودّع العالَم واحدًا من أكثر الكُتّاب تورطًا في الشأن السياسي، ومن أكثر الأصوات انتقادًا للسلطة الإسبانية اليمينية وأكثرها دفاعًا عن الثقافة العربية الإسلامية وقضايا المهاجرين: خوان غويتيسولو، الذي يعده بعض النقاد أهم كاتب إسباني في القرن العشرين.

كتب



مقالات





www.alfaisalmag.com

مدير التحرير
أحمد زين

الإخراج
ينال إسحق

التنفيذ
رياض دفدوف
مبارك علي

الموقع الإلكتروني
معتز عبدالماجد

التدقيق والمراجعة اللغوية
عبدالله الدوسري
محمد نصير سيد

الاشتراكات والتوزيع
جعفر عبدالرحمن
١١٤٦٥٢٢٥٥(٩٦٦+)- تحويلة: ٦٦٤٠
subscriptions@alfaisalmag.com

مراسلات التحرير
editorial@alfaisalmag.com

مراسلات الإدارة
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١
المملكة العربية السعودية
هاتف المجلة: ١١٤٦٥٣٠٢٧ (٩٦٦+)
فاكس: ١١٤٦٤٧٨٥١ (٩٦٦+)
contact@alfaisalmag.com

الإعلانات
هاتف: ١١٤٦٤٧٨٥١ (٩٦٦+)
advertising@alfaisalmag.com



نصوص

في هذا العدد

الاشتراك السنوي: ١٠٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريالًا سعوديًّا للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأميركي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي: السعوديـة ١٠ ريالات، الإمارات ١٠ دراهم، قطر ١٠ ريالات، البحرين دينار واحد، الأردن ديناران ، مصر ١٠ جنيهات، المغرب ١٠ دراهم، لبنان ٥٠٠٠ ليرة.

الموزعون: مصر، مؤسسة توزيع الأهرام، القاهرة شارع الجلاء، هاتف: ٢٧٧٠٣١٩٥، فاكس: ٢٧٧٠٤٢٩٣، قطر، دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، ص.ب ٣٤٨٨، هاتف ٤٤٥٥٧٨١٠، فاكس: ٤٤٥٥٧٨١٩، الأردن، شركة وكالة التوزيع الأردنية، ص.ب ٣٣٧١، هاتف: ٦٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٦٥٣٣٧٧٣٣، البحرين، مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف، ص. ب ٨٠٠٥٠، هاتف: ١٧٤٨٠٨٠٠، فاكس: ١٧٤٨٠٨١٨، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي المتحدة للطباعة والنشر والتوزيع ، ص.ب ٣٩٩٥٥، هاتف: ٢٥٠١٠٩٦٧، المغرب، الشركة الشريفية لتوزيع الصحف، ص.ب ١٣٦٨٣، هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣، فاكس: ٢٢٤٦٢٤٩، لبنان، بيروت، شركة شرق الأوسط لتوزيع المطبوعات، ص .ب ٦٤٠٠-١١، هاتف: ٠٠٩٦١١٦٩٧٣١٠، فاكس: ٠٠٩٦١١٦٩٧٣٢٠

التوزيع داخل المملكة
الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ (٠١١) فاكس: ٤٨٧١٤٦٠ (٠١١)

الوطنية للتوزيع
AL WATANIA DISTRIBUTION

دكتوراه فخرية للفيصل من جامعة غوميليوف أوراسيا



منح المجلس الأكاديمي لجامعة غوميليوف أوراسيا الوطنية في كازاخستان الأمير تركي الفيصل رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الدكتوراه الفخرية تقديرًا لمساهماته الفكرية ودوره في توطيد أواصر التعاون البحثي والأكاديمي بين مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية وعدد من المراكز والهيئات الدولية المختلفة، وكذلك لمشاركاته وإسهاماته في كثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات العالمية التي تناقش وتشجع على السلام والتعاون والحوار وتبادل المعرفة.

وكان الأمير تركي الفيصل قد ألقى أواخر مايو الماضي محاضرة في جامعة «غوميليوف» بكازاخستان، قال فيها: «يُسعدني أن أُلقي محاضرتي اليوم في هذا البلد العزيز، بلاد ما وراء النهر كما سمّاها المسلمون الأوائل؛ تلك المنطقة التي أخرجت لنا كثيرًا من العلماء الذين أثْروا الثقافة الإسلامية والعربية بكثيرٍ من المؤلَّفات المهمّة، التي تحتفي بها مكتبتنا العربية حتى يومنا هذا»، مشددًا على قوة العلاقات العربية الكازاخية، سواء في التاريخ القديم أم الحديث، ولعلّ أحد الأمثلة الواضحة على ذلك أن اللغة الكازاخية ظلّت تُكتب بالأحرف العربية حتى بدايات القرن الماضي. وذكر الأمير تركي أنه لا يمكن أن نذكر كازاخستان من دون أن نذكر القائد المسلم الكبير ركن الدين بيبرس الذي تعود أصوله إلى هذا البلد الكبير كازاخستان، ذلك القائد الذي أبلى بلاءً حسنًا في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وهي المعركة الفاصلة في التاريخ الإسلامي، التي ألحقت أول هزيمة قاسية بجيش المغول، وأوقفت زحفهم على بلاد الإسلام.

وفد من الاتحاد الأوربي يزور المركز



استقبل الأمين العام للمركز الدكتور سعود السرحان في مايو الماضي وفدًا من لجنة السياسة والأمن للاتحاد الأوربي، وهي اللجنة المعنية بالسياسة الأمنية المشتركة لدول الاتحاد الأوربي. وقدم الأمين العام تعريفًا بالمركز وأنشطته وبرامجه، وإصداراته البحثية المتنوعة، مبرزًا دوره في دراسة الأفكار وتحليلها التي تسهم في تحسين السياسات ومواجهة التحديات لدى صُناع القرار، وكذلك اهتمامه بتوثيق أواصر التعاون مع مختلف المؤسسات والمنظمات المحلية والإقليمية والدولية.

وأشار رئيس وفد لجنة السياسة والأمن في الاتحاد الأوربي آلان بوغوجا إلى رغبة الاتحاد في استمرار بناء العلاقات وتوثيقها والاطلاع على تجارب المؤسسات الحكومية والأهلية في دول الخليج العربي، إضافة إلى تعزيز فرص التعاون في مجال البحوث والدراسات.

أمير الرياض يفتتح متحف الفيصل للفن العربي الإسلامي



افتتح الأمير فيصل بن بندر أمير منطقة الرياض، متحف الفيصل للفن العربي الإسلامي بالرياض في الأول من يونيو الماضي، بحضور الأمير تركي الفيصل، رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وشهد الافتتاح الأمير سلطان بن سلمان، رئيس الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، والأمير بندر بن سعود بن خالد، الأمين العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، وعدد من أصحاب السمو الأمراء، ونخبة من المتخصصين والأكاديميين والسفراء والدبلوماسيين والمهتمين بالفن العربي والإسلامي.

ولمناسبة الافتتاح قال الأمير فيصل: «هذا المتحف يؤكد على دور مركز الملك فيصل للبحوث العلميّ، وأيضًا الاستقصاء في كثير من أمور التاريخ الإسلامي، والمركز مؤسسة عريقة ولها دور بارز في مجالات العلم والمعرفة والثقافة والتراث، وأرجو له التوفيق الدائم، وأن نسعد بهذه الجهود التي تفيد الباحثين وكل من يحاول البحث عن أي أمر من خلال هذه المؤسسة التي وصلت إلى مستوى عالمي»، معربًا عن سعادته بوجود مؤسسة الملك فيصل في الرياض قائلًا: «هذه المؤسسة بقيادة الأمير خالد الفيصل تأخذ طريقها المستمر في دعم الثقافة بكل جد واجتهاد؛ لأنها تعطي إشعاعًا للإنسان في هذه المنطقة، عن علم ومعرفة وإدراك وإتقان، فهي مؤسسة عريقة تقوم بهذا الدور، أتمنى لها التوفيق في ظل الأعمال التي تنتهجها الدولة، وفقها الله في مجال الثقافة والتراث والعلم والمعرفة، وسيدي خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز أَولى هذه الأمور عناية كبيرة وجعلها من أولوياته التي يحرص عليها ويوجه فيها».

من جهته، أوضح الأمير تركي الفيصل أن خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز «هو راعي مؤسسة الملك فيصل وراعي نشاطاتها، وهو بنفسه من افتتح كثيرًا من المعارض في هذا المكان عندما كان أميرًا لمنطقة الرياض، وهذا المساء نشرف بوجود أخي الأمير فيصل بن بندر أمير منطقة الرياض، ونحن دائمًا في رعايته في منطقة الرياض، ووجوده هنا ليس فقط دليلًا على اهتمامه الشخصي، ولكن توجه وتأييد الدولة المباركة لكافة المجالات الثقافية والتراثية».

ويُقدّم «متحف الفيصل للفنّ العربي الإسلامي» التابع للمركز نماذج من المجموعة الفنية التي يقتنيها المركز من خلال قاعتين: تضم القاعة الأولى قطعًا تراثيةً نادرةً من الفنّ العربي الإسلامي، وتضمّ القاعة الأخرى مجموعة المصاحف المخطوطة والمطبوعة الفريدة التي يقتنيها المركز (مصاحف الأمصار)، وتشتهر هذه المصاحف بتنوّعها من حيث بلد المنشأ والحجم، وندرة ونفاسة كثيرٍ منها، وقِدَم تاريخها، وإتقان الخطّ والزخارف فيها.

حوار سعودي ياباني باتجاه المستقبل



عقد المركز في مايو الماضي حلقة نقاش بعنوان: حوار سعودي ياباني إستراتيجي في معهد الفيصل، أدارها الأمين العام للمركز بحضور عدد من الأكاديميين والمتخصصين من السعودية واليابان. وركز النقاش على عدد من الموضوعات، بما في ذلك تاريخ العلاقة بين البلدين الذي يمتد لأكثر من ٦٠ عامًا، ومستقبل هذه العلاقة. كما ناقش الطرفان التحديات المشتركة التي تواجه البلدين، وما إذا كان تصدير النفط إلى منطقة شرق آسيا سيخلق دورًا سياسيًّا أكبر لليابان في منطقة الخليج العربي، كما كان موضوع تمكين المرأة والتعاون الثقافي جزءًا من الحوار؛ إذ تحدَّث المشاركون عن تصورات النساء السعوديات واليابانيات وأفكارهما في العقود الماضية، وكيف تغيرت وتطورت.

مشاركة في معرض الكتاب بالجامعة الإسلامية



شارك المركز في معرض الكتاب والمعلومات الرابع والثلاثين بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، من خلال عرض إصدارات المركز من كتب وبحوث ودراسات ودوريات، وبعض المخطوطات والكتب التي توثق مسيرة الملك فيصل رحمه الله. ويبلغ عدد إصدارات المركز نحو ٣٥٠ إصدارًا، كما شملت إصدارات المركز ما يقارب ١٢٠ عنوانًا من الإصدارات الجديدة، ومنها: كشاف الفيصل، وكشاف سعود الفيصل، والعربية اللغة الشريفة، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، والتراث الثقافي، وعدد آخر من الكتب التراثية والثقافية والدراسات الفكرية. واشتمل جناح المركز على الإصدار الجديد من «خزانة التراث»، وهي قاعدة بيانات تضم أكثر من ١٥٠ ألف عنوان في مختلف العلوم، كما تضم أكثر من ٧٥٠ ألف نسخة خطية.


للخارج
فتوى
للداخل

عشرات الباحثين الدوليين شاركوا في فعالياته

منتدى الرياض لمحاربة الإرهاب:

التطرف آفة عالمية...

والأديان جميعها عانت من جماعات العنف



الفيصل الرياض

شدد منتدى الرياض لمكافحة التطرف ومحاربة الإرهاب على أهمية الدور الذي تقوم به السعودية في محاربة الإرهاب من أجل تحقيق الأمن والسلام في العالم. وأكد المنتدى الذي عقده مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢١ مايو الماضي، برعاية التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب، أن التطرف والإرهاب لا يمكن ربطه بدين أو منطقة معينة. والمنتدى الذي استمر يومًا واحدًا وعقد في فندق إنتركونتيننتال بالرياض وشارك فيه عدد كبير من الباحثين والمهتمين بمحاربة التطرف من جنسيات مختلفة، جاء في إطار الفعاليات السياسية والعالمية الرفيعة المستوى التي شهدتها الرياض تزامنًا مع الزيارة التاريخية للرئيس الأميركي دونالد ترمب إلى السعودية.

وفي الافتتاح قال الدكتور سعود السرحان الأمين العام للمركز في كلمة ترحيبية بالمشاركين: إن التطرف والإرهاب هما أكبر تهديد يواجه العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، مؤكدًا أن خطر الإرهاب «يتجاوز حدود المنطقة ويشكل خطرًا على دول العالم كافة». وأوضح السرحان أن السعودية دعت إلى هذا المؤتمر لتبادل النقاشات والمعارف، ولتأكيد التزامها المستمر بالأمن والسلام العالميين، وليكون المؤتمر منبرًا عالميًّا لمكافحة الإرهاب، لافتًا إلى أنه «كان لزامًا على الرياض التصدي لظاهرة الإرهاب، نظرًا لثقلها السياسي وانطلاقًا من واجبها الديني والأخلاقي، وبناءً على معاناتها، في العقود الماضية، من الإرهاب».

آشتون كارتر وزير الدفاع الأميركي السابق متحدثًا في المنتدى

من جانبه، أكد الأمير تركي الفيصل رئيس مجلس إدارة المركز أن السعودية تكافح الإرهاب منذ نشأتها، وأنها واجهت كثيرًا من أشكال الإرهاب منذ الخمسينيات؛ إذ واجهت إرهابًا يرتدي اللباس الوطني، تحوَّل لاحقًا إلى إرهاب برداء ديني أوجد منظمات مثل القاعدة والجماعات التكفيرية الأخرى التي تسبب جميعها في إراقة الدماء وهتك الأعراض. وقال الفيصل: «بسبب ذلك تجمعت لدى السعودية خبرات ومعارف متراكمة في محاربة الإرهاب مكَّنتها من تجنُّبه في الداخل»، موضحًا أن ثقته كبيرة في التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب، وقدرته على إنجاز هذه المهمة الصعبة. وأضاف: «ظهرت الجماعات العنيفة في كل الأديان، في المسيحية وفي اليهودية، وتسببت في قتل الأبرياء، والإسلام بريء من العنف والتطرف». في حين قال آشتون كارتر مدير مركز بيلفر في جامعة هارفرد وزير الدفاع الأميركي الخامس والعشرون: إن السعودية تقوم بدور محوري ومهم في قيادة التحالف ومحاربة الإرهاب والتطرف، مضيفًا أن أهمية التحالف تكمن في قدراته على الرد على ادعاءات المتشددين «الذين يستخدمون الدين لتغذية أفكارهم المتطرفة ونشرها، وهذا لا يمكن أن تقوم به إلا دولة إسلامية والرد عليهم يجب أن يكون من مسلمين». من جهته، قال وزير الخارجية الإيطالي السابق فرانكو فراتيني: إن التحالف الإسلامي العسكري ضد التطرف بقيادة السعودية «خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح»، مؤكدًا أنه لا يوجد أي صلة بين الإرهاب والتطرف والدين، وأن الحروب التي تخوضها الجماعات الإرهابية هي من أجل السلطة والمال وفتح طرق التهريب حتى لو كانت تخاض باسم الدين.

طبيعة التطرف وأنواعه

وناقش المنتدى عددًا من أهم القضايا الملحّة في مجال الأمن والاستقرار الدوليين مثل: طبيعة التطرف وأنواعه وتأثيره، والتصور المستقبلي للإرهاب، ودور وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها في التطرف وسبل مواجهة الإرهاب والتطرف العنيف على المستوى الإقليمي. وفي الجلسة الأولى وعنوانها: «داعش النسخة الثانية ومستقبل الإرهاب»، أكد المشاركون على أن تنظيم داعش الإرهابي إلى زوال وتبدد، وأشادوا بالمقاربة الفكرية والإعلامية والاجتماعية والعسكرية المتكاملة التي تعتمدها السعودية، عادِّين إياها نموذجًا يجب على العالم الاقتداء به. وأشار المتحدثون إلى أن القضاء على تنظيم داعش الإرهابي لا يكون فقط عبر العمليات العسكرية، بل يجب أن يتضمن جميع الجوانب الفكرية والإعلامية والاجتماعية، وتجفيف منابع تمويل الإرهاب، وأن مسببات الإرهاب والتطرف ليست دينية فقط، بل قد تكون أيضًا نتيجة مسببات شخصية واجتماعية وسياسية يجب التعامل معها عبر تهيئة الأرضية الملائمة على المستويين الاجتماعي والسياسي، وبخاصة أن تنظيم داعش الإرهابي يستغل سخط الشباب على الأوضاع القائمة. وأوضح المتحدثون في الجلسة التي أدارها مارتن غولوف، مراسل شؤون الشرق الأوسط في صحيفة الغارديان البريطانية، أن الحروب والنزاعات الأهلية هي أيضًا واحدة من مسببات الإرهاب والتطرف، إضافة إلى حقيقة أن الإرهاب لا ينبع فقط من الدول الإسلامية، بل من الدول غير الإسلامية؛ لذلك يجب على دول العالم أجمع توحيد آليات التعامل والرؤى المشتركة وتبادل المعلومات الاستخبارية للتغلب على آفة الإرهاب.

وشدد المشاركون وهم السير جون جينكنز المدير التنفيذي للمعهد الدولي للدراسات الإستراتيجيّة - الشرق الأوسط، البحرين، وريتشارد باريت، كبير المستشارين في مجموعة سوفان والرئيس السابق لفريق العمليات الدولية لمكافحة الإرهاب MI6، والقائد السابق لفريق الأمم المتحدة لمتابعة تنظيم القاعدة وحركة طالبان ورصدهما، والدكتور عبدالله بن خالد آل سعود، أستاذ مساعد في جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية - بالرياض، والدكتور ويليام ماكانت، مدير علاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي في معهد بروكينغز، واشنطن دي سي، الولايات المتحدة الأميركية، شددوا على أن محاربة الإرهاب يجب ألَّا تقتصر فقط على الجماعات الإرهابية السنية، بل أيضًا الجماعات الإرهابية الشيعية التي تروِّع الآمنين، وتنشر روح الطائفية والكراهية. واستعرض هؤلاء تاريخ نشأة تنظيم داعش الإرهابي وجذوره في العراق وسوريا، وما يبثه من أفكار سامّة ومتطرفة في عقول الشباب، والهزائم النكراء التي يتكبدها التنظيم في الوقت الراهن، وفقدانه للسيطرة على معظم الأراضي التي كانت بحوزته.

التطرف عبر الإنترنت

واستعرضت الجلسة الثانية وعنوانها: «من التطرف الإلكتروني إلى الإرهاب الواقعي»، الدعاية الإرهابية المتطرفة على شبكة الإنترنت والعوامل الواقعية التي تقف خلف تجنيد الإرهابيين والتطرف. وقال الدكتور بيتر نيومان، المبعوث الخاص لمنظمة الأمن والتعاون في أوربا: يتحول عدد من الناس في أوربا إلى التطرف على الإنترنت، فهي إحدى وسائل الدعاية التي تستخدمها المنظمات الإرهابية إلا أن عمليات تجنيد الإرهابيين تحدث على أرض الواقع عبر أشخاص كبروا معهم وعرفوهم معظم سنوات حياتهم، فعلى سبيل المثال معظم الإرهابيين المتطرفين من النرويج لا يأتون فقط من المدينة نفسها، بل يسكنون الشارع نفسه حيث ترعرعوا معًا، وقصدوا المدرسة نفسها. وإلى جانب الدكتور نيومان شارك في الجلسة، التي أدارها فيصل أبو الحسن، الباحث السياسي في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الدكتور شيراز ماهر، نائب مدير المركز الدولي لدراسات التطرف، قسم دراسات الحرب في كلية كينغز لندن، وجورج سلامة، رئيس السياسة العامة والعلاقات الحكومية لشركة تويتر في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وسميّة فطاني، باحثة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

وركزت الجلسة على ضرورة استعراض، ليس فقط جهود محاربة التطرف وتجنيد الإرهابيين على شبكة الإنترنت، بل أيضًا العوامل الواقعية التي تمكّن الإرهابيين من تجنيد أتباعهم، فقد أتاحت شبكة الإنترنت لتنظيم داعش الإرهابي، كما جاء في الجلسة، دعاية إعلامية كبرى، فأشرطة الفيديو التي يقوم التنظيم ببثها تتميز بالجودة العالية وتظهر إرهابيي التنظيم كأنهم أصحاب قضية يقاتلون من أجلها، إلا أن دور شبكة الإنترنت يتغير حاليًّا، ففي عام ٢٠١٤م جرت معظم عمليات التجنيد على موقعي فيسبوك وتويتر، كما أن الإرهابيين تحولوا حاليًّا إلى الجانب المظلم من الشبكة العنكبوتية عبر استخدام خدمات الرسائل الخاصة مثل تيليغرام وفايبر وواتس آب، نظرًا لأن تلك المنصات أكثر خصوصية وتخلق علاقة حميمية مع الشباب صغار السن. من جانبه قال جورج سلامة: «أعلنت تويتر مؤخرًا أنها أغلقت أكثر من ٦٠٠ ألف حساب إرهابي كانت تنشط على منصتنا للتواصل الاجتماعي، وأنها تعمل مع الجهات الحكومية وغير الحكومية على تعزيز مستوى الشفافية فيما يتعلق بتلك الحسابات، إلا أنه لا يوجد تقنية يمكنها بشكل كامل حل هذه المشكلة». وذكرت سميّة فطاني: «أن تنظيم داعش الإرهابي قام بتطوير محتوى دعائي يستهدف النساء بشكل إستراتيجي، سواء على شبكة الإنترنت أو على أرض الواقع، من خلال منحهن شعورًا بالانتماء، وبخاصة اللاتي يشعرن بأنهن منبوذات في مجتمعاتهن، حيث تمنحهن عمليات التجنيد المباشر شعورًا بالواجب والالتزام».

وناقش المتحدثون في الجلسة الثالثة للمنتدى وعنوانها: «روابط الاتصال بين الجريمة والإرهاب» الارتباط العضوي الدائم بين الجريمة والإرهاب، مشيرين إلى أن تجارة المخدرات والاتجار



بالبشر وسرقة الآثار وتهريبها وبيعها، وغسيل الأموال إلى جانب الضرائب التي يفرضها الإرهابيون على السكان، تعد أكبر مصادر تمويل الإرهاب حاليًا. وأكدوا أن أكثر من ٦٠٪ من الإرهابيين أدينوا في قضايا جنائية أو أخلاقية، وأن السجون توفر بيئة خصبة لتجنيد الإرهابيين. وقال الشيخ الدكتور خالد آل خليفة نائب رئيس مجلس الأمناء والمدير التنفيذي لمركز عيسى الثقافي في البحرين: إن الفكر المتطرف يخلق الإرهاب، وإنه يجب محاربة التطرف لمنع تنامي الإرهاب بين الشباب وتطور أفكاره. وأشار راجان بصرة، وهو باحث في المركز الدولي لدراسات التطرف في كلية كينغز لندن، إلى أن دراسة حول الجهاد والإرهاب أظهرت أن أهم الأسباب التي تعزز الانضمام للمنظمات الإرهابية من جانب الشباب «هي البحث عن الخلاص؛ إذ يريد كثير منهم التكفير عن أخطائه من دون تغيير سلوكه، كما أن الانضمام للجماعات الإرهابية يبرر الجريمة حيث إن عقيدتهم وفكرهم يجيزان قتل «الكفار» وسرقتهم ونهبهم، محذرًا من خطورة تكتيكات الإرهابيين الجديدة في أوربا مثل الدهس بالسيارات؛ إذ إن كلفتها المادية قليلة للغاية. وذكرت كاثرين باور، كبيرة المستشارين في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، أن مراقبة مصادر تمويل الإرهاب يقلل العمليات الإرهابية بجانب تبادل المعلومات الاستخبارية بين الدول، وطالبت بضرورة أن يعلم كل شخص في العالم مدى خطورة الإرهاب. وأشار مايكل هورلي وهو ضابط بالمخابرات المركزية الأميركية سابقًا، أن الجانب المالي مهم في تنفيذ العمليات الإرهابية، وأن كثيرًا منها لن ينجح من دون تمويل ودعم مالي.

النزاع اليمني

وشهد المنتدى تنظيم جلسة نقاشية رابعة مفتوحة بعنوان: «مواجهة الإرهاب: الصورة الإقليمية»، سُلِّط الضوء فيها على سبل مجابهة الفكر الإرهابي المتطرف في المنطقة. وناقشت الجلسة التي أدارها نديم قطيش، صحافي ومقدّم برنامج «DNA»، بشكل مفصل النزاع اليمني كمثال للوضع الإقليمي الحالي، مشيرين إلى أن التركيز بشكل كبير على تنظيم داعش الإرهابي جعل كثيرًا من الناس ينسى مخاطر تنظيم القاعدة الذي يستغل الوضع الحالي في اليمن لإعادة التموضع، وبناء قدراته في المناطق غير الخاضعة للسيطرة الحكومية على امتداد المنطقة، مؤكدين أن اليمن تمثل بيئة خصبة تمكن تنظيم القاعدة من تعزيز قدراته. وفي ظل الهزائم العسكرية التي مُنيَ بها، تحول تنظيم القاعدة حاليًا إلى تبني تكتيك جديد يتمثل في حل المشكلات الشعبية وتقديم يد العون للمجتمع، كغطاء لأنشطته الإرهابية. في حين قالت الدكتورة إليزابيث كيندال، كبيرة الباحثين في جامعة أوكسفورد: إن المشكلة الرئيسة فيما يخص تنظيم القاعدة في اليمن «تتمثل في تقبل الناس لهم وعدم مواجهتهم؛ إذ تظهر أبحاثي أن أكثر من ٥٦٪ من التغريدات التي جرى تحليلها في اليمن كانت حول عمل تنظيم القاعدة في مشروعات تنمية مجتمعية وإحداث تغيير إيجابي في اليمن».

وأوضحت الجلسة أن هذا التكتيك يحظى بدعم مجتمعي ليس فقط في اليمن، بل في العديد من المناطق غير الخاضعة لسيطرة الحكومة في بعض الدول، وأنه من دون وجود حكومات ملتزمة وقوية ومشاركة الهيئات غير الحكومية في تعزيز قدرات المجتمع، فسيجد الإرهابيون دومًا موطئ قدم في منطقتي الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. إلى جانب الدكتورة إليزابيث كيندال، شارك في هذه الجلسة الدكتور لورينزو فيدينو، مدير برنامج دراسات التطرّف في مركز الأمن الإلكتروني والقومي في جامعة جورج واشنطن الأميركية، والدكتور جاك كارفيلّي، كبير المستشارين لمؤسسة الشراكة العالميّة للموارد، والمدير السابق لسياسات عدم انتشار الأسلحة النووية (روسيا والشرق الأوسط) في فريق مجلس الأمن القومي الأميركي في البيت الأبيض تحت إدارة الرئيس كلينتون، والدكتور يحيى أبو مقايد، الممثل الخاص لمركز محمد بن نايف للمناصحة والرعاية. وفي الكلمة الختامية للمنتدى قال الدكتور رضوان السيد أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية: إن التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب بقيادة السعودية، يعد أهم ما أُنجِز على صعيد محاربة الإرهاب في السنوات الأخيرة، وبخاصة في إطار عدم قدرة أي دولة على مواجهة الإرهاب بمفردها عسكريًا أو أمنيًا أو مخابراتيًا، ومن ثم يكون هذا التحالف ضروريًا جدًا، بل إنه ضرورة وجود، متوقعًا أن يكون للتحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب «نتائج إيجابية ملموسة على المديين المتوسط والبعيد، في المجالات الفكرية والاجتماعية والإعلامية وتجفيف منابع تمويل الإرهاب والعسكرية».

تجدر الإشارة إلى أن «التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب» الذي رعى المنتدى، كان أعلن عن تشكيله في (١٥ ديسمبر ٢٠١٥م) من الأمير محمد بن سلمان، ولي ولي العهد النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع السعودي، هو أول تحالف دولي يقوده العالم الإسلامي، ويضم تحت لوائه ٤١ دولة، ويهدف إلى تنسيق الجهود السياسية والفكرية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية في الدول الإسلامية وتوحيدها؛ لمحاربة جميع أشكال الإرهاب والتطرف، والتكامل مع جهود دولية أخرى في مجال حفظ الأمن والسلم الدوليين. ويعمل التحالف على بناء قاعدة معلومات حول برامج محاربة الإرهاب وأفضل الممارسات التي تتبناها الدول الأعضاء والمنظمات الدولية.

«الفيصل.. شاهد وشهيد» يدشن أولى محطاته الخارجية في أستانة



شهد معرض «الفيصل.. شاهد وشهيد» الذي أقيم في المتحف الوطني بمدينة أستانة عاصمة جمهورية كازاخستان، إقبالًا كبيرًا من الشعب الكازاخي والجاليات العربية والإسلامية والغربية الموجودة في كازاخستان؛ إذ يتيح المعرض العودة إلى تاريخ المملكة في حقبة حكم الملك فيصل (١٩٦٤-١٩٧٥م)، التي كانت بداية تنفيذ الإصلاحات في جميع المجالات في حياة المجتمع السعودي، وهو ما دفع المسؤولين في كازاخستان إلى المطالبة بتمديد مدة إقامة المعرض الذي افتتح في ١٨ مايو.

وكانت سكرتيرة دولة كازاخستان السيدة غولشارا أبديكاليكوفا افتتحت معرض «الفيصل.. شاهد وشهيد»، في حضور الأمير تركي الفيصل، برعاية وحضور وزير الثقافة والرياضة في كازاخستان أريستانبيك محمدي أولي. وقُدِّم خلال مراسم الافتتاح كتاب «الفيصل.. شاهد وشهيد» الذي تُرجم إلى اللغة الكازاخية والروسية. وحضر الافتتاح القائم بأعمال سفارة خادم الحرمين الشريفين في أستانة عبدالرحمن النجار، والأمير عمرو بن محمد الفيصل، والأمير فيصل بن سعود بن عبدالمحسن الأمين المساعد بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والأمير سعود بن تركي الفيصل مستشار رئيس مجلس إدارة المركز، وعدد من المسؤولين والأكاديميين والمثقفين. وقدم الأمير تركي الفيصل، الشكر لدولة كازاخستان وحكومتها على استضافة المعرض، مثمِّنًا العلاقة الأخوية التي تجمع فخامة الرئيس الكازاخي نور سلطان نزارباييف وملوك المملكة العربية السعودية ورؤيتهم المشتركة نحو تطلعهم للمستقبل وللتطور، وأكد أن دولة كازاخستان وشعبها بإذن الله سيكون لهم مستقبل باهر.

وقال الفيصل: «إن بداية انطلاق معرض «الفيصل.. شاهد وشهيد» خارج المملكة من أستانة هذه المدينة الجميلة، بمنزلة تقدير لما يجمع بين الشعب الكازاخي والشعب السعودي ليس فقط على المستوى الدبلوماسي أو التجاري إنما للروابط التاريخية والثقافية التي تجمع الشعبين، فمنذ أن انبثق نور الإسلام اجتمع الدم العربي بالدم الكازاخي في وحدة ليست فقط دينية إنما وحدة إنسانية، ولدينا الكثير بين البلدين من أواصر الصداقة والمحبة تفوق الأزمان. كما أننا لا ننسى أن فخامة الرئيس نور سلطان نزاربايف زار المملكة ثلاث مرات في مدة وجيزة لتوطيد العلاقات بين البلدين، وهذه علاقة صداقة ومحبة لن ننساها لفخامته». فيما أعربت سكرتيرة الدولة في جمهورية كازاخستان غولشارا

أبديكاليكوفا في كلمتها أثناء افتتاح المعرض، عن ترحيبها بالمعرض الذي يعد أول معرض عربي يقام في دولة كازاخستان والشعب السعودي في عاصمة بلادها (أستانة)، متمنية أن تزيد الزيارات والعلاقات المتعددة الأطراف بين شعبي البلدين بفضل العلاقات الودية والطيبة بين فخامة رئيس جمهورية كازاخستان نورسلطان نزارباييف وخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، وأكدت أن هذه المناسبات تسهم في تعزيز العلاقات الودية بين شعب جمهورية كازاخستان وشعب المملكة اللذين يربطهما الدين والتاريخ المشترك والكلمات المشتركة في اللغة.

وقالت سكرتيرة دولة كازاخستان: «كل دولة لها شخصيات عظيمة تركت آثارًا سياسية واقتصادية وروحية مميزة في تاريخ بلادها، وجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود (رحمه الله) قائد بارز للمملكة العربية السعودية الصديقة، تميزت حقبة حكمه بحكمة بالغة، ونعلم أن جلالته ترك أثرًا كبيرًا في إنجاز الإصلاحات السياسية والاقتصادية، ورفع مستوى المعيشة في بلده، وتطوير المجتمع السعودي في المجالات المختلفة، ونقدر انضمام المملكة إلى صفوف الدول العظمى في العالم بفضل جهود الملك فيصل.

وعبر وزير الثقافة والرياضة في جمهورية كازاخستان السيد أريستانبيك محمدي أولي، عن تقديره لاحتضان المتحف الوطني لجمهورية كازاخستان هذا المعرض عن حياة الملك فيصل وخدماته وأعماله الصالحة من أجل تطوير بلاده.

أما عبدالرحمن حسين النجار الوزير المفوض والقائم بالأعمال بالإنابة في سفارة المملكة لدى جمهورية كازاخستان، فأكد أن معرض «الفيصل.. شاهد وشهيد» حقق أصداء واسعة في كازاخستان، عادًّا إياه وغيره من المعارض تجسيدًا لرؤية المملكة ٢٠٣٠ في الأنشطة والفعاليات كافة، وأوضح أن المعرض يوفر الفرصة للشعب الكازاخي في الاطلاع والتعرف إلى جميع جوانب سيرة الفيصل رحمه الله.

تعاون أكاديمي سعودي كازاخي

وقَّع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، مذكرة تفاهم مع جامعة «ل. ن. غوميليوف الأوراسيوية الوطنية» بكازاخستان، لتعزيز التعاون الأكاديمي والبحثي في مجال الثقافة والتراث وزيادة فاعلية التبادل العلمي. وأبرم الاتفاقية الأمير تركي الفيصل ويرلان صيديكوف رئيس جامعة ل. ن. غوميليوف الأوراسيوية الوطنية، في مقر الجامعة بالعاصمة أستانة، ضمن زيارة وفد من المركز لكازاخستان على هامش افتتاح معرض «الفيصل.. شاهد وشهيد».

كما وقع المركز أيضًا اتفاقية تعاون ثقافي وعلمي مع مكتبة الرئيس الأول لجمهورية كازاخستان، وقّع عليها الأمير تركي الفيصل رئيس مجلس إدارة المركز، والسيد محمود قاسم بيكوف مدير مكتب رئيس جمهورية كازاخستان ورئيس المكتبة. وتغطّي الاتفاقية مجال البحث العلمي، وتبادل الرأي، وتقديم التحليلات اللازمة لمشروعات النشر لدى الطرفين إذا تطلَّب الأمر ذلك، وإمكانية تنفيذ مشروعات بحثية مشتركة تُعنى بجوانب ثقافية أو اجتماعية أو سياسية. وعلى هامش التوقيع، أهدى المركز مكتبة الرئيس الأول لجمهورية كازاخستان جهاز الفيصل للتعقيم والحفاظ على التراث المخطوط، وهو جهاز آمن يقوم بتعقيم المخطوطات والوثائق والكتب المطبوعة النادرة، عن طريق التبريد الجاف للقضاء على جميع الحشرات والفطريات الموجودة في الوثائق والمخطوطات والكتب من دون الحاجة إلى استخدام أيّ مواد كيمياوية أو غازات سامة.

إشادات أكاديمية كازاخية بالمعرض

ثمن إيرلان سيديكوف رئيس جامعة أوراسيا الوطنية في كازاخستان، ما يحتويه المعرض من تراث ومواد شخصية ومقتنيات خاصة ذات قيمة كبيرة للملك فيصل، مؤكدًا أن الفيصل لعب دورًا مهمًّا في تطوير المملكة، ونفذ عددًا من الإصلاحات السياسية والاقتصادية الناجحة التي أثرت في جميع المجالات في المجتمع، كما لعب دورًا بارزًا في حلّ قضايا الدول العربية، ولفت إلى أنه يثق في أن المعرض سيعزز العلاقات الودية بين البلدين في المجالات السياسية والاقتصادية والروحية.

ورأت الدكتورة سمال توليوبايفا الأستاذة بقسم الدراسات الشرقية في جامعة أوراسيا الوطنية، أن المعرض حدث مميز في تاريخ العلاقات الكازاخية السعودية في مجال الثقافة والعلم والتعليم، مبينة أنه أعطى الجمهور الكازاخي فرصة فريدة من نوعها للاطلاع على حياة الملك فيصل وإنجازاته الذي بذل أقصى جهوده للذود عن حياض دينه وأمته، ولفتت إلى أن ما يربط الشعبين والبلدين تاريخ ودين مشترك وعادات وتقاليد متشابهة.



ماجد الحجيلان
رئيس التحرير

عن «التاريخ الفكري لليبرالية»

قبل سنوات وفي أقصى جنوب البرتغال قابلت زوجين من السويد يقضيان إجازتهما بعيدًا عن صقيع الشمال الأوربي، تحدثنا طويلًا، ولمست منهما تعاطفًا هائلًا مع القضية الفلسطينية، وما لفتني أكثر هو تأكيدهما غير مرة أنهما أميَل إلى اليسار وليسا ليبراليين، وهكذا في كل موقف يعلنانه من أي أمر تأكيد على أنهما ضد الليبرالية.. رغم أن الحديث عن الليبرالية لم يكن موضوعنا من قريب أو بعيد، وقبل أيام دفع المرشح الجمهوري عن ولاية مونتانا الأميركية غريغ جيانفورتي صحافيًّا من الغارديان، وأسقطه أرضًا، وزجره واصفًا إياه «بممثل الإعلام الليبرالي»..

هذان مشهدان عفويان أُورِدهما لتناول الصورة الذهنية لليبرالية في الغرب، وكيف أن كل تيار يميني أو يساري يراها بطريقته الخاصة، وهكذا كل فلسفة سياسية تخضع لتأويلات من خارجها ومن داخلها قد لا تتطابق بالضرورة مع نظريتها الأولى، فحرص السويديئِن على نفي الليبرالية عن مبادئهما المتعاطفة مع حق الشعب الفلسطيني لا يدعمه واقع أن البرلمانات الأوربية التي اعترفت بدولة فلسطين والحركات الجامعية والأكاديمية التي تُقاطِع إسرائيل هي في معظمها محاضن ليبرالية، على أن هذا لا ينفي دور اليسار الأوربي المتحمس لحقوق الشعوب والمهاجرين لكن هذا موضوع آخر. أما وصف المرشح اليميني للصحافي بالليبرالي فلعله محقّ؛ فالإعلام الليبرالي في الولايات المتحدة الأميركية يشكل اليوم جبهة ضد ترمب وضد اليمين خلفه.

ويدور عربيًّا جدال واسع النطاق بين أنصار الليبرالية وخصومهم من التيارات الأخرى -الإسلامية منها بوجه خاص- تستعمل فيه كل الأسلحة البلاغية الممكنة، وما يعنيني هنا منها هو سلاح المفاهيم وانصراف بعض أطراف المعارك من التيارات كلها للتصدي لتاريخ الليبرالية ومفهومها وتعريفها، ويتحول كثير من هذا الخلاف الفكري، وفي الساحة السعودية منه أعاجيب كثيرة؛ إلى مبارزة تجد فيها سلاح الطرفين مثلومًا، مؤيدًا ومعارضًا، فيما تؤكد تجارب الدول أن تمثُّل المذاهب السياسية على الأرض أهم كثيرًا من فلسفة النظرية وتاريخها، فلا يذهب الظن أن ميركل وماكرون وماي في اجتماعات الاتحاد الأوربي ينشغلون بتعريف الليبرالية وفروقاته بين جون لوك وجان جاك روسو، غير أنهم جميعًا منهمكون بالتزام نتائج هذه الفلسفة وتطبيقها تأكيدًا لحق الفرد في الملكية والحرية.

المذاهب الكبرى كالليبرالية تكوّنت على مدى قرون من الزمن، كلٌّ يضع فيها من روحه شيئًا، فلا يضر إن اختلفت تعريفاتها طالما كان الهدف الأسمى منها وهو تحرير الفرد متحققًا، فإن قلت: هي فلسفة الحرية، أو هي حق الفرد في الملكية، أو هي الفصل بين السلطات، أو هي المساواة؛ فأنت في الاتجاه الصحيح. وهكذا الفلسفات الكبرى لكل مفكر في العصور الأوربية فيها ضربة إزميل وزاوية نظر. وأن يحتدم السجال حول مفهوم الليبرالية في مجتمعات لم تخلقها ولم تستنبتها ولا تتوافر فيها مقوماتها؛ هو أمر مخالف للطبيعة وللعقل، إن معارك الليبراليين في المجتمعات الغربية اليوم تجاوزت الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية وحقوق الأقليات ومشاركة المرأة في المواقع السياسية والعسكرية؛ إلى قلب مؤسسة الزواج رأسًا على عقب، وحق الإجهاض، وفتح الباب أمام المهاجرين وحقوقهم، وبمقارنتها مع مادة الجدل الليبرالي في عالمنا تتضح المفارقة.

والحال أن معظم المذاهب الفكرية والفلسفات

السياسية التي نشأت في أوربا وتطورت خلال قرون، وألّف فيها مفكرون وفلاسفة من القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن العشرين؛ هي أفكار انبعثت وتكوّنت لخدمة مجتمعات محلية، فمشكلاتها كانت أوربية وعلاجها كان أوربيًّا. كارل ماركس كان يسعى للانتصار لطبقة العمال، وتوماس هوبز كان يحارب سيطرة الكنيسة واللاهوت. وهي قضايا لم تكن من أولويات الشعوب غير الأوربية، وكان أن انتصر بعض هذه النظريات وصار عالميًّا، ومنها الليبرالية، وصارت تطبيقاتها صالحة للاستيراد إذا ما جرى توطينها، فمثلًا شيوعية الصين غيرها في كوريا الشمالية غيرها في كوبا، حتى الليبرالية الغربية وطّنت النظرية بما يناسبها وطعّمتها بما سمّته اشتراكية ديمقراطية، فأنظمة الحكومات الأوربية في المجال الصحي والتعليمي اشتراكية لا علاقة لها بالليبرالية والسوق الحرة، على أنها تتيح انسجامًا مع ليبراليتها حرية الأفراد في الاستثمار في هذين القطاعين، وتبقى الولايات المتحدة وحدها ليبرالية جدًّا أو نيو ليبرالية في هذين القطاعين؛ بسبب حساسية مؤسساتها التشريعية من أي ملمح شيوعي مرعب.

ويعد كتاب أستاذ الفلسفة السياسية الفرنسي بيير مانيه (التاريخ الفكري لليبرالية) من الكتب التأسيسية في تاريخ هذه النظرية، وقد نقله إلى العربية الدكتور هاشم صالح، ويصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والكتاب يمثل إطلالة موجزة على التاريخ الأوربي عبر سياحة فكرية في عقول ثمانية فلاسفة أوربيين ينسب إليهم مانيه تأسيس الفكرة الليبرالية، وهو يرى أن مبعثها الأول كان في أطروحات مكيافيلي في كتابه (الأمير) في القرن السادس عشر، ويختتمها بعالِم الاجتماع الفرنسي توكفيل المتوفى في منتصف القرن التاسع عشر، أي أنها دورة فكرية استغرقت ثلاثة قرون، وإن كان يعود بالقارئ أيضًا إلى أرسطو والمدينة الرومانية القديمة. لقد كان هاجس مانيه العودة إلى أيام سيطرة الكنيسة المطلقة وصولًا إلى نشوء الحركة المضادة لتدخل الكنيسة الأخروية في شؤون الدنيا وانبعاث أول المبادئ العلمانية.

ومما يميز المؤلِّف فضلًا عن عباراته الموجزة وأفكاره المكثفة وميله إلى التكرار لشرح القضايا المعقدة؛ أنه يأخذ موقفًا حياديًّا ونقديًّا في أحيان كثيرة، فتوصيفه للمجتمع الذي تحكمه الليبرالية شديد الدقة، هو يرى علاقة الأفراد داخل المجتمع الليبرالي أشبه ما تكون بالكونفدرالية، وذلك عكس ما تشاهده في مجتمع له رأي واحد شديد التجانس في الأنظمة الشمولية، سواء

> **المذاهب** الكبرى كالليبرالية تكوّنت على مدى قرون من الزمن، كلٌّ يضع فيها من روحه شيئًا، فلا يضر إن اختلفت تعريفاتها طالما كان الهدف الأسمى منها وهو تحرير الفرد متحققًا، فإن قلت: هي فلسفة الحرية، أو هي حق الفرد في الملكية، أو هي الفصل بين السلطات، أو هي المساواة؛ فأنت في الاتجاه الصحيح

كان ذلك طوعًا أم كرهًا.

ويلحظ مانيه الأصول الإنجيلية في قيم الحرية والمساواة داخل الليبرالية رغم حربها الأولى على المسيحية، جازمًا بأن الليبرالية لن تصبح ماضيًا؛ لأنها قابلة للتعديل والتجديد، ولأنها تحمل بذور نقدها ونقضها في داخلها، فكل ما تجزم به الليبرالية قابل للشك؛ لأن النظرية الأولى هي آراء بشرية خاصة، والأساس فيها عدم يقينية الآراء، وهو ما يجعلها مستعدة دائمًا لنقض نفسها إذا دعت الحاجة.

لافت كيف أن الليبرالية وهي أساس الحضارة الغربية المحسودة اليوم من قوانين ومساواة وحريات وفصل بين السلطات؛ إنما هي صناعة نقادها وخصومها قبل بُناتها وفلاسفتها. وعلى حد توصيف مانيه نفسه فإن جان جاك روسو هو أحد خصوم الليبرالية وأكبر فلاسفتها في آنٍ واحد، وهو ما يجعلها تبدو اليوم خيارًا مفضَّلًا لإدارة الدول، فالنظام العالمي المعاصر ينبني على هذه السلطات الثلاث التي اخترعتها الليبرالية ونظّمت العلاقة بينها، ثم وضعت حكم القانون ونظام الانتخابات ليحرك الدولة بدينامية مستمرة.

واللافت أكثر أن الدول التي كانت تعادي المعسكر الليبرالي الغربي طبّقت هذه المبادئ صوريًّا وأفرغتها من مضمونها: سلطات ثلاث لا قيمة حقيقية لها، وانتخابات معروفة النتائج لا تسهم إلا في ترسيخ الواقع، وقانون يبقى في مكانه الملائم من المكتبة.

هذا ما قدمته الليبرالية للعالم بوصفها خلاصة ما توصلت له الحضارة الغربية اليوم، وعلى بقية المجتمعات أن تقدم حلولها، وأن تنتج ما يليق بها من أنظمة. وهناك في منطقتنا أفكار يمكن البناء عليها، وتأمل عواقبها: ولاية الفقيه، البعث وحدة حرية اشتراكية، وطبعًا كل ما ورد في النظرية العالمية الثالثة والكتاب الأخضر.

الصحافة الورقية في زمن متغير

موت غير معلن

تنشغل أروقة الصحافة منذ سنوات بنقاشات معلنة وأخرى خفية، يدور معظمها حول مستقبل المؤسسات الصحافية كبيرها وصغيرها، ومع انبلاج فجر الهواتف الذكية والإعلام الاجتماعي ووقوع أولى الضحايا الصحافية بدأت القصص في المكاتب المغلقة تتحول إلى مقالات وتقارير، ثم صارت نداءات واستغاثات، أعقبها إغلاق مؤسسات صحافية أبوابها، ثم توقف مطابع صحافية عريقة عن الهدير، حيث لم تعد رائحة الحبر تُشَمّ، ولا أحد ينتظر مانشيت صفحةٍ أولى، أو يفكر بعمود في الأخيرة. هكذا فجأة انتهت الحوارات الخجولة حول المستقبل المهني وتحولت التنبؤات الشعرية في الغد المجهول ومغامرات الصحافيين في الميادين؛ إلى حقيقة مُرة...

الصحيفة لم يعد لديها معلن ولا قراء.. والمموّل والداعم رحل إلى وسائل أخرى، وقرار الاستغناء عن الصحافي والصحيفة لم تستغرق كتابته سوى ثوانٍ عبر هاتف محمول.



هذه حقيقة دهمت صحفًا دولية وصحفًا عربية. ارتبكت لأول وهلة. ارتدت زيًّا ورقيًّا جديدًا. تعثّرت.صدرت إلكترونية. عادت ورقية وإلكترونية. راهنت على الموقع. ثم غابت إلى الأبد.

واليومَ للقارئ الذي كانت الصحف تخطب ودّه أن يختار أو يحتار. أن يؤكد أو ينفي، له أن يقول: إنه يحب صحيفته اليومية مع فنجان الصباح كما تعوّد، وله أن يقول: إن صحيفته أو صحفه وأخباره العاجلة في جيبه، له أن يشارك الصحافيين الأمل بعمر مديد، وله أيضًا أن يكبّر على الصحافة أربعًا.

ولك أيها القارئ أن تختار معسكرك بين الورقيين أو الإلكترونيين، أن تتفاعل بتجربة الواشنطن بوست الأميركية التي جددت نفسها، وما زالت تهدد الرؤساء منذ ووترغيت/ نيكسون حتى روسيا/ ترمب، أو تلتفت إلى صحيفة السفير اللبنانية ووداعها المرير بعد أكثر من أربعة عقود صاخبة.

أهو احتضار بطيء سرعان ما سيتكشّف عن حقيقة الموت المؤجل؟ أم هو «قصة موت معلن» كما يختار صحافي من روايات ماركيز، أم أن الصحافة تبدو آفلة لكن بانتظار تجددها وانبعاثها بشكل جديد، أم هي «عقلية الورق» التي يجب القفز فوقها إلى عصر الشاشات الصغيرة؟

هذا ما تضعه «الفيصل» بين أيدي قرائها في ملف هذا العدد، وبأقلام الصحافيين العرب أنفسهم.. ستطالع في هذا الملف آراء متنوعة، وكثيرًا ما ستجد بعضها ينقض بعضًا، هذا هو واقع الصحافة العربية اليوم، إنه مفترق طرق، بين عهد السيادة والمانشيتات والزوايا والأعمدة وتحريك الشارع، وواقع البوست المؤثر والتغريدة الصاخبة والخبر العاجل الذي لا يحتاج صياغة ولا تدقيقًا ولا حبرًا ولا مطبعة.

لتبقى المهنة..
تخلصوا من عقلية الورق!

محمد الحيزان مستشار وباحث في الإعلام والاتصال

التغيرات والتطورات التي شهدتها السنوات العشر الأخيرة في تقنيات الاتصال واستخدامات أفراد المجتمعات لها، وكذلك مؤشرات الإقبال على الصحف الورقية، إضافة إلى ردود أفعال القائمين عليها؛ تشير بما لا يدع مجالًا للشك إلى أن هناك حالة انحسار كبير في عدد قراء الصحافة الورقية لصالح البدائل الإلكترونية، والشواهد كثيرة؛ فبعض الصحف الورقية اختصر الطريق مباشرة فتوقف، وهذا استسلام يعني عدم الرغبة في الاستمرار، أو ضعف القدرة لسبب أو لآخر على المواكبة، وقد يكون التوقف نتيجة للصدمة وحجم الارتباك. ولا بد من القول بأن الانحسار طبيعي وواقعي، فوسائل الإعلام اليوم هي غير وسائله بالأمس، وأكد ذلك أن الجمهور تفاعل إيجابًا مع وسائل ذات خواص جاذبة أبرزها دخول هذا الجمهور شريكًا مع الوسائل ليس في إبداء الرأي فقط؛ بل في صناعة مواد التحرير وأشكاله، وذلك من خلال متغير «التفاعلية» التي شكلت قيمة مضافة لهذا النوع الجديد من الوسائل.



نقطة مهمة لا بد من التنبيه عليها، أن ردة فعل بعض الصحف الورقية كانت عنيفة، في حين أن بعض رواد الوسائل الجديدة كانوا إقصائيين، وهو ما أدى إلى الاعتقاد بأن هناك نوعين من الصحافة: تقليدي وإلكتروني، وهذا أمر مؤقت وكان يمكن ألّا يوجد لو كانت هناك مبادرة من الصحف الرائدة التي هي الأصل لفهم التغيرات والتعامل معها بواقعية ومهنية، فالحماس لمهنة الصحافة يجب ألّا يختزل في التعصب للشكل الذي تقدم به، فالذين أخذوا بالتصنيف تسببوا وللأسف في تساقط كثير من مقومات صناعة الصحافة، وبخاصة المقومات البشرية التي زُجّ بها في هذا التعصب فخسرت هي الأخرى فرصًا قيمة، وكان على الجميع عدم التعامل مع الصحافة بشكل حدّي يصنفها عبر منظور تقني شكلي؛ من خلال نموذجين لا يمكن أن يتداخلا: أحدهما صحافة تقليدية ورقية، والآخر صحافة جديدة رقمية، في حين أن الأمر بكل بساطة كان ينبغي أن ينظر له على أننا حيال شكل وعاء جديد يجب أن يُتعامَل معه بما يقتضيه هذا الوعاء دون تراشق غير محسوب كلَّف الصحافة الشيء الكثير، واستدعى في كثير من أقطار عالمنا العربي البدء من الصفر من خلال أفراد تنقصهم الخبرة، وبالتالي فهو فهم لم يُبْنَ على تراكمات الماضي كما هو الحال مع صحافة الدول الغربية.

صحافة الفضاء الجديد

يمكن تقسيم حالة الصحف الغربية مع الفضاء الجديد إلى قسمين: قسم يمثل الصحف التي بادرت بإيقاف النسخة الورقية، وحاول تعويض ذلك بالحضور إلكترونيًا بطريقة تشبه النسخة الورقية، وهو ما لم يحقق له الحضور بالقوة التي كان يتمتع بها على الورق، وهذا التصرف جزء من ردة الفعل التي أشرت لها آنفًا، وجراء الارتباك الذي أصابها؛ لأن الطريق لم تكن واضحة في كيفية التعامل مع هذا الفضاء الجديد، وذلك كصحيفة كريستيان ساينس مونيتور التي ظهرت على النت بشكل متواضع، واكتفت بإصدار نسخة ورقية مرة في الأسبوع، وكذلك مجلة نيوزويك، ولقناعة الصحيفة والمجلة التامة بأن تاريخهما وعراقتهما في الصحافة يوجبان عليهما أن تبقيا حاضرتين في عالَم الإعلام، رجعتا للساحة الإعلامية مرة أخرى، فقد أعلنت الصحيفة في الثامن من شهر مايو ٢٠١٧م عودتها بشكل مهنيّ إلكترونيّ، أي بعد تسع سنوات من توقفها، كما أن النيوزويك قررت العودة ورقيًا وإلكترونيًا بعد أشهر من توقفها مع تغييرات في أسلوب التحرير وسياسة التسويق، وهذا مؤشر على أن الوسائل الجديدة لا يمكن أن تكون بديلة عن الوسائل العريقة، أو على الأقل لا يمكن أن تبدأ من الصفر، وأن المسألة ليست قضية شكل، إنما محتوى.

القسم الثاني من الصحف هو الذي دخل عالم الفضاء الجديد مع الحفاظ على نسخته الورقية كنيويورك تايمز، وواشنطن بوست ويو إس إي توداي وغيرها، لكن بعقلية مدرِكة تمامًا لخصائص الفضاء الإلكتروني، ووفّرت لذلك السبل كافة التي تؤكد هذا،



يجب أن ننظر إلى نجاحات الماضي في عالم الصحافة الورقية على أنها جزء من تراث جميل، وعلى الصحافة العربية أن تدخل بقوة في مرحلة صناعة الشكل الجديد للإعلام

ويحسب لها أنها جادة في صناعة الشكل الجديد للصحافة؛ إذ يلحظ في خطواتها أنها في نسختها الإلكترونية لم تكن مماثلة للورقية (كما هي عليه حال معظم الصحف العربية)، إنما أصبحت جزءًا مهمًّا من التطوير الذي لا يزال يعمل على الوصول إلى الشكل النهائي للصحافة الإلكترونية الحقة، وهو في رأيي لم يتبلور بعد، والمتابع للصحافة الإلكترونية الغربية يلحظ التغييرات المتلاحقة التي تهدف إلى شكل جديد لم يصل بعد.

المواطن الصحفي

أما عن مهنة المراسل الصحفي وسؤال «الفيصل» عن مستقبلها في ظل ما يطرح عن صحافة المواطن وصحافة الهاتف الذكي؛ فهو جزء من التغيير الذي يمليه الشكل الجديد للصحافة، وينبغي لنا ألّا ننظر إليه على أنه إلغاء لمهنة المراسل الصحافي، لكنه تطوير له يلبّي قيمة تنافسية في الصحافة يدركها المهنيون والمتخصصون وهي السبق الصحفي، وهي على الرغم من أهميتها، فإنها محفوفة بالمخاطر إذا لم يشرف على التعامل معها أصحاب الصنعة، إذ قد تكون لها آثار عكسية في حال فقدان المصداقية، ومع التقدير لما يمكن أن يقوم به ما يعرف بـ«المواطن الصحفي» الذي يستعان به أحيانًا في تغطية حدث ما، فإنه ليس صحافيًّا مهنيًّا مدركًا تمامًا لمهنة الصحافة، إنما هو



حالة مؤقتة صادف وجودها في مكان الحدث، واستعين به وفق شروط مهنية محددة. ونحن لا نقلل من أهميته مطلقًا فهو شاهد مهمّ على الحدث بأسلوب أكثر شمولية، لكن لا يمكن أن يُعوَّل على الشخص نفسه الذي وثّق الحدث دائمًا في أحداث أخرى.

بإمكانك الحصول على اشتراك في صحيفة وول ستريت جورنال مدة ثلاثة أشهر مقابل دولار واحد فقط. قد يبدو هذا المبلغ زهيدًا جدًا، لكنه ربما يحقق دخلًا كبيرًا؛ لسبب بسيط هو أن العالم أجمع أصبح متاحًا لها

عقلية الورق

إن الصحافة العربية، بما في ذلك صحافتنا المحلية، بقيت -ولا تزال في كثير من الحالات- تحتفظ بأخبار اليوم في جعبتها لتنشر في الغد؛ لأنها لا تريد أن تحرق مادة ترى أنها سلعة قيمة للمعلن الذي بدأ يتضاءل في صحف الورق، فالجمهور -في اعتقاد التقليديين- لن يُقبِل على الصحيفة في حال عدم وجود مادة متكاملة وثَريَّة حافزة إلى اقتنائها، وهذه المادة المقصودة قد تنطبق على صحافة الرأي والمواد الثقافية، لكن الأمر ليس كذلك مع المادة الخبرية التي لم تعد تلك السلعة القيمة التي تستحق الحفظ للنشر في الغد كما تعتقد بعض الصحف لكونها سريعة الذبول؛ لذا أصبح لا بد من نشرها بشكل فوريّ.

هذا الأسلوب لا يوجد في الصحف العريقة عالميًّا، ولا حتى في المجلات الشهيرة؛ التي واكبت العصر، وتحولت إلى أشبه ما يكون بوكالات أنباء، والمتابع لحساباتها على تويتر يدرك ذلك جيدًا؛ إذ إنها تنشر موادَّ متلاحقة على مدار الساعة، وبمعدل دقائق محدودة لكل مادة. وهو ما قادها إلى العمل على محاولات مبتكرة لا تزال قائمة، حقق بعضها نجاحًا يمكن الاستفادة منه في حال وجد المنتج الصحفي القيم، وشبه الحصري.

لا بد أن تتخلى الصحافة الورقية والقائمون عليها عن التفكير فيما يمكن أن نطلق عليه «عقلية الورق»، حتى تبقى كمهنة وليس كشكل، وعليها أن تفكر بـ«عقلية إلكترونية»، وبكل وضوح يمكن القول بأن عليك إذا أردت أن تتعرف على أيّ سبب لتراجعٍ في صحيفة ما أن تُفتِّش عن «عقلية الورق»، ويجب أن ننظر إلى نجاحات الماضي في عالم الصحافة الورقية على أنها جزء من تراث جميل، وعلى الصحافة العربية أن تدخل بقوة في مرحلة صناعة الشكل الجديد للإعلام، لا أن تنتظر من يبتكر لها أسلوبًا تسير عليه، حتى إن وجدت بعض الأساليب الناجحة، فإن نجاحها مع الصحف العربية ليس بالضرورة مضمونًا كما هو الحال مع مبتكريها؛ ذلك أن ثقافة الجمهور وإمكانات الصحف تختلف من ثقافة لأخرى، هناك نجاحات كبيرة لبعض الصحف العالمية العريقة في الإعلام الجديد، لكن لن تستطيع الصحف العربية مجاراتها لأن ثمن النجاح مكلِّف ويتطلب تنازلات مالية (ومعنوية أحيانًا تتعلق بالمواقع الإدارية). وللأسف العربية والمحلية لا تحبذ هذا الأمر أو لا تستطيع. فعندما أحسّت بعض الصحف التقليدية بالخطر الذي يهدّدها، قامت وبشكل معلن باستجداء تدخل الجهات المعنية والمؤسسات وطلب العون. هذا لا يحدث في الغرب لسبب بسيط يكمن في أنها تعتمد على ذاتها، والأهم من ذلك لتناقض هذا الأسلوب مع مبادئ أساسية في عالم الصحف، أبرزها مبدأ تجنب تعارض المصالح.

أخيرًا لا بد من القول بأن الهاجس الذي ينبغي أن تشترك فيه الجهات المعنية بصناعة الإعلام في ظل التغيرات المربكة؛ هو الإبقاء على مهنة الصحافة التي قد تذوب في عالم الحيرة والتشتت.

الدخل والعامل الاقتصادي

لا أحد ينكر أن الاقتصاد هو عصب النجاح، لكن أكرر في هذه المرحلة أن على الصحف ألّا تفكر بـ«عقلية الورق»، والمأزق الحقيقي يكمن في صعوبة التخلي عن ثقافة الأمس، الصحف المحلية على سبيل المثال اعتادت على أن تبيع الصفحة الإعلانية بمعدل يراوح بين ٦٠-٧٠ ألف ريال، وشكلت الإعلانات في وقت ما المصدر الرئيس لها، والإعلان الرقمي مع الإعلام الجديد في الصحف المحلية يصعب أن يصل إلى ذلك السعر، خصوصًا في ظل وجود قنوات إعلانية منافسة. التفكير المنطقي بما عليه بيئة الإعلام الجديد يتطلب الشجاعة في اتخاذ القرار والقبول بالقليل في سبيل الحصول على الكثير. وهو ما أقدمت عليه الصحف العالمية العريقة، فعلى سبيل المثال بإمكانك الحصول على اشتراك في صحيفة وول ستريت جورنال مدة ثلاثة أشهر مقابل دولار واحد فقط. قد يبدو هذا المبلغ زهيدًا جدًا بقيمة الاشتراكات الورقية في السابق، لكنه ربما يحقق دخلًا كبيرًا؛ لسبب بسيط هو أن العالم أجمع أصبح متاحًا لها، وأصبح بإمكانها مضاعفة المشتركين على نحو يحقق أرباحًا مضاعفة.


جيف بيزوس

نعم هناك تجارب دولية يشار لها بالبنان عملت ولا تزال على تطوير حضورها الرقمي، لعل من أبرزها صحيفتي نيويورك تايمز التي استطاعت أن تحقق من اشتراكات القُراء دخلًا كبيرًا عوَّضها عن خسائر الدخل الإعلاني الذي كانت تحققه أيام طفرة النشر الورقي، ومثل ذلك مجلة التايم الأمريكية التي وصل عدد مشتركيها ٢٢ مليون مشترك، ومن التجارب الفريدة كذلك صحيفة واشنطن بوست التي اشتراها مالك ومؤسس موقع أمازون السيد جيف بيزوس بصفته الشخصية. وعلى الرغم من أن بعضًا ظن أنه غامر بشراء صفقة خاسرة، فإن الخطوات التطويرية والتغييرات التي وعد بها في الصحيفة وفقًا لطبيعة التقلبات المرتبطة بالشبكة العنكبوتية، بدأت تؤتي ثمارها، وربما لم يكن ليتحقق لها ذلك لو لم يكن هو المشتري؛ إذ إنه ذو خلفية عميقة عن طبيعة عصر الفضاء الجديد، وبدأ يتعامل مع الصحيفة من منطلق الحاجة -كما قال هو- إلى الابتكار والاختبار للتحقق من تأقلم الصحيفة في ثوبها الجديد مع سلوكيات جمهور النت، مع تأكيده صراحة على احتفاظ البوست بقيمها التي أكد على أنها لن تتغير، وهو الجانب الذي أكد أنه لا ينوي التدخل في العمل اليومي للصحيفة التي تدار بفريق إداري ممتاز يعرف جيدًا قطاع الإعلام واستمر في عمله. وكانت المفاجأة أن تُحقق الصحيفة بعد أكثر من عامين نجاحًا لم يكن متوقعًا، وجمعت بين النمو والربح؛ لسبب بسيط هو أنها زاوجت بين أسلوب أمازون التجاري والبوست الإعلامي، وترتب على ذلك تطوير اقتضته طبيعة عصر الإنترنت، أبرزها التعريف بخدمة ما يسمى بـ«موبايل فيديو» التي يقدم عبرها الخبر في ١٥ ثانية، و«رابد رسبونس» أو الاستجابة السريعة التي تتضمن تحقيقًا معمقًا خلال يوم وليس خلال أشهر أو أسابيع كما كان معمولًا به سابقًا، وكذلك خدمة «خبر عاجل».



قسيمة اشتراكات إلكترونية لصحيفة النهار اللبنانية

أما على المستوى العربي، فللأسف لا توجد -حسب معرفتي- تجارب قوية يعتدّ بها، وإن كان أبرزها إقدام صحيفة النهار اللبنانية مؤخرًا على تشفير نسختها الورقية وإتاحتها فقط للمشتركين، ولا يزال الوقت مبكرًا للحكم على ما إذا كان مضمونها قادرًا على فرض نفسه كما يجب.

الصحافة الورقية صناعة انتهت

عثمان العمير ناشر صحيفة إيلاف الإلكترونية

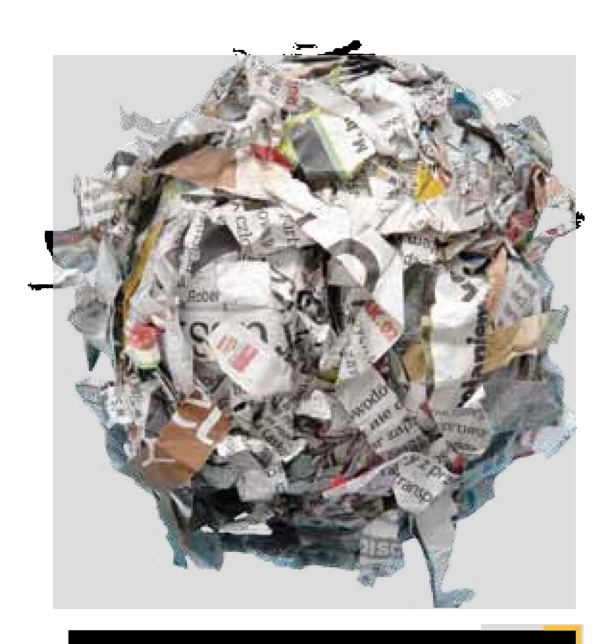
لا أعتقد أن على مسؤولي الصحافة الورقية فعل شيء، الأمر لم يعد بأيديهم حتى يفعلوا. هذه صناعة انتهت مثلما تنتهي كل الصناعات التي عشناها منذ اختراع المطبعة حتى الآن. القضية ليست خلافًا سياسيًّا أو فكريًّا أو عقائديًّا أو حتى تشجيعًا لفنان أو لكرة أو اصطفافًا مع قبيلة أو بلد. هذه قضية حول وسيلة كانت تستخدم بشكل كبير، ثم جاءت وسيلة أخرى لتحلّ محلّها. ما على القائمين على هذه الصحافة سوى الاتجاه إلى المستقبل.



أتذكر أنني كنت التقيت طبيبًا في نيويورك، قال لي حينها وهو يتحدث بفخر عن ابنه الذي يعمل صحافيًا في نيويورك تايمز: إن الإعلام الحديث هو المستقبل، أجبته على عجل: إنه إعلام الحاضر الآن، شغلنا الشاغل هو: كيف هي أحلام إعلام الغد؟ ضحك الطبيب، وقال: هات قلبك أفحصه ليقول لك كم يومًا ستعيش لترى العالم الجديد غير هذا الذي تراه. تذكرت ذلك وهو يمارس الطريقة التقليدية المملّة في قياس الضغط والسكري والقلب.

قبل مدة كتبت تغريدة نقلًا عن حكمة صينية تقول: إذا أردت أن تسأل عن المستقبل فاذهب إلى طفل في الخامسة، ووجِّه له هذا السؤال. والحق أن المستقبل لا يصنعه إلا من سيصبح جزءًا منه وإلا كيف نفسر أن كل الأعمال الخارجة عن السؤال والجواب والاستفهام وعلامات التعجب قام بها شباب غضّ زاخر بالحياة؟ وكيف يمكن أن ننوب عن أمم تتابع شبكات التواصل الاجتماعي التي سيصبح عددها عام ٢٠١٨م أكثر من مليارين ونصف المليار؟ لم تفعل الصحافة الورقية شيئًا خاطئًا لتؤول الأمور إلى ما آلت إليه، فهي فقط تعاملت مع عوائد الزمن؛ لذا فإنه من المستحيل الآن أن تعيد الكرة من جديد سوى من خلال استخدام الوسائل التكنولوجية التي أصبحت ضرورة، وأصبح القارئ المستفيد هو الذي يتحكم في القبول من عدمه. الآن لا تستطيع أن تطور صحيفة وتجعلها كما كانت قبل خمسة عشر عامًا. معظم ما نراه الآن هو أن الصحف تتجه إلى وسائل الاتصال الاجتماعي وإلى تطوير نفسها بشكل جذري، كما نرى في واشنطن بوست التي ألغت طبعتها الورقية لكنها ناجحة في استخدامها لوسائل التواصل الاجتماعي، وكذلك عدد من الصحف في العالم اتجهت إلى هذا الاتجاه. وأعتقد أنه في المستقبل سيبدأ الإعلان نفسه بالعودة إلى الصحف من خلال اهتمامها بوسائل الاتصال الاجتماعي.

أتصور أن ليس هناك اختلاف كبير بالنسبة لما يحدث في الصحافة العربية أو الخليجية والسعودية، بالطبع هناك اختلاف في موضوع الإمكانات المادية، فصحف الخليج تتمتع بإمكانات مادية، ولكنها كثيرة جدًّا أكثر من اللازم، فيجب اختصارها بشكل كبير. وعندما تذهب إلى الصحف العربية تجد الشيء نفسه، هناك صحف تصدر بلا هدف، ومن دون قارئ؛ لأنها إما مملوكة لشخص يقول: إن عنده جريدة أو مملوكة لبعض الأجهزة التي تريد أن تعبر عن نفسها، ولكنها في الوقت نفسه ليست قادرة على تقديم محتوى جيد.



> **يصدق** ما قلته عن الصحف السعودية على صحف دول الخليج، وهي أن هناك كثرة في أسماء الصحف والصحافيين، لكنها تحتاج إلى الكيفية والنوعية، لدينا أكثر من عشر صحف يومية لقراء لا يتجاوز عددهم مئتي ألف، في حين تجد أن القراء في بريطانيا بالملايين وتجد صحفهم اليومية الوطنية قليلة جدًّا

الصحف العربية متشابهة بصرف النظر عن قدراتها المادية، والتشابه موجود في رئيس تحريرها وفي مراقبها وفي السياسة التي توجهها كما تريد. ويصدق ما قلته عن الصحف السعودية على صحف دول الخليج، وهي أن هناك كثرة في أسماء الصحف والصحافيين، لكنها تحتاج إلى الكيفية والنوعية، لدينا أكثر من عشر صحف يومية لقراء لا يتجاوز عددهم مئتي ألف، في حين تجد أن القراء في بريطانيا بالملايين، وتجد صحفهم اليومية الوطنية قليلة جدًّا قياسًا بعدد الصحف الموجودة سواء في العالم العربي أو في الخليج والسعودية.

المعضلة الكبرى أن معظم الصحف الخليجية والسعودية، ومعظم المشاريع الإعلامية لا تقوم على قواعد اقتصادية، أو على استطلاع حقيقي للقراء. إنها تصدر بقرار، ولذلك فإن هذا القرار قد لا يستطيع أن يصل إلى السوق.

أزمة الصحافة الورقية في لبنان..

قصة موت لم يعلن عنه بعد



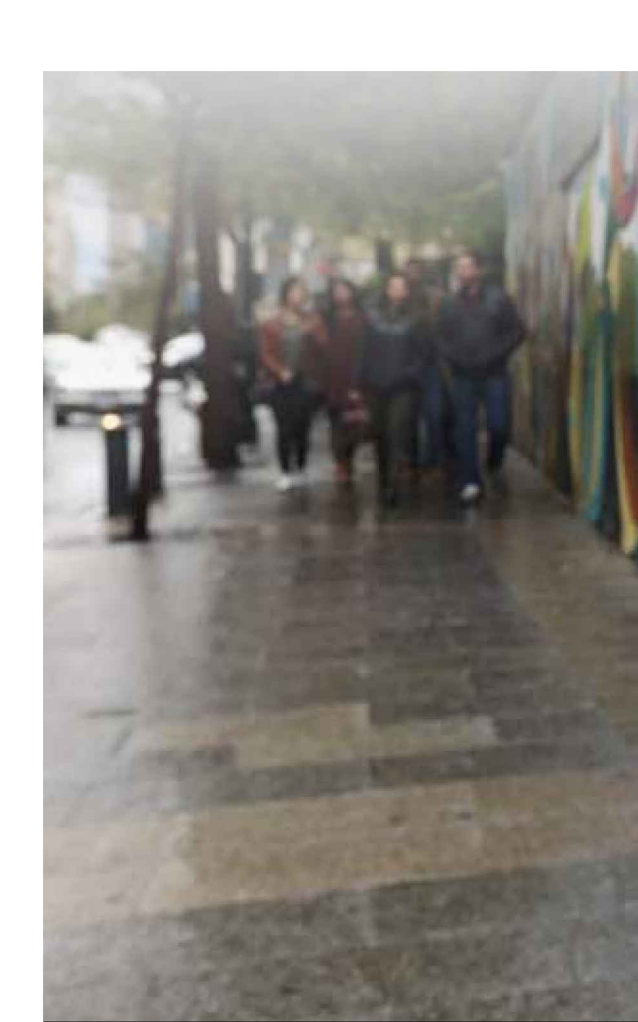
أحمد بزّون رئيس القسم الثقافي في جريدة «السفير» سابقًا

السؤال الذي لا بد من أن نستبق به الكلام عن أزمة الصحافة في لبنان هو: هل هذه الأزمة تؤدي إلى انهيار الصحافة وموتها أم انهيار الصحافة الورقية فقط، حتى لا تختلط علينا الأمور، في عصر تنهض فيه وسائط إعلام جديدة بدأت تسود على أكثر ما عداها من وسائط؟

هذا السؤال لا يتردد في لبنان وحده إنما يسود العالم كله؛ إذ بدأ التحول الانقلابي يطيح بكثير من أساليب الحياة التقليدية، وقد بات علينا أن نتعامل بحذر حيال الموقف، فلا نقف ضد تطور الحياة ونحن نتصدى لمفاعيل أزمة الصحافة التقليدية، فموت أسلوب في سبيل ولادة أسلوب جديد ليس موتًا، ففي مطلع مقدمته لكتاب صاحب جريدة النهار غسان تويني، «أسرار المهنة وأسرار أخرى»، كتب الشاعر اللبناني الراحل أنسي الحاج الذي كان وقت صدور الكتاب (عام ١٩٩٥م) رئيس تحرير الجريدة: «ما من غياب إلا لحضور آخر، والانهيار قيامة، لا موت هنا، في هذا العالم، مع أنه مرصع بالموت، لا موت ولا صمت، بل حياة تتفجر من كل شيء». هذا الكلام جاء في معرض تفاؤل أنسي الحاج بالمستقبل الصحافي، وسط كل ما كان يراه من مشكلات في الصحافة اللبنانية، وما استنتجه من الحوار الطويل الذي أجراه مع صاحب «النهار» حول أسرار المهنة؛ حتى إن تويني نفسه الذي خاض غمار الصحافة في «النهار» منذ عام ١٩٤٨م، حين رأس تحرير الجريدة بعد والده جبران تويني (أسسها عام ١٩٣٣م) كان متفائلًا بما كان يجري في العالم من تغيرات.

مظاهر الأزمة

إذا كانت «النهار» صامدة حتى الآن مع كل التراجعات التي ألمّت بها، فإن إقفال جريدة «السفير» هو الذي اختصر الأزمة في لبنان، ولم يبدأها، ومنه انطلق الكلام الواسع عن بدء سلسلة الانهيارات المتوقعة للصحافة الورقية في لبنان، فالصراخ كان يتصاعد أكثر من صحف أخرى، عندما وصل تأخر دفع مرتبات العاملين في وسائل إعلام الرئيس الحريري (تلفزيون المستقبل، وإذاعة الشرق، وجريدة المستقبل) إلى عشرين شهرًا، وفي جريدة النهار إلى خمسة عشر شهرًا، وشهدت السنوات العشر الماضية سلسلة إجراءات تسريح عدد من الموظفين من الصحف. لم تنقطع مرتبات العاملين في «السفير» وهذا أمر إيجابي، لكن التوتر كان سائدًا في الاجتماعات، والخوف من التوقف في أي شهر كان ماثلًا أمام الجميع. وكانت «السفير» و«النهار» وصحف أخرى قد جمدت الزيادات الإدارية الدورية قبل ١٥ سنة، وأوقفت الشهرين الثالث عشر والرابع عشر، واتخذت إجراءات تقشفية مختلفة، على أساس تخيير الموظفين بين هذه الإجراءات والإفلاس. إن ما حصل لـ«السفير» كان يمكن أن يحصل في صحف أخرى، لولا أن هذه الصحف اتخذت إجراءات وقائية تحميها إلى مدد لا تطول كثيرًا، وقد اعتمدت مبدأ ملاقاة الأزمة في منتصف الطريق، فاختصرت عدد العاملين، على حساب مستوى التحرير ومستوى العمل الصحافي، علمًا بأن كل هذه الإجراءات الوقائية لن تقيها من الانهيار؛ ذلك أن الانهيار بات أمرًا بديهيًّا، وسوف يدور على الجميع، ما دامت الصحف مشاريع تجارية خاصة غير حكومية، وإن كان بعضها ذا أبعاد حزبية.



ونحن نتحدث عن هذه الظروف القاسية التي تعيشها الصحافة اللبنانية نتذكر، لو رجعنا بالتاريخ إلى الوراء، أنها كانت مثلًا حسنًا للصحافة العربية، وأن بيروت كانت ذات يوم عاصمة الصحافة العربية مثلما كانت عاصمة الثقافة العربية وعاصمة الحريات، وصحيح أن الصحافة اللبنانية الحديثة التي تأسست في القرن العشرين قد استفادت كثيرًا من الصحافة المصرية قبل أن يلجمها نظام عبدالناصر، فإن الصحافة المصرية نفسها التي انطلقت مع «الأهرام» عام ١٨٧٤م كانت تأسست على يد اللبنانيين سليم تقلا وأخيه بشارة اللذين أسسا مطبعة ودار «الأهرام» في الإسكندرية قبل نقلها إلى القاهرة، لتصير أهم جريدة مصرية. ولعل عز انتشار امتيازات الصحافة اللبنانية كان بين عامين ١٩٥٠م (حيث صدر ٥٠ امتيازًا) وعام ١٩٥٥م (٤٥ امتيازًا). وإذا علمنا أن عدد امتيازات الصحف اللبنانية قد وصل إلى ١١٠ امتيازات، نفهم أن الخط البياني لانهيار الصحافة بدأ منذ زمن طويل، فكثير من الصحف التي توقفت ذات عام كانت تعاني مشكلات مشابهة للتي عانتها «السفير» وتعانيها صحف اليوم، مع اختلاف التفاصيل وطبيعة العصر، وقد وصل عدد الصحف اليومية حاليًّا إلى عُشرِ الـ١١٠، كما صرح نقيب الصحافة الجديد في لبنان عوني الكعكي.

مرت على الصحف اللبنانية مراحل ذهبية، أو مناسبات، وصل فيها إصدار جريدة «النهار» إلى ١٢٥ ألف نسخة، في حين وصل إصدار «السفير» إلى ٥٠ ألف نسخة، لتبدو الأزمة في قمتها عندما وصلت مبيعات كل من «النهار» و«السفير»، الأكثر انتشارًا في لبنان، إلى قرابة خمسة آلاف نسخة يوميًّا

أسباب الأزمة

يمكن أن نلخص أسباب أزمة الصحافة في لبنان بما يأتي:

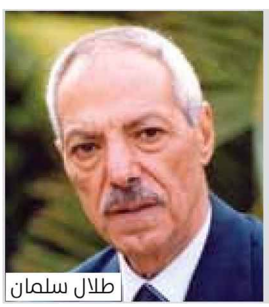
أولًا- أزمتنا جزء من الأزمة التي تصيب الصحافة الورقية في العالم، وتحوُّل عدد كبير منها إلى إلكترونية، في ظل ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة، ولنا في ذلك أمثلة كثيرة، نذكر منها «النيوزويك» الأميركية الشهيرة، و«كريستيان ساينس مونيتور»، أعرق صحيفة أميركية وقد استمرت بالصدور قرنًا كاملًا، ثم «الإندبندنت» البريطانية وصحيفة «ذي لندن بيبر» المسائية المجانية، بعد إقفال نحو مئة صحيفة محلية في بريطانيا. وهكذا يمكن ذكر كثير من الصحف الأوربية وسواها من دول العالم، التي أسقطها التنافس مع الإعلام الإلكتروني، وبات متعذرًا عليها الاستمرار في ظل الأزمات الاقتصادية، وكذلك في ظل تنافس التلفزيون والإذاعة أولًا، ثم وسائط التواصل الاجتماعي وأثر الإنترنت وصيغة الإعلام الجديدة التي تركز على المعلومات أكثر من الإعلام بمعناه الأشمل. لم تكن تبعات الأزمة العالمية التي نتحدث عنها ترمي بثقلها على الصحافة اللبنانية وحدها في منطقتنا، إنما شهدت الصحافة العربية كثيرًا من الأزمات، وسادت حال الرعب العديد من العاملين في الصحافة الورقية، خصوصًا العاملين في الصحف غير المدعومة من الحكومات، بل إن بعض الصحف التي تقف خلفها سلطات بدأت تعاني مشكلات تهدد استمرارها، وقد اتخذت صحف خليجية عدة إجراءات وقائية؛ لتفادي السقوط المبكر، فلم تَسلَم الصحيفتان الكبريان «الحياة» و«الشرق الأوسط» من الاهتزاز، وإن كانت «الحياة» محسوبة بامتيازها على لبنان، وبمضمونها وقدراتها المالية على السعودية. وقد باتت صحف كثيرة مصرية وكويتية ومغاربية تشعر بهذا الاهتزاز، ويكفي أن نعرف أن مجموع توزيع الجرائد اليومية المصرية انخفض إلى ٤٠٠ ألف نسخة فقط (كان مليونين و٤٠٠ ألف عام ٢٠٠٩م) وهذا تراجع ينذر بالشؤم لأنصار استمرار الصحافة الورقية.

غسان تويني


أنسي الحاج


عوني الكعكي


نائلة تويني


طلال سلمان

ثانيًا- تراجع المال السياسي الذي انقطع مع انهيار نظام صدام حسين ونظام القذافي، وكذلك توقف تدفق المال الخليجي لأسباب عدة؛ منها شعور الداعم السياسي بعدم الجدوى من دعمه، بعد حدوث ضعف في الأداء والتأثير شهدته الصحف، كذلك بعد تطوير وسائل الإعلام الخليجية التي باتت تؤدي الغرض نفسه الذي تؤديه الصحافة اللبنانية، خصوصًا بعد استقطاب الطاقات الصحفية اللبنانية التي هجر بعضها بسبب الحرب وبعضها الآخر طلبًا لأجور أعلى.

ثالثًا- تراجع المبيعات، فقد مرت على الصحف اللبنانية مراحل ذهبية، أو مناسبات، وصل فيها إصدار جريدة «النهار» إلى ١٢٥ ألف نسخة، في حين وصل إصدار «السفير» إلى ٥٠ ألف نسخة، لتبدو الأزمة في قمتها عندما وصلت مبيعات كل من «النهار» و«السفير»، الأكثر انتشارًا في لبنان، إلى قرابة خمسة آلاف نسخة يوميًّا، إذا لم تقل عن ذلك في المراحل الأخيرة لاحتضار «السفير»، وقد بات عدد النسخ المطبوعة من الصحيفة في لبنان سرًّا من الأسرار العميقة خوفًا من انكشاف نقاط الضعف. ومع هذا التراجع في المبيعات تصبح كلفة النسخة أضعاف أضعاف سعرها في السوق، وقد وصلت في جريدة «السفير»، على حد علمي، إلى أكثر من خمسة أضعاف، وقد بات من المستحيل الاستمرار من دون دعم إعلاني أو سياسي.

رابعًا- تراجع الإعلانات سنة بعد سنة جعل الأزمة في ازدياد تدريجي، خصوصًا في الصحف التي لا تعتمد على مال سياسي أو دعم حكومي، وكل الصحف اللبنانية المعروفة غير مدعومة رسميًّا، وقد تركز الدعم الرسمي في لبنان على «الجريدة الرسمية» وهي مقتصرة على الإعلانات الرسمية، ووكالتي الأنباء «الوطنية» و«المركزية».

خامسًا- تراجع مستوى التحرير، مع تزايد الضغوط الاقتصادية، واضطرار الصحيفة للتخلّي عن كوادر مهمة بسبب مرتباتهم العالية، وتوظيف شباب وشابات جدد بمرتبات أقل. ولا نغالي إذا قلنا: إن بعض الذين توقفوا عن شراء الصحف إنما فعلوا ذلك لأن مضمونها لم يعد يقنعهم، ولم يعد يمثل تطلعاتهم، خصوصًا في مرحلة تزايد الحساسيات الطائفية والمذهبية، ولم تستطع الصحف، التي حاول بعضها كثيرًا استقطاب قراء الأجيال الشابة، الوصول إلى الهدف.

سادسًا- عدم تحول الصحف اللبنانية إلى مؤسسات تدار بشكل ذاتي؛ إذ تخضع الصحف لأمزجة شخصية، ثم يأتي التوريث ليفقد الصحيفة البوصلة التي وضعها المؤسس، فيأتي جيل أقل حماسة من سابقه، وهذا ما حدث بوضوح عندما مرت جريدة «النهار» بمراحل مختلفة متأثرة بمصلحة الوريث، فمن جبران تويني الجد إلى غسان، ثم ابنه جبران، وصولًا إلى ابنة الأخير نائلة التي في زمنها تشهد الجريدة آخر انهياراتها، ولا شك في أن تدخلات أبناء طلال سلمان عجلت من إقفال «السفير»؛ لأنهم هدفوا إلى حفظ ما توافر لهم من أرباح في زمن مضى، لأن الاستمرار أكثر يقضم بعضها، وقد صرح سلمان بما يؤكد هذا المعنى عندما رأى أنه لا يريد أن يحرم أبناءه من الإرث.

ماذا بعد؟

إذا كان إقفال جريدة «السفير» قد رمى قرابة ١٥٠ موظفًا في الشارع، فإن نقيب المحررين اللبنانيين، إلياس عون، دعا الدولة إلى إيجاد حلول لإنقاذ قطاع يوفر دخلًا لقرابة ١٠ آلاف شخص، يمكن أن تمارس بحقهم أساليب «تطفيش»، لا سيما من خلال تأخير دفع الرواتب، لكن كل صيحات استدراك استفحال الأزمة باءت بالفشل حتى الآن.

كلنا أسف على التاريخ المجيد للصحافة اللبنانية الرائدة على المستوى العربي، وأسف أكبر على تلك التي أقفلت الستارة على تجربتها بشكل كامل، وتلك التي تقف على شفير الهاوية، أو لم تعلن عن موتها بعد (تحويرًا لعنوان رواية ماركيز «قصة موت معلن»). ولا يسعنا إلا أن نأمل في استمرار حضور الصحف اللبنانية الجادة، بما تتميز به من حريات وخبرة عالية، من خلال تحولها إلى الوسائط الإعلامية الرقمية الجديدة، الأقل كلفة والأكثر انتشارًا.. وتأثيرًا.

تغلبت عليها برامج «التوك شو» والميديا الجديدة

الصحافة المصرية تواجه «الأزمة» بالبحث عن «خلطة» تناسب القراء

صبحي موسى القاهرة

لم يكن يحلو لكثير من الناس أن يتحرك إلا والجريدة مطوية تحت إبطه، كأنه يحمل رسالة من الوالي إلى أبنائه المنتظرين عودته في البيت. لم تكن الجريدة مجرد حصول على خبر، لكنها كانت انتماء، وكل حزب بما لديه سعيد، ولا يصدق الخبر إلا إذا كتب في جريدته المفضلة، وكانت أشهر اللقطات التي أبرزتها السينما للمخبر في أثناء عمله وهو جالس خلف الجريدة يتابع تحركات المجرم، في حين كان فلم «بياعة الجرائد» من أشهر كلاسيكيات السينما المصرية، وفيه غنت ماجدة الصباحي ليوسف شعبان أغنيتها الشهيرة «أهرام، أخبار، جمهورية».

كانت الصحف الورقية هي القوت اليومي للمواطن، ولا يمكن تصور رجل ينتمي للطبقة الوسطى لا يجلس على المقهى مطالعًا جريدته المفضلة. وكان نجيب محفوظ قبل الاعتداء عليه من متطرف ديني عام ١٩٩٤م يذهب إلى مقهى «علي بابا» في ميدان التحرير في تمام السابعة صباحًا ليتناول فنجانه من البن ويطالع جرائد الصباح.

لكن هذا كله أصبح شيئًا من الماضي، فمع مطلع الألفية الجديدة تراجع دور الصحافة الورقية، ولم تعد مصدرًا لتقديم الخبر إلى القارئ، فقد سبقتها إليه القنوات الفضائية، والمواقع الإلكترونية على النت، ومواقع التواصل الاجتماعي التي أصبحت بمنزلة نبض الشارع والحياة، هكذا حرمت الصحافة الورقية من ملايين الجنيهات التي كانت تتدفق عليها من الإعلانات، وتوقف قطاع كبير من القراء عن التعامل معها، وهو قطاع الشباب أو من هم دون الأربعين، هؤلاء الذين لم يدمنوا ملمس الورق ورائحة الحبر ومطالعة الجريدة الصباحية، هؤلاء الذين نشؤوا في عصر الستالايت والشبكة العنكبوتية والسمارت فون، فصرنا نسمع عن توقف جرائد عريقة كالسفير اللبنانية، والبديل المصرية، ونسمع عن توقف إصدارات في مؤسسات أكبر وأكثر عراقة مثل الأهرام والأخبار المصريتين، فما مستقبل الصحف الورقية؟ وهل هناك حلول لبقائها في المنافسة؟ أم أننا قد نستيقظ يومًا لنجد العالم وقد أصبح بغير جريدة الصباح وفنجان البن اللذين طالما تغنى بهما شعراء وكتاب ينتمون إلى بلدان ومدن عربية؟

عدد من رؤساء تحرير الصحف المصرية ومسؤولي الإعلام لم يقطع في الحديث حول نهاية قريبة محتملة للصحافة الورقية. وأدلى هؤلاء لـ«الفيصل» بشهادات مختلفة حول واقع الصحافة في مصر وفي الوطن العربي، وفقًا لعدد من المعطيات، ومع ذلك فإنهم أكدوا على أزمة كأداء تمرّ بها الصحافة العربية:

فهمي عنبة:
الصحافة الورقية مريضة لكن لن تموت

بلا شك تواجه الصحافة الورقية تحديات في العالم كله بعد انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، ووصول النت إلى معظم البيوت، فقد أصبحت المعلومات متاحة للجميع، والخبر يرد إليهم في وقته وربما آن حدوثه. لكن الصحافة الورقية تمرض ولا تموت، ولو تذكرنا ظهور الراديو، وما تردد وقيل وقتها عن موت الصحافة الورقية، وتكرار هذا الأمر مع ظهور التليفزيون ثم الفيديو، نتأكد أن الصحافة الورقية تمرض، أو تمر بأوقات ضعف مع ظهور أي تقنية أو وسيلة إعلامية جديدة، لكنها لا تموت، وإن كان مرضها هذه المرة قد يستغرق مدة أطول، أو أكثر قوة وشدة من أوقات مرضها مع ظهور الراديو والتليفزيون والفيديو. لكننا نراهن على أن متعة القراءة لا يساويها متعة، ومن ثم فعلى الصحافة أن تركز ليس



توزيع الجرائد الورقية في مصر متدن جدًّا، وبعض الجرائد أغلق، كالتحرير والبديل وغيرهما، لكن الجرائد القومية لن تغلق، والجرائد الخاصة تبحث عن بدائل جديدة

على الخبر لكن على ما وراء الخبر، والنزول إلى الشارع حيث العمل الميداني، وإبراز الرأي أو ما يعرف بصحافة الرأي، وتقديم خدمات جديدة للقراء.

تبقى الصحافة الورقية الأرشيف القومي للشعوب، في حين المواقع الإلكترونية أو وسائل التواصل الاجتماعي نجد جانبًا منها يقوم على الإشاعة أكثر من الحقيقة، وفكرة إثارة القراء وجذبهم، ثم العودة بعد دقائق لبثّ أخبار جديدة، من دون التأكد من صحة الخبر أو حقيقته، ومن ثم فالصحافة الرصينة سواء قومية أو حزبية أو خاصة، ستجد نفسها خارج الصندوق في وقت ما، لكنها سرعان ما ستعود بقوة حين يكتشف القارئ أن المواقع الإلكترونية لا تقدم له سوى هوس المتابعة الدائم، وعدم تقديم معرفة حقيقية في شيء. علينا أن نعترف أن خريطة الإعلانات تذهب في الدرجة الأولى الآن لبرامج «التوك شو» التي تستحوذ على ثلاثة أرباع المتاح من الإعلانات، يأتي بعدها المواقع الإلكترونية وهي متعددة وكثيرة، ثم إعلانات الشوارع التي أصبحت تغطي كل مكان، ثم الصحافة الورقية، ويمكننا الرهان في الحقبة المقبلة على أفكار مثل الصحافة الإقليمية أو المحلية أو ما يعرف بصحافة الكومباوند أو الأحياء المجاورة، هذا النوع يمكنه الاعتماد على إعلانات بسيطة وبأثمان

زهيدة لكنها تغطي تكاليفه وتكفل له الاستمرار. وهناك نوع من الجرائد الخدمية حقق انتشارًا وتوزيعًا عاليًا كالوسيط القائم على الإعلانات فقط، إضافة إلى أننا في «الجمهورية» قدمنا تجديدًا في أبوابنا، فلدينا باب خاص بالمعاشات، وباب للعمال، ولدينا صفحات الفن والمسرح، ونقوم على العمل الميداني بالدرجة الأساسية حيث الجمهور وتحليل الخبر.

رئيس تحرير جريدة الجمهورية

محمد السيد صالح:
البحث عن دخل إضافي

توزيع الجرائد الورقية في مصر مُتَدَنٍّ جدًّا، وبعض الجرائد أغلق، كالتحرير والبديل وغيرهما، لكن الجرائد القومية لن تغلق، والجرائد الخاصة كالمصري اليوم تبحث عن بدائل جديدة، فهي تسعى لعمل معادلة في السعر والورق والبحث عن دخل إضافي من خلال الموقع، واستغلال إعلانات على النت والبحث عن مصادر للورق أرخص من المتاح. وهناك نوع ثالث من الجرائد، لا هو جرائد قومية مملوكة للدولة، ولا جرائد خاصة مملوكة لرجال أعمال، لكنها جرائد مموَّلة من جهات سيادية أو غير سيادية، هذا

> **عدد العاملين في أخبار اليوم يزيد على ٦ آلاف، ويعمل في الأهرام نحو ١٢ ألفًا، ومن ثم فإن الصحافة الورقية تمثل صناعة كبيرة في مصر، ولا يمكن التفكير في إغلاقها**

النوع في ظننا سيتحكم في مستقبل الصحافة الورقية، وهو نوع ليس موجودًا لا في الشرق ولا في الغرب، فالخليج به جرائد مملوكة للأمراء والأثرياء، وفي مصر أو غيرها جرائد خاصة أو قومية، الجرائد الخاصة إما أن تغلق أو أن تبحث عن عمل معادلة في الورق والإعلانات والثمن.

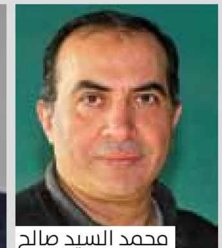
ثمة حلول أخرى على هامش هذه المعادلة، وهي اللجوء إلى نوع جديد من التوزيع الورقي، عبر إقامة شركات توزيع جديدة بديلة عن شركات التوزيع الحكومية التي تسيطر على السوق، والتفكير في صحافة الكومباوند أو المحيط السكني الصغير، هذه التجربة ليست موجودة لدينا، لكنها في أميركا والغرب ويمكن التفكير في إصدارها هنا. من المعروف أن الصحافة نوعان: صحافة خاصة يمتلكها أمراء أو رجال أعمال، وهذه تبحث عن مصادر أخرى للدخل وإقامة معادلة فيما يخص الإنفاق والعائد من التوزيع والإعلانات، وبعضها أمام الضغوط الاقتصادية أو السياسية يغلق، النوع الثاني هو الجرائد القومية التي لو رفعت الدولة يدها عنها فإنها ستغلق، لكنّ ثمة نوعًا ثالثًا ظهر في السوق مموَّل من جهات بعينها، لا يعنيه التوزيع ولا غيره، ولا تشغله الضغوط السياسية ولا الاقتصادية. هذا النوع نعتقد أن مستقبل الصحافة سيكون لصالحة، لأن تمويله قويّ، وأهدافه أن يكون موجودًا بغض النظر عن الضغوط السياسية التي قد تكون لصالح بعض وضد بعض، أو الضغوط الاقتصادية التي يعانيها الجميع الآن، بما فيها الجرائد القومية التي اضطرت إلى تخفيض بعض إصداراتها.

ما زال القارئ التقليدي الذي لم يرتبط بالسوشيال ميديا ومواقع النت مرتبطًا بالإصدارات الورقية من الجرائد، هذه التي يذهب إليها نحو ٨٠٪ من الإعلانات. بعض الجرائد قامت بإنشاء مواقع إلكترونية أنفقت عليها الكثير؛ كي يعود البريق إلى الجريدة الورقية نفسها، وتستطيع المنافسة في سوق الإعلانات.

رئيس تحرير المصري اليوم.




فهمي عنبة


محمد السيد صالح


عماد الدين حسين


سامي حامد

مجدي شندي

تبقى الصحافة الورقية الأرشيف القومي للشعوب، في حين المواقع الإلكترونية أو وسائل التواصل الاجتماعي نجد جانبًا منها يقوم على الإشاعة أكثر من الحقيقة، وفكرة إثارة القُراء وجذبهم

عماد الدين حسين:
الحاجة إلى تحرير جديد وكُتاب جدد

هناك تحديات حقيقية تواجه الصحافة الورقية، السبب الأساس هو منافسة وسائل الاتصال وارتفاع أسعار الورق واستيراده، وتعويم الجنيه، وارتفاع سعر الدولار، إضافة إلى غياب أي تصور حقيقي للتطوير. والنتيجة أن عددًا من الصحف التي كانت توزع في السبعينيات بأعداد هائلة اختفت.

توجد أزمة حقيقية في المحتوى، وبخاصة مع ظهور الفضائيات والمواقع الإلكترونية، والصحف التي لن تستطيع في المستقبل أن تطور من أدائها وفكرتها وطرائق تواصلها ومحتواها، لن يكون لها فائدة. فلا بد من وجود حلول، والحلول الجوهرية تكمن في تقديم محتوى مختلف، فلم يعد مهمًّا أن تهتمّ بالخبر اليومي، فلا بد من تقديم محتوى مختلف يشتمل على حوارات وقصص وأمور ليست متاحة للـ«توك شو» على الفضائيات، وهذا بدوره يحتاج إلى نوعية جديدة من المحرِّرين والكُتاب والمفكِّرين، كما يحتاج إلى تدريب وإعادة تأهيل واكتساب لغات ومعارف جديدة.

رئيس تحرير الشروق

سامي حامد:
ارتفاع أسعار مستلزمات الإنتاج

الصحافة الورقية تواجه في الوقت الحالي الكثير من التحديات، وبالتأكيد تأثرت سلبًا بعد انتشار المواقع الإخبارية الإلكترونية لكنها لم تمت ولن تموت، فالصحافة الورقية لها مذاق خاص ونكهة مختلفة عما تبثه المواقع الإلكترونية من أخبار وموضوعات. الصحافة الورقية في اختبار حقيقي اليوم؛ فإما أن تكون أو لا تكون، وأرى أن الصحافة الورقية لكي تنجح في الاستمرارية عليها الابتعاد بقدر الإمكان من العنصر الخبري، فالمواطن يحصل على الخبر في الحال سواء على الموبايل أو شاشات التلفاز وأجهزة الحاسب الآلي. عليها التركيز على ما بعد الخبر والاهتمام بالرأي والتقارير والتحليلات والقضايا سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. وهناك تحدٍّ آخر يواجه الصحافة الورقية هو ارتفاع أسعار مستلزمات الإنتاج من ورق وأحبار وزنكات، وهو ما يستلزم في كثير من الأحيان خفض الكمية المطبوعة سواء كانت صحفًا أو مجلات.

رئيس تحرير جريدة المساء المصرية.

مجدي شندي:
وداعًا للتوزيع «المليوني»

اقتصاديات الصحافة الورقية تضررت كثيرًا؛ لأن هذه الصحافة فقدت وظيفتها وهي الإخبار، فقد أصبحت لدينا بدائل أكثر سرعة في نقل الخبر وتقديمه للمتلقي، كما أن أنماط القراءة وعاداتها اختلفت من القراءة الورقية إلى القراء على اللوح الضوئي، هذا هدَّد مستقبل الصحافة الورقية، وبخاصة من قطاعات الشباب؛ لأنه لا أحد منهم يُقبل على شراء الصحف الورقية، فأغلبهم يعتمد على المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، وهو ما جعل انتظار خروج الصحف الورقية من المطابع، والسير مسافات لشرائها من بائعي الجرائد، عملًا من الماضي، نظرًا لوجود بدائل قوية تبث الخبر في آن حدوثه.

تضررت الصحافة الورقية، وهو أمر ليس خاصًّا بمصر وحدها، فهو متعلق بالثورة التكنولوجية التي أنتجت الفضائيات والمواقع الإلكترونية، وأصبح التوزيع المليوني للصحف الورقية جزءًا من الماضي؛ لأن قُرَّاء الصحف فيما فوق الأربعين وحدهم هم الذين اعتادوا على ملمس الورق ورائحة الحبر، كل الأجيال الجديدة الآن لم تَعتَدْ على ذلك، وليس لديها أدنى ارتباط نفسي مع الجريدة الورقية، وهذا ترك آثاره على الصحف الورقية في العالم كله. صحف عريقة في أوربا والولايات المتحدة تحوَّلت إلى الواقع الافتراضي، أما في مصر فربما يتأخر ذلك التحول قليلًا، وقد تأتي مجلات متخصصة في تفسير وتحليل الأحداث، ما يمكنها من التعايش مع الواقع الجديد، كي نشهد دورًا جديدًا للإعلام الورقي.

رئيس تحرير المشهد

محمد عبدالحافظ: الأزمة تكمن في المضمون لا في الصناعة



اليابان أعظم بلد في التكنولوجيا، ورغم ذلك بها ثلاث جرائد توزع صباحًا ومساءً مليون نسخة، وهم لديهم أكبر توزيع لمجموعات الكومكس التي توزع بين الشباب والفتيان، واستثمارات الشركات الأوربية المصنعة للمطابع زادت بنسبة ٥٠٪، في مقدمتها شركة مان رولان الألمانية المتخصصة في تصنيع ماكينات الطباعة. نحن إذن أمام أرقام تقول: إن هذه الصناعة ستبقى، وإن العيب ليس في الصناعة لكن في الصُّناع العرب، فنحن بوصفنا صناعًا لم نعد نعرف الخلطة المناسبة لأذواق قُرّائنا، وهو ما يجعلهم يتجهون إلى الفضائيات ومواقع النت، لكن الصحافة الورقية ستبقى إذا طوَّر الصحافيون أنفسهم، وأنا من مدرسة أن الصحافة الورقية لن تموت.

ولنا أن نتذكر أنه حين ظهر الفيديو خرجت أغنية تقول: «الفيديو نجم الراديو»، لكن هل مات الراديو؟ بالطبع لا. فقط طوَّر نفسه، وأصبحت لدينا العديد من القنوات والبرامج الجديدة التي تتناسب مع إيقاع العصر، ومن ثم، فالعيب ليس في الصناعة، لكن في المضمون الذي تقدِّمه الصناعة. فالإندبندنت من أعرق الجرائد البريطانية، كانت تسمى ماكينة الخسائر، لكن صاحبها مدمن للصحافة الورقية، فرفض أن يتحول إلى الصحافة الإلكترونية، وأصدر جريدة سمّاها «الآي» وهو أول حرف من اسم الإندبندنت، ووزعه مجانًا على ركاب القطارات وهم ذاهبون في الصباح إلى أعمالهم، هذه الجريدة وزّعت سبع مئة وخمسين ألف نسخة، وغطت تكاليفها من الإعلانات. في أمريكا جريدة مجانية تدعى «فري داي» توزع توزيعًا غير عادي، وتغطي تكاليفها من الإعلانات فقط. وأنا أتواصل بشكل دائم مع مجلس تحرير جريدة الآي ومجلس تحرير جريدة فري داي، وأؤكد أن المشكلة ليست في الصناعة بقدر ما هي في مضمون الصناعة، فهؤلاء يعملون على أفكار جديدة ومادة قابلة للقراءة، وفي الصحافة لا بد من ثلاثة أسس للنجاح هي: الدقة، والمصداقية، والاستقلال وليس الحياد، فلا يوجد حياد، فحين تصدر جريدة رياضية لا يمكنك أن تقول: إنك ستكون محايدًا، فهذا يعني الخسارة من قبل أن تبدأ، لكن عليك أن تعلن عن انحيازك وجمهورك وتوضح رسالتك. ولا يمكنك أن تحصل على إعلانات من شركة ساعات أو مجوهرات ثمينة وتنتج جريدة حوادث؛ لأن جمهورك من الفقراء لن يشتري هذا المنتج، ومن ثم فالمعلن سيبحث عن مجلة للمرأة تستهدف سيدات المجتمع.

عدد العاملين في أخبار اليوم يزيدون على ٦ آلاف، ما بين صحافيين وإداريين وعمال مطابع، ويعمل في الأهرام نحو ١٢ ألفًا، وهكذا، ومن ثم فإن الصحافة الورقية تمثل صناعة كبيرة في مصر، ولا يمكن التفكير في إغلاقها، لكن التفكير دائمًا في التطوير، والبحث عن أفكار جديدة، ومهنية أرقى وأكبر، أما من يتحدثون عن الإغلاق والانهيار فهم أصحاب مصالح خاصة، هؤلاء الذين لا يريدون خبرًا حقيقيًّا، ولا مقالات يمكنها أن تبني الذهن وتوسع مداركه، هؤلاء الذين يسعون للتسطيح في البرامج الكلامية، أو ملء فضاء النت بالصورة وأي تعليق عليها، هؤلاء يسطحون الفكر، ويسعون للسيطرة على سوق الإعلانات ليس أكثر.

وأنا لديّ موقع إلكتروني مثلهم، لكنني لا أستخدمه من أجل ما يسعون إليه، بقدر ما أستخدمه للترويج لجريدتي الورقية، فأنشر مقتطفًا من الخبر أو المقال كإعلان عنه، ومن يريد استكمال قراءته فليشترِ العدد الورقي.

رئيس تحرير مجلة آخر ساعة
وعضو مجلس إدارة أخبار اليوم



مكرم محمد أحمد: خطة للنهوض بالصحافة

حتى الآن لا يوجد لدينا المواطن الذي يستطيع أن يستخدم الحاسوب في البحث عن المعلومة والخبر بشكل واضح وكافٍ، لدينا حواسيب إلكترونية على كل مكتب، لكن حتى الآن ما زال الموظفون والمواطنون يستخدمونها في التسلية، وهو ما يجعل القول بأن الصحافة الورقية في خطر أمرًا مستبعدًا قليلًا، ونحن مهمتنا الراهنة بعد تولي المجلس الأعلى للإعلام في مصر النهوض بمختلف وسائل الإعلام، وفي مقدمتها الصحافة الورقية، ونحن لم نقل بأن الجريدة التي لن تتمكن من تغطية تكاليفها ستتوقف، ولكننا قلنا: إن الجريدة التي تصدر في ٢٤ صفحة ولا تجد من الإعلانات ما يغطي تكاليف كل هذا العدد من الصفحات، يجب أن تعيد النظر في سياستها التحريرية من جانب، وتخفض بعضًا من هذه الصفحات بما يقرب الفجوة بين التكاليف والأرباح. لكننا حتى الآن لم نضع خطتنا لكيفية النهوض بالصحافة والإعلام في مصر، فهذه الخطة تستلزم عددًا من الاجتماعات بين أعضاء المجلس وأعضاء هيئتي الصحافة والإعلام، وأن نستمع إلى مختلف وجهات النظر، ومناقشة المقترحات المقدمة من الجميع، والعمل على النظر في مختلف التفاصيل، حتى نصل إلى تصور متكامل يمكننا بناءً عليه اعتماده كخطة للعمل في المرحلة القادمة.



لكن ليس لدينا أي توجه مضاد للصحافة الورقية، بل على النقيض سندعمها بقدر ما نستطيع من رؤى وأفكار حتى تقدم الحل المناسب، ونتمكن من ضبط كثير من العشوائية، في التحرير وفي التعامل مع الإعلانات، وعدد الصفحات المطلوبة. ولا بد أن نصل في المجلس إلى توافق قوي حول هذه الخطة بما يكفي لضمان نجاحها. ونحن لدينا لجنة في المجلس لاستشعار المستقبل وما به من مواجهات؛ كي نتعامل معها وفق آليات وأفكار علمية، وخطط مدروسة وقائمة على إحصائيات ومعلومات حقيقية.

رئيس المجلس الأعلى للإعلام



الصحافة الخليجية تتحسّر على أموال الإعلانات.. وتفتش عن بدائل

عدنان فرزات الكويت

حتى سنوات قليلة مضت، كان المشهد كالآتي: تستيقظ العائلة لتجد الصحيفة الورقية سبقت استيقاظها إلى الصندوق المخصص لتوزيع الصحف، غالبًا ما تكون الحظوة للأب الذي يشرع في قراءة الصحيفة على فنجان قهوة، وقد تتخاطف بقية العائلة الصفحات الأخرى كلٌّ حسب اهتمامه، أو ربما تذهب إلى مكتبك فتجد مجموعة من الصحف الورقية مكدسة بعضها فوق بعض. منذ ربع قرن تقريبًا، بدأ المشهد يتغير، تحولت كل هذه «الأوراق» إلى أرقام «ديجيتال»، لتصبح جاهزة بضغطة زر على شاشة الحاسوب، ثم أصبحت أصغر من ذلك بحجم كف اليد على هاتفك المحمول.

حين كانت الصحف الورقية في أوج مجدها، كان هناك مصطلح يتداوله أصحاب الصحف ويحسبون له ألف حساب، هو «سوق السعودية»، حيث كان هذا السوق هو المستهلك الأكبر للصحف الورقية، وكانت الصحف تحرص على دخوله، وبعض الصحف كانت تلغي موضوعات أو صفحات كاملة؛ لأنها لا تتوافق مع القيم المجتمعية السعودية حرصًا منها على الوصول إلى هذا السوق.



أيضًا كان القارئ في كل مكان من الخليج يبذل العناء للذهاب إلى المكتبة أو منافذ بيع الصحف والمجلات، ليجد معظم الصحف الخليجية والعربية وغيرها متاحة على الرفوف. اليوم غابت هذه المظاهر، فهل أثر هذا الغياب في اقتصاديات هذه الصحف؟ وهل أدى غيابها إلى خلل ما في كمية النسخ المطبوعة وفي الإعلان والتوزيع؟ وماذا عن «التنين» الإلكتروني الذي يمدّ جسده طويلًا ملتهمًا معظم المظاهر التقليدية المصنوعة من ورق؟

في دولة الكويت مثلًا، كان هناك خمس صحف تتسيّد الساحة الإعلامية، لكن قبل سنوات قليلة، أصبحت إجراءات ترخيص الصحف الورقية أسهل من ذي قبل، فسارع كثير من الأشخاص إلى إصدار صحف جديدة، ثم ما لبثت هذه الصحف الجديدة معظمها أن أسدلت الستارة على صدورها منذ السنة الأولى، ولم تستطع أن تنافس أو أن تأخذ الحيز الذي تشغله الصحف الخمس.

بكل الأحوال لا يمكن التفرد بالرأي في هذا الجانب، فهو موضوع شاسع، وقد يتعلق الأمر بالأجيال، والأمزجة، فهناك الكثير من الأجيال لا تزال متمسكة بالصحف الورقية، كما أن بعضها ما زال يفضل الإمساك بالورق لأنه يحقق له متعة أكثر بالقراءة، تمامًا كالفرق بين الكتاب الورقي ونظيره الإلكتروني.

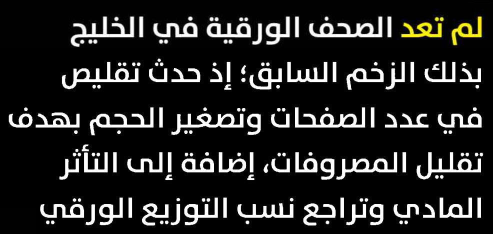
ومن المعروف أن الصحافة الخليجية من أكثر الصحف العربية ثراء؛ بسبب الإعلان الذي كانت تستقطبه هذه الصحف بكثافة نظرًا لانتشارها الواسع، إلا أن هذا الثراء لا يسعه الاستمرار، ومن ثم فبعض الصحف ودَّعته بما يليق به من حسرة، لتفتش عن بدائل. سؤال الصحافة الورقية وتحديات البقاء الذي تطرحه «الفيصل» عنوانًا لملفها يمسّ أيضًا الصحافة في الخليج وأوضاعها وما آلت إليه:

ماضي الخميس: سنبقى الصحافة إنما بتأثير أقل

الصحافة الورقية لن تنتهي، سيبقى لها قراؤها وستبقى المؤسسات الصحفية موجودة، وهي تتطور كأي عنصر في الدنيا، وعندما أقول صحافة فأعني هنا الورقية والإلكترونية، فهذه المهنة ستبقى ونحن اليوم أمام نموذجين: الإعلام الذي عرفناه في الصحف الورقية والتلفاز، ثم تطور بسبب التكنولوجيا إلى إعلام إلكتروني، ثم هناك نموذج وسائل التواصل الاجتماعي الذي ظهر كصناعة أخرى لها حضورها بشكل أو بآخر، ولكن في النهاية فمواقع التواصل الاجتماعي لا يمكن أن نطلق عليها إعلامًا، فقد يكون مُنشِئ هذه المواقع طبيبًا أو مهندسًا أو موظفًا في مجال آخر، فكيف نطلق عليه لقب إعلامي؟ وإلا أصبحت مهنة الإعلام مهنة مشاعة. لذلك في رأيي الصحافة الورقية ستبقى ولكن سيقل تأثيرها وسيقل عددها أيضًا، أو أن تتطور بتطور الصناعة الإعلامية، وكذلك فالصحافة الإلكترونية ستزدهر، ومهنة الصحافة لن تتأثر بوجود ما يسمى «المواطن الصحافي» لأن المواطن اليوم أصبح هو الصحافي.


ماضي الخميس

حمزة عليان


لم تعد الصحف الورقية في الخليج بذلك الزخم السابق؛ إذ حدث تقليص في عدد الصفحات وتصغير الحجم بهدف تقليل المصروفات، إضافة إلى التأثر المادي وتراجع نسب التوزيع الورقي

من الناحية المادية، واضح أن الصحافة الورقية تأثرت جدًّا وتراجعت مبيعاتها، والإعلان أصبح يتجه إلى «الديجيتال ماركت» لأن الإعلان ينجذب لقوة التأثير وسهولة ووفرة الانتشار، كما أن التأثير يختلف اليوم، فأصبح الإعلام الإلكتروني الأشد تأثيرًا من الورقي أو التقليدي، وهو ما جعل الصحف الورقية تنفق على مواقعها الإلكترونية، كما أصبح إنشاء مؤسسة إلكترونية أقل تكلفة من الورقي.

رئيس تحرير صحيفة الكويتية السابق
الأمين العام للملتقى الإعلامي العربي

حمزة عليان: صحافة تحتاج تمويلًا

في العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر الميلادي خرجت صحف مطبوعة إلى النور بفضل مؤسسيها، الذين كان لديهم رؤية في نشر التنوير بما يخدم شعوب المنطقة وتطلعاتها نحو التحرر والاستقلال والتنمية، ومن ثم وجدت فئة مثقفة ومفكرون قادوا المسيرة وسعوا إلى نشر المعرفة بواسطة الصحافة، بالرغم من الكلفة المالية التي تحملوها بمساعدة الآخرين. اليوم نتحدث عن صحافة تحتاج إلى تمويل لسد احتياجاتها، ولم تعد قائمة فقط على التنوير وخدمة رسالتها الإعلامية، وإن وجد من كان في هذا المسار تظل تلك المؤسسات تطلب دعمًا ماليًّا مستمرًّا حتى إن لم تتعرض إلى خسائر مادية. المهم، أن التمويل غالبًا ما يأتي من الإعلان كمورد أساس أو من جهات أخرى، وهذا أمر شائك لكنه بسيط بالشرح. فإما أن يكون التمويل سياسيًّا على مستوى دول أو تمويلًا حزبيًّا تدعمه دول، وإن حدث ذلك فلا خوف على هذه المؤسسة أو تلك من الإقفال والمنافسة إذا استطاعت أن تسوِّق نفسها بالمادة التي تحتويها.

في السابق لم يكن هناك من ينافس الصحف اليومية في التوزيع والوصول إلى القارئ، سوى من يطبع أولًا وينزل إلى السوق عن طريق

الباعة أو المشتركين، أما اليوم فالأدوات التي كانت تستخدم في إنتاج الصحيفة وتحريرها وتوزيعها انقلبت رأسًا على عقب.

قبل سنوات كان الإعلان محصورًا في وسائل الإعلام المطبوعة مثل: الصحف والمجلات والتلفزيونات في الغالب، أما الآن فقد جاء من يأخذ من حصتها وأعني بها مواقع التواصل الاجتماعي، فواحدة ممن تمتلك موقع بالسوشيال ميديا لديها FOLLOWERS ما يتجاوز الـ ١٠٠ ألف متابع أي أكثر من توزيع صحيفة يومية مرتين، يعني باتت تنافس الصحيفة في عقر دارها، وهذا ما نعيشه ونتعامل معه؛ لأن صاحب الإعلان همه أن يصل إلى أكبر شريحة من الجمهور، وهو ما سوف يجنيه ويحققه بالتأكيد، وأقرب مثال واقعي هو حملات مرشحي مجلس الأمة في الكويت والإنفاق المالي على الدعاية؛ إذ لم يعد إنفاقهم بالمعدل نفسه على خدمات الطباعة والإعلان في الصحافة المكتوبة، نتيجة لوجود مواقع التواصل الاجتماعي التي يلجؤون إليها حيث يقومون بإنشاء قنوات خاصة لهم على اليوتيوب والإنستغرام على سبيل المثال بهدف الترويج، وهذه معلومة لـ«الفيصل» إذ قدرت بعض المصادر ذات الصلة بأن قيمة الأموال التي تضخ خلال الموسم الانتخابي تراوح ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ مليون دينار كويتي، فكم يا ترى نسبة الإعلان في الصحف وفي غيرها من الإعلام الجديد؟

سكرتير تحرير ومدير مركز المعلومات والدراسات في صحيفة «القبس» الكويتية

إبراهيم المليفي:
السوق الإعلاني أهم من سرعة الخبر

أهم ما يجب النظر إليه هو موضوع السوق الإعلاني وليس سرعة الخبر، فمعظم الصحف اليوم أصبحت تنحو للمقالات التحليلية؛ لأن الخبر الأسرع تقتنصه الصحف الإلكترونية، فالإعلان هو الذي بإمكانه إنقاذ الصحف الورقية اليوم من حافة «التقليدية» والانهيار. وسائل التواصل الاجتماعي بدأت تسحب البساط الإعلاني والخبري من الصحف الورقية، بل إن بعض مشاهير التواصل الاجتماعي أصبحوا الأبرز إعلانيًّا؛ لأن السوق الإعلاني أوجد لنفسه علاقات واسعة في مواقع التواصل الاجتماعي. ولكن علينا أن نسأل أنفسنا: ما مستوى الجودة الذي تقدمه الصحافة الورقية؟ هل



إبراهيم المليفي

خلفان الزيدي

المشكلة في بروز منافس مثل مواقع التواصل الاجتماعي والصحف الإلكترونية أم في جودة ما تقدمه الصحف الورقية نفسها؟ فهل انتهت الصحافة الورقية في الغرب مثلًا؟ أظن أنها موجودة وما يكتب فيها أقوى من الذي يكتب عندنا، لذلك فهي صامدة.

مدير تحرير مجلة العربي الكويتية

خلفان الزيدي:
الورقية أكثر احترافية من الإلكترونية

لم يعد يخفى على أحد انتشار الصحف الإلكترونية وهيمنتها على الأخبار، وسرعتها في الوصول إلى الحدث ونقلها إياه بتطوراته وعلى نطاق واسع. في الوقت الذي تسجل فيه بعض الصحف تراجعًا في المبيعات وخسائر في عائداتها إلى حد توقف صحف وتقليص صفحات صحف أخرى، كل ذلك واضح للعيان ومعايش في الكثير من البلدان. لكن هل ترى كل ذلك سيدفع الصحف الورقية إلى الاختفاء؟ هل ستخلو، مثلًا، أرفف المكتبات ومواقع

> **الإعلان وليس سرعة الخبر هو الذي بإمكانه إنقاذ الصحف الورقية اليوم من حافة «التقليدية» والانهيار**



بيع الصحف منها؟ أشك في الأمر، ويحدوني تفاؤل باستمرار الصحف الورقية والرجوع إليها بوصفها أكثر مصداقية في نقل الأخبار، وأكثر احترافية من الصحف الإلكترونية.

فما زال الكثيرون لا يعتدون بالأخبار ما لم يجدونها مبرزة على صفحات الجريدة الورقية، وما لم يجد التحليل والمقال والاستطلاع المصور، وما لم يشعر بملمس الورق، ويصافح الحبر بأصابعه. فهؤلاء لا يجدون متعة في تقليب الأخبار ومقالات الرأي على شاشة هواتفهم أو الألواح الإلكترونية، فهم يريدون أن يقلبوا صفحات الجريدة، ويطالعوا خبرًا هنا ورأيًا هناك، ثم يضعوا الصحيفة جانبهم، ويستعيدوها متى شاؤوا.

الصحافة الورقية باقية رغم عثراتها المادية.. حالها في ذلك حال الإذاعة والتلفزيون مع السينما والمسرح.

إعلامي من سلطنة عمان مهتم بالصحافة الإلكترونية



أسامة الماجد: المد التكنولوجي سيقضي على الكلاسيكي

أسامة الماجد

الصحافة في البحرين جزء من القرية العالمية، ولا بد أن يطولها ما يطول بقية الصحف في أي مكان. الصحافة الإلكترونية بدأت قبل سنوات، وأتصور أن جريدة الأيام في البحرين هي أول جريدة دخلت السباق، لكن بصورة متواضعة، ثم تبعتها بقية الصحف البحرينية مثل أخبار الخليج والبلاد والوطن والوسط. بطبيعة الحال اليوم الصحافة الورقية في مختلف دول العالم تسجل انخفاضًا ملحوظًا في عدد نسخ البيع، وهو ما دفع الكثير من الصحف إلى تقليل النسخ المطبوعة، وهذا يعود إلى قوة الصحيفة الإلكترونية، وانتشارها بشكل أسرع؛ إذ أصبح الفرد يتصفح عشرات الصحف من خلال هاتفه النقال وفي أي مكان. فلم تعد الصحيفة الورقية تشكل وجبة يومية دسمة مثل السابق.

في تصوري، بوصفي أحد المشتغلين في الصحافة، أن الصحافة الورقية ستختفي تدريجيًّا مع مرور الوقت، وربما قبل عام ٢٠٣٠م؛ إذ ستكتفي المؤسسات الصحفية بعدد قليل من الموظفين، وسيضطر الصحافي والكاتب أن يعيش في هذا العالم الجديد من بيته، وسيهجر القلم إلى الأبد. هناك بكل تأكيد من يرى ضرورة استمرار الصحف الورقية بوصفها مرجعًا لا غنى عنه مثلها مثل الكتاب، لكن الوضع بشكل عام يقول عكس ذلك. فمدّ التكنولوجيا سيقضي على كل شيء كلاسيكي!

إعلامي بحريني

صالح غريب: خطة لمواجهة التغير


صالح غريب

الصحف الورقية سوف تظل مدة طويلة صامدة من المتغير الإلكتروني الذي نشهده اليوم، وهذا الصمود نابع من تلك العلاقة التي تشكلت بين القارئ والصحف، فما زالت الغالبية تعتمد أسلوب القراءة من الصحف الورقية أكثر من غيرها من الأشكال سواء عبر الجوال أو الآيباد أو الحاسوب؛ لأنه لا يستمتع بالقراءة سوى عبر هذه الوسيلة، حتى إن توافرت الوسائل الأخرى فلا تزال قوية وثابتة، وإن تأثر سوق الإعلان بوجود هذه التقنية الحديثة لكنها ثابتة وقوية. لا شك أن هناك تأثيرًا حدث من خلال وجود صحف إلكترونية جذبت جمهور الورقي لها، لكن نسبة استخدام الحاسوب في متابعة الأخبار في الوطن العربي قليلة، وغالبية المستخدمين من جيل الشباب المراهق الذي يبحث عن مواقع معينة ليست لها علاقة بالصحف، وإن تغير الوضع الآن في ظل دخول مرحلة جديدة.

بالطبع حدث تغير ولم تعد الصحف الورقية في الخليج بذلك الزخم السابق، ومن ثَم نلحظ أنه حدث تقليص في عدد الصفحات وتصغير الحجم بهدف تقليل المصروفات، إضافة إلى التأثر المادي، وتراجع نسب التوزيع الورقي، وذلك بسبب ظهور الصحف والمواقع والبوابات الإلكترونية. في نظري سوف تستمر الصحافة الورقية صامدة إلى مدة طويلة قبل أن تتحول إلى إلكترونية، أو يتوقف إصدارها الورقي؛ لأن المواطن العربي ما زال مقبلًا على ذلك، والحضور الجماهيري لمعارض الكتاب خير مثال على ذلك.

وهنا على الصحف الورقية أن تجد لها خطة بديلة لمواجهة هذا التغير والاهتمام مثل هذه المواقع، على سبيل المثال معرفة فكر القارئ بعيدًا من الأسلوب التقليدي، فلم يعد القارئ في السبعينيات هو ذاته اليوم، فإن البحث عن أفكار متطورة تواكب اهتمام الشباب هو التحدي لمواجهة المستقبل.

إعلامي ورئيس القسم الثقافي في صحيفة الشرق القطرية

الصحافة السعودية:

من يديرون الصحف كانوا يضعون الأموال في جيوبهم وهو ما جعل المستقبل مخيفًا

هدى الدغفق - فواز السيحاني الفيصل

الجميع ليس متفائلًا على الإطلاق: كُتاب، ورؤساء تحرير، ومحررون، وأعضاء مجلس إدارة. غالبيتهم تُكرر الجملة الآتية: المستقبل مظلم جدًّا، والآثار الأكثر إيلامًا لم تأتِ بعد. ليس غريبًا أن تكون الصحف الورقية محليًّا وعالميًّا على حافة الفناء، لكن الأكثر غرابةً هو أن تلك الأرباح الكبيرة التي كانت تجنيها بعض الصحف، وقد تصل أحيانًا إلى نصف مليار ريال سعودي في العام لصحيفة واحدة، أصبحت هذه الأرباح مثل اللبن المسكوب الذي لم يستفد منه؛ لقد كان من الأجدر لهذه الصحف الثرية أن تُخضع بعض تلك الأموال الضخمة للاستثمار؛ كي تبني مستقبلًا صحفيًّا أكثر اطمئنانًا وأمانًا، عوضًا عن مواجهة مصير مأساوي مثل الذي تواجهه اليوم، لكن ما الذي منع الصحف الثرية من الاستثمار؟



المحلل الاقتصادي وابن أحد أكبر رؤساء التحرير في المملكة مازن السديري، ليس متفائلًا أمام واقع الصحف ومستقبلها محليًّا، وأكد في حديث لـ«الفيصل» على أنه لا أحد يمكنه إنكار أن الصحف الورقية حاليًّا في أزمة على المستوى المالي؛ «إلا أن ما يميز بعضها مثل «الرياض» مثلًا، هو توافر السيولة المادية لديها التي تستطيع أن تستخدمها في أي وقت، وهذا غير متاح لكثير من الصحف الورقية»، مشيرًا إلى أن الأزمة التي تعانيها الصحف في الوقت الراهن ليست فقط أزمة غياب المُعلِن، «إنما أزمة على مستوى تنويع مصادر الدخل لتلك المؤسسة الصحفية، وإن كان هذا التنويع على مستوى مصادر الدخل كان حاضرًا في بعض المؤسسات الصحفية إلا أنه أيضًا لم يجد نفعًا كما حدث مع صحيفة «اليوم»، لقد كان أعضاء مجلس إدارتها هم في الأساس من رجال الأعمال وأصحاب تفكير استثماري؛ ففي الماضي القريب كان هناك حقائب اقتصادية استثمارية لها خارج إطار الإعلان، إلا أنها حاليًّا تعاني ما تعانيه الصحف المتبقية لكن بألم أقل».

السديري الابن لفت أيضًا إلى أن بعض الصحف «فكّرت في الاستثمار على مستوى شراء مطابع جديدة مثلما فعلت مثلًا «صحيفة الجزيرة» إلا أن هذا الاستثمار يعد هدرًا ماليًّا، ويعبر عن غياب عقلية تقرأ مستقبل الإعلام الورقي بشكل حقيقي!». ويقول: إن هناك بعض الصحف حاليًّا تحتاج إلى الإنقاذ المبكر؛ نظرًا لقرب

> **هاشم الجحدلي: كُتّاب المجاملات وكثرة المكاتب والمكافآت المُبالَغ فيها للكُتّاب وتشييد مبانٍ هائلة، أسهم في تفاقم المشكلة**


مازن السديري — عبدالله الكعيد

موتها كصحيفة «الوطن» تليها «الشرق»، مؤكدًا أن الصحف «تحتاج فعلًا إلى عقلية استثمارية مختلفة؛ وأن ما يعنيه ليس الاستثمار على مواقع التواصل الاجتماعي أو الحسابات التويترية، إنما استثمار مختلف بمعنى إبداعي وحقيقي يخلق أُفقًا جديدًا».

تفكير ذو أفق قصير

من جهته، يقول الكاتب الصحافي عبدالله الكعيد الذي كان يكتب في صحيفة الرياض، وخرج منها غاضبًا بعد سلسلة من التغريدات كتبها على حسابه الخاص: إن الإشكالية الحقيقية تكمن في مجالس إدارات هذه الصحف، «إنها لم تكن تفكر أصلًا على المدى البعيد؛ بل إن الجميع كان تفكيره ذا أفق قصير ولم يتجاوز كيفية تسويق الصحيفة على مستوى الإعلانات لدى المعلن». ويضيف الكعيد لـ«الفيصل» أن مجالس الإدارة «لم تكن تأبه بمصير الصحف التي تقوم بإدارتها، لقد كان من الأجدى استثمار الأموال من الاحتياطيات التي تمتلكها هذه الصحف والموضوعة للتطوير وللأزمات، عوضًا عن أن يكون بعض من هذه الصحف ليس لديه الآن أرباح ولا استثمار»، موضحًا أن غالبية أعضاء مجالس إدارات تلك الصحف، جلّ ما يستطيعون

قينان الغامدي: تواضع المضمون وراء انصراف القراء


قينان الغامدي

أفضل ما يمكن أن تفعله الصحافة الورقية في هذه الظروف أن تعزز مواقعها الإلكترونية، وتسلك في ذلك سبيل الصحافة العالمية النابهة التي تنمو بصورة سريعة إلكترونيًّا في مقابل استمرار هبوط توزيعها الورقي. هذا جانب والجانب الآخر هو ضرورة الاعتناء بالمضمون؛ إذ هو البطل بغض النظر عن وسيلة الإعلام سواء كانت ورقية أو إلكترونية.

تستطيع الورقية أن تواكب الحدث محليًّا وعالميًّا من خلال موقعها الإلكتروني، وتركز على الرأي والتحقيقات الاستقصائية وما وراء الأحداث في نسختها الورقية، حتى إذا حان موعد إيقاف الورق تنتقل الصحيفة بكاملها إلى وسيلة النشر الإلكتروني، وهي بكامل قوتها ولياقتها وحضورها.

الصحافة الورقية أضاعت حتى الآن زمنًا طويلًا من دون عناية بمواقعها الإلكترونية، ولا ننس تواضع المضمون الذي دفع القارئ إلى الإشاحة عنها والتحول إلى وسائل أقوى مضمونًا وأسرع توصيلًا. ولا أظن أن هناك اختلافات جوهرية كبيرة بين الصحف العربية والخليجية والسعودية، فهي في المستوى نفسه تقريبًا من حيث الرتابة وعدم الالتفات للقفزات التي تحدث من حولها في مجالات وسائل التواصل والصحف الإلكترونية.

صحافي وكاتب سعودي

فعله هو انتظار الأرباح «لإيداعها في حساباتهم الخاصة، ومن ثم يذهبون إلى بيوتهم آمنين مطمئنين. مجلس الإدارة ورئيس مجلس الإدارة المنتخب من الجمعية العمومية؛ من النادر أن يكون رجلًا اقتصاديًّا إنما هو مجرد إداري يدير مؤسسة فقط كغيره من المديرين في القطاعات الحكومية المختلفة! لا يوجد هناك أحد يفكر في الاستثمار في المعرفة الإعلامية رغم أهميتها، وهي بحاجةٍ إلى أُناسٍ متخصصين يفهمون كيف يستثمرون ويطوّرون تلك الصحف؛ كي لا تواجه أزمة مخيفة كما يحدث اليوم. كان رئيس التحرير في السابق هو من يدير المؤسسة وهو في الغالب يفتقر لعقلية صناعة المال!!».

حلول لا إنسانية

رئيس التحرير السابق عبدالوهاب الفايز كان تعليقه مقتضبًا على ما يحدث من أزمة للصحافة الورقية؛ إذ قال لـ«الفيصل»: «من يديرون المؤسسات الصحفية الورقية لم

> **عبدالوهاب الفايز:** من يديرون المؤسسات الصحفية الورقية لم يكونوا يستثمرون الأرباح السابقة وهذا هو الذي دمّر الصحف


عبدالوهاب الفايز — هاشم الجحدلي

يكونوا يستثمرون الأرباح السابقة، وهذا هو الذي دمّر الصحف. إنهم يأخذون الأموال ويضعونها في جيبوهم، وهو ما جعل مستقبل الصحف مخيفًا وخطرًا، وما سيترتب على ذلك يحتاج إلى حديث طويل، وتفنيد واستقراء يصعب اختصاره».

في حين أوضح نائب رئيس تحرير صحيفة عكاظ هاشم الجحدلي أن المشكلة التي تحدث الآن في الصحف «ليست من المُلّاك وحدهم. يجب أن نعرف أن العقلية التجارية نفسها ما كانت عقلية استثمارية حقيقية، ومن ثم كان رئيس التحرير يريد مزيدًا من المكاتب لمحرريه، وتوزيع مكافآت للكُتاب مبالغ فيها، إلى جانب استكتاب كُتاب مجاملةً، إضافة إلى تشييد مبانٍ هائلة كأن الصحف وزارات أو إمبراطوريات، كل ذلك أسهم في تفاقم المشكلة؛ من ناحية زيادة المصاريف؛ ففي عكاظ مثلًا كانت أرباح إحدى السنوات نحو ٥٠٠ مليون ريال، وخُصم نحو ٤٠٠ مليون ريال مصاريف على المنشآت التي قامت ببنائها والمكاتب التي أسستها».

وأشار إلى أن القائمين على الصحافة الورقية «كانوا يضعون

محمد التونسي: ليست الحال سيئة إلى هذا الحد


محمد التونسي

ثمة فرص، وليست فرصة واحدة، لتحافظ الصحافة الورقية على علاقتها بالقارئ والمعلن معًا. المحتوى سيد الموقف، به تنهض الوسيلة أو تقع، ليست الحال سيئة إلى هذا الحد بالنسبة للصحف الورقية، فالمعلن لا يزال يثق بها، والقارئ يبحث عنها. الفارق الآن هو هامش المنافسة الذي خلقته وسائل التواصل والمنصات الإلكترونية التي تتفوق بالسبق الخبري، لكن الأشكال الصحفية الأخرى لا تزال حية وقادرة على إيجاد مكان لدى القارئ. وإن كان من فكرة غير المحتوى لتجويد المنتج، فهي بلا شك الحافزات البصرية في الإخراج، والصورة، والإنفوغرافيكس، إلى جانب ربط الورق بالمنتجات الإلكترونية الأخرى للوسيلة. لم تنتهِ الصحافة الورقية بعد لنتحدث عنها بصيغة الراحلة، وإن كانت بعض الصحف تمادت في اعتقادها بعدم وجود منافس، وهو ما أثر في أرقام التوزيع، لكنها حتى اللحظة لا تزال لاعبًا أساسًا في الإعلام. القارئ الواعي موجود في كل بقعة من العالم، وهو ما تراهن عليه الوسيلة الإعلامية، تتشابه الوسائل وبتقاطع بعضها مع بعض، لكنها تختلف وفقًا لشكل المحتوى جغرافيًّا. النسخة الورقية من الصحف صارت متاحة للقارئ في أقاصي الأرض، وهو ما يحفز على البحث عن فرص في أسواق مختلفة. تبقى الصحافة السعودية المساحة الأوسع نظرًا للتنوع المجتمعي والجغرافي قياسًا بنظيراتها في الخليج، التي بذاتها أكثر استقرارًا من الصحافة العربية التي تخضع للمزاج السياسي، في حين يشترك جميعها في إشكالية التمويل، وإيجاد منافذ جديدة للاستثمار والربح.

رئيس تحرير صحيفة الرؤية الإماراتية

في تفكيرهم أن خصمهم الوحيد والأوحد هو الصحف الإلكترونية؛ لذلك أخذوا بجهد وتكاليف قليلة استقطاب عقليات تقنية لإنشاء مواقع متطورة؛ كي يدخلوا في منافسة مع المواقع الإلكترونية، والذي حدث هو عكس ذلك تمامًا»، مؤكدًا أن الصحف الإلكترونية «هي نفسها أصبحت في المأزق نفسه؛ لأن الضربة أتت من مواقع التواصل الاجتماعي وليس من بدائل الصحف الورقية مثل المواقع الإلكترونية المتخصصة في الجانب الإعلامي». ويقول الجحدلي لـ«الفيصل»: إن خصم الصحافة الورقية الآن «هو خصم متجدِّد ومتغيِّر، والصحف الورقية بكوادرها القيادية يجب أن تواجه المشكلة، وأن تعيد تكييف المصاريف، وأن تكون الحلول المقدمة حلولًا متّزنة وواقعية وليست حلولًا لا إنسانية، مثل فصل المحررين الذين أتت بهم الصحيفة وقدمت لهم عروضًا ماليةً مغرية وهم في السابق كانوا في وظائف أخرى».

وذكر أن إعادة تكييف المصاريف والروافد الأخرى يمثل أحد الحلول المهمة، علمًا بأن الإعلان لا يزال وسيزال قائمًا، وهو ركيزة أساسية من ركائز التجارة.

الحل الآن وفق رأي نائب رئيس تحرير صحيفة عكاظ، يجب أن يكون حلًّا بالشراكة، بمعنى أن يكون الإعلان الحكومي حاضرًا ومدعومًا، وأن تكون هناك مطابع تقام بالشراكة عوضًا عن أن تقوم كل صحيفة بإنشاء مطبعتها الخاصة التي تكلف الكثير من الأموال.



خالد الفرم: الصحافة السعودية سقطت في فخ الفردية في الإدارة


خالد الفرم

أولًا لا بد من الإشارة إلى أن المقياس الرئيس في تقييم أي وسيلة إعلامية هو معدل التوزيع، ولا شك أن متغيرات المشهد الإعلامي والتقني أثرت بشكل كبير في توزيع الصحف السعودية التي تراجع توزيعها إلى أكثر من ٥٠٪ كما فقدت أكثر من ٦٠٪ من مداخيلها الإعلانية، والأهم من ذلك هو حاجة المجتمع إلى نظام إعلامي فاعل، يحقق وظائفه الرئيسة، نحو توفير المعلومات وربط المجتمع بعضه ببعض وتعزيز الثقة، فنقص المعلومات في النظام الإعلامي يسهم في انتشار الشائعات والقلق الاجتماعي وحالة عدم اليقين، ومغادرة الجمهور نحو الإعلام البديل بعيدًا من الإعلام الوطني. الصحافة الورقية تواجه تحديات عدة، ليست بسبب سطوة التقنية وهيمنة شبكات التواصل الاجتماعي، بل بسبب هشاشة البنى الصحفية، وتغير اقتصاديات الإعلام، وضعف إدارة المؤسسات الإعلامية، وبخاصة مع غياب الصحافة الاستقصائية، وهيمنة الأداء التقليدي في السياسات التحريرية للصحف الورقية التي تنتظرها تحديات الإفلاس وشبح الإغلاق خلال سنوات معدودة. والتوجهات الحديثة في صناعة الصحافة المعاصرة هي التركيز على الصحافة الاستقصائية، والتحول نحو التخصص بالمعنى الجغرافي والموضوعي، وكذلك الاستثمار في الإعلام الجديد من خلال دمج المنصات وغرف الأخبار.

الصحافة السعودية أضاعت على نفسها فرصة تأسيس صناعة صحافية وإعلامية راسخة، فسقطت في فخ الجمود والفردية في إدارة المؤسسات الصحفية، وهو ما أحدث تشوهات حادة في أداء المؤسسات الصحفية التي انعكست سلبًا على الصحفيين الذين هم العنصر الرئيس في العملية الإعلامية، وكذلك انعكست على الأداء والمنتج الصحفي.

هناك تشابه بين الصحف السعودية والخليجية والعربية في التحديات، واختلاف في المعالجات، فالكثير من المؤسسات الصحفية الخليجية أو العربية مؤسسات إعلامية شاملة، تمتلك قنوات وصحفًا وإذاعات ومواقع إلكترونية ومطبوعات متعددة، ومن ثم فهي سلّة من الاستثمارات الإعلامية، وهو ما يتيح لها هامشًا كبيرًا من الحركة بالمعنى الإعلامي والاقتصادي، بعكس الصحف السعودية أحادية الاستثمار والمنتج.

أكاديمي وإعلامي سعودي



حل الأزمة يكمن في التكيف مع المستجدات

جعفر العقيلي سكرتير التحرير في «الرأي» الأردنية

بلا شك، مستقبل الصحافة الورقية على المحكّ، ولو لم يكن الأمر بهذه الخطورة لما خصصت «الفيصل» ملفًّا لمناقشته. وإذا كان هناك من نظرة تشاؤمية تجاه المستقبل الذي ينتظر الصحافة الورقية، فلهذه النظرة مشروعيتها في ظل اشتداد عُود المنافِس الشرِس المتمثل في النشر الإلكتروني. وربما لو أن نسبة مستخدمي الإنترنت في المنطقة العربية أعلى مما هي عليه، لكانت الصحافة الورقية التي أنتمي إليها وأنحاز لها وجدانيًّا، في مرحلة الإنعاش أو لكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.



وعلى الرغم من ذلك، ربما استعجلت شركة «مايكروسوفت» قليلًا حين أعلنت منذ سنوات أن العالم سيشهد طباعة آخر صحيفة ورقية في عام ٢٠١٨م. فمن الواضح أن الأمر يحتاج إلى مدة أطول، حتى في الدول المتقدمة التي تؤكد الاستطلاعاتُ فيها عزوفًا متزايدًا عن الصحافة الورقية والمطبوعة واتجاهًا أكثر نحو الصحافة الإلكترونية لتلقي الخبر والمعلومة. فما بالك بالمنطقة العربية التي تعاني مساحاتٌ واسعة فيها انتشارَ الأمّية التقنية (وإنْ بِنِسَب متفاوتة)، وضعف البنية الاتصالية التحتية فيها.

أما ما تَوقّعه الخبير الإعلامي «فيليب ماير» في عام ٢٠٠٤م من اختفاء جميع المطبوعات خلال ثلاثين عامًا لتحلّ محلها مصادر الأخبار الإلكترونية، فيبدو توقُّعًا في غير محلّه، رغم أنه أكثر منطقيةً أو واقعيةً من استطلاع «مايكروسوفت» السابق الذكر. لكن هل علينا أن نلقي باللائمة على الصحافة الورقية بوصفها سببَ هذا المصير الذي ينتظرها؟ من المؤكد: لا. فهناك أزمة مالية ضربت صناعة الصحافة في العالم، فأُغلقت صحف، وتحولت أخرى إلى الصيغة الإلكترونية... وهناك صحف آثرت أن تصمد قليلًا ولو بكثير من التضحيات. ومن ذلك: إعادة الهيكلة، والاستغناء عن موظفين، وإغلاق مكاتب، وإنهاء عقود مراسلين، وتقليص عدد الصفحات، وتخفيض مستوى الجودة في الطباعة... إلخ. ومن الواضح أن هذا المسار الحلزوني الذي تشهده الصحافة الورقية ليس مؤقتًا، وأنه مرشَّح إلى المزيد من التدهور.

وفي المقابل، فإن الصحافة الإلكترونية تتيح للقارئ - المتصفح استخدام أكثر من حاسة في الوقت نفسه (المشاهدة، والقراءة، والاستماع أيضًا). وإذا كانت الصحافة الإلكترونية أسهمت عالميًا في إحداث ما يشبه الانقلاب في طريقة صياغة الخبر وشكله وأسلوب تحريره، اعتمادًا على التكثيف والاختزال، فإن هذه السمة تبدو غير متحققة في عدد كبير من الصحف الإلكترونية العربية، فجُلّ ما تنشره المواقع الإخبارية لا يلتزم بتقاليد العمل الصحافي، ويفتقر إلى المناقبية المهنية والأخلاقية، وهو ما دعا نقابة الصحفيين الأردنيين -على سبيل المثال- إلى إصدار بيان أواخر عام ٢٠١٤م دعت فيه وسائلَ الإعلام إلى ممارسة عملها في إطار مواثيق

يكمن أحد المخارج لأزمة الصحافة الورقية في الأردن، في أن تعمل الحكومة على إعفاء مدخلات الإنتاج (الورق والحبر ومعدات الطباعة) من الضرائب، وزيادة عدد الاشتراكات الحكومية ورفع حصة هذه الصحف من الإعلانات

الشرف الصحفي، وعدم اللجوء إلى الابتزاز والتشهير والتجريح وإطلاق الإشاعة والإساءة إلى كرامات الأسر والأفراد، والكفّ عن الممارسات التي تسيء لمصداقية الإعلام.

ومن نافل القول: إن معظم الصحف الإلكترونية تعاني هي أيضًا صعوبات مالية تتعلق بالتمويل، وغياب التخطيط، وقلّة المردود المتأتي من الإعلان مقارنة بالصحف الورقية، فما زال المعلِن يشعر بعدم الثقة بالصحافة الإلكترونية، ولا ينظر لها بجدّية كافية لتكون نافذته على الشرائح التي يستهدفها. كما أن الصحافة الإلكترونية تلجأ كثيرًا إلى الاستنساخ من الصحف الورقية ووكالات الأنباء، ويحدث هذا في ظل غياب الرقابة والمحاسبة في الغالب. وقد جرى الانتباه إلى هذه المسألة، فوسّعت نقابة الصحفيين الأردنيين مظلة العضوية فيها في التعديل الأخير على قانونها الذي جرى منتصف عام ٢٠١٤م، ومن التعديلات المهمة على القانون والمرتبطة بالصحف الإلكترونية، يُشترَط أن تنطبق على رئيس التحرير الشروطُ نفسُها المطلوب توافرها في رئيس تحرير المطبوعة الورقية.

وإذا لم تتكيّف الصحافة الورقية مع المستجدات، فستزداد أزمتها، وربما تواجه ما يمكن دعوته «الداروينية الإعلامية»، أي أن يُطبَّق قانون «داروين» عليها؛ صراع البقاء، وهو ما يعني في النهاية أن البقاء للأقوى. ويكمن أحد المخارج لأزمة الصحافة الورقية في الأردن، بأن تعمل الحكومة على إعفاء مدخلات الإنتاج (الورق والحبر ومعدات الطباعة) من الضرائب، أو على الأقل تخفيض الضرائب، إضافة إلى زيادة عدد الاشتراكات الحكومية بالصحف الورقية، ورفع حصة هذه الصحف من الإعلانات، وتعزيز استقلالية المؤسسات الصحفية إداريًّا وتحريريًّا.

صحافة دول المغرب العربي..
نهايات مأساوية.. وأفق مسدود

ميلود بن عمار صحافي جزائري

قبل أسابيع، خاض صحفيو جريدة «صوت الأحرار» الجزائرية موجة من الاحتجاجات؛ بسبب عدم تلقّيهم أجورهم لعدة أشهر. هذه الأزمة، دفعت هؤلاء إلى الاعتصام أمام مقر حزب جبهة التحرير الوطني، وهو من أقوى الأحزاب السياسية الجزائرية؛ لمطالبة رئيسه بالتدخل لإنقاذ هذه الصحيفة الناطقة بلسان الحزب من الأوضاع المالية الصعبة التي أصبحت تُنذر بإغلاق هذه الصحيفة التي تأسّست سنة ١٩٩٨م.



وفي الحقيقة، لا تُشكّل وضعية هذه الصحيفة نشازًا، بعدما أفلست صحفٌ كثيرة منذ بوادر الأزمة الاقتصادية التي تعيشها الجزائر، والبقية الباقية من الصحف الأخرى تئنُّ تحت وطأة جملة من الظروف التي قد تُعجّل بنهاية العهد الذهبي للصحافة الورقية الجزائرية. وتتشابه أوضاع الصحافة الورقية في الجزائر مع جارتها الشرقية (تونس)، وجارتها الغربية (المغرب)، مثلما تتشابه الأعراض التي أدّت إلى هذه النهاية المأساوية التي تعيشها الصحف الورقية في بلدان المغرب العربي الثلاث، وهي الأعراض التي عجّلت بالدفع باتجاه هذا الأفق المسدود. ويبدو أنّ هذا المشهد، ما هو في حقيقة الأمر سوى رجع صدى لما تُعانيه الصحافة عبر العالم بعد ظهور تقنية الإنترنت التي غيّرت الكثير من المفاهيم، ليس في قطاع الإعلام وحسب، إنّما في مجالات الحياة كافة. ولهذا حاولت مجلة «الفيصل» أن تستطلع أحوال الصحافة الورقية في بلدان المغرب العربي الثلاث: الجزائر، وتونس، والمغرب، متسائلة عن حقيقة الأخبار التي نطالعها يوميًّا بخصوص أفول عناوين صحفية كثيرة عجزت عن المقاومة، وهو السؤال الذي يجرُّ حتما إلى الحديث عن الأسباب التي تقف وراء ذلك، مع تقديم محاولة فهم جذور هذه الأزمة من أفواه بعض رجالات مهنة المتاعب في الجزائر وتونس والمغرب.



نذير بولقرون

الانتشار العددي للصحف عجّل بانحسار دورها

يرى نذير بولقرون، مدير تحرير يومية «صوت الأحرار»، أنّ الصحافة الورقية (المكتوبة)، مهدّدة بخطر، ليس فقط الانكماش، «ولكن الزوال أيضًا، وهذا الأمر نتيجة لعوامل كثيرة أهمُّها: انتشار الفضائيات وظهور تكنولوجيات الاتصال الحديثة التي تُمكّن متابع الأحداث من الوصول إلى الخبر في حينه مدعّمًا بالصوت والصورة، وهذا ما يجعل الصحافة المكتوبة تعاني انحسار المقروئية، حتى في الديمقراطيات العريقة، حيث صارت الصحافة الورقية تعاني أزمات مالية بسبب ضعف الإشهار. وقد عجّل ذلك بمحاولة كثير من الصحف أن تتكيّف مع الأوضاع الجديدة من خلال مسارعتها إلى إنشاء طبعات إلكترونية».

ولإعطاء الصحف الورقية في الجزائر جرعة من الأُكسجين تُمدّد بعض الشيء في دورة حياتها، يؤكد مدير «صوت الأحرار» أنّه «من الممكن أن نطيل في عمر الصحافة بأمرين اثنين: أولهما التركيز على صحافة الرأي، وثانيهما الاهتمام بشكل أساس بما

ما عجل بانحسار دور الصحافة الورقية في الجزائر الانتشار العددي (١٦٠ عنوانًا يصدر يوميًّا) وعدم التطور من ناحية المهنية والاحترافية وصناعة المضمون

يُسمّى عندنا «الصحافة الجوارية»، أي تلك التي تهتمُّ بنقل انشغالات المواطن، وتُعنى بشؤونه الحياتية المباشرة». ومن الأمور الأخرى التي عجّلت بانحسار دور الصحافة الورقية في الجزائر، بحسب نذير بولقرون، الانتشار العددي إلى درجة «التعويم» (١٦٠ عنوانًا يصدر يوميًّا) إضافة إلى كثير من الدوريات الأسبوعية والشهرية، لكنّها في وجود هذه التخمة العددية، «لم تتطوّر من ناحية المهنية والاحترافية وصناعة المضمون (المحتوى)، كما كان من المفترض أن تتحوّل الصحف الجزائرية الكبرى إلى مؤسسات، وهذا ما لم يحدث، بكلّ أسف، وبقي الجانب التجاري هو الذي يفرض سلطته على أصحاب هذه الصحف».

مطالب بالتجدُّد والبحث عن التمويل

من جانب آخر، يُؤكد العربي ونوغي، المدير العام لجريدة «المساء» الحكومية، أنّ ثورة التكنولوجيات الحديثة أثّرت في أوضاع الصحافة المكتوبة في العالم، وليس الجزائر وحسب؛ بسبب كونها غير مكلفة، فـ«يكفي أن تحمل بين يديك حاسوبًا مرتبطًا بالإنترنت ليكون أمامك العالم كلّه»، في حين إصدار صحيفة ورقية، مثلما يؤكد مدير «المساء»، صار عملية مكلفة، «وتحتاج إلى طباعة، وشبكات توزيع، وإدارة فعّالة، وعشرات الموظفين من صحفيين وإداريين وتقنيين، وغير ذلك، لتصل إلى القارئ في الوقت المناسب». وعلى هذا الأساس، يرى مدير «المساء»، أنّ الصحافة الورقية في الجزائر «فقدت، وهي تفقد يوميًّا، المزيد من قرائها لصالح الإعلام الإلكتروني والتلفزيوني وشبكات التواصل الاجتماعي؛ إذ إنّ تلك الوسائط توفّر المعلومة في الوقت المناسب، وبأقلّ التكاليف، ومهما بعُد مكان الشخص الذي يطلبها».

العربي ونوغي

ولا يستثني العربي ونوغي من هذه القاعدة، التي تقلّص مجالات حركة الصحافة الورقية، تلك الصحف التي يُطلق عليها



في الجزائر صفة «الصحافة العمومية»، أي التابعة للدولة؛ لأنّها تخضع كغيرها من المؤسسات لمنطق السوق، على اعتبار أنّها مؤسّسات ذات طابع اقتصادي وتجاري؛ فهي تعتمد بشكل أساس على مداخيلها من الإشهار، ولا تتمتّع بأيّ دعم حكومي، وهو ما يجعلها عرضة للاندثار والاختفاء تحت طائلة الإفلاس كغيرها من الصحف الأخرى. ويُطالب مدير يومية «المساء» هذه الصحف بضرورة «التجدُّد وإيجاد بدائل تمويلية إذا أرادت الاستمرار والبقاء»، ويضيف قائلًا: «نحن الصحيفة الأولى في صحف القطاع العام سحبًا ومبيعات، لكنّنا الأضعف في الحصول على الإشهار العمومي؛ لذلك رفعتُ راية النضال منذ تنصيبي قبل سنة على رأس هذه المؤسّسة للمطالبة بوضع ميكانيزمات وآليات دقيقة في توزيع الإشهار الذي تستفيد منه كلّ الصحف

> **عشرات الصحف اليومية والأسبوعية، التي ظهرت في تونس بعد ثورة ١٤ يناير ٢٠٠١م، مستفيدة من إلغاء تراخيص الإصدار السابقة التي اعتمدها النظام السابق، قد اضطرّت إلى غلق أبوابها والتوقُّف نهائيًّا عن الصدور، وهو ما أدّى بأصحابها إلى تسجيل خسائر مالية كبرى**

الجزائرية، سواء كانت عمومية أو خاصة، وهذا بالاعتماد على مقاييس السحب والمبيعات والتوزيع».

الصحافة الورقية تسير إلى زوال

يعتقد نجم الدين العكاري، رئيس تحرير صحيفة «الأنوار» الأسبوعية، أنّ أوضاع الصحافة الورقية في تونس تُشبه أوضاع مثيلاتها في أغلب بلدان العالم؛ إذ تبدو كأنّها تسير إلى زوال، لكن بخطوات بطيئة، متأثرة بانتشار الإنترنت والهواتف الذكية التي قدّمت خدمة كبيرة للصحافة الإلكترونية والمواقع الإخبارية، والإذاعات والقنوات التلفزيونية أيضًا، وكذلك مواقع التواصل الاجتماعي وصحافة المواطن. وللتدليل على أزمة الصحافة الورقية في تونس، راهنًا، يؤكد نجم الدين العكاري، على أنّ عشرات الصحف اليومية والأسبوعية، التي ظهرت بعد ثورة ١٤ يناير ٢٠٠١م، مستفيدة من إلغاء تراخيص الإصدار السابقة التي اعتمدها النظام السابق، قد اضطرّت إلى غلق أبوابها والتوقُّف نهائيًّا عن الصدور، وهو ما أدّى بأصحابها إلى تسجيل خسائر مالية كبرى.

ويرى العكاري أنّ أسباب إفلاس هذه الصحف تعود أساسًا إلى ضعف مقروئية الصحف، وضيق سوق الإشهار نتيجة الأزمة الاقتصادية، واتجاه المستثمرين إلى الضغط على نفقاتهم بالتقليص في ميزانية الإشهار وتخصيص الجزء الأكبر منها إلى الإذاعات والتلفازات.

وللتدليل مرة أخرى على أنّ الصحافة الورقية في تراجع، يشمل حجم السحب والتوزيع وحجم التأثير في الرأي العام،

فإنه يُلحظ أنّ الصحافة الحزبية اختفت تمامًا أو تكاد؛ إذ إنّ البلاد تضم نحو ٢١٠ أحزاب، ولا توجد فيها إلا صحيفة أسبوعية واحدة هي «الفجر» تصدر بانتظام، وهي تابعة لحركة النهضة الإسلامية، في حين تعتمد بقية الأحزاب، ذات الحضور القويّ في المشهد السياسي، على مواقع إخبارية تابعة لها أو مموّلة جزئيًّا منها وصفحات الفيسبوك للدعاية لأنشطتها والترويج لأفكارها.

للتدليل للمرة الثالثة على ضعف مقروئية الصحف الورقية التونسية خلال السنوات الأخيرة في بلد تعداد سكانه ١١ مليون نسمة، يُعلّق رئيس تحرير صحيفة «الأنوار»، بأنّ الصحيفة الأولى انتشارًا، وهي جريدة «الشروق» اليومية، لا يزيد سحبها عن ٨٠ ألف نسخة، في حين أنّ سحب يوميات وأسبوعيات أخرى، لا يتعدّى عشرين ألف نسخة، ولا يصل إليها أحيانًا.

وقد تكون الأزمة الاقتصادية وتراجع القدرة الشرائية والإنفاقية للتونسيين وراء تراجع المبيعات؛ إذ إنّ سعر الصحيفة يراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مليم، أي تقريبًا ثلث دولار، وهو ما يعادل سعر ثلاثة أرغفة خبز. إضافة إلى معاناة الصحف الورقية تراجعَ


نجم الدين العكاري

عائدات الإشهار، وعائدات البيع، وهو ما دفع بالحكومة، تحت ضغط نقابتي الإعلاميين ومديري المؤسسات الإعلامية، إلى تقديم مساعدات للمؤسسات بقصد الإبقاء عليها، ومنها دفع مساهمتها في صناديق الضمان الاجتماعي، وخاصة أنّ عائداتها تراجعت بنسبة ثلاثين بالمئة. ويتأسفُ العكاري في نهاية تشريحه لأوضاع الصحافة الورقية التونسية بقوله: «لم يتم إلى الآن البدء في تنفيذ هذا القانون الذي صادق عليه البرلمان، كما لم يتم إلى الآن، الاتفاق على كيفية توزيع الإشهار العمومي على الصحف».

الحكومة المغربية وضعت مخططًا لدعم قطاع الصحافة، لكنّه يبقى، بحسب صحافيين غير كافٍ، وهذا ما يجعل الصحف أمام خيارات محدودة لضمان البقاء والاستمرارية

الصحيفة في المغرب تحولت وسيلة تقليدية


حكيم بلمداحي

يرى حكيم بلمداحي، مدير تحرير جريدة «الأحداث المغربية»، التي تُصنّف من أوائل الصحف المستقلة في المغرب، وقادها في بدايتها نخبة من الصحافيين، كما حافظت على خطها التحريري المبنيّ على قيم الحداثة والديمقراطية، بأنّ «الصحافة الورقية المغربية تعيش مرحلة صعبة؛ إذ قلّت المبيعات بشكل كبير جدًّا. هذا الأمر، أثّر بشكل كبير في الصحافة، التي هي أصلًا قيد التشكل. ومعظم الصحف الورقية بالمغرب اليوم تعيش ضائقة مالية، تؤثر في العاملين وفي جودة الإنتاج». وما زاد الطين بلة، بالنسبة لأوضاع الصحف الورقية المغربية، مثلما يُشير إلى ذلك حكيم بلمداحي، «تأثيرُ التقنيات الجديدة في مجال التواصل الذي يعد من الأمور التي لا يجب إغفالها؛ إذ كان لهذه التقنيات فعل الزلزال على الصحافة الورقية. هذا أمرٌ واضح؛ لأنّ معظم القراء المفترضين يستعملون الهاتف النقال لمتابعة الأخبار. في المغرب اليوم، يوجد نحو ١٨ مليون مغربي يستعملون الإنترنت. ومعظم القرّاء المفترضين يستعملون الهاتف المحمول. بمعنى أنّ سلوك القراءة والمتابعة تغيّر تماشيًا مع الجديد في عالم التواصل. وهكذا أصبحت الجريدة وسيلة تقليدية تستعمل من جانب فئة قليلة جدًّا من الناس...».

ويُتابع مدير تحرير جريدة «الأحداث المغربية» بأنّ «قراءة الجرائد في المغرب في تدنٍّ ملموس. وأفضل جريدة لا تتجاوز سقف ٥٠ ألف نسخة في السحب، أمّا المبيعات فلا تتجاوز ٣٠ ألفًا». وأمام هذه الأوضاع الصعبة التي تمرُّ بها الصحافة الورقية المغربية، يؤكد حكيم بلمداحي، بأنّ الحكومة المغربية وضعت مخططًا لدعم قطاع الصحافة، لكنّه يبقى، بحسب رأيه، غير كافٍ، «وهذا ما يجعل هذه الصحف أمام خيارات محدودة لضمان البقاء والاستمرارية؛ إذ يبقى اعتمادها من أجل تحقيق التوازنات المالية على الإشهار وبعض الدعم الذي تتلقّاه، وهما في كلّ الأحوال، لا يسمحان بظروف عمل جيّدة بالنسبة لهذه الصحف المهدّدة بالاندثار».



اليمن..
عشرات الصحف توقفت
والصحافيون تشتتوا بين المعتقلات والهجرة والاصطفاف الحربي

لطف الصراري صحافي يمني

يمر الحديث عن الصحافة الورقية في اليمن، بسياقات إجبارية تتعلق بأمرين: صورتها التي كانت في طور التخلّق منذ النصف الأخير لعقد التسعينيات، وما صارت إليه في المشهد المأساوي الراهن. مسار منحشر بين زمنين؛ زمن تجسده صورة غير مكتملة التظهير، وزمن يجسده مشهد انهيار مستمر للمناخ الملائم للعمل الصحفي. هكذا باتت الصحافة الورقية مثيرة لحنين قرائها على قلّتهم في هذا البلد. ذلك أن ما كان متاحًا لهم من إصدارات صحفية يمارسون من خلالها متعة القراءة المتنوعة، تلاشى نهائيًّا. حنين لزمن كانت فيه الصحافة بدأت لتوها التنفس برئتي الألفية الثالثة، وكان المرور على أكشاك الصحف طقسًا يوميًّا يحرصون على أدائه قبل الذهاب إلى العمل، أو حين عودتهم، متأبطين جريدة تحتوي ما يثير اهتمامهم ونقاشهم في جلسات المقيل.





وفقًا للمعايير الصحفية دوليًا، وعدد الصحف التي تخطت المئة صحيفة في عموم اليمن، لم يكن زمن الصورة غير المكتملة، زمنًا ذهبيًا لصحافة مزدهرة مهنيًا. رغم ذلك، قليل من الصحف الأهلية التي ظهرت بعد عام ٢٠٠٥م، حاولت جعله كذلك، عبر تفعيل حق الحصول على المعلومة وكسر نمطية الإعلام الحكومي والحزبي، ورفع نسبة أجور الصحفيين إلى حد ما، وانتهاج خط تحريري مغاير وغير متحيز. غير أن رئتي الألفية الثالثة التي ساعدت الصحافة الورقية على التنفس بشكل أفضل، وإحراز تقدم نسبي في مستوى المهنية والتوزيع والعمل المؤسسي إجمالًا، ساعدت أيضًا في تصاعد حظوة الإعلام الإلكتروني. وشأن جميع وسائل الإعلام في العالم، ازدهرت الشاشة، لكنها لم تقضِ تمامًا على جاذبية الورق.

في زمن الصورة غير مكتملة التظهير، عملت الصحف الورقية على تقليص الهوة التنافسية مع الإعلام الإلكتروني، بحيث تواكب الاستفادة منه تجاريًا. لكنها استفادة لم تتقدم أبعد من استيعاب أرشيف المادة المنشورة ورقيًا، ومقتطفات الأخبار العاجلة، وفتح نافذة صغيرة للإعلانات. غير أن مواردها الأساسية ظلت معتمدة على الإعلان الورقي، والمبيعات المعتمدة بدورها على قلة من القراء اعتادوا المرور على المكتبات والأكشاك صباحًا، أو من يصادفون بائعًا متجولًا لشراء صحيفة. أما الاشتراكات السنوية، فلم تكن تذكر ضمن الموارد الأساسية للصحف. ورغم أن هذا الانفتاح على الفضاء الإلكتروني خلق فرص عمل محدودة للصحافيين، فإنها فرص لم تكن مستقرة بحال، إضافة إلى كونها لا تسدّ الاحتياج المعيشي.

انهيار مفاجئ

كان عام ٢٠١١م نقطة تحول للصحافة الورقية في اليمن؛ فبعد أن توقفت معظم الصحف بسبب الأزمة الاقتصادية التي رافقت الاضطراب السياسي إبان احتجاجات «الربيع العربي»، ما لبثت أن عاودت الصدور مع بداية مرحلة الانتقال السياسي، الذي حظي بدعم دولي واسع. عدد من الصحف الأسبوعية تحول إلى يومي، إضافة إلى صدور صحف يومية جديدة، وصحف أخرى غير منتظمة الصدور أفرزتها ساحات الاعتصام. كان ذلك انتعاشًا مفاجئًا يشبه الإفاقة الحيوية لمريض على وشك التعافي أو لفظ أنفاسه الأخيرة. تكوّن مشهد الانهيار المفاجئ للصحافة بالتزامن مع انزلاق التوتر السياسي نحو الحرب. ومنذ سيطرة جماعة الحوثي على العاصمة صنعاء في سبتمبر ٢٠١٤م، بدأت بعض الصحف بالاحتجاب، وتعرض بعضها للإغلاق، وبخاصة الصحف الحزبية والأهلية المحسوبة على خصوم الحوثيين، ثم تضاعفت المأساة حين اندلعت الحرب الشاملة في مارس ٢٠١٥م، إذ تكاثرت العراقيل أمام استمرار صدور الصحف، الأهلية على وجه الخصوص. عشرات من هذه الصحف، يومية وأسبوعية، توقفت، في حين تشتت الصحافيون بين البطالة والمعتقلات والهجرة، والاصطفاف الحربي.

يختصر نائف حسان - رئيس تحرير صحيفة «الشارع» اليومية، المشهد المأساوي الراهن للصحافة في اليمن، بوصفه «مخاطرة كبيرة وأمرًا غير مجدي». فالصحف المستمرة في الصدور في صنعاء، «تمثل وجهة نظر سياسية- حزب المؤتمر وجماعة الحوثي». ويضيف حسان: «الحرب أجبرتنا على التوقف عن الصدور، والتوقف عن ممارسة العمل الصحفي، ولا بديل آخر لدينا إلا انتظار توقفها». من زاوية أخرى، يرى محمد عائش- رئيس تحرير صحيفة «الأولى» اليومية، أن «انهيار سوق المبيعات» كان أحد أسباب انهيار الصحافة الورقية. وهو سبب متفرع -حسب عائش- عن سبب رئيس تمثل في «الكلفة المالية الكبيرة التي كان على الصحافة تحملها بفعل الحصار وارتفاع أسعار الوقود والورق بصورة خيالية». إضافة إلى ذلك، فقد «تسببت الحرب بإغلاق مدن وعزل مناطق، وأصبح انتقال الصحف وسط هذا التقطيع لأوصال البلاد متعذرًا، ما تسبب في محدودية الطباعة بحيث لم تعد العائدات كافية للإيفاء بكلفة النفقات». ولا يغفل عائش سببًا رئيسًا آخر تمثل في الأوضاع السياسية والأمنية، التي أفرزت انقسامًا حادًّا لدرجة أن «كل صحيفة لم يعد بإمكانها العمل بشكل مستقلّ» ذلك أن «تصنيف الصحف على هذا المعسكر أو ذاك في ظل هذه الأوضاع، هو مقدمة لأذى قد يلحق الصحيفة والعاملين فيها».


نائف حسان

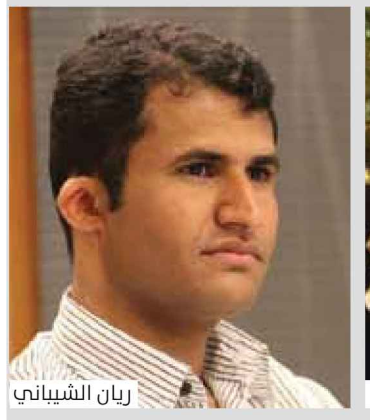
استرسالًا في وصف تأثير حدة الانقسام في العمل الصحفي، يرى عائش أن من يصدر صحيفة من صنعاء «لا يستطيع أن يقدم صحافة حرة بعيدًا من خطاب «التعبئة» لدى الطرف الحاكم... والحال نفسها لدى من يصدر من عدن أو من تعز، فهو لا يستطيع أن يقدم عملًا إعلاميًّا خارج ما تريده الجماعات المتعددة المسيطرة هناك». في تعز، كان فكري قاسم يصدر صحيفته «حديث المدينة» بشكل منتظم قبل عام ٢٠١١م، ثم عاد لإصدارها بصورة متقطعة عدة مرات حتى عادت تصدر بانتظام في موعدها الأسبوعي. لكنها توقفت نهائيًّا ضمن التوقف الجماعي للصحف. يقول فكري، الذي اكتفى بالتنويه بأن استمراره في إصدار صحيفته «كان صعبًا جدًّا لأسباب كثيرة»: «من لحظة اندلاع الحرب، قررت الابتعاد عن أجوائها وأكتب عن السلام الذي يحتاجه اليمنيون؛ لكي يتعافوا من الكراهية وتتعافى البلاد. لقد مضيت في خطتي هذه إلى اليوم ككاتب صحفي».


محمد عائش

وفي مدينة تعز أيضًا، توقفت الصحيفة الحكومية «الجمهورية» عن الإصدار ورقيًّا بصورة نهائية. ويقول زكريا الكمالي، الذي عمل مديرًا لقسم الأخبار فيها قبل أن يتولى رئاسة تحرير صحيفة «ماتش» الصادرة عن المؤسسة نفسها: «لم نكن نتوقع أن يأتي يوم تتوقف فيه الصحافة الحكومية التي كانت تستمر حتى في الأعياد. منذ عملي في مؤسسة الجمهورية في عام ٢٠٠٥م لم أعرف التوقف عن


فكري قاسم


زكريا الكمالي


ريان الشيباني

العمل سوى لثلاثة أيام خلال إجازة عيدي الفطر والأضحى، أما حاليًا، فنعتمد على خدمة «ماتش موبايل» لإرسال أخبار المباريات ونتائجها فقط».

لم يقتصر مشهد الانهيار المفاجئ للصحافة في اليمن على إغلاق الصحف أو اضطرارها للتوقف عن الإصدار؛ فمئات الصحافيين الذين كانوا يعملون في الصحف الورقية أو مواقعها على الإنترنت، أو في مواقع إلكترونية أخرى، وجدوا أنفسهم في مواجهة بطالة مفتوحة ومزاج عام في أقصى درجات التوتر. لا يتحدث معظم الصحافيين عن البدائل المعيشية التي اضطروا للأخذ بها من أجل البقاء، غير أن الصحافي ريان الشيباني يختزل في السطور التالية، ثقل الركام المتهاوي على الصحافيين إثر فقدان أعمالهم: «تأثرت معيشتي بشكل مطلق، وبخاصة أنني كنت أعتمد بشكل شبه كامل على عملي كمدير تحرير ثانٍ لصحيفة «الأولى» التي توقفت بفعل أزمة المشتقات النفطية، والجو العام الذي شحنته الحرب». ويتابع ريان بمرارة: «فقدت مصدر رزقي، وأصبحت عاطلًا لأكثر من عام. ثمّ انتقلت للعمل في منظمة حقوقية، بمبادرة شخصية من بعض الأصدقاء».

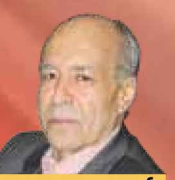


منذ سيطرة جماعة الحوثي على العاصمة صنعاء، بدأت بعض الصحف بالاحتجاب، وتعرض بعضها للإغلاق، وبخاصة الصحف الحزبية والأهلية المحسوبة على خصوم الحوثيين، ثم تضاعفت المأساة حين اندلعت الحرب الشاملة، فتكاثرت العراقيل أمام استمرار صدور الصحف، وبخاصة الأهلية

آمال متفاوتة بالانبعاث

رغم أن الأوضاع الراهنة تلقي بظلال شديدة القتامة على توقعات عودة الصحافة الورقية في اليمن على المدى القريب، فإن كثيرًا من الصحافيين لم يفقدوا الأمل بالعودة، حتى مع فارق سقف التوقعات. يؤكد نائف حسان أن استئناف الإصدار بالنسبة لصحيفته، مرهون بزوال أسباب التوقف. وفي حين يؤكد تمسكه بمستوى «الاستقلالية والمهنية والمصداقية»، الذي كان ملتزمًا به قبل التوقف، يؤكد أيضًا على ضرورة «تحسين الجودة»، ويرى أن عودة الصحافة الورقية وتعافيها مجددًا، «يعتمد على الصحافيين وطريقة ممارستهم لمهنتهم». في السياق ذاته، يتوقع محمد عائش، بدرجة تفاؤل عالية «أن تعود الصحافة المطبوعة إلى حالها من الحيوية والازدهار وربما أفضل». في حين يربط فكري قاسم توقعه لمستوى انتشار أي مطبوعة مستقبلًا، بقربها من ضحايا الحرب. وبنظرة ملامسة لواقع ما كانت عليه الصحافة اليمنية وما صارت إليه، يشير زكريا الكمالي إلى عاملين أساسين يرجحان أن تَلْقَى الصحافة الورقية صعوبات كبيرة في استئناف عملها؛ هما المبيعات والإعلانات. فالمبيعات التي لم تكن مزدهرة بالمستوى المطلوب في الماضي، لن تنتعش بسهولة مستقبلًا، ولن يعود الإعلان التجاري مثلما كان في الظروف الطبيعية أيضًا، وذلك «بسبب هجرة رؤوس الأموال وتضرر البيوت التجارية».

إيمانويل ماكرون.. رئيس لزمن سياسي جديد



أحمد المديني روائي وكاتب مغربي

لن نبالغ إن قلنا: إن فرنسا تعرف مع انتخاب رئيس الجمهورية الجديد إيمانويل ماكرون أهم ثالث حدث مر حتى الآن في تاريخ ما يسمى «الجمهورية الخامسة» التي دشنها الجنرال شارل ديغول في نهاية يونيو من سنة ١٩٥٨م بعد الاستفتاء الذي أوصله إلى الحكم وخول له سلطات واسعة، جعلته يقود البلاد باسم اليمين الجمهوري. الحدث الثاني هو وصول فرانسوا ميتران إلى قصر الإليزيه في مايو ١٩٨١م، في محاولته الانتخابية الثانية باسم اليسار الفرنسي، والحزب الاشتراكي تحديدًا، ليسقط هيمنة اليمين ويزيح خصمه الرئيس فاليري جيسكار ديستان، ويبقى رئيسًا في سباعيتي حكم متواصلتين انتهت في مايو ١٩٩٥م، ليسترجع اليمين من جديد قصر الإليزيه في شخص الرئيس جاك شيراك. وتستمر دورة الرئاسة بعد ذلك منتقلة إلى ساركوزي، اليميني دائمًا، ينتزعها منه فرانسوا هولاند باسم الحزب الاشتراكي.

الحدث الثالث في تاريخ الجمهورية الخامسة في فرنسا، لن يمس بطبيعة الحال مبدأ ونمط تداول السلطة المعتاد منذ سنة ١٩٥٨م بين القوتين السياسيتين الكبريين في المجتمع الفرنسي، ممثلتين بما سيصطلح عليه اليمين الديغولي، كتلة متجانسة من عدة أطراف، واليسار قوة مكونة من قوتين أساسيتين ببرنامجين مختلفين، الحزب الاشتراكي، والحزب الشيوعي، اللذين تحالفا سنة ١٩٨١م حول برنامج واحد للحكم. يتمثل الحدث الثالث بقوة وإثارة غير مسبوقة حقًّا، في وضع حد لما كان يبدو لدى أهل السياسة، والرأي العام في فرنسا بمنزلة تحصيل حاصل، نعني حصر تداول السلطة بين هاتين القوتين وحدهما، ودوام احتكارهما لمنصب رئاسة الجمهورية، ومنه الأغلبية البرلمانية التي منها تتشكل الحكومة التنفيذية الموالية غالبًا للرئاسة. نعم، لقد وُجد دائمًا يمين ووسط، وتبلور يمين متطرف، وكذلك يسار متطرف، حاول كل منهما تقديم بديل للمتداولين، ولم ينجح فيه قط، إلى هذه الانتخابات الرئاسية التي عاشتها فرنسا في عامنا هذا، وأنجبت رئيسًا للجمهورية لم يكن بتاتًا في وارد أي تكهن أو حساب مطلقًا لدى المكونات السياسية المعروفة، بأيديولوجياتها ومراكز نفوذها وتجذرها التاريخي وتمثيلياتها الشعبية الراسخة، على امتداد ما يربو على نصف قرن.

هل كان الرئيس فرانسوا هولاند، وهو يدعو الشاب ماكرون، وهما في حفل عشاء ببيت صديق مشترك، ليلتحق به أمينًا عامًّا مساعدًا في قصر الإليزيه، قبل عامين فقط، وليعينه بعد عام في فرصة اهتزاز وتمرد لجناح من الاشتراكيين ليحل محل وزير الاقتصاد المتمرد مونتبورغ؛ هل كان هولاند عندئذ يحسب لحظة واحدة أن هذا الشاب الخجول، المتكتم، إنما المسلح بتكوين جامعي صلب، ويمتلك أسلوب عيش خصوصي، ويعرف كيف يحرق المراكب دون دخان، هو نفسه من سيودعه في نهاية مدته الرئاسية بمدخل قصر الرئيس، هو يغادر إلى الشارع العام، والنزيل الجديد، ماكرون، يدلف بدلًا منه إلى عرين الحكم، لا، ليس هذا وحسب، بل إنه يدخل إلى قصر الإليزيه فوق حطام القوتين السياسيتين التقليديتين للبلاد، اللتين انهارتا معًا، وخسرتا في وجه مجموعة سياسية غُفل وحديثة التأسيس تسمى حركة «إلى الأمام» أخطر رهان سياسي، وهي التي لم تَر النور إلا في يوليو من العام الماضي، ويحصل مؤسِّسُها وفريقه الصغير على أكثر من عشرين مليون صوت ناخب، ونسبة ٦٦٪ من أصوات الناخبين في الدورة الانتخابية الثانية حول الرئاسة، مقابل ٣٣٪ ونيف لحزب اليمين المتطرف بزعامة ماري لوبين الذي كان شبحه يهدد حقًّا بالفوز.

الطريق الملكي

يحتاج الأمر إلى عرض معطيات كثيرة لفهم ما جرى. لنختزل قائلين: إن هذه الفئة القليلة التي غلبت فئة كثيرة جدًّا عبرت في الزمن المنفلت لخسارة مشاريع القوى السياسية الكبرى، وعجزها عن تقديم حلول ناجعة في ميادين الاقتصاد والتعليم والشغل، ولتخبطها بين اختيارات ليبرالية واشتراكية هجينة وتلفيقية، وخصوصًا لأن الفُرقة دبَّت في أوصالها التنظيمية، ففقدت

البوصلة، وفتحت هشاشتها الطريق «الملكي» لماكرون؛ كي يعبر ويدخل اليوم إلى قصر الإليزيه دخول الفاتحين. في جعبته، وهذا ما يحتاج إلى وقفة خاصة، برنامج عمل سياسي اقتصادي، جريء وصادم، ليبرالي في جوهره، واشتراكي واجتماعي وديمقراطي في خططه ومنهجه الإصلاحي. وضعته نخبة خلفية من اقتصاديين وأرباب عمل ومقاولات كبرى، و«أوليغارشية» جديدة مضادة لأخرى سابقة عليها، تريد العمل على رأب الصدع بين رأس المال والفئات الاجتماعية المتضررة، واستمالة الطبقة الوسطى، واستيعاب مطامح جيل جديد لم يعد يجد في اليمين واليسار التقليديين مكانًا ولا تعبيرًا عن آماله وثقافته الجديدة العولمية. هذا الجيل الذي انجذب إلى فتوة ماكرون، وامتلاكه لشجاعة المبادرة وخلخلة البناء التقليدي «الإستبلشمان» هو الرصيد الشعبي الأكبر الذي يراهن على ربح المستقبل، وعلى البقاء في الاتحاد الأوربي، والحفاظ على عملة موحدة (الأورو)، وجعل فرنسا تسترجع مكانتها في سياق العولمة.

خلافًا لما ذكره بعض بتسرع وعدم فهم، فإن الرئيس الفرنسي الجديد لم يأت من عدم، بل هو من سلالة سابقيه، ومر بسلك التدريس والتكوين الذي عبر منه الرؤساء السابقون جميعًا تقريبًا، لا بأس من الإشارة إلى بعض العناصر والمعلومات التي تفيد في معرفة الشخص والشخصية والمسار وتبلور المشروع الذي هو قيد التكوين، أي لم يكتسب بعد هوية واضحة، وله اتصال وامتدادات في شعاب شتى من المجتمع ومكوناته الاجتماعية والاقتصادية والعرقية والثقافية والدينية، ولا شك في أن المسلمين وذوي الأصول العربية، مَشارِقة، وخصوصًا مغاربيين، في قلبها. وهو في التاسعة والثلاثين يستطيع إيمانويل ماكرون أن يفتخر بأنه حصل على الثانوية العامة في ليسيه لوي لو غران بباريس، الذي يعد من أهم مشاتل إعداد النخبة الفرنسية بأقسامه التحضيرية التي تهيئ لولوج المدارس العليا، وليس الجامعة المفتوحة للجميع، عبر مباريات صارمة، ومنها الالتحاق بأقسام التكوين التي تقود إلى قيادة المصالح الإستراتيجية للدولة. هكذا التحق من الليسيه بمعهد العلوم السياسية الباريسي، الرفيع، وبعده بالمدرسة الوطنية للإدارة، شأن أسلافه جيسكار وشيراك وهولاند، وبعد التخرج رأسًا إلى وزارة المالية مفتِّشًا للضرائب، وهو تقليد لدى كبار الخريجين، ليختطفه بنك روتشيلد الشهير، ويصبح من كبار أطره في مدة وجيزة حقق له مكاسب مالية ضخمة، فلمع نجمه في الوسط المصرفي ومجتمع ما يسمى بصيادي الكفاءات، وقد أشرنا للمصادفة التي حملته إلى العمل بجانب الرئيس السابق هولاند، وكانت أول خطوة له في طريق الحكم. هي إذن أرضية صلبة نشأ فوق أديمها هذا الشاب الذي بعد أن أثبت كفاءته، وجد من يشحنه بطاقة جديدة ولمشروع لم يكن في الحسبان.

نعم، هو سليل المدرسة القديمة، وفي الوقت نفسه ابن جيله، واختطَّ له طريقًا يلائم مواهبه واستعداداته. فنيًّا، هو عازف بيانو، وهاوي مسرح، وقارئ دؤوب، بل مؤلف، وكم مرة أفصح أن قرة عينه في كتابة الرواية. ليس غريبًا والحال هذه أن يختاره الفيلسوف الهرمونيطيقي الفرنسي بول ريكور ليتخذه مساعدًا له في تنظيم أرشيفه وإعداد محاضراته، أمضى سنة بجواره، ولا شك أنه تعلَّم الكثير من هذا الأستاذ الذي ترك فرنسا وأصبح من أعلام الجامعات الأميركية،



خلال الثمانينيات والتسعينيات. هكذا تظهر صورة أخرى للرئيس الجديد، بسيما المثقف والفنان، والشغوف بتحديث بلاده وتوثيق عُراها بروابط التقدم والنمو العالمي. هذه القيمة المُضافة تربطه بفرانسوا ميتران، الرئيس المثقف بحق، الذي لم يكن يفوته أسبوع من دون أن يطرق مكتبات الحي اللاتيني وهو رئيس، يمشي إليها بقدميه ويقتني كتبه شأن أي قارئ عادي.

إلحاح على العلمانية

هي ثقافة قانونية، وسياسية، وإدارية، واقتصادية، وأدبية، وفلسفية، وفنية، تكاد إذن، تصبح موسوعية، على غرار المثقفين الفرنسيين الكلاسيكيين، يمتلكها هذا الرئيس الشاب، ولنقل: إنها من نسغ ليبرالي، متعدد ومتفتح ومستنير. وهو ما يجعله في خطبه وتصريحاته وأوراقه الصحفية، لا يمل ولا يكل من الإلحاح على اللائكية (العلمانية)، وعدّها النهج الفكري والحياتي والثقافي الأنسب لفرنسا، والضامن لتعايش واحترام مكوناتها العرقية والدينية والفكرية المختلفة. وخلال حملته الانتخابية تعرض لتشنيع وتهجم من اليمين المتطرف وخصوم غيره، بدعوى أنه يُمالئ الطوائف الدينية، ومنهم المسلمون خاصة، وربط هذا الاتهام بشبهة الإرهاب، الوصمة التي أضحت لصيقة اليوم، من أسف، بالإسلام والمسلمين في الغرب. كان ماكرون قد تعرض لأول هجوم عاصف من القوى اليمينية حين ندد بالحقبة الاستعمارية الفرنسية للجزائر، وأقر بضرورة الاعتراف بضراوة هذا الاستعمار، واعتذار فرنسا عنه، وهو ما يمثل خلافًا كبيرًا داخل الدولة الرسمية وبين الأحزاب مجتمعة. يعدّ تبني علمانية الدولة، الذي ينهض على الفصل بين هذه والأديان، والمسألة الدينية عمومًا، حسب القانون الذي أقر منذ سنة ١٩٠٥م وبناء عليه يُتعامَل مع جميع الأديان، هو منطق ماكرون وحركة إلى الأمام، والمسلمون مشمولون به، وحقوقهم الدينية وشعائرهم مرعية وفقه، خلافًا لمناهضة اليمين المتطرف وعنصريته، أو نفاق اليمين التقليدي الذي كثيرًا ما يمنع عمداء مدنه على المسلمين توفير مسجد وأماكن عبادة لائقة. بل إن موجة الإرهاب التي ضربت فرنسا تسببت لدى الاشتراكيين أنفسهم في خلط الأوراق من هذه الناحية، ليصبحوا بدورهم وباسم مكافحة الإرهاب مناوئين. عند ماكرون فإن اللائكية هي صمام الأمان ومقياس التعامل مع الدين وأهله.

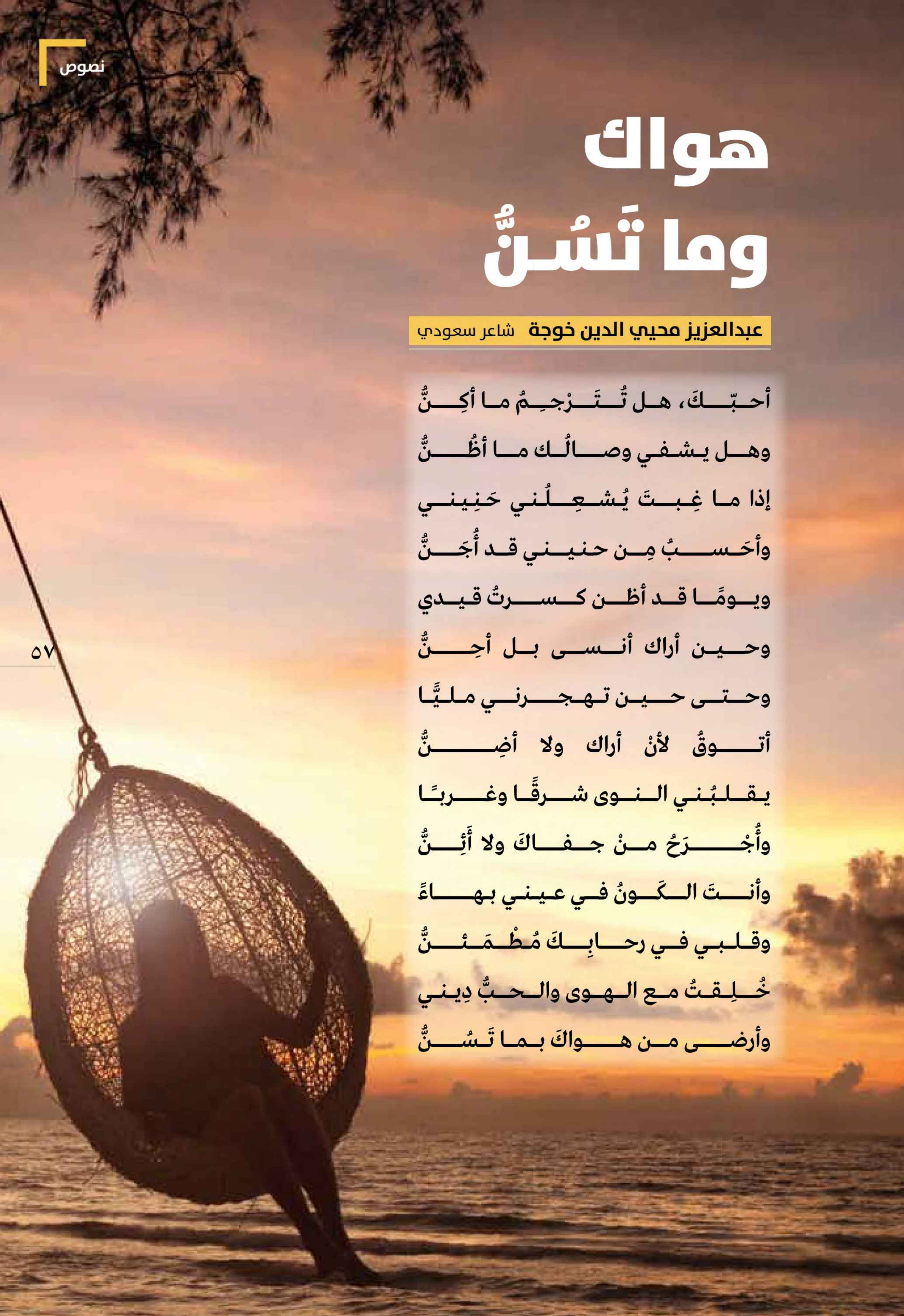
ويبقى ملف الهجرة والمهاجرين خاضعًا لمقاييس اقتصادية محضة، ولسوق العمل، من دون وجود أي توجيه سابق ذي طابع وطني أو شوفيني، متعصب، كما هو الشأن مع اليمين المتطرف الذي يدعو إلى إغلاق الحدود، والتضييق على الحقوق المدنية للأجانب وحرمانهم مكتسبات عديدة بشكل عنصري سافر، باسم حق الفرنسيين أولًا.

> **ماكرون، عازف بيانو، وهاوي مسرح، وقارئ دؤوب، بل مؤلف، وكم مرة أفصح أن قرة عينه في كتابة الرواية. ليس غريبًا والحال هذه أن يختاره الفيلسوف الهرمونيطيقي الفرنسي بول ريكور ليتخذه مساعدًا له في تنظيم أرشيفه وإعداد محاضراته**

المشهد الفرنسي مفتوح على احتمالات كثيرة

الآن، ينبغي لنا أن ننتظر نتائج الانتخابات التشريعية في يونيو المقبل، التي ستسفر عن ولادة البرلمان الجديد وبأغلبية غير السابقة حتمًا، لا أحد قادر أن يتكهن من سيحصل عليها. هل سيتمكن ماكرون، الذي نقل حركته إلى مستوى حزب سماه «الجمهورية إلى الأمام»، وبها سيخوض هذه الانتخابات بتحالف مع حزب الوسط لزعيمه بايرو، وعلى جناح من اليمين الديغولي ممثلًا في عمدة بوردو آلان جوبي، وفئات ممثلة للمجتمع المدني غير مسيَّسة على الإطلاق، ويأمل التوافر على أغلبية تتيح له تطبيق برنامجه الرئاسي، أم هو اليمين الديغولي، الممثل في حزب «الجمهوريون» الذي خسر مرشحه فيون في الدورة الأولى للرئاسيات، ويبدو الرئيس السابق ساركوزي من يقوده خفية؛ الحزب الذي يدفع بالسيناتور فرانسوا باروان رأس حربة في حملته للانتخابات التشريعية، ويعول على حصد أغلبية البرلمان، وبذا يستطيع تشكيل الحكومة وفرض برنامجه على رئيس الجمهورية، وهو رهان صعب يريد من ورائه الديغوليون التقليديون المتشددون أن ينتقموا لخسارتهم، ويعيدوا ساعة فرنسا إلى الوراء، أو إلى مربع ما قبل ماكرون.

هكذا، يتبدى المشهد السياسي في فرنسا مفتوحًا على احتمالات شتى لهندسة شكله وتركيب فسيفسائه. غير أن ما لا يقبل الجدال، ولا يحتمل أي مناورة، هو أن فرنسا انتقلت إلى عهد حكم جديد، تفككت فيه الثنائية التقليدية، أو الزوج: يمين/ يسار، وانبثقت فيه قوى ليبرالية وسطية، ويسارية شعبية وشعبوية، زيادة على تنامي قوة اليمين المتطرف. مشهد سيعرف مزيد تفكك وإعادة بناء المجتمع السياسي بتشكيل تنظيمات مستجدة قادمة من قلب التنظيمات القديمة، وإن بأطروحات وبرامج تحاول أن تتلاءم مع الواقع الراهن، الداخلي والأوربي، والعولمي، ومن المهم أنها -أغلبها- تلتقي حول ضرورة الحفاظ على الوحدة، ودعم البناء الأوربي والعملة الأوربية الأورو، والمنافسة على الصعيد العالمي، وعلى مستوى المبادئ إنعاش قيم الجمهورية وتحصينها: الحرية والعدالة والمساواة. وهذا ما التزم به بقوة الرئيس إيمانويل ماكرون.



هواك وما تَسُنُّ

عبدالعزيز محيي الدين خوجة شاعر سعودي

أحبّكَ، هل تُترْجِمُ ما أكِنُّ
وهل يشفي وصالُك ما أظُنُّ
إذا ما غِبتَ يُشعِلُني حَنِيني
وأحَسبُ مِن حنيني قد أُجَنُّ
ويومًا قد أظن كسرتُ قيدي
وحين أراك أنسى بل أحِنُّ
وحتى حين تهجرني مليًّا
أتوقُ لأنْ أراك ولا أضِنُّ
يقلبُني النوى شرقًا وغربًا
وأُجْرَحُ منْ جفاكَ ولا أَئِنُّ
وأنتَ الكَونُ في عيني بهاءً
وقلبي في رحابِكَ مُطْمَئنٌّ
خُلِقتُ مع الهوى والحبُّ دِيني
وأرضى من هواكَ بما تَسُنُّ



منعطفات الرواية العربيّة.. منذ النكسة حتى احتلال العراق

يمنى العيد ناقدة لبنانية

يُحدِّد العنوان لمنعطفات الرواية العربيّة، موضوع البحث، زمنًا تاريخيًّا يقع بين العامَيْن ١٩٦٧ و٢٠٠٣م، أي بيْن هزيمتيْن هما هزيمة الجيش المصري أو ما عُرِف بالنكسة، وهزيمة الجيش العراقي أو احتلال العراق، ما يعني أنَّ العنوان يُضمر الإشارة إلى علاقةٍ بين الأدب والتاريخ، أو إلى أثرٍ يتركه الواقع التاريخي في الأدب الذي هو هنا الرواية. ولئن كنتُ هنا، لست معنيّة بدراسة التاريخ، فإنّي أحدِّد سؤال الموضوع، على النحو الآتي:

ما الأثر المرجعي الذي تُحيل إليه الرواية العربيّة (لدى القراءة) على تشكُّلها بنية روائيّةً فنيّة؟ أو بصيغة أخرى: كيف نرى روائيّة الرواية العربيّة بين النكسة والاحتلال، أي بين حدثيْن متفجِّريْن وكارثيين، أصابا بلديْن عربيّين كان للرواية العربيّة فيهما نتاجٌ ملحوظ، وترك هذان الحدثان أثرهما في الكتابة الروائيّة العربيّة بشكل عام؟

لقد كان الروائيّون العرب، المبدعون بشكلٍ خاصّ، هم أوّل مَنْ أدرك أنَّ التقاليد الروائيّة السابقة (أو تقاليد الرواية الواقعيّة البسيطة) لم تعد قادرةً على التعبير عن هذا الواقع التاريخي الجديد. هكذا طرح صنع الله إبراهيم سؤاله: «كيف أعبّرُ عن الواقع، كيف أكتب»، مفصحًا عن هاجسه في إيجاد الشكل الملائم، لكن، على أساس أنْ تكون لحظة الكتابة، وكما يضيف «تفسِّر وتبرِّر وتسمح بفهم الواقع وإمكانيّة تغييره في الوقت نفسه»[1]. وهكذا قال عبدالرحمن منيف: إنَّ مسعاه هو أن يكتب رواية لها «ملامحنا ونكهتنا الخاصّة». أي: رواية تقول، فنيًّا، حكايتنا بما هي حكايةٌ لها تاريخيًّا وعلى أرض الواقع خصوصيّتها[2]. وما قاله صنع الله إبراهيم وعبدالرحمن منيف، وسعَيَا إلى تحقيقه فيما كانا يكتبانه من أعمال روائيّة، هو ما سعى إليه معظم الروائيّين العرب في تلك الحقبة الزمنيّة.

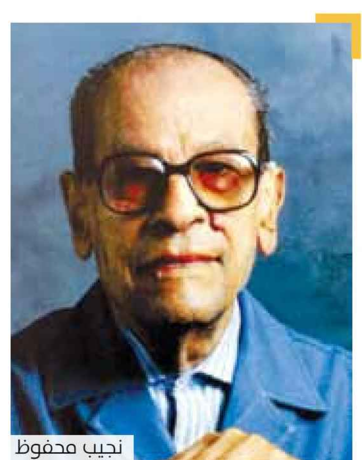
ويمكننا، في هذا الصدد، تمييز مسعييْن بارزيْن لانعطافة الرواية العربية:

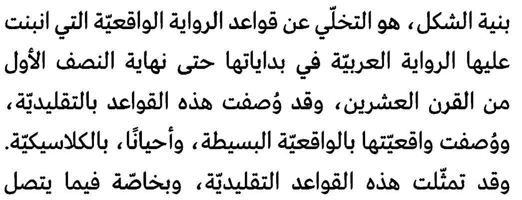
مسعى أول تمثّل، بدايةً، ولدى بعض، فيما عُرف بالتجريب الذي عنى تجاوز تقاليد السرد الروائي السابقة، الواقعيّة، التي ميّزها ورسَّخها نجيب محفوظ في ثلاثيّته أواخر النصف الأول من القرن العشرين.

مسعى ثانٍ تمثّل، لدى بعض آخر، في الانتقال بالواقعيّة من بساطتها إلى حداثتها. لكن، لئن كان المسعى الأول نزع بتجريبيّته لأنْ تبقى، هذه التجريبيّة، مفتوحة على التنوّع والتعدّد والاختلاف، فإنَّ المسعى الثاني مال بواقعيّته الحداثيّة إلى ترسيخ تقاليد فنيّة للسرد الروائي العربي ترتبط بخصوصيّة التاريخ وحكايات الواقع المعيش.

المسعى التجريبي - التحديثي

لعلَّ من اللافت أنْ يكون نجيب محفوظ الذي أرسى قواعد الرواية الواقعيّة العربيّة هو من أوائل، إنْ لم يكن أوّلَ من كسر هذه القواعد في روايته «ميرامار»[3] التي صدرت في عام النكسة نفسه، أي في عام ١٩٦٧م، وكان ما حكت عنه هذه الرواية بمنزلة استباق يشير إلى الفساد الذي أدّى إلى النكسة. ويمكن القول: إنَّ رواية «ميرامار» تشكّل نموذجًا رائدًا لبنية التشكُّل الروائي العربي الساعي إلى اختلافه وتميّزه حداثيًّا على أساس مِنْ تعامله مع واقع الثورة الناصريّة والمأزق الذي آل إليه هذا الواقع قُبيْل الهزيمة. ولعلّ أول ما يلفتنا في رواية «ميرامار»، وباعتبار


نجيب محفوظ


بنية الشكل، هو التخلّي عن قواعد الرواية الواقعيّة التي انبنت عليها الرواية العربيّة في بداياتها حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وقد وُصفت هذه القواعد بالتقليديّة، ووُصفت واقعيّتها بالواقعيّة البسيطة، وأحيانًا، بالكلاسيكيّة. وقد تمثّلت هذه القواعد التقليديّة، وبخاصّة فيما يتصل

بزمن السرد، بالسّياق الخيْطي المتّسق وفق مقتضيات العُقدة وحبكتها والحل/ النهاية. ففي «ميرامار»، الساعية، تجريبيًّا، إلى حداثتها، أي إلى ما يخوّل لها التعبير عمّا آل إليه واقعُ الثورة، قبيْل النكسة، يتعدّد الرواة الساردِون للحكاية، ويتقطّع زمن السَّرد، بدل الحكاية الواحدة ثلاث حكايات تُروى من وجهات نظر مختلفة، تخصّ مقتل سرحان البحيري وكيل حسابات شركة الإسكندريّة للغزل. ثلاث حكايات للحكاية الواحدة، يتناوب عليها ثلاثة رواة شباب هم من أركان الثورة الناصريّة، وذلك لا لمعرفة القاتل وحلِّ عُقدة الرواية وصولًا بها إلى نهايتها، شأن السرد في رواية الواقعيّة البسيطة، أو الكلاسيكيّة/ التقليديّة، بل لمعرفة المقتول، سرحان البحيري، وما يعنيه بشخصيّته وبسلوكه وبفكره. أي بصفته، لا الفرديّة، بل بصفته رمزًا من رموز الثورة الناصريّة، ويختزن أكثر من دلالة.

يؤدّي انعطاف رواية «ميرامار» الحداثي أكثر من وظيفة دلاليّة:

- تعدّد وجهات النّظر للحدث الواحد على قاعدة تعدّد الرواة والمنظور المختلف.
- الإيهام بحياديّة المؤلِّف الضمني الذي يتّخذ صفة الراوي الشاهد. بدل أنْ يقف خلف البطل شأنه في الرواية الواقعيّة البسيطة، أو الكلاسيكيّة التقليديّة، رواية الصوت الواحد.
- التعريف برموز الثورة الثلاثة، رواة الحكاية، بصفتهم مسؤولين وقيّمين على مؤسّسات الدولة، ومتّهمين مفترضين بقتل زميلهم، سرحان البحيري، أحد نزلاء بنسيون ميرامار المقيمين فيه.
- توسيع مجال السّرد الدّلالي الذي يكشف عن خيانة رموز الثورة وانتصارهم المزيّف لها.
- الكشف عن مأزق نظام العلاقات الاجتماعية في زمن الثورة الناصريّة، وصياغة المعادلة بين الفاعل وفعله، أو بين السبب والنتيجة. كأنَّ سؤال الرواية ليس إلّا جوابًا عن سؤالٍ آخر سابق ومطروح عن فشل الثورة. والرواية نسيج لإنتاج معرفةٍ تكشف عن الوجه الحقيقي لرموز الثورة الذين يستغلّون مؤسّسات الدولة التي يديرون شؤونها لتحقيق أحلامهم الخاصة... وهي بذلك تودّ أن تقول: إنَّ أصحاب الثورة يقضون على ثورتهم، وإنَّ المقتول هو قاتل نفسه، والفاعل ذاتيّ، داخليّ. إنَّ الدراما التي يعيشها المقيمون في بنسيون ميرامار هي، في الرواية، دراما العلاقة بين الثورة برموزها المتعدّدة، والشعب برمزه الواحد زهرة. يمكن القول: إنّ التحديث الذي سعى إليه نجيب محفوظ في هذه الرواية تمثّل بشكلٍ أساسي في تعدّد الرواة، وفي الحكاية المرويّة على قاعدة كسر الزمن الخطّي، وفي الراوي الشاهد. إن هذا المسعى التحديثي خوَّل له نقل سبب النكسة من فاعلٍ إلى فعلٍ تَعدَّدَ فاعلوه، وهو بتعدُّد فاعليه يحيل إلى الأخلاق (سرقة سرحان البحيري المصنع، وطموحات حسني علام الإقطاعي وحنينه إلى زمن ما قبل مصادرة أراضيه) أكثر ممّا يحيل إلى السيّاسة، أو إلى السلطة ورأسها. كأنّ الرواية بذلك استشرافٌ للنكسة التي رفض بعدها الشعبُ المصري تخلّي عبدالناصر عن رئاسة مصر. وكأنَّ هذا الاستشراف هو نهايةٌ لروايةٍ لا خاتمة لها، نهايةٌ مفتوحة على أكثر مِن احتمالٍ مرهونٍ بوعي الناس وبقدراتهم على التغيير. يتنوّع التجريب، وهو في تنوُّعه كان يبدو بمنزلة بحثٍ عنْ أساليبَ وتقنيّات جديدة تكتسب بها الروايةُ القدرة الفنيّة على رواية حكاية الـ«نحن»؛ ذلك أنَّ الرواية العربيّة، كما أرى، فنٌّ جديد في أدبنا وثقافتنا، يبدو معه الواقع الاجتماعي التاريخي الذي لم يتشكل في طبقاتٍ بمنزلة الحوض البديل لما فسَّرَ نشأةَ الرواية الغربيّة (الثورة الصناعيّة، تكوّن طبقة برجوازيّة، وثقافة تتعدّد وتتنوّع حقولُها المعرفيّة)، فالتجربة الروائيّة العربيّة تعيش مراحلها الأولى ساعية إلى اكتساب ملامحها الخاصّة وهويّتها الفنيّة الحديثة، من دون الانزلاق إلى تقليد حداثة الغرب.

وباعتبار التنوّع التجريبي أقدّم المثالين الآتيين:


غالب هلسا

رواية السؤال (١٩٧٩م):

في هذه الرواية[٤] يتوسّل غالب هلسا شخصيّة ترميزيّة هي شخصيّة السّفّاح المعرَّف بفعله الذي هو القتل. القتل هو هويّته، والجثث: جثّة عبدالعليم، وجثّة الفتاة منى، وجثّة صديق مصطفى، وجثّة الفتاة التي تعمل في شركة الطيران العربيّة... هي الشاهد على هذه الهويّة. يتحوّل السّفّاح، في الرواية، إلى كابوس يداهم مصطفى في

مناماته، وتتحوّل المنامات إلى أحلام يقظة تُشعر مصطفى بعجزه عن التحرّر من سلطة الرمز الأبوي المتمثّل في سلطة التاريخ الماضويّة وسلطة السّياسة الحاكمة. لكن قيام السرد على هذا المستوى الترميزي المتخيّل يعجز عن الاستمرار بسرده على هذا المستوى، أي يعجز عن إبداع مستوى متخيّل كابوسي بديل للعالم المرجعي. فالسرد، كما نلحظ، يبقى حريصًا على العودة إلى عالم الواقع المرجعي، أو على تذكيرنا به، وهذا يضعف وظيفة السّفّاح على مستوى البنية الفنيّة ككل، ويجعلها تبدو اعتراضيّة محدودة الوظيفة، أو طارئة، ثانويّة حتّى لا نقول مستعارة؛ ذلك أنها، أي وظيفة السّفّاح، لا تغيّر من طابع السرد، أو من واقعيّته، فيما هي توحي لنا بأنّها بصدد الاختلاف عنه، أي عن طابعه، بهدف تغييره.

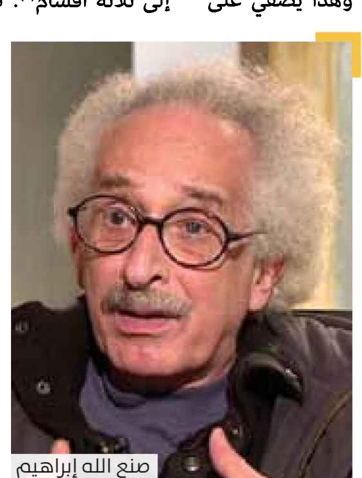
كذلك يتوسَّل غالب هلسا أحلام اليقظة ليعبّر، في روايته «ثلاثة وجوه لبغداد» (١٩٨٤م)، عن لا معقوليّة ما يجري في بغداد في ظلّ سلطة صدّام حسين؛ وهذا يضفي على السَّرد طابعًا فانتازيًّا. لكنَّ هذه الفانتازيا تبقى مجرَّد طابع لا يتجذَّر به عالَم الرواية ليستقلَّ بمتخيَّله كعالمٍ لا معقول. هكذا تبقى ذاكرة القراءة مدعوَّة لتأويلٍ يعود بها إلى المرجع التاريخي ولا تحملها، هذه الفانتازيا، إلى عالمٍ هو موضوعُ اكتشافها. ومع هذا يمكن القول: إنَّ الالتباس الذي سعى إلى توليده التجريب في هاتيْن الروايتيْن، بتوسُّل شخصيّة السّفّاح وأحلام اليقظة الكابوسيّة، من شأنه أن يؤدّي وظيفة التأويل المفتوح على تعدُّد القراءة واختلافها بدل الوضوح الدلالي الذي وسم الرواية التقليديّة، وركز الدلالة في العُقدة والنهاية. إضافة إلى أنَّ التحرّر من الحبكة والعقدة، من شأنه أيضًا أنْ يتيح لهذا السرد التجريبي إمكانيّة التنويع على إقامة معماره الروائي الفني وفق ما تقتضيه زمنيّة القول وشرطه التاريخي. يبدو التجريب عند غالب هلسا، المطرود من وطنه (الأردن) والمطارَد في أكثر من بلد عربي لجأ إليه، يبدو هذا التجريب بمنزلة بحث عن كيفيّة سرد فنّي قادرٍ على قول المعنى العميق لهذا الواقع التاريخي الذي غدا كابوسيًّا في ظلّ سلطة حاكمة تقمع وتسجن الأدباء الذين يكتبون وينتقدون ويعبّرون بحُريّة عن رؤاهم ومواقفهم. إنّه همُّ القول وكيفيّته. قول الحكاية، حكايتنا، نحنُ أناس مجتمعاتٍ تعاني الحرمان وعيش حياتها بحُريّة وكرامة، وتسعى، في الآن نفسه، لكي يكون لها روايتها التي وإن كانت تستفيد من تجارب الغرب الروائيّة، إلّا أنَّها تودُّ أنْ تتحرّر من التقليد والمحاكاة للرواية الغربيّة، أي ممّا وَسَمَ

لم يكن التجريب هدفًا بذاته بل مسعى لروايةٍ تقول، وعلى مستواها الفنّي المميّز، حكايتها الخاصّة

الروايةَ العربيّة في النصف الأوّل من القرن العشرين. سوف أقدّمُ مثالًا آخر على هذا التجريب السردي الروائي، التجريب الذي توسَّل إدراج النصوص المقتبسة، أو المدوَّنات، في المتن الروائي، وقام بتحويل المدوَّنة إلى لعبةٍ مسرحيّة، لأتوقَّف، بعد ذلك، عند رواية الحرب اللبنانيّة التي عبَّر بعضها عن انعطافةٍ حداثيّة لافتة كما سأوضح.

رواية شرف (١٩٩٧م).

في هذه الرواية، يقسّم صنع الله إبراهيم الخطاب الروائي إلى ثلاثة أقسام[٥]: في القسم الأول تعتمد الرواية الخطابَ السردي المحدّد، روائيًّا، بقواعد جنسه الأدبي، (التقليدي)، فتحكي حكاية دخول أشرف عبدالعزبز سليمان السجن. في القسم الثاني تترك الروايةُ هذا الخطاب السردي وقواعد جنسه لأوراق الدكتور رمزي بطرس نصيف. هذه الأوراق هي قصاصات صحف ومجلّات ومدوَّنات بخطٍّ اليد. تحكي هذه الأوراق، [أو الخطاب/ المدوَّنة، وبضمير الأنا/ الراوي] تجربة صاحبها الدكتور رمزي بطرس، وتنقّله، بحكم وظيفته في شركة، بين عدّة بلدان من


صنع الله إبراهيم

بلدان العالم الثالث. يدوّن الدكتور رمزي بطرس ما يطّلع عليه من أسرار الشركات، وما تعقده هذه الشركات من صفقاتٍ تجني من ورائها أرباحًا طائلة، إضافة إلى الخطاب/ المدوّنة، تتوسّل الرواية، في هذا القسم الثاني، العرض المسرحي، أو مسرح الدمى، الذي يديره الدكتور رمزي بعد أن حوَّل مدوَّنته إلى حوار مسرحي. يجري هذا العرض المسرحي في فناء عنبر السجن، ويقدِّمه السجناء الذين يتولّون لعبة تحريك الدمى، وتقديم العرض بأصواتهم الحواريّة التي تقلّد أصوات أصحاب القبور. تقول: «نحن (أربعين) ألف قتيل سقطنا في حروب ٤٨، و٥٦، و٦٧، و٧٣» (ص٣٣٩- ٣٤٠). كما تقلّد أصوات الأسرى الذين أجبرهم جنود الاحتلال على حفر قبورهم بأيديهم قبل أن يمطروهم بالرصاص (ص٣٤٠). وكذلك أصوات المعوّقين الذين يسألون «مِنْ أجل أي شيء كانت تضحياتنا» (ص٣٤٣). في القسم الثالث تعود الرواية إلى الخطاب السردي الذي

توسّلته في القسم الأول، لتخبرنا بأنَّ الدكتور رمزي أعلن إضرابه عن الطعام بعد أنْ وُضِع في التأديب بسبب العرض المسرحي الذي قدَّمه.

تشكِّل أوراق رمزي بطرس خطابًا مختلفًا لا يَمْتثِلُ لقواعد السرد الروائي المعتمدة في القسمَيْن الأول والثالث من الرواية. إنَّه، إذا صحَّ التعبير، الخطاب/ المدوَّنة الذي يخترق الخطاب السردي وينقله مِنْ سردٍ مِنَ الذاكرة يقدّمه راوٍ بضمير الغائب إلى قراءة المكتوب (المدوَّنة) بضمير الـ«أنا». يؤدّي الخطاب/ المدوَّنة، أو هذا اللّعب الفنّي، وظيفةً دلاليّة تدعم قول الحكاية؛ إذ تربط مدلولات حكاية عالم السجن، الداخلي، الذي اقتيد إليه أشرف، بعالم أوسع، خارجي، تتوافر له أوراق الدكتور رمزي بطرس، نزيل السجن أيضًا. تُشكِّل عملية التوثيق التي تتّسم بها المدوَّنة، وتتمثل في تقديم معلومات وأسماء أشخاص وشركات وتواريخ وأحداث وحروب وأرقام... مرجعًا لا يحتمل الشّك الذي يحتمله السرد بصفته متخيَّلًا مرويًّا مِنَ الذاكرة. كذلك يتشكّل العرضُ المسرحي، بدوالّه ومدلولاته، كخطابٍ فنّي مختلف داخلَ الخطاب الروائي. هو حوارٌ مُمَسرَح يحيل، أيضًا، إلى خطاب المدوَّنات كمرجعٍ داخليٍّ له. يتشارك الخطابُ/ المدوَّنة بصفته التوثيقية، والعرضُ المسرحي بصفته الحواريّة، أي الصوتيّة/ السمعيّة، وباعتماده المدوَّنة مرجعًا له، في تدمير المتخيَّل الروائي السردي (الواقعي التقليدي) وفي إعادة إنتاجه. لكن إعادة الإنتاج هذه ليست مجرد لعب فني مجاني، بل هي لعب فني موظَّف لدعم الحكاية وتأكيد مصداقيّتها.

هكذا لا تفارق رواية شرف، ببنائها التجريبي هذا، قواعد الرواية الواقعيّة البسيطة وحسب، بل تخلخل علاقة التوافق المألوف بين القارئ والرواية التي اعتاد أن يقرأ. كما تخرّب إمكانيّة التواطؤ بينهما. وبذلك تبدو رواية شرف كأنَّها تضع القارئ في مساحة التغريب، وتطرح سؤالها على مفهوم النوع الأدبي الروائي المتماسك بقواعده المعتمدة سابقًا، لجهة استمرار صلاحيّته لحكاية حكايتنا. تطرح روايةُ شرف سؤالها على الرواية، ونطرح نحن سؤالنا عليها: هل قدّمت هذه التجربة الروائيّة مثالًا حداثيًّا للرواية العربيّة، أم أنها كانت مجرّد تجربة فرديّة لم تثبت، حتى اليوم، قابليّتها لاحتذاء عامّ؟ جوابًا نقول بأنّ الرواية فنٌّ وليد في الأدب العربي، لا تقاليد لها سابقة، أو موروثة في التراث العربي الأدبي؛ لأنّه لئن كان للعرب تراثٌ سرديٌّ، وكان بإمكان الرواية العربيّة أنْ تفيد منه، فإنَّ علينا، كباحثين ونقّاد، أنْ نميّز بين الفنون

يمكننا تمييز مسعييْن بارزيْن لانعطافة الرواية العربية: الأول تمثّل فيما عُرف بالتجريب الذي عنى تجاوز تقاليد السرد الروائي السابقة، والثاني يتمثّل في الانتقال بالواقعيّة من بساطتها إلى حداثتها

السرديّة التي منها الفنُّ الروائي. إن لفنيّة السرد الروائي في تشكّله عالمًا روائيًّا وقواعد وتقنيّات تخصّه وتميّزه بصفته الروائيّة، وتختلف عن فنيّة تشكل عالم المقامات مثلًا، أو عن فنيّة بنية الحكايات الشعبيّة، من دون أنْ يعني ذلك قطيعة بيْن فنِّ الرواية وهذه الفنون السرديّة الأخرى، أو عدم إمكانيّة إفادة الرواية منها. هكذا، فإنَّ الرواية، وبصفتها فنًّا وليدًا، كانت ولا تزال (وربما ما زالت حتى اليوم) تراكم تجربتها وتنوّع عليها؛ كي تبدع قولها (أو خطابها) الروائي، ومن ثَمَّ تشكِّل، على مستواها الفنّي، تيّارًا يميّزها بانتمائها المجتمعي وهويّتها الثقافيّة. بهذا المعنى لم يكن التجريب هدفًا بذاته بل مسعى لروايةٍ تقول، وعلى مستواها الفنّي المميّز، حكايتها الخاصّة. وبهذا المعنى أيضًا، يمكننا الكلام عن التجريب الروائي اللبناني الذي دعت إليه حكايةُ حربٍ مدمّرة طرحت سؤالها على فنيّة الرواية التي يكتبها اللبنانيّون بشكل خاص، وعلى الرواية العربيّة بشكل عام. فقد كان كلُّ ذلك يحدث في ذلك الزمن الواحد، أي ما بيْن النكسة واحتلال العراق، وفي عالَمٍ يشترك في المعاناة والأحلام ولغة التعبير وثقافة هذه اللغة وأدبها وتاريخها.

اقرأ المادة كاملة في موقع المجلة



هوامش:

١) انظر مجلة مواقف، عدد ٦٩، خريف عام ١٩٩٢م، ص (٢١- ٢٣).
٢) المرجع السابق، ص٦٨.
٣) انظر: يمنى العيد، الرواية العربية المتخيل وبنيته الفنية، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١١م، ص٥٣.
٤) للتوسع انظر: يمنى العيد، في معرفة النص، الطبعة الرابعة، دار الآداب، بيروت ١٩٩٩م، ص١٩١.
٥) للتوسع انظر: يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٩٣.

الشِّعْرُ

ماريان مور شاعرة أميركية
ترجمة: محمد حلمي الرِّيشة شاعر ومترجم فلسطيني

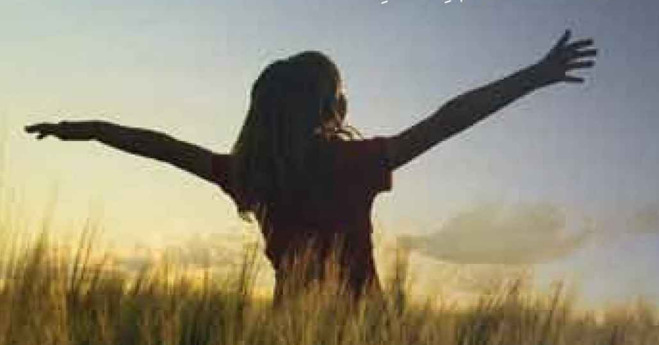
أَنَا، أَيْضًا، أَنْفُرُ مِنْهُ: هُنَاكَ أَشْيَاءُ مُهِمَّةٌ وَرَاءَ
كُلِّ هذَا الغَشِّ.
أَقْرَؤُهُ، وَلكِنْ، مَعَ ازْدِرَاءٍ مِثَالِيٍّ لَهُ، وَمَرَّةً
أَكْتَشِفُ فِيهِ
بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، مَكَانًا لِلأَصَالَةِ.
الأَيْدِي الَّتِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَنْقَبِضَ، وَالعُيُونُ
الَّتِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَّسِعَ، وَالشَّعْرُ الَّذِي يُمْكِنُهُ أَنْ
يَرْتَفِعَ
إِذَا ضَرُورِيٌّ، فَإِنَّ هذِهِ الأَشْيَاءَ مُهِمَّةٌ، لَيْسَ لأَنَّ
تَفْسِيرَ الصَّوْتِ العَالِيِّ يُمْكِنُ أَنْ يُوضَعَ عَلَيْهَا،
وَلكِنْ بِسَبَبِ أَنَّهَا
مُفِيدَةٌ. حِينَ يُصْبِحُ ثَانَوِيًّا جِدًّا بِحَيْثُ يَصِيرُ مُبْهَمًا،
وَرُبَّمَا يَقُولُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ لَنَا جَمِيعًا، وَإِنَّنَا
لَا نُعْجَبُ بِمَا
لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَفْهَمَ: الخفَّاشُ
يَكُونُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، أَوْ فِي سَعْيِهِ إِلَى شَيْءٍ

لِيَأْكُلَ، وَانْدِفَاعُ الفِيَلَةِ، وَالحِصَانُ الوَحْشِيُّ يَأْخُذُ
لَفَّةً، وَالذِّئْبُ
الَّذِي لَا يَكِلُّ تَحْتَ
شَجَرَةٍ، وَالنَّاقِدُ عَدِيمُ التَّأْثِيرِ يُوخِزُ جِلْدَهُ مِثْلَ
حِصَانٍ
يَشْعُرُ بِبَرْغُوثٍ، وَمِرْوَحَةُ
(البِيسْبُولِ)، وَالإِحْصَائِيُّ-

لَيْسَ قَادِرًا
عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ «الوَثَائِقِ التِّجَارِيَّةِ

وَالكُتُبِ المَدْرَسِيَّةِ»؛ كُلُّ هذِهِ الظَّوَاهِرِ مُهِمَّةٌ.
الوَاحِدُ يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ تَمْيِيزًا
وَمعَ ذلِكَ: حِينَ تَنْجَرُّ نَحْوَ الظُّهُورِ مَعَ نِصْفِ
الشُّعَرَاءِ،
فَإِنَّ النَّتِيجَةَ لَيْستْ شِعْرًا،
وَلاَ يُمْكِنُ حَتَّى لِلشُّعَرَاءِ بَيْنَنَا أَنْ يَكُونُوا
«حِرَفِيِّي
الخَيَالِ»- فَوْقَ
الوَقَاحَةِ وَالتَّفَاهَةِ، وَيُمْكِنُهُمْ أَنْ يَكُونُوا حَاضِرِينَ

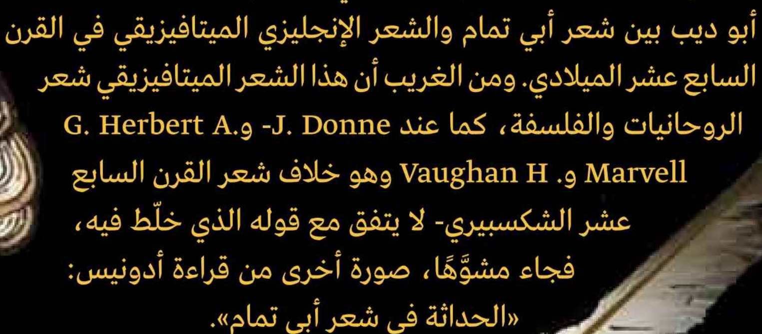
لِلتَّفْتِيشِ، «حَدَائِقُ وَهْمِيَّةٌ مَعَ ضَفَادِعَ حَقِيقِيَّةٍ
فِيهَا»،
وَيَجِبُ عَلَيْنَا
أَنْ نَأْخُذَ بِهذِهِ. فِي هذِهِ الأَثْنَاءِ، إِذَا كُنْتَ تَطْلُبُ مِنْ
نَاحِيَةٍ،
المَادَّةَ الخَامَّ لِلشِّعْرِ فِي كُلِّ قَسْوَتِهَا،
وَمَا هُوَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى
أَصِيلٌ، فَأَنْتَ مُهْتَمٌّ بِالشِّعْرِ.



الكتابة شعرًا في نظم أبي تمام

فضل بن عمّار العماري باحث وأكاديمي سعودي

برز موقف جديد ينحو بدراسة شعر أبي تمام نحو النقد الغربيّ، فطه حسين، رأى فيه، في قراءة عابرة، ما رأى بول فاليري في مالارميه، وتبعه شوقي ضيف، فقال: «إن هناك شبهًا بين غموضه ومعانيه العويصة، وغموض الرمزيين المتفرِّع عن البرناسيين الذين يعنون بالموسيقا والجمال المادي». وجاء أدونيس، بموقف الحداثة القائل: «إن أبا تمام انطلق من أولية اللغة الشعرية...أي خلق العالم باللغة...شعره يصدر عن «ضمير صنع. ليصل إلى أن الشعر «هو التطابق أو زواج الكلمة البكر بالعالم البكر» وهي مفاهيم مشتقة من مالارميه وبودلير وفاليري». وربط كمال أبو ديب بين شعر أبي تمام والشعر الإنجليزي الميتافيزيقي في القرن السابع عشر الميلادي. ومن الغريب أن هذا الشعر الميتافيزيقي شعر الروحانيات والفلسفة، كما عند J. Donne -و.G. Herbert A Marvell و. Vaughan H وهو خلاف شعر القرن السابع عشر الشكسبيري- لا يتفق مع قوله الذي خلّط فيه، فجاء مشوَّهًا، صورة أخرى من قراءة أدونيس: «الحداثة في شعر أبي تمام».



وورد في دراسة إيليا حاوي لأبي تمام اسما مالارميه، ورامبو. والأشد غرابة أن يقول عنه في موضع آخر: «الحقيقة...أن طبيعة شعره كانت تناقض التجربة الرمزية؛ لأنه من أصحاب الاتجاه العقلي ومن الذين يتفكرون على التجربة بقدر ما يعانونها، وربما كان يتفكر بها أكثر مما يعانيها». ولكنه كذلك لا يستبعده من البرناسيين. والعجب كل العجب أن عمَل حسين الواد -وإن كان أثر عبدالقادر الرباعي وكمال أبو ديب فيه واضحًا، وإن لم يذكر هنا- تطبيق عمليّ لما فهمه من انتهاج أدونيس نهج الرمزيين، ولم يذكر أدونيس أيًّا من أولئك، مع فارقٍ هو أسبقية الرؤية عند أدونيس وجمودها عند الواد. يتفق الواد الآن مع أدونيس، حتى إنه يشير إليه ولا يذكره في قوله: «وقد تأثر كتّاب الحداثة في البلاد العربية بهذا المسلك حتى جعلوا لأبي تمام منزلة في الشعر القديم شبيهة بمنزلة مالارميه في الشعر الفرنسي لما لمسوه بين شعريهما من وجوه التشابه والتقارب».

ولهذا قال: «تأسر الناظر في شعر أبي تمام، من ناحية اختياراته اللغوية، أول ما تأسره منه، تلك اللغة الأساسية المنتقاة التي تكاد تنطق بلسان حال العالم. وهي لغة أنفق الشاعر في انتقائها مجهودًا كبيرًا، فالتمسها في الموروث الشعري، واستخلصها من مخبوء كلام العرب، فأحدث بها المفاجأة التي تبعث على الاندهاش، وتستفز الحس، وترجع بالمرء إلى التأمل في علاقة الأسماء بالمسميات في النظام اللغوي. ثم إن هذه الاختيارات تجرجر معها قضايا لغوية كانت محلّ خلاف لم يُحسم...». والمهم أن الواد، الذي لم يقدّم جديدًا، عاد، واعترف بتحصيل أدونيس، بل نقض هذا التطبيق عمومًا، واضطرب، فتورّط، حين قال: «استعمل أبو تمام إلى جانب هذه الاختيارات التي تعتمد، عادة، في التمييز بين الكلام الفني والكلام العادي، اللغة التي يكثر جريانها في المحاورة فقصَّ وسردَ وعلّق شعره باليومي والتافه والراهن وأورد ألفاظًا من كلام «العامة وتعابيرهم». بينما يقيم دراسته على إيجاد حلّ لاختيارات أبي تمام اللغوية، على أساس أن لغته لغة ليست مكتسبة أو مصطنعة.

الشعر الفرنسي وأبو تمام

بل ابتدأ بالقول: «استعمل... الكلام الغريب الوحشي والساذج الغث السخيف المبتذل الذي يتنكّبه المُغربون ويترفّع عنه الشُّداة المبتدئون ويتجنّبه الصِّغار من المتشاعرين». فهِم الواد الشعرَ على أنه «فعل شعري»، ولم يستقم له الربط بين «الواقع والحلم والخيال»، فها هو يقول: «الفعل الشعري...فعل إرادي وواعٍ، فلو لم يكن كذلك لكان هذيان المجانين وكلام الحمقى شعرًا». وسنرى أن هذا نقيض رأي الرباعي. وحيث ينحدر الشعر إلى الإرادة والوعي، ولا توضع قيمة للعاطفة في هذه العمل، فإن المقارنة بين الشعر الفرنسي الرمزي وشعر أبي تمام لا واقع لها. وإنما أخضع الواد شعر أبي تمام له على ما بينهما من بون شاسع. ولا عجب أن تتأسّس دراسة الرباعي على «الإلهام الفطري»، و«القصيدة عند أبي تمام... شعرية


أدونيس


كمال أبو ديب

تعبيرية أخرجها الانفعال وولّدها الخيال»، و«اندماج الذات في الموضوع»، و«في قصائده المدحية... تشعر أنك فوق اللذة الأرضية... كان يمتلك دائمًا انفعالًا قويًّا...إنه زحزح اللغة عن مواضعها». وكذلك: «كان أبو تمام في دراميته شبيهًا بـ(هاردي) وعلينا أن نلحظ الفرق بين المدرستين: المدرسة الرمزية ومدرسة كلٍّ من شكسبير وهاردي، التي يحاول كل فريق أن ينسب أبا تمام إلى إحداها. وإذ أصبحت الجادّة سالكة لشعر أبي تمام، وآلَ إلى تلك النتيجة، فإن بعض أصحاب النقد الحديث رأى أنه لم يعد بعدُ مجال للعودة إلى الوراء، وكان علينا أن نتقدّم خطوات في دراسة أبي تمام، فكان هنالك طريقان: الطريق الأول هو الطريق البنيوي، على ما تمّ على يد يسرية المصري، ثم الطريق الذي يجمع بين البنيوية والتأويل.

وقد أقام سعيد السريحي دراسة عن شعر أبي تمام، على منهج «جدلية الأضداد». ووواضح من تحليلاته أننا خرجنا من التحليل إلى التأويل، وليت ما قاله السريحي صادقًا: «إن الشعر عنده تجربة مع اللغة تتفجر فيه أعماق طاقاتها، وتترامى فيها الكلمات إلى آفاق قصوى».. ورأينا منه مؤخَّرًا ذكر للرمزية والميتافيزيقية. وقد أشاد الواد بالسريحي، فقال: «أما عمليًّا فيتمثّل انعتاق السريحي من الجِرباويّة في اتجاه الباحث إلى فهم الأبيات الشعرية في علاقة مكوّناتها بعضها ببعض مع السعي إلى فهم اختيار الشاعر لها دون سواها في اللفظ أو التركيب أو في العلاقات التي تنسجها داخليًّا وتدلّ بها خارجيًّا». وليس هناك خلاف يذكر بين السريحي والواد وستيتكيفيتش، إلا إيغال الأخيرة في «البنية الطقوسية».

التصنيع وتشويه الشعر

لقد شوّه التصنيع شعر أبي تمام، ولم يبق له إلا الصور مجتزأةً، والألفاظ موقَّعةً، إذ لم يكن يهمّه إلا ذلك الحشد. كان أبو تمام واعيًا كل الوعي بالعملية الشعرية، حاضرًا كل الحضور في أثناء الصياغة الشعرية، فكانت هذه مفارقة حادّة بين الشعر والصناعة. وحتى يكون شعرًا لا بد أن يتناغم مع سواه في جو انسجامي مشحون بالعاطفة والتنامي، وأن يأتي متفجرًا من أعماق نفسه. ولم تكن معاني أبي تمام جزءًا من روحه الخفّاقة، بل كانت صياغات خياله المدرِك، من تفكيره. وهنا يتبيّن البون الشاسع بين الشعر الحلم والصناعة الشعرية. وهنا، علينا التوقّف كلية عن دراسة شعر أبي

تمام دراسة فنية أو إبداعية، وإن جاز لنا أن نقرأه أسلوبيًّا (لغة وتراكيب) على أنه طريقة كتابية، وليس شعرًا. ومن ثم، نتفق مع عبدالله التطاوي حين ساح مع نقد أبي تمام، مائلًا إلى تقديمه، ولكنه انتهى إلى القول: «التقت فيه العلوم، وتبلورت المصطلحات ممّا أثقل كاهل العملية الفنية كموقف إبداعي التقى فيه الوجدان بالعقل، والفكر بالشعور، والفن بالمنطق وبغيره من العلوم». وإن خالف هذا بعد زمن، فقال: «حالة العقل والاضطراب التي يعيشها الشاعر لحظة الإبداع ليستجمع طاقته وليصوغ فنّه، ومع محاولة الاضطراب - هذه- تتسع دائرة الانفعالات الأصيلة التي تحوّل المادة الواقعية إلى مادة فنية، وتحيل الحقائق إلى رموز».

وماذا يبقى لأبي تمام، إن وافقنا على مقولة عبده بدوي: «الثابت أن موسيقا أبي تمام كانت ريّانة، ومسترسلة حين يطلق لوجدانه العِنان ولكن حين يتحكّم فيها العقل نحسّ بنوع من الخفوت والرتوب الموسيقي». فكيف يكون هذا شاعرًا؟

ولم يأت أبو تمام من فراغ، بل جاء من ثقافة أدبية، شكّل أبو تمام قمتها، أي: استخدام البديع، وهكذا، سلّم الجميع بأن هذا هو نوع الشعر الذي يفرض نفسه. وبالتأكيد، فإن هذا النوع من الشعر كان خاصًّا بالطبقة العليا من المتعلّمين، ولم يكن يستهوي الشريحة الواسعة من القرّاء، حتى إنه كان مفصولًا كلية عن الشعب. كان أبو تمام فاتر العاطفة، جامد الإحساس. ويرى سيد الأهل أن هذا: «هو غاية الإبداع الفني». يقول بدوي: «إنه شاعر «صنّاع». ولقد قال العشماوي: «كان معظم محاولاته ضربًا من العناية بالشكل وإسرافًا في التأنق والتزويق والزخرف».. ليست الشاعرية في الشعر «المحدَث» مسألة إلهام وأحلام، وإنما مسألة وعي وصناعة، وعلى مقدار ما يتحقّق في ذلك الشعر من غنائية وتأثير يكون استقبال ذلك الشعر، بحيث لم يعد هناك أدنى معيار لما قاله أبو العتاهية، أو ابن دريد، أو ابن المعتز، أو غيرهم من العلماء والفقهاء، والكُتّاب، والنقّاد، والفلاسفة، وهلمّ جرًّا. وكان النقّاد الأوائل قد وضعوا معيارًا فصلوا به بين الشفوي والكتابي: «الإسلاميون» و«المولّدون» و«المحدَثون». والعجب أن يمجّد نجيب البهبيتي هؤلاء، فيما نرى خلافه عنده، فيقول: «أما ما كتبه القدماء، فأحكام مركّزة صادقة، تقوم على علم صحيح، وإلمام سليم بدقائق فنّ أبي تمام ومذهبه، وهم في ذلك لا يَغلون، ولا يفرّطون، وليس فيما كتبوه شيء من التخليط الذي هو الطابع البيّن لبعض الكتابات الحديثة...».

وكان أولئك الدارسون قد ضربوا عُرض الحائط بنقد محمد مندور الذي لم يجد في شعر أبي تمام، كي يكون تجديديًّا إلا «استعارة الهياكل»؛ لأنه أدب جزئيات «صادر عن صنعة ووعي بما يفعل، وأن الطبع فيه ضعيف الحظ» حتى وصفه وصفًا لائقًا به، وهو «الكلاسيكي الجديد». ولقد كان إخفاق دعاة الميتافيزيقية الرمزية وكذلك الشكسبيرية- الهاردية اللتين قامت عليهما البنيوية من كونهما لم يقدّما نماذج عملية من الرمزية نفسها للقياس والمقارنة؛ لأن ذلك غير ممكن، وإنما عرضوا انطباعية وذاتية، فتحجّرت البنيوية. ليست الميتافيزيقية إلا مغالطة وجهالة، فشعر أبي تمام أبعد ما يكون عنها.



سعيد السريحي



حسين الواد

ليست الميتافيزيقية إلا مغالطة وجهالة، فشعر أبي تمام أبعد ما يكون عنها.. وإن وضع شعره في مكانه الملائم له من صناعة البلاغة العربية هو الوضع المناسب له جدًّا

مالارميه

وليست الرمزية أبياتًا منتقاةً؛ لأن «الشعرية عند مالارميه هي شعرية الأحاسيس الباطنية والانفعالات المتأجّجة لا شعرية القوالب اللغوية الجاهزة». وإن وضع شعر أبي تمام في مكانه الملائم له من صناعة البلاغة العربية هو الوضع المناسب له جدًّا. ولذا، فإنه لا يسع المرء إلا أن يدهش أشد الدهشة لهذا التحكم في تحويل الفنّ الكتابي إلى صناعة شعرية؛ وليته كان فنًّا شعريًّا خالصًا!! ومن ثمّ، فإن أبا تمام باستعماله لغة لا يستخدمها، ولا تجاري عصره، حتى في اللغة الفصحى المكتوبة في ذلك العصر، يقع خارج العصر والزمان والطبيعة، فهي إذن لغة -لغته الأم- لا تصلح للدراسة على النحو السابق. والظن بأن أبا تمام كان يتكلم الفصحى سليقة هو الذي جرّ إلى كل تلك المغالطات. أننتهي حسبما يرى بسيوني عبدالفتاح بسيوني إلى أن موقفنا من شعر أبي تمام ليس لأنه تمادى في الإغراب والتخييل، وإنما لأنه كان يستخدم اللغة بوعي تامّ، وهنا تكون المفارقة، وليس لأن الشعر عنده «نتاج عبقرية؟ وهل نقبل رأي كامل حسن البصير القائل: «كثير هو دون شكّ شعر أبي تمام الذي لا يغذّي في هذا العصر عقلًا ولا عاطفة والذي إن دُرس فإنما يُدرس لغاية تاريخية».

جدل الشعر والثورة في شعر حسن طلب



يسري عبدالله ناقد مصري

يعتمد ديوان «إنجيل الثورة وقرآنها - إصحاح الثورة» (المجلس الأعلى للثقافة) للشاعر المصري حسن طلب، على جدل السياسي والجمالي، وعبر جدلهما الخلاق تتشكل البنى المركزية للديوان، وتتحقق سمات خطابه الثوري، حيث يعتمد الديوان في بنيته على ثيمتين مركزيتين هما: الحب، والحرية، يتصلان اتصالًا وثيقًا بجوهر الشعر والثورة في الآن نفسه، ويعبران عن المنحيين الأساسيين داخل القصائد: (المنحى الرومانتيكي، والمنحى الواقعي) كما تبدو الإحالة إلى وقائع حقيقية، وأحداث زمانية ومكانية محددة: «جمعة الغضب - جمعة الرحيل ٢٠١١م»، من أهم الآليات الجمالية التي يعتمدها الشاعر في نصه، فضلًا عن الاعتماد على دوالّ مركزية في النص ومنحها أبعادًا جديدة تتجاوز أفقها المادي لتصل إلى فضاءات نفسية وإنسانية، على نحو ما يصنع الشاعر مع مفردته الأثيرة في الديوان «الميدان»، في ديوان شعري بدا مسكونًا بالتوظيف الدالّ للصيغ الأسلوبية ذات الطابع الإنشائي، والصور البلاغية التي تجدل ما بين المتخيَّل والواقعيّ، وتتماسّ مع المقدَّس تارةً، والأسطورة تارةً أخرى، مستخدِمة ذلك جميعه في التعبير الفني والدلالي عن الثورة، وتسعى هذه الدراسة إلى استجلاء جماليات النص الشعري التي وظفها الشاعر في التعبير عن موضوعه المركزي هنا «الثورة».

للديوان فواتح وخواتيم، حيث يستهله الشاعر «باسم الحب والحرية»، وينهيه بعزمه على وصال المحبوبة في قصيدته «سآتيك»، وما بينهما جملة من النصوص الشعرية التي تطرح حالة ثورية بامتياز، فتتخذ أحيانًا أسماء لوقائع زمانية فارقة، على نحو ما نرى في العناوين التالية: «يرحب الميدان»، و«جمعة الغضب»، و«جمعة الرحيل»، أو تتخذ نزوعًا ساخرًا على نحو ما نرى في: «قلة مندسّة»، و«حكماء الأمة»، أو تنحو عناوين القصائد صوب إقرار حالة ما، على نحو ما نرى في: «ترفرف الرايات»، و«يزداد العدد»، و«يختلف الهتاف»، و«تمرض الثورة»، أو تنحو صوب الفانتازيا مثلما نرى في قصيدتي: «على أجنحة الفراشة» و«تظهر إيزيس»، أو تحيل إلى تلك الثقة في المستقبل: «غدًا سنرى»، أو إجمالًا لمشهد عام: «تلك هي القصة»، وفي كل تتحرك نصوص الديوان بوصفها تعبيرًا جماليًا عن الثورة المصرية في لحظاتها المختلفة، وتحولاتها المتعددة في مرحلة مفصلية من عمرها، يحددها الشاعر حين يضع بين يدي ديوانه ذلك الزمن المرجع، ويحدده بقوله: «كتبت قصائد (إصحاح الثورة) في المدة ما بين يناير ٢٠١١م إلى يناير ٢٠١٢م»، ويعد التحديد الزمني هنا حاكمًا لقراءة النصوص محلّ الدراسة من جهة، وكاشفًا عن سياقاتها السياسية الثقافية من جهة ثانية.

يتشكل الديوان من ثلاث وثلاثين قصيدة شعرية، تتفاوت فيما بينها في الطول والقصر تبعًا للحالة الشعورية التي يريد الشاعر أن يبثها إلى متلقيه، حيث تبدو القصائد الساعية صوب تشكيل عالم يمزج بين الثوري والرومانتيكي طويلة نسبيًا على نحو ما نرى في القصيدة الأخيرة في الديوان «سآتيك»، كما تبدو القصائد التي ترصد



مشهدًا بعينه من مشاهد الثورة أو حدثًا محددًا من حوادثها الفارقة قصيرة نسبيًّا على نحو ما نرى في قصيدتي: «جمعة الغضب»، و«جمعة الرحيل». يبرز في الديوان جدل الشعر والثورة، حيث يعد الديوان بقصائده جميعها تأريخًا للحظات مختلفة مرت بها الثورة المصرية، أو عطفًا على مشاهد حياتية مرت بها الجموع التي تحضر هنا بوصفها مجلى للعالم، وتكريسًا لعلاقة الذات الشاعرة بالسياق السياسي الثقافي المحيط. يتجادل السياسي والجمالي في «باسم الحب والحرية»، ويحضر الميدان منذ المفتتح، ويبدو الاستهلال الشعري ابنًا لصيغة حكائية، يتبناها الشاعر في نصه، حيث يقول: «منذُ أنْ أشرقتِ الحريةُ اليومَ/ بِزِيّ امرأةٍ ريانةِ القدّ/ وميادتِهِا!/ أصبحَ الميدانُ بستانًا/ وضاعَ العطرُ ألوانًا/ وغنّى طائرُ الحُبّ لصيادتِهِا!». ويعمق الشاعر بنيته الحكائية عبر توظيفه لفعل القول «قالت»، في إشارة منه إلى «الحرية» التي تتماهى في القصيدة مع الميدان، فيقول: «قالتْ: / بابُ بيتِي أصبحَ الميدانَ»، بعد أن قدمت إليه كعروس بكر، في استعمال دالّ للاستعارة المكنية في النص: «فتهادتْ كالعروسِ البكرِ../ مِن سَلّتِها ألقتْ على الثوارِ/ نثرا مِن زهورِ النارِ».

وتتواتر الصيغ الإنشائية في القصيدة، مثل: «فأجيبوه/ اهتفوا/ وانسوا/ فاهتفوا باسمي»، وبما يفضي إلى مزيد من الحث لجمهرة المتلقين، الذين يسعى الشاعر لأن يقفوا على حافة الفعل، مثلما وقف المشاركون في الثورة في قلب الميدان. ويبدو المزج دالًّا ما بين ثيمتي الحب والحرية في النص، وبخاصة في المقطع الأخير الذي يستعير فيه الشاعر جزءًا من إرثه الشعري القديم، حين يستحضر في متنه الشعري كلًّا من قيس ليلى، وابن زيدون، وبما يعني أيضًا انفتاح النص على جملة من الدلالات التي يستدعيها ميراث الشعر والحب والتضحية أيضًا التي يمكن تلمُّسها في نصوص وحكايات العاشقين: قيس وليلى، وابن زيدون ووَلَّادة: «فاهتفُوا باسمِي/ وباسمِ الحُبّ: كي لا يُحرَمَ الشاعرُ مِن غادتِهِ/ فَتُرى مَن غَيرُهُ يُنشدُكُم/ أروعَ مما قالهُ قيسٌ لِلَيلَى/ وابنُ زيدونَ لولَّادتِهِ».

التاريخ المباشر للحدث

ويلجأ الشاعر في تثوير خطابه الشعري إلى الاتكاء على التأريخ المباشر للحدث، والنصية على زمان حدوثه، مثل قوله: «كانَ ثلاثاءُ الخامسِ والعشرينَ/ مِنَ الشهرِ الأولِ../ ميعاد الصحوهْ. فقصدنَا الميدانَ../ كأنّ ملائكةَ الرحمانِ تُحالفُنا/ وطيوفُ إلهاتِ الحبّ../ تُصادقُنا/ فتفيضُ عواطفُنا/ بوميضِ النخوهْ!». وتتواتر الدوالّ الزمانية في الديوان، في محاولة فنية لرصد الواقع السياسي بتجلياته المختلفة، على نحو ما نرى في الاستهلال الشعري لقصيدة «كان كذلك»، التي يستهلها الشاعر قائلًا: «أمسينَا: / قدْ غلبَ القهرُ/ وأصبحنا: قد نفِدَ الصبرُ!». كما يلجأ الشاعر أحيانًا إلى معارضة الموروث، ومحاولة صوغ وعي جديد يتسق والفعل الثوري ذاته، بما يحويه من وعي وجسارة حقيقيين، فالعبارة الشهيرة: «دع المُلك للمالِك» يعارضها الشاعر في نصه، بقوله: «لن نَدَعَ المُلك»، ثم يحوّر العبارة ذاتها، ويصوغها على نحو مختلف، واصلًا لمعنى عميق

> **يعتمد ديوان «إنجيل الثورة» على جدل السياسي والجمالي، وعبر جدلهما الخلاق تتشكل البنى المركزية للديوان، وتتحقق سمات خطابه الثوري**

مشاهدات حية من مكان الفعل الشعري

تحضر «شهد» في قصيدة «جمعة الرحيل» من زاوية مختلفة عن تلك التي وجدناها في «جمعة الغضب»، حيث يختفي الظل الرومانتيكي نسبيًّا، وتبدأ القصيدة بدعوة مباشرة من الذات الشاعرة لشخصيتها المتخيلة «شهد» كي تشهد جمعة الرحيل، وتصبح الدعوة مشفوعة بوعي الذي اقترب فرأى، ومن ثَم تبدو الرؤية الشعرية في النص رؤيةً من الداخل، فالشاعر يقدم لنا مشاهداته الحية، وينقل لنا ما يدور في مكان الفعل الشعري «الميدان»، وتحضر «شهد» أيضًا في القصيدة الأخيرة من الديوان، التي تحتل حيزًا كميًّا من المتن الشعري للديوان أكبر من القصائد الأخرى، حيث تقع في ست عشرة صفحة، وتصبح فيها «شهد» مرويًّا له في القصيدة، حيث تتوجه الذات الشاعرة بخطابها إليها، ومن خلفها جمهرة المتلقين على تنويعاتهم، وتبدو القصيدة رصدًا فنيًّا مجملًا لمشاهد من الثورة المصرية ذاتها، فضلًا عن إشارات ذكية ذات طابع استشرافي للمصاعب التي ستواجهها: «سأتيكِ/ إلا إذا ما سماسرة الدِّينِ/ خانوا اليمينَ/ فهاجوا وماجوا علينا/ على المؤمنات بحتمية الدولة المدنيةِ/ والمؤمنينَ!/ أتوا بالسيوفِ../ أتوا بالعصي../ وعاجوا على المتحف الفرعوني.. في طرف ميداننا/ ثم أهووا على ما رأوا من تماثيلِهِ/ بالمعاولْ!/ فضاع تراث القرونِ/ وبادت كنوز الأوائلْ».

وتبدو دلالة المستقبل التي يحملها حرف السين في الفعل «سأتيكِ»، إشارة إلى وعد مسكون بالثقة قطعته الذات الشاعرة على نفسها، مفاده أنه مهما كانت التحديات، ومهما حال حائل، فإنها لن تتأخر عن الذهاب إلى «شهد» ووصالها،

وجديد في الآن نفسه، موظفًا الجناس التام في جملته الشعرية: «لن ندعَ المُلك ولا المالِك»، حيث تُغايِر دلالةُ «المالِك» في النص الشعري هنا دلالتها في الوجدان الجمعي، ويصير المالك هنا بمعنى الحاكم، ومن ثَم لن يترك المصريون لا المُلك أي الحُكم، ولا المالِك أي الحاكم، وبخاصة مع انفتاح النص على أفق تأويلي شفيف: «كذلكَ كانَ الأمرُ.. فقلنَا: لا.../ لن ندعَ المُلكَ ولا المالكَ! كانَ الأمرُ كذلكَ../ أشعلنا ثورتَنَا/ ثم هتفنَا/ فتوهجتِ الجَذوةُ».

ويحضر الشعار السياسي بقوة في الديوان، ويعد أحد الآليات التي اعتمدها الشاعر في التعبير الجمالي عن الثورة، ويمكن أن نرى ذلك في مقاطع عديدة من النص، من أبرزها، قول الشاعر: «العدالةُ دينُنَا/ حريةُ الإنسانِ - أيًّا كانَ- غايتُنا/ وباسمِ كرامةِ المصريّ/ كانَ هتافُنَا/ وضميرُنا القائدُ!». في «إصحاح الثورة» نرى تماهيًا بين الميدان والمجموع، فيقدم الشاعر الميدان بوصفه مثل ثواره ينشد الحرية، ويطلب العدل والكرامة، موظفًا الصورة التشبيهية البلاغية توظيفًا دالًّا، فيقول: «كأنَّهُ كانَ يعانِي مثلَنا!/ كأنهَ أحسّ ما نُحِسّهُ/ أو وجدَ الذي نجدْ». ويصبح «الميدان» بمنزلة الدال المركزي في الديوان، ليس فقط لتواتر حضوره في المتن الشعري للقصائد المختلفة، وإنما لمدلولاته الثرية التي يحملها ويحيل إليها من مقولات كبرى تتصل اتصالًا وثيقًا بمعاني الحرية وإنسانية الإنسان، وإمكانية تحويل العالم الافتراضي المتخيل الساكن خلف شاشات الكمبيوتر إلى عالم واقعي بامتياز، وهذا ما نجده وفق شاهد نصي من الديوان ذاته: «فنحنُ لولا ذلكَ الميدانُ/ كنا لا نزالُ نلتقِي/ عبرَ الجهازِ وحدَهُ/ نحتلُّ حيزَ الفضاءِ الافتراضي/ وراءَ الشاشةْ».

وتتحقق آليات تثوير الخطاب الشعري هنا عبر الإحالة إلى أحداث حقيقية في الواقع المعيش، ثم صوغها جماليًّا، على نحو ما رأينا في قصيدة: «ضابط يثور»، التي يشير فيها إلى التحية العسكرية التي قدمها أحد قادة المجلس العسكري للشهداء (المقصود هنا اللواء محسن الفنجري الذي قدم التحية العسكرية للشهداء في مشهد مهيب أذاعته القنوات المصرية والعالمية المختلفة)، في إشارة بالغة الدلالة تحيل إلى التلاحم الحقيقي بين الشعب المصري وجيشه الباسل: «إذ أدّى لروحِ الشهداءِ أروعَ الأداءِ/ بالتحيةْ». ويتحقق تثوير الخطاب الشعري أيضا عبر لجوء الشاعر إلى التنويع في الأساليب اللغوية المستخدمة، وما بين توظيف الصيغ الخبرية التي تفيد حالًا من الإقرار واليقين بانتصار الثورة، والصيغ الإنشائية التي تتواتر في النصوص جميعها؛ لأنها ترصد لحظات مرتبكة ومتحولة ومسكونة بالهواجس والأماني والغايات الكبرى، ومن ثَم سنجد حضورًا دالًّا لأسلوب النداء في مقاطع عديدة، من أبرزها الاستهلال

حسن طلب

فتتجادل الثيمتان المركزيتان في الديوان من جديد: «الحرية والحب»، وتشكلان عبر جدلهما الخلاق أساسًا للنص الشعري الثائر الذي يحمله الديوان، ويرفده الشاعر بعناصر واقعية وأخرى رومانتيكية، والأهم أنه يظل خطابا منفتحا على أسئلة الشعر والثورة معا، خاصة مع تقاطع التسجيلي والتخييلي في متنه: «هل تنجح الثورةُ؟/ هل تصمد كي تكتمل الدورةُ؟/ واليوم ستأتي «شهدُ»؟/ أم تأتي غدًا؟/ أسئلةٌ تترى.. وما أكثرها!/ كيف استطاع العاشق الثوريُّ/ أن يجمع بين العشق والثورة!».

يستخدم الشاعر آلية التناص في أكثر من موضع داخل الديوان، فتارة يستخدم التناص الأسطوري مثلما يفعل في قصيدته «وتظهر إيزيس»، والتي يستعيد فيها الأسطورة الفرعونية القديمة، بكل ما تحمله من حمولات معرفية ودلالية، وتارة يوظف الشاعر التناص القرآني، ليصبح في مواضع عديدة أحد أهم آليات التعبير الجمالي عن الثورة في الديوان، حيث يبدأ ديوانه بما أسماه «فاتحة»، ويقول في موضع آخر: «ما ينفع الناس - كما قيل لكم- / يمكث في الميدانِ../ حيث يذهب الزبد!».

ويتناص الشاعر في المقطع السابق مع الآية القرآنية الكريمة: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرضِ﴾ (سورة الرعد، الآية ١٧)، ولكنه يجعل من «الميدان» أداة معيارية للحكم على ما ينفع الناس، وعلى الزبد في الآن نفسه، وكأن الميدان خط فاصل بين عالمين: أحدهما نافع، والآخر لا قيمة له. وبعد.. يعتمد الخطاب الشعري في «إنجيل الثورة وقرآنها/ إصحاح الثورة» على جدل التسجيلي والتخييلي، فعبر تقاطع الوقائع والأحداث الحقيقية المختلفة وتداخلها مع مساحات الحلم والفنتازيا تتحقق شعرية النص، وتبرز الإحالة إلى الراهن المعيش بأبعاده الزمانية والمكانية الدالة على الثورة، ثم محاولة صنع عالم تخييلي أساسه الصورة الشعرية وجوهره في آن.

الشعري الذي يفتتح به الشاعر قصيدته «يزداد العدد»، حيث يبدو اللجوء إلى المجموع طريقًا للخلاص: «يا أهلَنَا/ لا تتركونا وحدَنَا/ لا بد مِن أنْ نحتشدْ/ لو اجتمعنا كلنا/ فلن يردنا أحدْ/ لا تتركونا نكتب التاريخ وحدنا/ فأنتم المداد والمددْ/ يا أهلنا/ لا بدَّ مِن أن نتحدْ». ويكشف النداء في المقطع السابق عن رغبة في الاحتماء بالمجموع، من جهة، ووعي بالدور الفاعل للمثقف صوب ناسه من جهة ثانية، كما نرى حضورًا للجناس الناقص بين «المداد والمدد»، وتسهم الصورة الشعرية هنا في تعميق الرؤية الكلية التي يحملها المقطع، وتلعب الصورة التشبيهية «فأنتم المداد والمدد»، دورًا مركزيًّا في هذا السياق؛ إذ تجعل من دعم المجموع حبرًا يُكتَب به النصر، وعونًا في الشدائد جميعها.

ومثلما يبدأ الشاعر قصيدته «ويزداد العدد» بالنداء: «يا أهلَنَا»، فإنه يُنهيها به أيضًا، في توظيف دالّ لآلية البناء الدائريّ، حيث يبدأ النص من نقطة ما، ثم يعود إليها في المُختَتَم، فيصبح النداء في النهاية بمنزلة الشحنة الشعورية والانفعالية التي يريد الشاعر أن يبثها في متلقيه، دافعًا إياه إلى مزيد من المقاومة، وبخاصة حين يكسر أفق التوقع لدى قارئه في ختام القصيدة، قائلًا: «يا أهلنا/ لا تحزنوا مِن أجلنا/ كل شهيد قد فقدناهُ: / إضافةٌ!/ يحدث في ملحمة/ أن ينقصَ المعدود أحيانًا/ فيزداد العددْ». ويصبح هذا التنويع الأسلوبي سمةً من أهم سمات الديوان، وأداة من أدوات التعبير الجمالي عن الثورة داخله، وإن ظلت الصيغ الإنشائية مهيمنةً على النص، ومشكلة ما يعرف بالمستوى المسيطر داخل الديوان، حيث نرى أيضًا توظيفًا لصيغة التعجب الثانية، وأعني بها صيغة «أَجمِل بِ» التي لا تستخدم كثيرًا في الحياة والكتابة، وتغاير في بنيتها صيغة «ما أَجملَ»، ويوظف الشاعر السياق التعجبيّ في مستهلّ قصيدته «مدينة فاضلة»، مقترنًا بامتداح الميدان، القادر على إثارة الدهشة والأسئلة طيلةَ الديوان، فيقول: «أَعجِب بذلك الكيانْ!/ أَحبِب بكائن وليدٍ/ جلّ أن يسمى/ أَعجِب بتلك الكتلة العظمى/ صارت بحيث انصهرتْ/ جبلة الإنسان والمكانِ/ ما أعجبنا ونحن في الميدانْ!».

الانتصار للقيم الفلسفية الكبرى

ثمة شخصية متخيَّلة «شهد»، يستدعيها الشاعر في متن ديوانه، فتحضر على نحو بارز في القصائد المركزية التالية: «جمعة الغضب/ مجنون شهد/ جمعة الرحيل/ سآتيك»، ويقدم الشاعر «شهد» بوصفها الحبيبة تارة، وشريكة النضال تارة أخرى، والشاهدة الغائبة تارة ثالثة، والدافعة صوب الانتصار للقيم الفلسفية الكبرى: الحق/ الخير/ الجمال تارة رابعة، وفي كلٍّ تقترن شهد بالثورة، وتعد وجهًا من وجوهها الأصيلة والنبيلة في الآن نفسه، وتنويعة

تبدو الرؤية الشعرية في النص رؤية من الداخل، فالشاعر يقدم لنا مشاهداته الحية، وينقل لنا ما يدور في مكان الفعل الشعري الميدان

جديدة على متن الجدل الخلاق بين الحب والحرية، وهما الثيمتان المركزيتان في الديوان، واللتان تمتزجان في معظم قصائده. وعبر تقديم الشاعر لشخصيته المركزية في الديوان «شهد» تتكشف لنا جملة من الدلالات المهمة، ففي «جمعة الغضب» يبدو الشاعر خائفًا على محبوبته التي يقدمها بوصفها شخصية متماهية مع المجموع الصامت الذي خشي عليه الشاعر من أن ينخدع بخطبة جوفاء، أو دمعة زائفة، ويحضر النداء بوصفه خيارًا أسلوبيًّا يوظفه الكاتب دلاليًّا وجماليًّا على نحو مائز: «يا شهدُ..ُ/ يا صاحبةَ الوجهِ الصبوحِ الحرِّ/ والروحِ النزيهْ/ اليوم جمعة الغضبْ/ فإن بكى الطاغية الآنَ../ فلا تصدقيهْ/ وفتّشي عن السببْ/ دمعان لا تصدقيهما: فلا دمع التماسيحِ/ إذا سالَ../ ولا دمع الطغاة المنسكبْ/ قد يرتدي الطاغية اليومَ/ عباءة الفقيهْ/ قد يختفي/ خلف قناع البطل المأزومِ/ كي لا ينسحبْ!».

وفي «مجنون شهد» تحضر «شهد» من جديد، لكن على نحو مغاير، حيث باتت حاضرة في مشهد الثورة بطريقة أو بأخرى، فالذات الشاعرة تستفسر عن سر تأخُّرها، وكأنها قد استجابت لنداء الشاعر في «جمعة الغضب» حين ناداها طالبًا منها المجيء، وبما يعني أن ثمة تماسَّات رؤيوية ما بين نصوص الديوان المختلفة: «لم أرَ «شهد» أمس في الميدانِ../ واليوم مضى بي النهار كلهُ/ لم أرها!/ فما الذي ترى عن الثورة/ قد أخرها؟/ في ساحة الميدان كانوا يهتفونَ/ (يسقط النظامُ)/ لكن هتافي كانَ: (يسقط الفراقُ!)/ والرفاق يضحكونَ!/ لو رفيقٌ/ كان كلما هتفت باسمها/ أخبرها!/ فالهاتف المحمول مغلقٌ/ وذلك الميدان ضيقٌ/ أما الجماهير فما أغفرها!». إنه عاشق مختلف حقًّا، يبحث عن محبوبته، ويعاني أثر الفراق، فلم يعد ينهل من حبها المتجدد، الذي أحاله إلى مجنون جديد يضاف إلى جملة العشاق في تاريخ ثقافتنا العربية، وفي تماس بالغ الدلالة مع الوجدان الشعبي، الذي عرف «مجنون ليلى» على سبيل المثال، وها هو الآن يقف أمام «مجنون شهد»، الذي يرفع راية الثورة بيد، بينما يمسك باليد الأخرى عشقه، بما يعني أن التواشج الدالّ بين ثيمتي الحرية والحب يعد الأساس الذي اعتمدت عليه الرؤية الكلية للديوان.

تركي السديري..

رمز صحافي لم يعش في منطقة الوسط

هيا عبدالعزيز المنيع أكاديمية وكاتبة سعودية

حين يرحل رجل بحجم تاريخ وعطاء تركي السديري فلا بد أن يكون حجم الفقد كبيرًا... فهذا الرجل يمكن القول: إنه من أهم مؤسسي الصحافة السعودية الحديثة... الحديث عن تاريخ تركي السديري الصحفي والإداري والإنساني تتسع مساحته باتساع وتميز عطائه في هذه المجالات... سأتوقف بين زوايا مختلفة لن أتوقف كما يتوقع القارئ عند مفترق القسم النسائي بجريدة الرياض، وهو: أي القسم الصحافي النسائي يمثل نقلة نوعية في تاريخ الإعلام النسائي السعودي؛ حيث تُوِّجت هذه النقلة بخطوة لاحقة وهي تفرغ عمل الصحفيات، وهو ما يعني معه الخروج من دائرة الهواية للمهنية والالتزام، أي العمل المؤسسي.

خلال عشرين عامًا من العمل اليومي معه تلمس في هذا الرجل عشق غير طبيعي للرياض الجريدة والمدينة. في بدايات عملي برئاسة القسم النسائي بجريدة الرياض عندما أردت الاستغناء عن صحافية عربية لم تشكل إضافة للقسم النسائي وافق على الفور، موجهًا أول نصيحة: «اتخذي القرار وفق معطيات لا تصنع أي خصومة مع شركاء العمل».

ومما لفت انتباهي وأثار اهتمامي في شخصيته أنه يرى نقاط القوة في منافسيه، وبخاصة المميزين منهم، كان يتحدث بإعجاب عن عثمان العمير وعبدالرحمن الراشد ويرى مساحة تميز عالية في المرحوم محمد أبا حسين حتى عندما ترك الجريدة وذهب للصحيفة المنافسة (الجزيرة) كان يرى فيه مهنيًّا مميزًا لم ينتقده ولم يقم بتعداد سلبياته في لحظة غضب... لم أسمعه يومًا يقلل من هؤلاء، بل يتكلم عنهم بإعجاب واحترام.

تقديره وحماسه للمواهب الشابة، وتبنيها بقوة وجدية،

عراب الصحافة النسائية

الفيصل

يعد الراحل عراب الصحافة النسائية بشكل خاص، فهو من وضع للمرأة الصحافية إطارها المؤسسي في قانون وزارة العمل؛ إذ لم يكن هناك بند وظيفيّ مقرر للمرأة السعودية العاملة في مجال الصحافة فمكّنها إعلاميًّا وإداريًّا وتقنيًّا قبل إتاحة المجال أمام الجامعيات السعوديات لدراسة الإعلام في الجامعات السعودية. سعى الراحل منذ أكثر من ٣٧ عامًا إلى أن تكون المرأة عنصرًا أساسيًّا يتكامل به العمل الصحافي، فبعد سبعة أعوام من رئاسته تحرير صحيفة الرياض، افتتح القسم النسائي في الجريدة عام ١٩٨٠م، الذي عُدَّ أول قسم تحرير على صعيد الصحافة السعودية ضم أكبر تجمع صحافي نسائي سعودي آنذاك.

القفزة التي ستظل تدين بها الصحافيات السعوديات لعرابها، بدأت باستحداث منصب أول مديرة تحرير نسائي غير متفرغة في صحيفة سعودية يكتب اسمها ومنصبها على ترويسة الجريدة إلى جانب مديري التحرير، وهي الدكتورة خيرية السقاف وهو قرار حظي باهتمام كبير وتهنئة شخصية من الأميرين الراحل نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية حينذاك، وسلمان بن عبدالعزيز أمير الرياض آنذاك أيضًا، وتناولت خبر ذلك القرار التاريخي كبرى وكالات الأنباء العالمية والعربية وصحافتها.

من ناحية، لعل لقب «ملك الصحافة» الشهير الذي أطلقه عليه الملك عبدالله بن عبدالعزيز رحمه الله، في إحدى لقاءاته التاريخية الأثيرة مع الإعلاميين السعوديين، دليل قاطع على ذلك التفرد وتلك المهنية التي تمتع بها الراحل تركي السديري أحد أشهر الصحافيين السعوديين والخليجيين الذين ستبقى لهم بصماتهم المؤثرة لأجيال صحافية سعودية مقبلة. لم يكن مجرد صحافي أو رئيس تحرير عبر الحياة الصحافية إنما يمكن القول: إنه كان كاتبًا ومفكرًا وناقدًا في المعنى الواسع والعميق

وتقديمه لهم دعمًا مطلقًا ومتنوعًا يتيح لهم الاستزادة من التعليم والتأهيل في جوانب كثيرة، كم من صحافية من منسوبات القسم النسائي حصلت على شهادة عليا وهي على رأس العمل، وكذلك الزملاء مع إعطاء العاملين دورات في اللغة الإنجليزية، بل إن بعض الشباب ابتُعث على حساب الجريدة.... تركي لم يخشَ في يوم ما منافسًا كبيرًا أو شابًّا طموحًا، وتلك درجة عالية من الثقة. واعتبر دعمه للشباب والفتيات ممارسة واعية للوطنية بتوطين مهنة الصحافة بكفاءات مؤهلة ومدربة، وقد تحقق ذلك في جريدة الرياض بأعلى نسبة بين الصحف السعودية.

إداريًّا، ميزته الصرامة والجدية، لا تجده في منطقة الوسط فهو حادّ في مواقفه وقراراته، ورغم ذلك فأنت أمام إنسان لا يبخل على ضعيف أو أن يفرِّج كُربة....، ورأيت ذلك غير مرة مع بعض منسوبات القسم النسائي، وكذلك مع الزملاء... استفاد من وجاهته الاجتماعية لمساعدة هذا أو هذه.

الرياض الصحيفة، ماذا تعني لتركي السديري؟ في جدل معتاد معه قال: «أنا أتابع الجريدة على مدار الساعة ولا بد أن أتلقفها مع ساعات الصباح الباكرة كما يتابع الأب ابنته في أول يوم من زواجها باللهفة نفسها والحب والقلق... لم يكن أبو عبدالله رئيس تحرير ينظر إلى ساعته وهو في العمل، بل كانت تحركه عاطفة قوية تجاه الرياض الصحيفة والوطن. عندما قدمت استقالتي في المرة الأولى قال لي : «إن كان عملك في الرياض لأسباب مؤقتة فأنت حرة في قرارك، أما إن كان قناعة بأهمية الإعلام في خدمة الوطن عمومًا، ونسائه على وجه الخصوص، فانسي الاستقالة وأكملي المسير». حينها عدت إلى قناعتي أن الإعلام الصحافي أقوى داعم لتحريك ملف المرأة في ذلك الوقت تقريبًا (عام ٢٠٠٠ ميلادية).

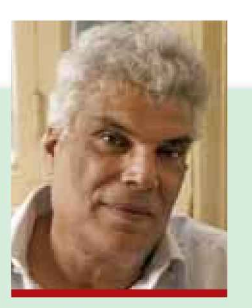
السديري لا توجد في قاموسه كلمة آسف، لكنه في الوقت نفسه لا يجد صعوبة في تصحيح الموقف عمليًّا من دون أي كلمة اعتذار. عانى الكثير من المصاعب الصحية في السنوات الأخيرة، لكن لم تظهر عليه علامات الضعف، كان نموذجًا للصبر والتحدي والإصرار.



للنقد، وقارئًا ممتازًا واسع الاطلاع. كان لقراءاته الواسعة أثر في تشكيل وعيه وأسلوبه صحافيًّا وثقافيًّا وفكريًّا فانعكست ثقافته الأدبية على كتاباته الصحافية التي تفوقت على كثير من مقالات الكتاب الرياضيين وغيرهم في ذلك الوقت. فلفت بقلمه الرشيق ورأيه المعتدل انتباه الملك سلمان بن عبدالعزيز، يوم كان أميرًا للرياض، غير أن الراحل مع اعتزازه بذلك القرب ووفائه له؛ فلم يطمح لأن يصبح مسؤولًا حكوميًّا أو وزيرًا أو سفيرًا، بل سعى إلى أن يكون صحافيًّا حتى غيّبه الموت ورحل وهو «ملك الصحافة السعودية».

في عام ١٩٧٢م كان ميلاد عموده الصحافي «لقاء» في العدد ٢٣٠٠، وكان العمود الأطول عمرًا في تاريخ الصحافة السعودية؛ إذ استمر نحو ٤٣ عامًا، ومنذ ذلك الحين أصبح «لقاء» البوابة التي تنفتح على التحولات التي حدثت في السعودية والانكسارات والنجاحات العربية والعالمية حتى يومها الأخير، ووصف «لقاء» بالوثيقة التاريخية على المستوى السياسي، وعدّ السديري شاهدًا على العصر. فشرعت صحف من لندن، والأيام من البحرين، وغيرها في نشر «لقاء» متزامنة مع نشرها في جريدة الرياض. وكانت للسديري نظرته البعيدة وخبرته التي تنبأت بمرحلة تفشّي التيار الصحوي، فهو قال في إحدى المناسبات: «لم توجد لديّ قناعة في التفاهم معهم أو بالرد عليهم، لا نحبهم ولا هم يحبون صحيفتنا، مشينا بالجريدة وحاربوها ومع ذلك لم ينجحوا في شيء». السديري الذي حذر من ذلك الغول دعا إلى صده بكل الجهد والعزيمة؛ لأن المعركة معه معركة حياة أو موت.

قبيل وفاته سأل أحد الصحافيين: ماذا بقي من الصحافي تركي السديري بعد أكثر من ٥٠ عامًا من الكتابة والصحافة والتفاعل اليومي مع الناس؟ وجاء جوابه بسيطًا ومعبّرًا: «كما بدأ، تبقّى منه القارئ والمتابع للأحداث؛ لكن الفرق في أن تركي الشاب كانت تنقصه الخبرة والدراية، أما تركي المسنّ فكأنه على معرفة إلى أين ستتجه الأحداث»!



إبراهيم عبدالمجيد
روائي وكاتب مصري

جناية «الميديا» على الأدب

لماذا حقًّا تصدر روايات بأعداد هائلة في العالم العربي؟ هذا سؤال يشغل الكثيرين، وأقرب الإجابات عنه هي أن الجوائز العربية كانت سببًا في الإقبال على كتابة الرواية. في هذا جانب قليل من الحقيقة، رغم أن التحول إلى فن الرواية من الشعراء والنقاد والصحفيين والسياسيين وغيرهم صار أمرًا ملحوظًا بشدة. لكن ليست الجوائز هي ما وراء هذا. وراءه القارئ أيضًا. فقارئ الرواية الآن هو الأول بين القراء. ومن ثم هو الأكثر وبدرجات تفاوت كبيرة جدًّا من قُراء الشعر مثلًا أو قُراء القصة القصيرة. تعرف ذلك بسهولة جدًّا حين تسأل باعة الكتب عن دواوين الشعراء والمجموعات القصصية، ففي الغالب يعتذر لك البائع عن عدم وجودها. ويعاني الناشرون توزيع هذين الجنسين من الأدب إلا للمشاهير من الشعراء والكتاب.

وإذا حدث وتطوع بائع كتب بعرض دواوين شعر جديدة فبالكاد لمدة أسبوع، ثم يخفيها من المكتبة؛ إذ تشغل مكانًا يريده لكتاب أكثر مبيعًا. وتكون الفرصة لهذين الجنسين الأدبيين أكبر في المعارض العربية للكتب لكنها لا تصل أبدًا لفرصة الرواية. قيل منذ وقت بعيد: إن هذا زمن الرواية. والأمر لا يقتصر على العالم العربي فقط، بل يشمل كل العالم. فالإنسان مع التطور الرهيب للتقنيات الصناعية صار يبحث عن عالم موازٍ من الخيال. وأيضًا مع بشاعة التحولات السياسية ذهب إلى هذا العالم الموازي.

نوع روائي يتصدر المبيعات

في عالمنا العربي تعددت أنواع الروايات، فظهرت روايات أسميها روايات البوب آرت. أي روايات شعبية عادة ما تكون بوليسية أو خيالًا علميًّا أو مغامرات متخيلة في عالم الجاسوسية. ظهر قارئ كبير لهذا النوع من الروايات كان غائبًا عن القراء، كما كان هذا النوع من الروايات غائبًا أيضًا. وبالنسبة لكاتب مثلي ليست هناك مشكلة في هذا النوع من الروايات فهو موجود ويتصدر المبيعات في العالم كله. أذكر دائمًا أن أغاثا كريستي الكاتبة البريطانية وزعت من رواياتها البوليسية في حياتها مليار نسخة. وهو رقم لم يصل إليه أي كاتب إنجليزي شهير عبر تاريخه حيًّا وميتًا مثل جيمس جويس أو ديفيد هربرت لورانس أو غيرهما. وبالطبع ولا كاتب فرنسي ولا كاتب من أي دولة من دول العالم. أقصد كاتب رواية بمعناها الأدبي الحقيقي بعيدًا من تشويق الرواية البوليسية وروايات البوب.

تكون المشكلة من الإعلام المرئي والمسموع حين يعدّ هذا النوع من الروايات هو الأدب الحقيقي ويروِّج له ويحتفي بأصحابه فما دام لهم قراء كثر فهم أدباء كبار، ولا يُشار إلى أن هذا النوع من الرواية هو للتسلية طوال تاريخه، ولا يتداخل مع الأدب الحقيقي المعنيّ بتقديم شكل جديد وقضايا إنسانية عابرة للزمان والمكان. قضايا الوجود الإنساني. وهكذا يظهر على الناحية الأخرى من الكُتاب الحقيقيين وبخاصة الشباب من يضيّع وقته في سب أو التقليل من شأن هذا النوع من الأدب، بينما حكمة الزمن أن ذلك كله للتسلية وسيمضي ولن يمكث في الأرض إلا الأدب الحقيقي الذي أشرت إليه. هذه إحدى جنايات الميديا الحقيقية. إنها لا تقسم الدعاية بين كل الأنواع، بل تركز أكثر على التسلية طمعًا في جمهور أكثر من المشاهدين، ثم تصف هذا النوع من الكتابة بأنه الأدب الحقيقي.

لذلك أرى أنا عكس ما يراه الكثيرون أن الجوائز للرواية محلية أو عربية هي فرصة أكثر لإلقاء الضوء على الأدب الحقيقي رغم ما تثيره بعض الجوائز من لغط لا يستمر طويلًا. الجناية الأخرى للميديا هي المواقع والصفحات الأدبية التي ينشئها الكثير من الشباب. كثيرون منهم في مصر مثلًا يطلبون مني أحيانًا التعليق. ولقد تفرغت بعض الوقت لأتابع

بعضها فوجدت أكثر أصحابها يكتبون دون معرفة سابقة بطبيعة الجنس الأدبي، رواية أو قصة أو شعرًا ولا تاريخه. يكتفون بالحكاية. ولا يفرقون حتى بين الحكاية كمادة للتشويق وبين المقال فكثير من الحكايات تنتهي برأي أو عظة.

ولقد سألت بعضهم يومًا هل قرأ كتابًا في فن القصة فكانت الإجابة وما أهمية ذلك وأنا أعرف الكتابة. بل هناك كاتبة أو كاتب شاب لا أذكر بالضبط تفاخره أنه يكتب ولا يقرأ. لو كان عجوزًا كنت غفرت له فقد يعزف الكبار عن القراءة لكثرة ما قرؤوا. للأسف هذه الصفحات والمدونات أكثرها على هذا النحو الساذج وللأسف هناك قراء ومعجبون بالآلاف لها.

الأمر يعكس تدنّيًا بلا شك في مستوى التلقي. لكنه أيضًا يعكس استسهالًا. فما الذي يجبر قارئًا على أن يبحث عن معنى أعمق لما يقرأ؟ وللأسف هناك من النقاد من أشاع في حياتنا الأدبية مصطلحات لا أعرف لها معنى ولا قيمة مثل: القصة الومضة أو القصة القصيدة وهكذا. فتقرأ مثلًا من يقول: «خرجت من بيتي مسرعًا ممنيًا نفسي بلقائها ووصلت إلى المقهى، فجلست أنتظرها لكن خاب أملي ولم تأتِ» انتهت القصة الومضة كما يقولون والحقيقة أنها خبر لا يعني أحدًا. وجدت حبيبتك أو لم تجدها هذا أمر يهمكما ولا يهمنا نحن! وبعض النقاد أيضًا غالبًا يمشون وراء نوع من الكُتاب يخترع هذا الكلام فيحدثك عن القصة الشعرية بينما تاريخ القصة منذ ثلاثينيات القرن الماضي كان تاريخ التخلص من شعرية اللغة مجسمًا في المحسنات البديعية وغيرها.

كتابة سهلة بلا معنى

شعرية القصة تأتي من بنائها وتكوينها ولغات شخصياتها وزمنها ومكانها، وليست من لغة مجنحة بالمحسنات والتشبيهات.. إلخ. للأسف تجد مؤتمرًا يحاول أن يدشن ذلك. لا أقف عند هذه الأشياء وأعرف أن الزمن سيمحوها وحده لكنها بلا شك تترك وراءها كتابة سهلة لا معنى لها. وتنتشر هذه الكتابة على صفحات الميديا، وتخلق قارئًا مرتاحًا لا يريد أكثر من التسلية وهو يزداد كل يوم، وأنا عكس الجميع لا أرى أن هذا القارئ سينتقل كما يقولون إلى الأدب الحقيقي فالإنسان ابن العادة أو ما تعود عليه، وسيظل غارقًا فيه حتى يتوقف عن القراءة.

لا ينتقل من هذا النوع من القراءة إلا نسبة ضئيلة جدًا للأدب الرفيع. الذين يحبون الأدب الرفيع يقرؤونه منذ البداية، وكثيرًا جدًا ما ألتقي شبابًا في الخامسة عشرة والسادسة عشرة وأقل من ذلك في معرض الكتاب بالقاهرة يقرؤون لكتاب كبار مصريين وعرب؛ كُتاب حقيقيين. شيء آخر تفعله الميديا وهي نقل بعض سطور الحِكَم والأمثال في الرواية بوصفها تخص الكاتب بينما هي في الأغلب الأعم من حوار شخصيات الرواية ولا علاقة للكاتب بها، فالكاتب ليس كل شخصيات الرواية ولا أيًّا منها إلا على استحياء.

الرواية فن غير السيرة وهذا موضوع آخر! ووصل الأمر ببعض المواقع الإلكترونية أن تنشر أشعارًا لشعراء كبار مثل: صلاح جاهين، ومحمود درويش، والسياب وغيرهم، والشعر ركيك تافه لا يمكن أن يقوله أيٌّ منهم. لا أعرف لماذا تفعل المواقع ذلك بينما يمكنها بسهولة العثور على دواوين هؤلاء الشعراء. إنها مواقع يأخذ بعضها من بعض. هذه جناية أخرى للميديا؛ لأنه مع الزمن سيظهر من يحفظ هذه الأشعار غير الحقيقية لهؤلاء العظماء.



> **مشكلة الإعلام المرئي والمسموع أنه يعدّ هذا النوع من الروايات هو الأدب الحقيقي ويروج له ويحتفي بأصحابه فما دام لهم قراء كثر فهم أدباء كبار ولا يُشار إلى أن هذا النوع من الرواية هو للتسلية**

وداعًا غويتيسولو..
ضمير إسبانيا وصوت العرب في أوربا

أحمد عبداللطيف روائي ومترجم مصري يقيم في مدريد

في الرابع من يونيو الماضي، في الساعة الثالثة عصرًا وفي مدينة مراكش المغربية، ودّع العالَم واحدًا من أكثر الكُتّاب تورطًا في الشأن السياسي، ومن أكثر الأصوات انتقادًا للسلطة الإسبانية اليمينية وأكثرها دفاعًا عن الثقافة العربية الإسلامية وقضايا المهاجرين: خوان غويتيسولو، الذي يعده بعض النقاد أهم كاتب إسباني في القرن العشرين، ويراه بعض آخر أهم المجددين في السردية الإسبانية منذ سيرفانتس، بحسب ما ذكرت جريدة «الباييس» الإسبانية الواسعة الانتشار.

ولد خوان غويتيسولو في برشلونة عام ١٩٣١م، وعاش في طفولته أجواء الحرب الأهلية الإسبانية التي امتدت من ١٩٣٦م إلى ١٩٣٩م، وماتت أمه بسببها جراء قذيفة من قوات الجنرال فرانكو. يقول غويتيسولو: «لذلك لا أحب الحروب، وأدافع عن سلام الإنسان في أي أرض». ومبكرًا جدًّا سيبدأ الطفل خوان في كتابة انطباعاته وتأملاته، وفي الرابعة والعشرين سيقرر الرحيل من إسبانيا إلى فرنسا؛ إذ لم يكن في وسعه تحمّل الرقابة الفرانكوية وتكميم أفواه المثقفين ومطاردتهم، وفي باريس يبدأ مرحلة جديدة من حياته، مرحلة نال فيها حريته وبدأ في انتقاد الأوضاع في بلاده، وطالب في مقالات نشرت في جرائد فرنسية بحُرية الفكر والتعبير والعودة للديمقراطية الأوربية.

غويتيسولو والثقافة العربية

في باريس، يلتقي خوان غويتيسولو «سارتر» و«ألبير كامو»، كما سيلتقي كُتاب أميركا اللاتينية المنفيين مثل: فارغاس يوسا، وخوليو كورتاثر، وكابريرا إنفانتي، وستشغله السياسة، وبخاصة الثورة الكوبية ومآلاتها، كما يقول يوسا الذي كان صديقه في هذه الحقبة، وسيعيشان معًا أجواء الثورة وخيبة الأمل. لكن اهتمامات غويتيسولو ستسير في اتجاه آخر؛ صوب العالم العربي. أول ما يلفت انتباهه لعالمنا هو قضية تحرير الجزائر، التي سيسافر إليها في مهمة صحفية، ثم سينضم للكُتّاب الذين يطالبون بتحريرها. هذا الاهتمام بجنوب المتوسط، بحسب غويتيسولو في حوار له، سيفتح له الباب على ثقافة شديدة الثراء لم يكن قد انتبه إليها من قبل. في بداية ثلاثينياته، سيُفتح أمامه باب مسحور سيترك أثره الكبير في كتابته وفي تفكيره؛ إذ سيؤسس غويتيسولو افتراضية تقول: إن «ابن الفارض» سبق في حداثيته الشعرية الحداثة الشعرية الأوربية، وسيؤثر التصوف العربي في أعماله وبخاصة «الأربعينية» التي استحضر فيها ابن عربي، في لعبة سردية مزج فيها التصوف الإسلامي بالتصوف المسيحي.

هذا الانتماء للثقافة العربية الإسلامية لن يتوقف عند الأثر في الكتابة؛ إذ سيرتحل غويتيسولو عبر التاريخ ليعيد قراءة التاريخ الإسباني ومن داخله التاريخ الأندلسي، ويتبنى ويدعم وجهة نظر تنتصر للثقافة الإسلامية وأهميتها في انتقال إسبانيا من الجهل إلى العلم، في مواجهة أصوات يمينية تسعى لمحو الذاكرة بإخفاء كل ما هو عربي بإسبانيا. وفي الاحتفال بذكرى مرور ٥٠٠ سنة على «استرداد غرناطة»، سيوجه غويتيسولو سهامه صوب السلطة التي تحتفي بتنصير المسلمين وتطبيق محاكم التفتيش عليهم ثم تهجيرهم، وهي اللقطة التي لم يلتقطها أحد حينها. وإذا كان المستعرِب الإسباني أميركو كاسترو أحد مؤسسي مدرسة الدفاع عن التاريخ العربي الأندلسي، فالمؤكد أن غويتيسولو كان أنجب تلاميذه، بل إنه لشهرته وقوة حجته غدا أكثر تأثيرًا من أستاذه، وهو ما دفع في طريق إعادة قراءة دور العرب والثقافة الإسلامية في الثقافة الإسبانية والأخذ بيدها لدخول عصر الأنوار.

إضافة إلى قيمته الإنسانية والعلمية، احتل غويتيسولو، الذي أثار رفضه لجائزة القذافي جدلًا واسعًا في المشهد الثقافي العربي، مكانة بارزة بوصفه روائيًّا من الطراز الأول، يقول غويتيسولو في حوار له أجرته جريدة «لابانغوارديا» الإسبانية: «كتبت كتبي الأولى بوصفي مواطنًا لا كاتبًا»، وهو ما يعني أنه انتصر في البداية للواقعية الاجتماعية التي تميل لتوثيق الأحداث القاسية التي عاشتها بلادها، كان ذلك في إنتاجه الذي صدر في الخمسينيات. غير أنه وبداية

من رواية «ألعاب يدوية» تغيرت قناعاته الفنية وتصوراته عن فن الرواية، وهو ما دفعه للبحث عن «التجديد» والإضافة لهذا الفن، ومن هنا بدأ طريقه بوصفه كاتبًا كبيرًا وطليعيًّا، وخطا خطوات راسخة نحو تأسيس سردية إسبانية تتجنب الوقوع في فخ الواقعية والمباشرة. هذه الروايات ذات الطابع التجريبي، التي امتزج فيها السؤال الفلسفي بالسؤال الوجودي بالعوالم الصوفية، أهّلته للفوز بجائزة سيرفانتس للآداب عام ٢٠١٤م، وهي نوبل الآداب الإسبانية. لقد تأخرت عليه الجائزة الكبرى كثيرًا نظرًا لمواقفه المعادية للسلطة، لكن السلطة نفسها شعرت بالعار حين لم تمنح كاتبها الأكبر جائزتها الكبرى. خطبة غويتيسولو عند تسلمه الجائزة تشير إلى استغرابه من الفوز بها، لكنها تركزت أكثر على الحياة في مراكش وعلى عائلته المراكشية التي قرر أن يمنحها ثمن الجائزة. ولعل بقاء خوان في مراكش منذ عام ١٩٩٧م دليل إضافي على حبه وشغفه بالعالم العربي.

خبر رحيل الكاتب الإسباني في مراكش أثار موجة من الحزن والحداد في العالم الإسباني، وكتب عن وقع هذا الخبر كثير من الكُتّاب الذين ارتبطوا بعلاقة صداقة مع غويتيسولو، كما كانوا من محبي كتابته. كتب البيروني ماريو فرغاس يوسا، الفائز بجائزة نوبل، مقالًا بعنوان «على طريقة سارتر»، قال فيه: «تعرفت إلى خوان في سنواتي بباريس، واقتسمت معه القلق السياسي، وبخاصة ما يتعلق بالثورة الكوبية. هذه الثورة التي أثارت حماستنا، وأعتقد أنها أصابتنا بخيبة الأمل في الوقت نفسه. أتذكر كثيرًا صعوبة المعركة التي خضناها خلال ما سمي بـ«حالة باديا» التي دافعنا فيها عن وجهات نظر متشابهة». وأضاف: «منذ رحل إلى المغرب لم ألتقه كثيرًا، لكن لقاءاتنا كانت شديدة الدفء رغم تباعدها».

فيما كتب الكاتب الشهير أندريس سانتشيث روباينا أن «غويتيسولو استطاع بوصفه روائيًّا تجنب الروافد الأدبية الإسبانية في عصره، واتبع طريقًا شقه بنفسه». ويرى روباينا أن غويتيسولو «كان ناقدًا ملتزمًا، وهي صفة تلازم قليلًا من الكتاب». وأشار الكاتب إلى إعادة إحياء غويتيسولو للكتاب الكلاسيكيين وإعادة قراءة التاريخ، وختم بأننا «مدينون لخوان غويتيسولو سواء لسرديته الفريدة أو شهادته ذات الطابع الالتزامي الأخلاقي».

وفي مقال لها بجريدة «الباييس» كتبت المستعرِبة الإسبانية الشهيرة لوث غوميث، الأكاديمية والمترجمة التي فازت بجائزة الدولة عن ترجمتها لمحمود درويش: «في الوقت الذي بات فيه الإسلام متهمًا والعالم العربي مرمى للشبهات، جاء خوان غويتيسولو ليعارض هذا التيار». وترى غوميث أن هذه المعارضة جاءت عبر طريقين: الأول دفاعه عن الثقافة الإسلامية، وثانيًا إقامته في بلد عربي، وهو المغرب. وكتب الروائي الشهير نوريا أمات: «جمعنى بخوان غويتيسولو، إضافة إلى التمرد على أي وضع سلطوي، حبُّ الأدب، وحب الحرية والمساواة، بجانب شعور كل منا باليتم لفقد الأم مبكرًا وأمام أعيننا. لكن الفارق الجوهري بيننا أنه كان كريمًا دائمًا معي. كان يحب أن يكون قارئي الأول، وأول من يكتب عن كتبي. كان مايسترو، كان كاتبًا كبيرًا. كانت حياته في المدينة جديرة بالتعرف إليها؛ إذ كان الجميع يحبه ويقدر أعماله. كان سعيدًا هناك، يمكن أن أؤكد ذلك». يحكي «أمات» أنه قام مرة بدور الوسيط بين غويتيسولو ومجمع اللغة الإسباني؛ إذ أراد المجمع ضم خوان له. إجابة خوان كانت قاطعة: لا. وفي مرة أخرى أرادت مدينة برشلونة أن تمنحه جائزتها، فقابل العرض بالرفض.

جثمان خارج الوطن

على الرغم من خلافات غويتيسولو مع السلطة الإسبانية وانتقاده الدائم لها، فإن الملك أعرب عن حزنه الشديد لفقد إسبانيا واحدًا من أكبر كُتّابها، وسادت حالة من الحداد في البلد وفي جميع الدوائر الثقافية. المفاجأة أن غويتيسولو لن يعود إلى بلده ميتًا، كما تركها حيًّا؛ إذ ترك وصية مضمونها أن يدفن في مدينة العرائش المغربية. وسواء دفن في برشلونة، أرض مولده، أو في المغرب، الأرض التي اختار الحياة فيها والموت فيها، سيبقى غويتيسولو دائمًا في ذاكرة التاريخ كضمير للإنسانية ومُعارِض لكل شرور العالم.



ما الذي يشغل النخب الثقافيّة في إسرائيل؟

قلّةٌ من الباحثين العرب حاولت معرفة الأفكار والأيديولوجيات والصراعات التي تعصف بإسرائيل من الداخل، خارج ما نعرفه من سياسة وأحزاب، وما يسمى يمينًا ويسارًا في الدولة العبرية، والمحاولات التي يمكن رصدها في هذا المجال قليلة ومحدودة الانتشار. فقد ساد في الصحافة العربية متخصصو التحليل السياسي للمفاوضات، وسياسيُّو السلام والممانعة، فيما يكاد يغيب عن المشهد أولئك العارفون بإسرائيل من الداخل، الذين كشفوا لنا أن هذا الكيان ليس جبهة صماء صامدة ومتماسكة.

في هذه القضية التي تنشرها «الفيصل» يستعرض كاتبان متخصصان صراع النخب داخل المجتمع الإسرائيلي وأبرز القضايا الفكرية المطروحة هناك؛ من حرب العبرية على العربية، ومن رفض الوجود العربي الفلسطيني في الداخل ثقافيًّا وديموغرافيًّا، إضافة إلى المواجهة الطائفية بين الطغمة الأشكنازية واليهود الشرقيين، ثم إيجاز بالعمل الإسرائيلي الدائب على ترجمة الأعمال الأدبية العربية إلى اللغة العبرية.



مواجهة طائفية بين الشرقيين والغربيين في تل أبيب.. وصراع حول «العربية» والموسيقا

عودة بشارات روائي وكاتب فلسطيني

يحاول أساف غولاني، مؤسس دار نشر مينرفا التي تُعنى بنشر كتب تهتم بالثقافة الشرق أوسطية، تقصي أسباب وجود عدد قليل من اليهود القادرين على استخدام اللغة العربية. ويعرض في مقاله توجهات عدة تميز حملات تسويق تعليم اللغة العربية. يمكن اختصار هذه التوجهات في أن تعلم اللغة العربية هو أمر سهل؛ لأن اللغتين العبرية والعربية متشابهتان، وأنه ما دامت اللغة العامية ستُستَخدَم فلا حاجة لتعلُّم قواعد اللغة العربية، فقط معرفة الاصطلاحات والأمثال يساعد على إجادة العربية. من خلال المقال من الممكن التحسس أن هنالك استهتارًا باللغة العربية، من حيث الامتناع عن بذل الجهود لدراستها كما هي الحال في اللغة الإنجليزية. وفي كثير من الأحيان يُتعامَل معها كأنها تجسيد لنزعة الانجذاب نحو الشرق، كما هو الأمر لدى الحديث عن البهارات والملابس وأدوات الزينة الشرقية وغير ذلك.

محمود درويش وإيال غولان

في المقابل هنالك عودة صاخبة في إسرائيل إلى الموسيقا الشرقية. قبل أشهر عدة جرت مواجهة إعلامية حادة بين أفيف غيفن وهو أحد أيقونات الغناء الإسرائيلي الغربي، وإيال غولان نجم الموسيقا الشرقية. المهم في الأمر أنه بالرغم من المواجهة الحادة والبذيئة فقد التقى الخصمان في نقطة مشتركة واحدة بينهما وهي العداء للعرب. الأول غيفن، وهو ممثل الثقافة الغربية أراد الحط من غولان فقال: إن غولان ومحمود درويش هما الشيء نفسه وما يفرق بينهما هو الختان. ومن جهته قال غولان: إن نظيرة غيفن هي النائبة حنين زعبي من القائمة المشتركة، وما يميز أحدهما من الآخر هو الفرق بين أسنان غيفن الأمامية. الأمر المهم في هذا السجال غير الدبلوماسي بينهما أن غولان سخر من نظيره أفيف غيفن قائلًا له: «أنت إنسان محبط، ومن السهل معرفة السبب. وأنا لو كنت مكانك سأتصرف بالمثل، إذا رأيت أن فناني الموسيقا الشرقية وأنا على رأسهم، يستطيعون أن يملؤوا المدرج الروماني (في قيسارية)، وقاعة نوكيا وإستاد بلومفيلد (في القدس) وغيرها، بينما تقوم أنت بجمع الناس من البيوت من أجل مشاهدتك في أمكنة الواحد منها أصغر من صالون بيتي».

الجدير بالذكر أن المواجهة على أساس طائفي بين الشرقيين والغربيين في إسرائيل تطفو على السطح مرارًا؛ لتثير صخبًا في البلاد ترافقه عودة إلى الجذور، وإلى السنوات الأولى للدولة التي اتسمت بسطوة الثقافة الغربية، من أدب وفن وموسيقا وشعر. وفي تلك السنوات اعتقد الشرقيون أن ثقافتهم تتسم بالدونية، وأن الثقافة الغربية هي الثقافة المطلوب تبنِّيها، وفي المقابل التنكر لتراثهم؛ لأنه لا يتلاءم مع مميزات الدولة الحديثة. منذ عدة سنوات هنالك نهضة واسعة ضد هذه الهيمنة الثقافية الغربية، وهنالك عودة للجذور بتعلم اللغة العربية، واستعادة مكانة الفولكلور الشرقي.

في الحقبة الماضية، وفي المجال نفسه، جرت مواجهة حادة مع أحد أقطاب اليسار في إسرائيل، الصحفي والسياسي العريق أوري أفنيري، الذي انتقد تماثل الجمهور الشرقي مع الجندي ذي الأصول الشرقية، اليؤور أزاريا، الذي أجهز على فلسطيني جريح لم يشكل خطرًا على أحد. عنوان المقال أشار إلى المادة المتفجرة الكامنة: «كيف ومتى نشأ الشرخ بين اليهود الشرقيين والأشكناز؟» يتحدث أوري أفنيري عن عائلة هذا الجندي ومؤيديه الذين أنشدوا النشيد القومي في قاعة المحكمة معبِّرين عن رفضهم محاكمته وتماثلهم التام مع فعلته في قتل العربي الجريح، فيقول: إن هذا الحدث

كان بمنزلة «مظاهرة ضد المحكمة العسكرية، ضد القيادة العليا للجيش وضد الديمقراطية الإسرائيلية بمجملها» ويمضي أفنيري قائلًا، بأن هنالك دلالات كبرى لهذا الحدث، فقد كان ذلك بمنزلة «إعلان الاستقلال لشعب إسرائيل مغاير. لقد أشار هذا الحدث إلى تفكك المجتمع الإسرائيلي لشعبين... المشترك بين الشعبين آخذ في التضاؤل، موقفهما من الدولة مختلف تمامًا، بالنسبة لأسسها الأخلاقية ولأيديولوجيتها ولمبناها»، ويواصل: «حتى الآن اعتقدنا أنه على الأقل توجد مؤسسة واحدة نقدسها جميعًا، مؤسسة تقف فوق كل النقاشات وفوق كل الاختلافات وهي الجيش. هذا الأمر لم يعد قائمًا، إن قضية أزاريا تعلّمنا أن الرابط الأخير الذي جمع بين أجزاء المجتمع الإسرائيلي قد انكسر».

المهم أن أفنيري، في مقاله هذا الذي أثار عاصفة من النقاش في إسرائيل، حتى كان هنالك من دمغه بالعنصرية والاستعلاء، لم يتردد في تسمية المُسمَّيات بأسمائها من وجهة نظره: «من هذان المعسكران؟ وما المسبِّب لهذا الانقسام؟ لا مكان للالتفاف على الحقيقة: إنه العامل الإثني. يحاول الجميع الهروب من الحقيقة. جبال من التعابير المجمَّلة كُتبت لتُخفيها، لكن الحقيقة أن هنالك شعبين، أحدهما يُدعى الأشكناز (والمصدر هو الاسم العبري القديم الذي أُطلق على ألمانيا)، الذي يجمع الإسرائيليين من أصول أميركية وأوربية». والشعب الثاني يُدعى الشرقيين.

وفي هذا الإطار، تعميق الكراهية للعرب بين الجماهير اليهودية الشرقية في إسرائيل. يقول المؤرخ الدكتور ديمتري شومسكي: «كنتيجة غير مباشرة لتشويه صورة العرب من المؤسسة الصهيونية الأشكنازية المسيطرة في الماضي، فإن مظاهر كراهية العرب أصبحت مع الزمن من الأصوات المسيطرة في صفوف الشرقيين في إسرائيل الحالية، ويمكن أن تضاهي اليوم، في حجمها في وسائل الإعلام، الظاهرة نفسها لدى القادمين اليهود من روسيا»، وهنا يوجّه ديمتري شومسكي انتقادًا لاذعًا للمثقفين اليهود الشرقيين، ذوي المواقف الليبرالية، إذ عليهم أن «يعترفوا اعترافًا كاملًا بهذا الأمر، وعليهم أن يشجبوا بقوة مظاهر إلغاء الإنسانية عن الآخر، أي العربي، وهو ما يميّز مساحات واسعة من الخطاب اليهودي الشرقي الإسرائيلي».

نفي الهوية القومية

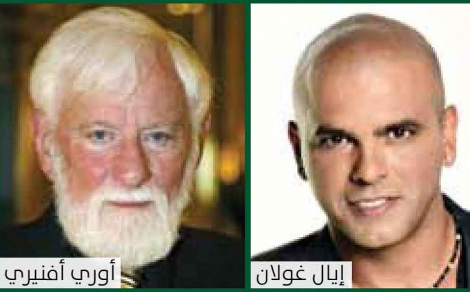
من ناحية أخرى، تحمل الباحثة ميراف ألوش ليفرون، وهي من أصول شرقية -جزائرية وتونسية- موقفًا مغايرًا، فهي تهاجم الموقف العلماني -الليبرالي لليسار الأشكنازي الذي ينفي، من خلال استعلائه، الهوية القومية الدينية للجمهور اليهودي الشرقي، وهو ما ساهم، حسب تقديرها، في تعزيز التوجهات اليمينة لدى الجمهور اليهودي الشرقي. لكن الأمور تأخذ أبعادًا أوسع من المساجلة بين الشرقيين والغربيين، إلى الحديث عن تغيير النخب في البلاد. فمع توطد حكم اليمين في إسرائيل المستمر، بتقطع لمُدَد قصيرة، منذ عام ١٩٧٧م حتى اليوم، تجري منذ سنوات تغييرات جوهرية في الخطاب الفكري السائد في إسرائيل. يقول مدير برنامج القيادة السياسية الاشتراكية في مؤسسة «مولاد»، رامي ليفني: إن إسرائيل خلال سنوات وجودها، جعلت من «الأونفرسالية» الأوربية نهجها الرسمي. وبالرغم من الشروخ والانقسامات في المجتمع الإسرائيلي، فقد أصغى الجميع إلى نشرات الأخبار من الإذاعة نفسها (الرسمية أو إذاعة الجيش)، تعلموا في الجامعات نفسها، اعترفوا بسلطة المحاكم، عبّروا عن ثقتهم بقائد أركان الجيش، وخرجوا فيما بعد لمشاهدة العروض المسرحية في المسرح نفسه.

وفيما بعد يستعرض رامي ليفني الهجوم الذي شنَّه اليمين المتطرف على هذا النهج الرسمي الجامع. ففي الثمانينيات، يقول:





محمود درويش



إيال غولان

أوري أفنيري

قام المستوطنون بإنشاء إذاعة خاصة بهم؟ وفيما بعد في دورته الثانية لرئاسة الحكومة عمل بنيامين نتنياهو على توطيد فكرة «تبديل النخب». وبالتعاون مع مدير مكتبه آنذاك أفيغدور ليبرمان، الذي يشغل اليوم منصب وزير دفاع إسرائيل، عمل على استيعاب شخصيات من «جماعتنا» ودفعهم للمراكز المهمة في الدولة. وفي الوقت نفسه فقد أثار نتنياهو الأجواء بالحديث عن «الهيمنة اليسارية» في مراكز القرار في إسرائيل. وحسب ليفني فإن نتنياهو يحتقر «ما يعدّه قناعًا زائفًا من الحيادية والمهنية؛ لأن العمل بموجب ذلك، حسب اعتقاده، يمنح خصومه السياسيين تفوقًا غير نزيه عليه» ويواصل ليفني: «فقط في عام ٢٠١٦م، نضجت الظروف للمرحلة المكشوفة والمعلنة للثورة، بحيث يُغيَّر اتجاه المؤسسات الفكرية المميزة للمجتمع الإسرائيلي نحو الأسلوب الأميركي». ويضيف ليفني: «اليوم لا حيادية بعد، لا مهنية بعد، ولا نزاهة بعد. (المذيعون) روني دانيال، ويونيت ليفي، وإيهود يعاري، ونائب قائد الأركان، والأساتذة في لجنة التعليم العالي، وعدد من موظفي وزارة الخارجية، والمثلون في مسرح الكامري ومسرح البيما- كل هؤلاء الذين رافقونا طوال حياتنا- كلهم جزء من معسكر اليسار». ويخلص ليفني إلى أن هدف نتنياهو هو القضاء على القاسم المشترك الثقافي القائم على أسس التقاليد التنويرية التي نشأت في البلاد. يمكن ملاحظة الهوة الفكرية الآخذة في التعاظم في إسرائيل، ليس فقط بين اليمين واليسار التقليديين، بل بين اليمين الكلاسيكي، واليمين الجديد الذي يريد صبغ كل الأجواء بألوانه المتطرفة.

العربي الشفاف

يقترن اسم الشرق الأوسط باسم لا يقل أصالة: المشرق العربي. والقادم إلى هذه المنطقة، غازيًا أو جانحًا للسلم، محبًا أو حاقدًا، عليه التأقلم مع هذا المشرق العربي وإلا سيبقى، مهما طال الزمن، نبتة غريبة عن مناخه وتضاريسه وأهله. وزير المواصلات الإسرائيلي، يسرائيل كاتس، أعلن الحرب على الأسماء الأصلية للبلدات العربية، وعمل على تحويلها إلى أسماء عبرية. أكثر من ذلك، فقد أراد من اللغة العربية أن ترسم الاسم العبري بحروفها. يافة الناصرة الواقعة بجانب الناصرة في الجليل ستصبح كما هي الحال في العبرية «يَفِيّع»، وبالضبط بهذا الشكل كُتبت على اللافتة في مدخل البلدة، وفي اليوم التالي محا عابر سبيل هذه الكلمة غريبة التزاوج. مدينة عكا يريدون أن تُكتَب بالعربية «عكو»، وأن تُكتَب القدس «يروشلايم». ومن الفنانة اللبنانية فيروز مطلوب من الآن فصاعدًا أن تغيِّر مطلع أغنيتها «القدس لنا» إلى «يروشلايم لنا». فيما بعد بادر أعضاء برلمان من الأحزاب اليمينية المتطرفة إلى سن قانون يقضي بأن اللغة العبرية

وسائل الإعلام الإسرائيلية لا تقوم بتغطية ما يجري على الساحة بين المواطنين العرب، كأنهم هواء أو مخلوقات شفافة لا يمكن ملاحظتها

هي اللغة الرسمية الوحيدة (وبذلك أرادوا إلغاء القانون الذي ينص على أن العربية والعبرية هما لغتا البلاد الرسميتان). يمكن الجزم بأن أحرف الهجاء العربية لن تنقص حرفًا بسبب هذا الهجوم الحاقد على العربية، لغة المواطنين العرب الذين يشكلون أكثر من ٢٠٪ من سكان الدولة. الخاسرون هم اليهود الذين سيواصلون العيش في المنطقة في ظلام دامس من دون معرفة لغتها التي تعكس تاريخها وتراثها وحضارتها.

يقول الكاتب والمؤرخ الإسرائيلي ميرون بنفنستي، في كتابه «حلم اليهودي الإسرائيلي الأبيض»: إن الثراء الموجود في الأسماء التي أطلقها العرب على الأماكن «مذهلة بجمالها، في تفاعلها مع جمال الطبيعة، في دقة التشخيص واختيار التشبيهات.. بدون احتفاظ العرب بالأسماء العبرية- الآرامية القديمة- لم يكن باستطاعة الصهيونيين تقصي أثر الخارطة العبرية» وبأسًى يضيف بنفنستي: «لكنهم كافؤوا العرب بمحو كل الأسماء العربية من الخارطة». إن تغييب تاريخ الفلسطيني هو الطبقة الفوقية لتغييب الواقع المادي الذي يعيشه الفلسطينيون في إسرائيل. إضافة إلى مصادرة غالبية أراضي الفلسطينيين في إسرائيل، وتقليص مساحة وجودهم، وعدم إتاحة بناء بلدات جديدة لهم، وغيابهم عن مشاريع التطوير وتوزيع الموارد أسوة بباقي السكان، فالفلسطيني الإسرائيلي غائب تقريبًا عن أهم الساحات وهي ساحة الإعلام. هنالك ثلاث قنوات تلفزيونية مركزية في إسرائيل: القناة الأولى والثانية والعاشرة. في القنوات الثلاث لا يوجد مراسلون عرب، لا يوجد تقريبًا مذيعون عرب، لا يوجد مقدِّمو برامج عرب، لا يوجد ضيوف عرب في البرامج التلفزيونية المختلفة. والأهم من ذلك أن وسائل الإعلام لا تقوم بتغطية ما يجري على الساحة بين المواطنين العرب كأنهم هواء أو مخلوقات شفافة لا يمكن ملاحظتها. وحينما يُستضاف عرب فإما لزجرهم بسبب عمل إرهابي قام به فلسطيني، أو الطلب منهم باستعلاء استنكاره.

في حين أنه، ومن أجل مصادرة أراضي العرب، سُنَّ قانون خاص عُرف فيما بعد باسم قانون «الحاضر غائب»، يعني أن العربي حاضر بجسده وغائب عن حقه بامتلاك أملاكه التي صودرت منه. هذا القانون يطبق في باقي المجالات الأخرى بتلقائية، فالعربي حاضر الجسد وغائب الحقوق. وهكذا فالغريب الذي يشاهد البرامج التلفزيونية والإذاعية المختلفة سيعتقد أنه موجود في دولة لا يوجد فيها عرب. اليوم، ردًّا على هذه الحالة العبثية، يجري حراك جدي من مؤسسات مدنية يهودية - عربية من أجل تعزيز الحضور العربي في وسائل الإعلام المختلفة، وفي السنة الأخيرة شهدنا ارتفاعًا في مشاركة العرب، في موضوعات عامة وليس في تلك التي تخص العرب فقط. هذا التطور على محدوديته بالغ الأهمية، من حيث تغيير الصورة النمطية عن العرب؛ لأن الفلسطيني الإنسان الذي يمارس حياته الشخصية بجوانبها كافة، يعمل ويتعلم ويلعب ويتألم، غائب عن المشهد الإعلامي الإسرائيلي وغائب عن الثقافة الإسرائيلية. الفلسطيني الذي يشاهده الإسرائيليون هو «المخرب»، «القاتل» و«كاره اليهود». نموذج الإنسان الفلسطيني هو ذلك الملثَّم الذي يحمل حجرًا أو سكينًا أو بندقية للقضاء على إسرائيل.

المثقف اليهودي والعرب

الأهم من ذلك أن المثقف اليهودي لا يستمد معلوماته من العرب مما يكتبه العرب عن أنفسهم. ومع أن هنالك أوساطًا ليبرالية بين المتخصصين في الشؤون العربية في الإعلام الإسرائيلي، فإن كثيرين منهم يحمل الصورة النمطية عن العالم العربي ويحاول تعزيزها. ولا بد هنا من التنويه بأن المواطن اليهودي العادي لا يمكنه أن يقرأ ما يكتبه العرب؛ لأنه لا يعرف اللغة العربية. فاللغة العربية تدرس بشكل محدود وهي غير متداولة بسبب هيمنة اللغة العبرية على جميع مجالات الحياة. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن للمثقفين العرب في الدول العربية دورًا بارزًا في حجب المعلومات عن الجمهور اليهودي؛ بسبب الموقف السلبي من التواصل الثقافي مع أوساط سلامية إسرائيلية. فمثلًا ترجمة الروايات العربية للغة العبرية قليلة جدًّا. وهنالك من المهتمين اليهود، ونسبتهم لا بأس بها بين المثقفين، الذين يعملون على تعريف القارئ اليهودي بالأدب العربي يواجهون صعوبات في الترجمة، في الأغلب بسبب رفض الكتّاب أو الناشرين في العالم العربي عمومًا التعامل مع دور نشر إسرائيلية. في حين الجهات الرسمية والاقتصادية حتى الأمنية في العديد من الدول العربية تقيم صلات مع نظيراتها في الجانب الإسرائيلي، فإن الأبواب



الربيع العربي يشعل حركة احتجاج ضخمة في تل أبيب

لا يمكننا في هذا الإطار إلا التطرق لما سُمي في حينه الربيع العربي. كان الافتراض السائد أن اعتماد الديمقراطية لدى الشعوب العربية سيجلب الحركات الأصولية إلى سدة الحكم، مع كل ما يعني ذلك من خطر على إسرائيل وعلى وجودها. وفي المقابل فإن الأنظمة الدكتاتورية في العالم العربي هي الضمان لمنع استيلاء الأصوليين على الحكم. بداية الربيع العربي بشّرت بعهد جديد، بأن العرب، على عكس التوقعات، ينهضون نحو ديمقراطية حقيقية في مركزها احترام كرامة الإنسان. في تل أبيب مثلًا نهضت حركة احتجاج ضخمة في صيف عام ٢٠١١م متماهية مع التحركات الشعبية في ميدان التحرير في مصر. لكن منحى التطور، من حيث صعود داعش وعودة الأنظمة العسكرية إلى السلطة أحدث ردة فعل مناقضة، من حيث فقدان الثقة بقدرة العالم العربي على تذويب الديمقراطية بمفهومها العميق الذي يجيز التعددية، لكن في الوقت نفسه يعتمد مرجعية قيادية واحدة هي مؤسسات الدولة. أحداث السنوات الأخيرة في العالم هي مادة إعلامية خصبة لليمين الإسرائيلي في رفضه الانسحاب وتحقيق تسوية مع الفلسطينيين، بحجة أنه لا يمكن الثقة بالعالم العربي والدليل هو الحروب الأهلية الطاحنة.

«خمس دقائق من كفار سابا» هو اصطلاح إسرائيلي شائع، أتى للدلالة على البعد الجغرافي القصير بين قلقيلية الواقعة

موصدة في المجال الفكري الثقافي، وكل من يحاول اختراق هذا الجدار يوصم بالخيانة. وهكذا، فإن للتوجهات المنغلقة وغير المفهومة لمثقفين ودور نشر في العالم العربي دورًا أيضًا في إبقاء صورة العربي أسيرة أجواء الصراع والتشويه من الأوساط المتطرفة في إسرائيل.

مجرد غرض ساكن

اليوم هنالك مثل بالغ الوضوح حول تغييب العرب عن النقاشات المطروحة على بساط البحث، وعدّهم مجرد غرض ساكن لا حول له ولا قوة، وهو موضوع حل الدولة الواحدة، وبخاصة بعد تصريح الرئيس الأميركي دونالد ترمب في المؤتمر الصحفي الذي عقده مع رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو إبّان زيارة الأخير واشنطن مؤخرًا، حيث قال: إنه مستعدّ لحل الدولة أيضًا إذا ما أراد الطرفان ذلك. حول هذا الموضوع يجري الآن نقاش يقظ في إسرائيل بين أناس جديين، وقسم منهم معروف بمواقفه المتعاطفة مع الشعب الفلسطيني، ويجري ذلك من دون أخذ رأي الفلسطينيين أنفسهم في موضوع يخص مصيرهم. وهنالك مثقفون يهود يتساءلون باستغراب واستهجان؛ كيف من الممكن إجراء هذا الحوار الساخن من دون استطلاع رأي أصحاب الشأن؟ هذا التوجه الذي يضع مصلحة إسرائيل في المركز، وتُتجاهَل المصلحة الفلسطينية هو نهج قديم اتُّبع في كل سجال إسرائيلي فلسطيني. في قضية الأمن مثلًا تجد أن العالَم مشغول بالتفاصيل الصغيرة التي يثيرها الإسرائيليون حول الترتيبات الأمنية التي يتوجب اتخاذها، من حيث نقاط مراقبة، ونصب منصات إنذار، والسيطرة على مرتفعات جبلية داخل المناطق الفلسطينية، ومنع وصول قوات الأمن الفلسطيني إلى الحدود الشرقية من الدولة العتيدة، ومئات البنود الأخرى. وفي خضمّ هذا المعمعان فأمن الفلسطيني غائب كأنه لا يساوي التفاتةً واحدةً من متخذي القرارات.

> **يمكن ملاحظة الهوة الفكرية الآخذة في التعاظم في إسرائيل، ليس فقط بين اليمين واليسار التقليديين، بل بين اليمين الكلاسيكي واليمين الجديد الذي يريد صبغ كل الأجواء بألوانه المتطرفة**

هذا النهج، نهج الحوار الإسرائيلي الداخلي كأن الآخر غير موجود، عميق الجذور في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي. في أعقاب إخفاق قمة كامب ديفيد في عام ٢٠٠٠م بين القيادات الإسرائيلية والفلسطينية والأميركية، «قرّر» الإسرائيليون أنهم قدموا الأفضل لياسر عرفات وكان عليه أن يقبل هذه المقترحات «السخيّة». وبسبب رفض عرفات هذا العرض نزعوا عنه الشرعية وادَّعوا أنه «لا يوجد شريك فلسطيني». العبثية في الأمر أن الصراع كان إسرائيليًّا داخليًّا؛ هذا يقول: إن الاقتراحات الإسرائيلية سخية جدًّا ويجب ضبطها، وذلك يقول: إنها معقولة، أما أن يكون لعرفات رأي آخر فهذا يزجّه في خانة التطرف والعداء لليهود. حتى في قضية الانسحاب من المناطق المحتلة، فموقف الداعين للانسحاب ليس نابعًا من اعتبارات العدل والقانون الدولي، بل هو نابع من اعتبارات المصلحة الإسرائيلية، بأن ضم المناطق الفلسطينية، سيُخلّ بالتوازن الديمغرافي في إسرائيل، حيث سيصبح العرب نحو ٥٠٪ من السكان. عدُّ العرب خطرًا ديمغرافيًّا هو موقف عنصري، والسؤال هو: هل موقفهم سيكون مغايرًا لو لم يشكّل ضم المناطق الفلسطينية تهديدًا ديمغرافيًّا حسب تسميتهم ؟ المثير في الأمر هو وجود أوساط معدودة على اليسار تتبنى هذا الموقف. وعندما يُناقَش هذا الأمر معهم يقولون: إنهم يعرفون أن وصف العرب بالخطر الديمغرافي هو أمر غير أخلاقي، لكنهم يقولون: إنها الطريقة الوحيدة التي من الممكن إقناع الجمهور اليهودي بضرورة الانسحاب من الضفة.

الآن تحت نفوذ السلطة الوطنية الفلسطينية والمدينة الإسرائيلية كفار سابا. فعلًا، المسافة قصيرة بين المدينتين، لكنّ المسافة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية بينهما تقدر بسنوات ضوئية. وهذه هي الحال الآن أيضًا داخل إسرائيل، بين المواطنين العرب واليهود. إنهم يعيشون معًا على قطعة الأرض نفسها، لكن كلا المجتمعين منغلق على نفسه؛ لأن السياسة العامة تعمل على الفصل وتضييق مساحات الالتقاء بين الشعبين، ومن ثَمَّ خلق حالة من الاغتراب بينهما. تنشط اليوم حركات يهودية عربية من أجل توطيد ما يدعونه «المجتمع المشترك» الذي يهدف إلى إيجاد نقاط التقاء مشتركة بين أبناء الشعبين، وخوض نضالات حياتية مشتركة ضد التمييز، ومعالجة قضايا حياتية مشتركة تواجه الشعبين. ومع ذلك فسياسة التمييز الحكومية ضد العرب تعمل، من دون إعلان ذلك، على ضرب هذا التوجه الذي يقوده تقدميون من كلا الشعبين؛ لأن العربي في نهاية المطاف يشعر أنه حتى في هذا الإطار الصاخب بالنوايا الطيبة يوجد هنالك خلل ما، فهؤلاء الذين يريدون حقًّا مدَّ يدِ التعاون يعيشون في بحبوحة من حيث مساحات الأراضي وجودة الحياة، بينما هم، العرب، يعيشون في ظروف سكنية بالغة الصعوبة. فقط عندما تستطيع القوى المتنفذة في إسرائيل أن تجد الطريق لمصالحة مبنية على العدل بين المجتمعين العربي اليهودي في إسرائيل نفسها، سيكون بإمكانها أن تطرح حلًّا للصراع الدموي المستمر منذ عشرات السنين، فمن لا يجد لغة مشتركة مع المواطنين العرب الذين يعيشون في الدولة التي يقودها، كيف سيقيم علاقات سلام مع جيرانه العرب؟

ترجمة إسرائيل الأدب العربي..

الدوافع والمسارات والمآلات!

كرم سعيد باحث بمركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية

بدأت إسرائيل منذ ستينيات القرن الماضي الاهتمام بشكل ممنهج بترجمة الأدب العربي، وبخاصة الرواية التي يعتقد قطاع واسع من علماء الاجتماع أنها باتت البديل الأوثق لتشريح المجتمعات، ومرآة عاكسة لتطورها. والأرجح أن الإبداع الفكري والثقافي والفني لأي مجتمع من المجتمعات يمثل أحد أهم ملامح الهوية في هذا المجتمع، فشخصية المجتمعات تتكون عبر مراحل التاريخ بما مر بها من أحداث، وبما تصدره من ردود أفعال تجاهها من خلال ما يبدعه عقلها الجمعي من إبداعات في ميادين الحياة والأنشطة الإنسانية المختلفة.

إذا سلمنا أن الصراع العربي الإسرائيلي هو من نوع الصراعات الاجتماعية المعقدة، فإن البعد الثقافي يمثل جوهر هذا الصراع والجانب الأكثر أهمية. ولذا أَوْلى الإسرائيليون قضايا الفكر والتراث العربي اهتمامًا خاصًّا، لا سيما بعد تفوقها العسكري والأمني. وسَعَتْ إسرائيل طوال الأعوام التي خلت إلى استقطاب كُتاب عرب بهدف ترجمة أعمالهم إلى اللغة العبرية عبر دور نشر إسرائيلية، وهو ما أثار أزمة بين المثقفين العرب حيث يعتبرها بعض شكلًا من أشكال التطبيع. وتزامنت حركة الترجمة إلى العبرية مع ظهور الحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر حيث ظهرت مجلة هشيلواح وأفردت صفحات كثيرة لألف ليلة وليلة ومجلة هحداش التي تتضمن مقالات ودراسات مستشرقين وباحثين من الجامعة العبرية وغيرها. وفي منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ التنفيذ الفعلي لترجمة الأعمال العربية الكبرى مثل: (إعداد سجل ضخم للشعر العربي القديم) عام ١٩٣٥م.

والأرجح أن حركة ترجمة الأعمال العربية من نثر وشعر إلى اللغة العبرية حركة نشطة ومستمرة ولا يوجد أديب عربي له شأن لم تترجم العديد من أعماله إلى العبرية فضلًا عن دراسات وأطروحات علمية عن أدباء عرب.

والأمر لم يتوقف عند الترجمة فقط، بل تهتم الأكاديميات والمؤسسات البحثية الإسرائيلية بدراسة المجتمع العربي، وهناك من حصل على رسائل جامعية في موضوعات أدبية وفكرية وغيرها، واستُفيد منهم في تنسيق الأنشطة في الأراضي المحتلة. على صعيد متصل تُرجِمت عشرات الأعمال العربية إلى العبرية أبرزها كتاب: «قصص الأنبياء»، وكذلك كتاب «كارلا بروني عشيقتي السرية»، للأديب علاء حليحل، و«عمارة يعقوبيان» للكاتب علاء الأسواني، التي أثارت الكثير من الجدل في الشارع الثقافي، ورواية «عزازيل» ليوسف زيدان عام ٢٠٠٩م. ومن الروايات العربية تُرجِمت رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للسوداني الطيب صالح، و«الأرواح المتمردة» للبناني جبران خليل جبران، و«حكاية زهرة» للبنانية حنان الشيخ، و«باب الشمس» للقاص اللبناني الكبير إلياس خوري، ورواية «بنات الرياض» للكاتبة السعودية رجاء الصانع.

ترجمة الفكر العربي لماذا؟

لقد كانت ترجمة الفكر العربي بمختلف أجناسه وعصوره أحد المجالات المهمة والوسائل الحيوية التي يمكن أن تساعد في التعرف على المجتمعات العربية، وهو ما يؤكده الدكتور إبراهيم البحراوي في كتابه: «الأدب الصهيوني بين حربي يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣» بقوله: «إن الأدب يمثل واحدًا من أهم وأوثق



موسم الهجرة إلى الشمال — الأرواح المتمردة

> **لا ينطلق الاهتمام الإسرائيلي بالفكر العربي بمختلف عصوره من رؤية علمية صرفة، إنما من رؤية تستهدف التعرف على المجتمعات العربية التي تتعامل معها على أنها مجتمعات معادية**

السجلات المعرفية التي يمكن الاستناد إليها في استقاء المعلومات عن التكوينات التحتية في مجتمع من المجتمعات والتي يصعب في أحيان كثيرة رصدها عبر سائر المصادر المعرفية المباشرة من كتابات سياسية واجتماعية وفلسفية». ويفسر المفكر الراحل السيد ياسين اهتمام المؤسسات البحثية الإسرائيلية بترجمة الأدب العربي بمختلف عصوره بأن «أي أدب يرصد العمليات الاجتماعية التي تصاحب التغير الاجتماعي وتلقى الأضواء عليها وعلى مساراتها المتعددة وبصورة أكثر بروزًا ووضوحًا وحيوية من كثير من البحوث العلمية. من هنا الاهتمام بترجمة وتحليل مضمون الأعمال الأدبية حتى يضعوا أيديهم على مفاتيح التغير الاجتماعي في المجتمع وآثاره».

في المقابل ثمة عوامل أخرى وفرت بيئة دافعة للاهتمام الإسرائيلي بالأعمال الأدبية عند العرب؛ أهمها:

أولًا- وقوع الكيان الإسرائيلي وسط تجمع إقليمي عربي، وما يتصل بهذا من تباينات في الهوية وتعارضات عميقة في بنيتي الكيان والمنطقة العربية.

ثانيًا- التعرف على مكامن القوة والضعف في الطرف العربي؛ لإدماج هذا الجانب في أسس الإستراتيجية الإسرائيلية العليا إزاء العرب، وفي كيفية إدارة الصراع.

ثالثًا- التداخلات التراثية والتاريخية بين الحضارة العربية والنتاجات الثقافية ليهود الدول العربية في النسيج الثقافي العربي والإسلامي العام.

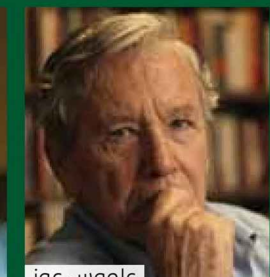
ويحاول الإسرائيليون اختزال دوافع هذا الاهتمام، فيسوِّقون تبريرًا لأسباب دعائية فمثلًا يعبر أوريال هايد (أحد أساتذة الدراسات الشرقية في الجامعأوة العبرية بالقدس) في دراسة له عام ١٩٦١م عن دافعين للاهتمام الإسرائيلي بالفكر والشؤون العربية هما: المتطلبات المستقبلية واستيعاب اليهود الشرقيين. يقول هايد حول الدافع الأول: «مهما يكن توجهنا الأدبي وعلاقاتنا السياسية مع جيراننا، فإنه ليس هناك من ينكر أن مستقبلنا القومي مرتبط بمستقبل الشرق الأوسط، وإلى حد ما بمستقبل دول آسيا وإفريقيا الأكثر بعدًا، وهذه الحقيقة ينبغي أن تضفي على اهتمامنا بالشرق الأوسط أهمية خاصة وحيوية ووعيًا يزيد عما لدى الباحثين الغربيين». وبالنسبة للدافع الثاني يذكر هايد: «أن استيعاب العدد الكبير من المهاجرين من دول الشرق إلى فلسطين يتطلب فهمًا واسعًا للظروف السائدة في بلدانهم الأصلية، ودراسة تقاليدهم الخاصة، وفى الوقت نفسه مساعدة مهمة للمعرفة العلمية وللفهم المتبادل بين الطوائف».

في هذا السياق العام فإن الاهتمام الإسرائيلي بالآداب والفنون العربية يظل متمحورًا حول تطلع الإسرائيليين إلى جعل أبحاثهم في الفكر العربي بمنزلة مصدر لإحدى القوى التي يتطلعون لامتلاكها: لتوظيفها من ناحية على صعيد تحقيق التوافق الداخلي في الكيان الصهيوني، وإذابة التناقضات الإثنية والفوارق بين شرائح المستوطنين اليهود، ولتوظيفها من ناحية ثانية في النطاق الخاص بكيفية التعامل مع المنطقة العربية، وكيفية إدارة الصراع وتخطيط شؤون المستقبل وذلك بمعزل عن الدعوات المزيفة التي تتحدث عن الرغبة في الاندماج في المنطقة، وإقامة سلام مع العرب.

دعاوى مزيفة

لا ينطلق الاهتمام الإسرائيلي بالفكر العربي بمختلف عصوره من رؤية علمية صرفة، إنما من رؤية تستهدف التعرف على المجتمعات العربية التي تتعامل معها على أنها مجتمعات معادية. وإذا كانت إسرائيل تروِّج إلى أن اهتمامها بمتابعة وترجمة الفكر الأدبي العربي، يأتي في سياق التكامل والتواصل الثقافي المشترك مع بيئتها الإقليمية، إذ يقول الباحث الإسرائيلي الدكتور ساسون سوميخ: إن مطالعة الفكر العربي الحديث ضرورة حياتية لكل مثقف إسرائيلي ولكل قارئ نبيه؛ إذ إنه دون اطّلاعه على

٨٨

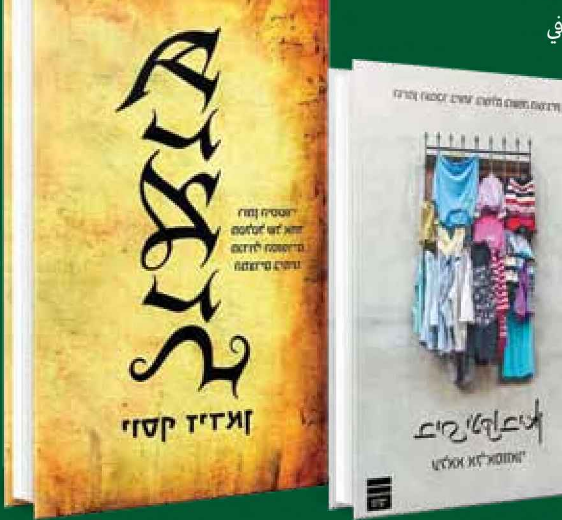
عاموس عوز

ديفيد غروسمان

التيارات الأدبية فإن معلوماته عن الإنسان العربي وعن عالمه ستكون مشوهة ومرتكزة على المعلومات الصحفية اليومية غير العميقة، ويتعلم القارئ الإسرائيلي عن طريق متابعة الأعمال الأدبية العربية في مجال الرواية والمسرح والشعر كثيرًا من المفاهيم النفسية للإنسان في القاهرة وفي دمشق وفي بيروت وبغداد، وحتى في الريف المصري واللبناني والسوري، ويتعرف بهذه الوسيلة على مشاكل ومتاعب الأديب العربي والإنسان العادي في نفس الوقت. غير أن الواقع الإسرائيلي يعكس خلاف ذلك، فعلى سبيل المثال توتر الداخل الإسرائيلي عشية قرار اتخذه يوسى ساريد زعيم حزب ميريتس عندما كان وزيرًا للتعليم، يسمح بتدريس الأعمال الأدبية الخاصة بالشاعر الفلسطيني محمود درويش.

معاهد ومراكز متخصصة

في سياق الاهتمام الإسرائيلي بدراسة وترجمة أنشطة الحركة الأدبية والثقافية في العالم العربي، سعت إلى إنشاء المؤسسات والمراكز البحثية التي تهتم بترجمة ودراسة الفكر العربي، وفي محاولة لدفع أبحاث



عمارة يعقوبيان

عزازيل

الاستشراق إلى تحقيق الأغراض المحددة لها. وتعد أقسام اللغة العربية والأدب العربي من أهم أقسام كليات ومعاهد الدراسات الإنسانية في إسرائيل. ومن أبرز الجهات: معهد الدراسات الشرقية، عندما أنشئت مدرسة الدراسات الشرقية مع المعاهد الأولى في الجامعة العبرية عام ١٩٦٢م كانت الدراسات العربية أهم مادة فيها، وخلال السنوات الأولى تحولت المدرسة إلى معهد يعلِّم اللغة العربية القديمة والحضارة الإسلامية، وكذلك التاريخ القديم للبلدان الإسلامية، والتاريخ العربي في القرون الوسطى.

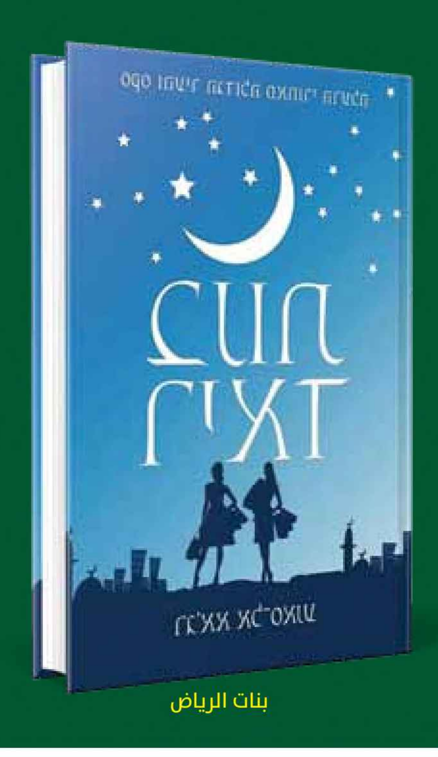
الجمعية الشرقية: مع تزايد الاهتمام بالدراسات العربية بعد قيام دولة إسرائيل، أُسِّست الجمعية الشرقية وهي تعنى كما ذكر البروفيسور جبريل باير (أستاذ تاريخ الشعوب الإسلامية بالجامعة العبرية) بتنمية معرفة اللغة العربية. وتعنى الجمعية بالتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلاد العربية، ونشر مقالات في الأدب والنقد الأدبي.

مؤسسة أبحاث الشرق الأوسط: استحدثت رئاسة الجامعة العبرية هذه المؤسسة في منتصف السبعينيات، والتحق بها باحثون وأكاديميون من المعاهد والأقسام التابعة للجامعة. وتنشر المؤسسة سلسلة من الكتب، إضافة إلى تقارير ونشرات دورية باللغة العربية.

جامعة تل أبيب: تضم جامعة تل أبيب عدة مؤسسات بحثية تعنى بالشؤون العربية؛ أبرزها معهد شيلواح للدراسات الشرق أوسطية والإفريقية. ويظل من الثابت أن تعدد المراكز والمؤسسات البحثية التي تعنى بقضايا الفكر العربي بمختلف تشعباته وارتباطاته إنما يعكس مقدار الأهمية التي تُوليها إسرائيل إلى معرفة المجتمعات العربية؛ لإيجاد علاقات ارتباط بين الواقع وبين الصور الذهنية التي يسعون إلى ترسيخها كما يعكس هذا التعدد من ناحية أخرى رغبة إسرائيلية في امتلاك المزيد من عناصر القوة الثقافية إلى جانب القوة العسكرية والاقتصادية في الصراع.

حماية الخصوصية الفكرية

بالنظر إلى غياب الموضوعية الإسرائيلية في تناول الأعمال الأدبية والإنتاج الثقافي العربي، يبقى مهمًّا التفكير جديًّا في حماية خصوصية أعمالنا الفكرية. والدعوة لحماية الحقوق الفكرية العربية ضد مخاطر الترجمة العبرية المزيفة في أكثرها تعكس في هذا الإطار مدلولًا يعني أن هذه الحقوق أصبحت في موقف يمثل درجة متقدمة من خطورة التعدي لا بد من مواجهتها، وسرعة الاتفاق حول طرق تحقيق الحماية والردع، ومن ذلك: جمع التراجم والدراسات المنقولة من العربية إلى العبرية ودراستها دراسة علمية، والرد على الكثير من المغالطات



بنات الرياض

> **تُرجمت عشرات الأعمال العربية إلى العبرية أبرزها كتاب: «قصص الأنبياء»، و«عمارة يعقوبيان» للكاتب علاء الأسواني، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للسوداني الطيب صالح، و«الأرواح المتمردة» لجبران، و«حكاية زهرة» للبنانية حنان الشيخ، ورواية «بنات الرياض» للكاتبة السعودية رجاء الصانع**

الواردة فيها، وبخاصة أن النزعة الصهيونية تبدو واضحة عند تناول الأعمال الفكرية العربية والعناصر البشرية العربية.

الدفاع عن حقوق الكُتاب العرب والمصريين عن طريق المنظمات العالمية، خصوصًا أن بعض المؤلفين الإسرائيليين الذين تُرجمت أعمالهم للعربية يفعلون ذلك، ومنهم، (ساميخ يزهار - عاموس كينان -عاموس عوز- يعل ديان -يسرائيل شاحاك- ديفيد غروسمان) وغيرهم.

خلق مؤسسات عربية لترجمة الأعمال العبرية واليهودية بالتعاون بين كل المثقفين العرب المتخصصين؛ إذ ليس من المعقول أن يعرف أصحاب اللغة العبرية كل صغيرة وكبيرة تتعلق بلغتنا العربية وما تشتمل عليه بينما تقتصر معرفتنا على المترجمات من لغات أخرى غير العبرية وفي القليل نجد مترجمات مباشرة عن العبرية.



عبدالله البريدي
كاتب وأكاديمي سعودي

نحو مقاربة ثقافية تنموية للترفيه في السعودية

مفهوم الترفيه يشير -في إطاره العلمي العام- إلى الأنشطة التي من شأنها التسلية عن الناس في أوقات فراغهم؛ وفق إطارهم الثقافي، وأمزجتهم الخاصة. قد يكون من المناسب أن نركب مقاربتنا الثقافية التنموية للترفيه في المجتمع السعودي على هذا المفهوم، عبر عمليتي التحليل والتعليق على الكلمات المفتاحية الواردة في هذا المفهوم، وليكن ذلك في ثلاثة محاور كبيرة.

رفّه عن نفسك بقدر إنتاجك!

وردت في المفهوم عبارة «في أوقات فراغهم»، فماذا عساها تعني؟ ماذا عن أولئك العاطلين أصلًا الذين لا يعملون ولا ينتجون، وكل أوقاتهم فراغ في فراغ، هل هم بحاجة إلى ترفيه؟ أم أنهم يحتاجون بالدرجة الأولى إلى العمل والإنتاج؟ هذه المسألة تجرنا إلى التأكيد على أن الترفيه هو نشاط مكمل للإنتاج، لا معوضًا عنه، ولا مسلّيًا عن فقده أو ضعفه. الترفيه ليس هدفًا بحد ذاته، بل هو مجرد وسيلة. الترفيه ليس هو الطعام، بل الملح الذي يزينه. لقد تشكل وعي مجتمعي يقود إلى عدم القناعة بإنفاق الأموال الطائلة على مشاريع ترفيهية على حساب تشغيل الطاقات الشابة أو الوفاء بالاحتياجات الأساسية للناس. يخطئ كل من يعاند هذه الحقائق أو يتجاهلها، وسيكون للترفية -حينها- حمولات سلبية كبيرة في المخيلة الشعبية، وهذه خسارة فادحة يسعنا تجنبها. ويتأكد خطورة ما قلناه، بالنظر إلى تنامي تطبيق فكر الليبرالية الجديدة في المسار الاقتصادي المجتمعي في بيئاتنا العربية. إن الليبرالية الجديدة لا تؤمن بفكرة ربط الترفيه بالعمل والإنتاج، بقدر ما تهتم بتحصيل العوائد والأرباح، ولو كان على حساب إشغال الناس وإضعاف تفكيرهم وإنتاجهم، وحقنهم بالتفاهة والسذاجة (للمزيد يمكن القراءة حول مفهوم Tittytainment). لقد أفلحت هذه الليبرالية في إعادة تشكيل المكون الوجودي للإنسان المعاصر ليكون مندغمًا مع الترفيه وصادرًا عنه: أنا أترفّه، إذن أنا موجود. وهذا ما يجعلنا نرى ترفيهًا تافهًا لمترفهين تافهين، لا ينتجون شيئًا ولا يقدمون إسهامًا لمجتمعاتهم.

وتأسيسًا على ما سبق، أضع بعض النقاط التي أرى أن على الهيئة العامة للترفيه التفكير حيالها:

أولًا: إعادة النظر في الافتراضات الأساسية التي تشكل الخطاطة العامة للترفيه، بحيث يكون المكون التنموي ركيزة تخطيطية، إن في الغايات، أو في المراحل، أو في المشاريع، أو في الميزانيات.

ثانيًا: الحاجة إلى الترفيه تزداد كلما نجحنا فعليًّا في توظيف الشباب والشابات وجعلهم منتجين، وزودناهم بمهارات العمل في المستقبل.

ثالثًا: إيجاد تشريعات وآليات مشجعة على تبني الترفيه من قبل الشركات والمنظمات، لترسيخ فكرة الارتباط بين الترفيه والإنتاج.

رابعًا: إدخال خبراء محليين في مجال الربط بين مسائل الترفيه والأبعاد التنموية والمجتمعية، وهذا يعين على إيجاد هندسة مجتمعية ذكية لبرامج الترفيه.

خامسًا: تذويب أفكار «الترفيه التنموي» في المناهج والمقررات، وتسويقها في البرامج الإعلامية والتوعوية.

رفّه عن نفسك وَفْق ثقافتك!

لو جسدنا المعنى الوارد في هذا العنوان الفرعي، لقلنا: الترفيه صورة بروازها الثقافة. لا يستطيع الترفيه الانفلات من قبضة الثقافة؛ لا من حيث التشكيل الأولي الأصلي، ولا من جهة التطور المرحلي المتتابع، ولا من زاوية ما يقبل وما يرفض منه. إنها إطار مشكّل حاكم. هذه المسألة نجدها في كل مجتمع، وهي طبيعية جدًّا، غير أنها تمثل معضلة في المجتمع السعودي على وجه التحديد؛ لماذا؟ لأن الثقافة مأزومة! نعم، هي مأزومة من جراء أسباب عديدة ذات طبيعة تراكمية معقدة. ومن أهمها السبب الذي

يعود إلى اشتباك «الثقافي المتنوع» بـ«الديني المنمط» في مسائل الترفيه وبرامجه ومساراته. الديني المنمط (الفكر السلفي) يصدر «فتاوى جماعية حازمة» لمسائل مختلف حولها دينيًا وفقهيًا، كمسائل المسرح والموسيقا والغناء، ويجعلها في مرتبة عالية في «هرم التدين السعودي»، الأمر الذي يُوجِد احتقانًا شديدًا لدى الفئات المحافظة إزاء البرامج التي تتضمن شيئًا من هذا، ويدفعهم إلى ممارسات احتجاجية فوضوية. الحقيقة عندي أن الجميع يتحمل قدرًا من المسؤولية حيال ترسخ الذهنية الدينية المنمطة، وعليهم جميعًا (السياسي والمجتمعي) أن يعترفوا بجسارة وشجاعة، وأن يتقبلوا دفع التكاليف والقيام بالاستحقاقات الواجبة، من خلال برامج إصلاحية ذكية ممرحلة.

بدون هذا الاعتراف وهاتِهِ البرامج، لن يتطور المشهد الترفيهي السعودي، ولن يكون قادرًا على الانعتاق من الإسار الديني الممانع. وللتدليل على ذلك، أعود إلى خزانة الحكايا المجتمعية؛ لأستدعي قصة واقعية ظريفة حصلت في المعهد العلمي الديني في مدينة بريدة قبل ما يقارب ٥٠ سنة (في حدود عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م). هذي الخزانة تقول: قامت ثلة من طلبة المعهد (ممن كانوا روادًا لمكتبة الثقافة العامة ببريدة، وهذه لها قصة ثقافية يجب أن تروى) بإعداد مسرحية تدور حول الأدوار الشريرة التي يلعبها الشيطان في حياة الناس، ومنها حثهم على الكذب والغيبة والنميمة. اقترح أحدهم تسميتها بـ«برلمان إبليس». نُفذت المسرحية على حين غفلة من شيوخ المعهد، الذين علموا بها بعد ذلك، وهو ما استدعى إصدار عقوبات تأديبية صارمة للطلبة المشاركين، وقد وصلت أحيانًا إلى نَفْيِهم إلى معاهد علمية خارج المدينة (نُفي بعضهم إلى المعهد المناظر في الرياض). وحين ننظر إلى ردود الأفعال المجتمعية لفئات محافظة عريضة حيال بعض برامج الترفيه في الآونة الأخيرة، ندرك أن النهج الممانع في الخطاب الديني التقليدي لا يزال هو سيد المشهد، ولم تفلح السنوات الطوال في زحزحته نحو المرونة الفقهية الممارَسة في بقية الدول العربية والإسلامية، وهي المرونة التي تنتج تنوعًا في الفتاوى والاجتهادات والتطبيقات. هناك إخفاق كبير في تشجيع الفئات المحافظة على إعادة الترتيب للمسائل الجزئية في المنظومة الدينية وهرم التدين السعودي. معالجة هذه المسألة في إطارها التفصيلي تخرج عن نطاق هذه المقالة المختصرة؛ لذا سوف نعاود التركيز على مسائل الترفيه.

لا أحسب أن الترفيه في السعودية سينجح في تخطي هذه العقبة الكَأْداء دون تغيير في طريقة التعاطي معها، من زاوية التشخيص والتحليل والتخطيط والتنفيذ، وعلى رأس ذلك الاعتراف الجماعي الجسور الذي أومأتُ إليه آنفًا، على أنني لست متفائلًا بحدوثه قريبًا؛ لضعف المؤشرات الدالة عليه، ومنها عدم تبلور القناعة الكافية بفك الاشتباك بين السياسي والديني، على نحو يقذف بنا خارج أسوار السلفية المقيدة.

> **حين ننظر إلى ردود الأفعال المجتمعية لفئات محافظة عريضة حيال بعض برامج الترفيه في الآونة الأخيرة، ندرك أن النهج الممانع في الخطاب الديني التقليدي لا يزال هو سيد المشهد**

على كلٍّ، سأطرح جملة من الأفكار التي ربما تعين في حل جزء من هذه الإشكالية من زاوية أو أخرى. ويمكن لهيئة الترفيه مع الجهات المعنية النظر في كيفية تطبيق هذه الأفكار:

أولًا: تعزيز فكرة «دولة القانون» في المجتمع السعودي. قد يقال: ما دَخْل القانون في هذه المسألة التي قلنا عنها: إنها ذات طبيعة دينية مجتمعية؟ باختصار، أقول بأن كثيرًا من مسائل الترفيه مختلف حولها دينيًا، ولهذا فإن الحاكم على ذلك الضابط له ليس هو الرأي الفقهي لفئة مجتمعية معينة، إنما هو «القانون»، فما دام القانون لا يعارض إقامة برامج ترفيهية معينة نظرًا لصدوره عن رأي فقهي معين، فإنه لا يُسمح لأحد بمعارضة إقامتها باحتجاجاته الفعلية، أما طرح الآراء فقضية حرية تعبير، ويجب أن تكون مكفولة للجميع.

ثانيًا: صدور بيان من المؤسسات والشخصيات الدينية الرسمية وغير الرسمية تعزز هذه القضايا والأفكار، وتحذر من السلوكيات الاحتجاجية على برامج الترفيه المصرح بها قانونًا.

ثالثًا: ترسيخ هذه الأفكار في المناهج والمقررات والبرامج الإعلامية والتوعوية، بما يتناسب مع الشرائح المستهدفة.

رفّه عن نفسك وَفْق مزاجك!

لكل مجتمع محلي مزاجه الخاص. هذا المزاج يُنتج طرائق وأساليب محببة وأخرى غير محببة في مختلف جوانب الحياة، ومن ذلك ما يتعلق بالترفيه. ومن هنا، فإن من الواجب على هيئة الترفيه التعرف على «المزاج الوطني الخاص» للسعوديين بشكل عام، بجانب «المزاج المحلي الخاص» في كل منطقة. المزاج العام الوطني هو مزاج محافظ، ولهذا فإنه من المهم مراعاة ذلك في البرامج الترفيهية؛ بما في ذلك الموسيقا والمسرح والسينما؛ إذ إن المناسب للمجتمع السعودي هو الفن المحافظ، وهو الفن الذي أراه أصيلًا وراقيًا في الوقت ذاته. الفن الهابط أو الرخيص أو الماجن -في كل تمظهراته - لا يصلح للمجتمع السعودي، وإن كان ثمة طلب عليه من جانب بعض ممن لا يشكلون نسقًا عامًّا. ليس هذا فحسب، بل تتعين الإشارة إلى أنه من الطبيعي أن تشمل البرامج الترفيهية ما يناسب الفئات المحافظة دينيًا في جميع المسارات، لا



سيما أنها تشكل نسبة كبيرة في المجتمع. للوفاء بمتطلبات المزاج الخاص الوطني والمحلي، فإنه من الضروري العمل على تشغيل مكائن الإبداع الفني المحلي، الذي يتكئ على الأبعاد المجتمعية والدينية والجغرافية. سيحقق هذا الأمر ميزة تنافسية للفن السعودي الأصيل الذي لا يجده أحد إلا في هذا البلد، وهو المعبر عن روح البلد وعمقها الثقافي الحضاري. وفي ضوء ذلك، لا أرى أنه من المناسب -على سبيل التمثيل- التوسع في استجلاب فرق استعراضية دولية، لتقدم عروضًا ترفيهية؛ قد لا تكون قادرة على خلق الدهشة ولا على إنبات الابتسامة لدى المجتمع. صحيح أن كل شيء قد تمت عولمته، ومن ذلك الترفيه والنكت، لكنه صحيح أيضًا أن ما يضحك هذا الشعب قد لا يضحك الشعب الآخر بذات القدر من «الضحك الجواني»، في دلالة على رسوخ البعد المحلي في الترفيه والنكتة. النهج المتعقل المتوازن سيمكّن الهيئة من جعل برامج الترفيه ملائمة لأمزجة الناس ومشبعة لأذواقهم، وملبية لتطلعاتهم الوجدانية والنفسية، وسيكون لهذا انعكاسات إيجابية على تقويم أداء الهيئة وإنجازاتها.

وهنا أضع بعض الأفكار العامة أمام هيئة الترفيه، فلربما تكون مفيدة في الجوانب التخطيطية والتنفيذية، ومنها:

أولًا: الحرص على تنويع البرامج الترفيهية المنفذة من جانب هيئة الترفيه، ومن ذلك مراعاة احتياجات المناطق المختلفة والفئات المحافظة، والسعي لسدها بشكل كافٍ، وبقوالب متوازنة.

ثانيًا: التشجيع على تأسيس معاهد فنية متنوعة، من أجل صقل المواهب المحلية المبدعة في مجالات الفن والمسرح والعروض ونحوها، مع تقديم الدعم المالي والاستشاري واللوجستي اللازم.

ثالثًا: تنظيم مسابقات من شأنها تعزيز التنوع والتلبية المناسبة للأمزجة والأذواق، والتعريف بالمبدعين في هذا المجال.

رابعًا: سعي هيئة الترفيه لأن تنأى ببرامجها وطروحاتها عن التصريحات الإعلامية غير المدروسة، ومن المهم أيضًا النأي عن معالجات بعض الكتاب السعوديين المنتمين لما يسمى بـ«التيار الليبرالي»؛ إذ إنهم يصوِّرون القضية على أنها انتصار على خصومهم من السلفيين والصحويين، وهذا يزيد الأوضاع اشتعالًا. باختصار: قوموا بعملكم بهدوء، واطلبوا من أولئك الكتاب الكفّ عن التهويل والمبالغة في خلق المعارك الوهمية مع الأطراف الأخرى. قولوا للطرفين: لسنا بحاجة إلى صداعكم وتناحركم. آمل أن تسهم هاته المقاربة الأولية في إعادة التفكير بالترفيه من منظور ثقافي تنموي، يتأسس على الحقائق الصلبة. ويمكن لهيئة الترفيه أن تجعل مبادرة مجلة «الفيصل» في استكتابي حول هذا الموضوع نواة لإقامة ندوات علمية متتابعة، يُدعَى إليها متخصصون في العلوم الاجتماعية والإنسانية والشرعية؛ لطرح أبحاثهم حول المسائل والإشكاليات المحيطة بقضية الترفيه، وما أكثرها، وما أعقدها، وما أحوجها لما أسميه بـ«الصدق الممنهج». هذا الصدق هو المعبر عن روح المثقف الحقيقي، الذي يؤمن بأن الصدق وحده هو ما يجعل مشاكل وطنه جزءًا من الماضي لا المستقبل.

وأخيرًا وبكل صراحة، أقول: المسألة معقدة وتتطلب معالجات علمية وفكرية معمقة؛ لتفكيك الاشتباكات المعقدة بين الأنساق والأفكار والتيارات، بين ذهنية الماضي وذهنية الحاضر والمستقبل. لا أحسب أن هيئة الترفيه ستفلح في تخطي العقبات والتحديات الكبار دون نهج علمي متعقل متوازن.

مفكرة الحرب

محمد الشلفي شاعر يمني

خلسة يدلفون إلى المدينة
يجوبونها بأقدام مشققة
لرؤوس مفخخة بوصايا الموت
وأكتاف تتباهى بصورة القائد على البنادق...
البنادق التي ستحصد قتلى
ومفجوعين
ومقهورين
ونازحين
ومنافي كثيرة في الصدور!

***

أيتها الشوارع التي شهدت حبي
تجتاحك الميليشيا بأقدامها الغلاظ
كنت أحمل وردة
ويحملون رصاصة
كنت أتحدث في الحب
ويتحدثون في الموت
كنت ألاحق النجوم
ويطاردون الجثث والخصوم
كنت أوزع عشقي على الكائنات
ويوزعون الكراهية على الأرصفة
لا يحبون العصافير
يحبون دوي المدافع أكثر.
ستعلمين أيتها الشوارع الحزينة
أن صوت الحياة أعلى من دوي المدافع.

***

مرت الريح..
غير أننا انكسرنا
بما يكفي لأن نمضي بجراح غائرة
سنوات قادمة.
أشبعت نهمها الانتكاسات
أيها الوطن المقهور
اسمعها نصيحة مني:
خُذ من سعادتك لأَلَمِك
مِن أمسِك لِغَدِك
مِن يومِك لأَمسِك
من لحظتك لك...
سيطول انتظارك لغفوة أخرى...
ما أَعِدُك به
أنها ستأتي في نهاية المطاف
أنك ستكون..
وسيبقى أثر الطعنة لا يفارقك.



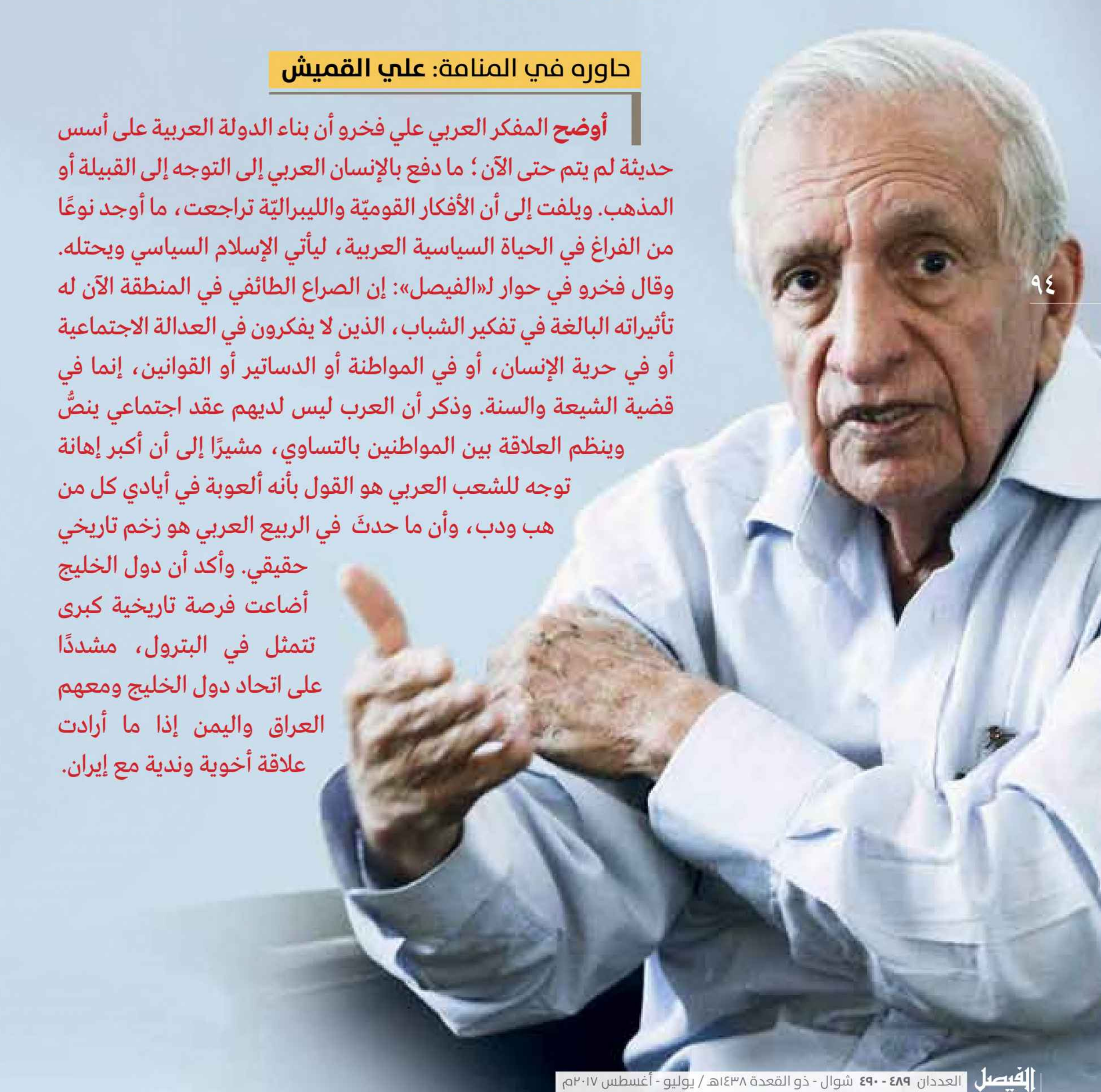
مفكر بحريني أكد أنه في غياب الأسس الحديثة لبناء الدولة العربية يتوجه الفرد العربي إلى قبيلته أو مذهبه

علي فخرو:

البترول فرصة تاريخية كبيرة أضاعها الخليجيون

حاوره في المنامة: **علي القميش**

أوضح المفكر العربي علي فخرو أن بناء الدولة العربية على أسس حديثة لم يتم حتى الآن؛ ما دفع بالإنسان العربي إلى التوجه إلى القبيلة أو المذهب. ويلفت إلى أن الأفكار القوميّة والليبراليّة تراجعت، ما أوجد نوعًا من الفراغ في الحياة السياسية العربية، ليأتي الإسلام السياسي ويحتله. وقال فخرو في حوار لـ«الفيصل»: إن الصراع الطائفي في المنطقة الآن له تأثيراته البالغة في تفكير الشباب، الذين لا يفكرون في العدالة الاجتماعية أو في حرية الإنسان، أو في المواطنة أو الدساتير أو القوانين، إنما في قضية الشيعة والسنة. وذكر أن العرب ليس لديهم عقد اجتماعي ينصُّ وينظم العلاقة بين المواطنين بالتساوي، مشيرًا إلى أن أكبر إهانة توجه للشعب العربي هو القول بأنه ألعوبة في أيادي كل من هب ودب، وأن ما حدثَ في الربيع العربي هو زخم تاريخي حقيقي. وأكد أن دول الخليج أضاعت فرصة تاريخية كبرى تتمثل في البترول، مشددًا على اتحاد دول الخليج ومعهم العراق واليمن إذا ما أرادت علاقة أخوية وندية مع إيران.



• ربما تكون من بين أكثر المراقبين لما يحدث في الشرق الأوسط تحديدًا من بزوغ ظواهر مثل: «التوحش»، و«التطرف» وتفلت «الكراهيات»، مفردات بزغت في السنوات القليلة الماضية في منطقة الشرق الأوسط، ومن خلالها عاشت المنطقة سلسلة من الصراعات القاتلة قادتها تنظيمات كـ«داعش» أو ما يسمى «بالدولة الإسلامية»، و«النصرة»؛ كيف تقرأ تلك الظاهرة؟ وما الذي جعلها تتسع بهذا الشكل الخطر في منطقتنا؟

■ باعتقادي تلك هي أخطر ظاهرة تواجه الأرض العربية والإسلامية في هذا القرن، ولا أعتقد أنها قد واجهت إمكانية تدمير كما هي الآن، ليس تدميرًا وحسب، إنما أيضًا وضعها أمام العالم موضع الخطر الدائم. حين تراقب ردود الفعل المتعددة لوصول ترامب لمنصب الرئاسة، وقراراته العجيبة، أوربا وترددها، اليمين الأوربي الذي يزداد قوة وتوحشًا ودائمًا يستعمل ورقة الإسلاميين ويشير إلى الإسلاميين المتطرفين العنيفين الإرهابيين؛ فالتأثيرات هائلة وإذا استمرت لمدة طويلة في اعتقادي أنها ستكوّن أخطارًا رهيبة على هذه المنطقة كلها، لهذا السبب أصبحت الإشكالية الآن معقدة كثيرًا، ويمكننا النظر إليها على مستويين؛ المستوى السياسي، والمستوى الثقافي.

في الواقع السياسي نحن أمام ظاهرة تتقلب وتتغير حسب الظروف، بدأت بكونهم أفغانًا يحاربون ضد الاتحاد السوفييتي الملحد من أجل الديمقراطية الغربية العظيمة، استعملت تلك المشاعر والحركات الشبابية بخبث شديد من قبل CIA... والقصة معروفة، لكن الانتهازية الأميركية لا يمكنها التوقف عند حد. سقط الاتحاد السوفييتي؛ هل تتوقف هناك؟ بالطبع لا، فهي تريد استعمالهم بكل الأنواع، جاءت فرصة العراق؛ احتلال العراق والمقاومة وسمح بصورة مؤكدة لهذه الحركة أن تنتقل من أفغانستان إلى العراق، وهناك القصة أيضًا معروفة، كيف تطورت إلى أن وصلت إلى مرحلة الاستيلاء على أراضٍ كثيرة، ثلث العراق تقريبًا، حتى تعقدت الأمور وتداخلت معها بعض الدول الأوربية. ولا شك أن للاستخبارات الإنجليزية دورها أيضًا، حتى أصبحت بعد ذلك لعبة في يد بعض الدول العربية، بعض دول الخليج من المؤكد أيضًا أنها دخلت في اللعبة من أجل أن تستعمل هؤلاء، واستُعمِل هؤلاء في سوريا، والآن يُستعمَل هؤلاء في ليبيا ومن قبلهم استعملوا في اليمن وهلم جرًّا، والآن من الممكن أن تتمدد إلى أماكن أخرى كلما أرادوا أن يتدخلوا أو يسقطوا نظامًا معينًا يستعملون الأسلوب نفسه، إذن الآن هؤلاء أصبحوا جزءًا من ظاهرة عالمية بالغة التعقيد؛ فيها استخبارات، وفيها حكومات، وفيها أموال هائلة، وفيها شركات تلعب أدوارًا من أجل أن تبيع السلاح، يطلبون السلاح وبعض الدول تدفع الثمن.

الصراع الطائفي في المنطقة الآن له تأثيراته البالغة في تفكير الشباب، فهم لا يفكرون في العدالة الاجتماعية أو في حرية الإنسان، إنما هم مشغولون بقضية الشيعة والسنة

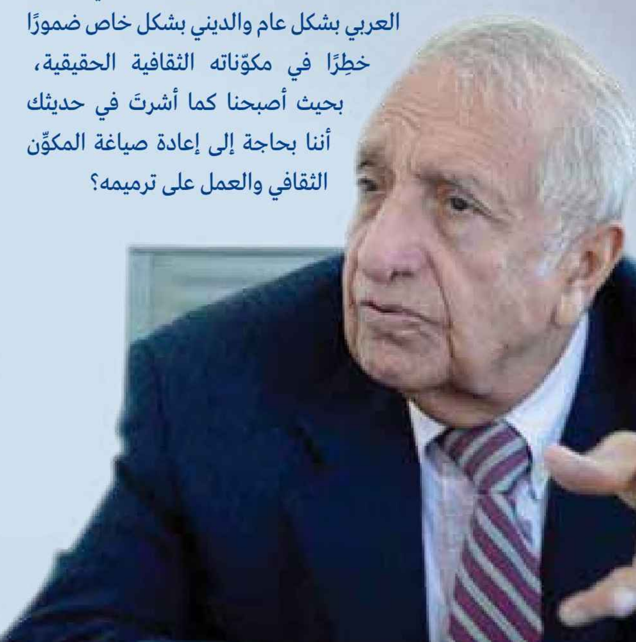
إذن من الناحية السياسية إنهم يكوِّنون فعلًا كتلة حرجة وخطرة جدًّا، الإشكالية الآن أن هؤلاء إن هُزموا في الموصل وفي الرقة وأُخرجوا من العراق أو ما عاد لهم وجود على الأرض، فإن علينا الوقوف أمام ظاهرة الذئاب الفردية التي ستنتقل بعد ذلك لتكوين جماعات صغيرة لا تلتزم بقيادة واحدة، بل بقيادات وأشكال مختلفة، وفي هذه الظاهرة لا بد من الالتفات إلى توجيهات داعش لشبابها وعناصرها، ومن الممكن أن ينطبق هذا أيضًا على الآخرين، بضرورة أن يهيئوا أنفسهم لحلق اللِّحى وارتداء اللباس الغربي، واستخدام العطور المشبَّعة بالكحول؛ كي لا يكونوا عرضةً للشك إطلاقًا، فيسهل ترتيب أمورهم وانقضاضهم بين الحين والآخر، يفجرون هنا ويقتلون هناك، هذي الظاهرة الأخيرة هي أخطر ما في الموضوع؛ لأنها لا تنتهي، تستطيع أن تستمر لأمدٍ بعيد. وهناك دائمًا مجموعات من الشباب الذين يسهل اللعب بعقولهم وخديعتهم ليُجَرُّوا لمثل هذه المصيدة.

السؤال الآن: هل الأسباب فقط سياسية مختزلة في أن الغرب عندهم مشاكل، وهؤلاء الشباب يريدون أن يحرروا هذه الأرض من الرِّبْقة، هذا الكلام غير صحيح؛ لا هؤلاء معنيون بإخراج الاستعمار، ولا معنيون أيضًا بإسقاط الصهيوني في فلسطين. فلننظر الآن إلى الجانب الثقافي؛ فهذه الظاهرة لا يمكن أن تجتث فقط ما له تأثير بالجانب الأمني أو السياسي أو وجود تحالفات بأشكال مختلفة، هؤلاء من المؤكد أنهم يستندون إلى خلفية ثقافية إسلامية، وهي خلفية لها تاريخ طويل جدًّا، ومع الأسف الشديد، إنها ظاهرة قراءة فقهية وقرآنية خاطئة، وبالتالي لا بدّ لنا الآن أن نسأل: هل نحن قادرون على أن ندخل في حركة إصلاحية للمجال الديني؟ أنا لا أقول حركة إصلاحية للقرآن أو للوحي الذي نزل لكنها حركة إصلاحية تتوجه إلى ثلاثة أشياء: الشيء الأول هو علوم الحديث، وهي علوم اندست فيها ألوف الأحاديث ضد الإسلام والإسرائيليات وغيرها، وهذه يجب أن تواجَه. لا نستطيع القول: إننا لا نعرف ما الصحيح وما الخطأ، الخطأ هو كل ما يعارض ما جاء في القرآن الكريم، وما يعارض المقاصد الكبرى للإسلام، والخطأ هو كل ما يمس شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يتكلم عن الغيب وهو لا يعرف الغيب، ما يتكلم عن أمور من الواضح جدًّا أنها أدخلت الصراعات السياسية السابقة: الشيعة والسنة والإباضية، هذا كله وأكثر.

الشيء الثاني ما يتعلق بعلوم الفقه؛ الذين اجتهدوا في كلّ المدارس الفقهية كانوا بشرًا: جعفر الصادق بشر، وأبو حنيفة بشر، والشافعي بشر، وغيرهم جزاهم الله خيرًا لأنهم اجتهدوا من أجل أن يوجدوا حلولًا لأوضاع مختلفة عن أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا شيء صحيح لكنهم كانوا يستعملون علوم عصرهم، وأفكار عصرهم، وظروف عصرهم. الظروف الآن كلها تغيرت، لا يمكن القول بأنّ ما قاله الشافعي أو جعفر الصادق يجب أن يؤخذ به اليوم، الذي يجب أن يؤخذ به هو وجوب إيجاد حركة إصلاحية تقرأ الفقه من جديد، وتقرأ علوم الأحاديث من جديد، وتضع ارتباطًا وثيقًا بين هذا المجال الديني الإسلامي وبين علوم العصر، هناك تحولات كبرى في اللسانيات وفي الأنثروبولوجي، وفي قراءة التاريخ، وفي طرق النقل، وفي قراءة الكلمة وإلى آخره، ونحن ندرك ذلك كله، ولا نستطيع أن نتجاهل وتقول: لا، ما قاله السلف هو الشيء الصحيح، هذه القضية في اعتقادي هي أكبر تحدٍّ، إيجاد حركة إصلاحية للمجال الديني؛ كي لا يجد الشباب أنفسَهم متخبطين تُدسُّ في عقولهم ادعاءات منسوبة إلى المقدَّس فيأخذون بها ويعملون بها، تلك قضايا معقدة تحتاج في تفكيكها لساعات طوال.

سقوط المشروعين: الناصري والبعثي

• كلامك يتقاطع مع الرؤية التي تذهب إلى أن حركات التطرف في منطقة الشرق الأوسط ودوائر التوحش ما هي إلا صناعة استخباراتية، ولكن هناك أيضًا استثمار لدوائر الجهل في المنطقة سواء كانت دينية أو ثقافية، ترى هل يعاني خطابنا العربي بشكل عام والديني بشكل خاص ضمورًا خطِرًا في مكوّناته الثقافية الحقيقية، بحيث أصبحنا كما أشرتَ في حديثك أننا بحاجة إلى إعادة صياغة المكوِّن الثقافي والعمل على ترميمه؟



■ هناك ضمور في الثقافة السياسية؛ يعني في حقبة الخمسينيات من القرن الماضي، أو حتى الأربعينيات ظهر الفكر الحديث السياسي المتعلق بالدولة وبالقومية وبالوطنية وبالدساتير، بدأ ينتعش شيئًا فشيئًا، السقوط المذهل للمشروع القومي وتوحيد الأمة العربية وغيره، ولكن أكثر وضوحًا؛ مشروع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في مصر، ومشروع حزب البعث الذي نشأ في سوريا وفي العراق، الجميع فشل لأسباب كثيرة لا يمكن الخوض فيها. لا الرئيس عبدالناصر استطاع أن يحقق تلك النظرة؛ قضية الوحدة والحرية والاشتراكيّة، ولا حزب البعث استطاع أن يحقق ذلك، وضيّع الاثنان مناسبات كثيرة جدًّا بسقوط المشروع القومي. حزب البعث ارتكب حماقات لا أول لها ولا آخر ويجب أن يقرّ بذلك، يكفي أن نذكر مثلًا واحدًا لفشل حزب البعث، أولًا عندما وقف مع انفصال سوريا عن مصر ارتكب جريمة كبرى بحق، وعندما كان يحكم سوريا والعراق كان يستطيع أن يوحّد سوريا والعراق في دولة قوية، أقوى دولة عربية، وأغنى دولة عربية، وأقدر دولة عربية، وأكثرها نموًّا في الزراعة وفي الصناعة وفي العلم، إنما لم يفعل ذلك!

مع الأسف فإنّ الشعارات التي رفعت لم تطبّق، ولم يؤخذ بها، ودخل حزب البعث في المغامرات العسكريّة والأمنيّة، إذن ذلك السقوط السياسي رافقه مباشرة سقوط ثقافي سياسي، تراجعت الأفكار القوميّة، وتراجعت الأفكار الليبراليّة، ووجد نوع من الفراغ في الحياة السياسية العربية، هذا الفراغ احتلّه الإسلام السياسي، تم ركن الفكر القومي، والفكر الليبرالي، وكذلك الفكر الاشتراكي بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وإذا هناك فراغ هائل في الساحة السياسية والثقافية العربية ملأها الإسلام السياسي، الذي مع الأسف له إشكالياته؛ منها إشكالية عدم قدرته على أن يقرأ قراءة حديثة لمنطوق الوحي من جهة، وقراءة حديثة للتراث الفقهي والتراث الحديثي من جهة أخرى، والنتيجة رأيناها عندما استلم الإخوان المسلمون الحكم في مصر، كيف تخبطوا وأضاعوا فرصة العمر... لا بدّ من النظر الآن إلى العمل السياسي الإسلامي في تونس الذي تعلم درسًا وما زال يحاول، وبالفعل ما زالت لدى حزب النهضة في تونس محاولات لتطوير الفكر السياسي الإسلامي، بحيث يتعايش أكثر مع العصر الحديث، لكنه تطوير محدود وتونس بلد صغير لا يمكن أن يؤثر كثيرًا، كان المؤمل على الحركة الإسلامية السياسية في مصر أن تقود ذلك.

• هل هناك فراغ ثقافي؟

■ هناك نوع من المأساة الثقافية الحقيقية في داخل الأرض العربية، لماذا؟ ما أردناه نحن كان بتفكيرٍ ذاتي، فكر حزب البعث كان تفكيرًا ذاتيًا عربيًا، والرئيس جمال عبدالناصر حركته كانت

بتفكيرٍ ذاتيٍّ، والإسلام السياسي كان من المفترض أيضًا أن يكون ذاتيًّا، إنما الآن دخلت علينا ثقافات أخرى لها تأثيراتها البالغة؛ ثقافة العولمة هي ثقافة جديدة تُشدّد كثيرًا على الفرديّة إلى حدّ أنها تمحو المجتمع في حياة الإنسان، وتمحو العائلة في حياة الإنسان، تشدد على الاستهلاك النهم الدائم، تشدد على الجانب الاقتصادي البحت في حياة الإنسان، بل الجانب المالي البحت، وقد أوجدت الآن وضعًا ثقافيًّا اقتصاديًّا وسياسيًّا بالغ التعقيد، وهو محلّ انتقاد شديد في الوقت الحاضر. كل هذه الأمور طبعًا لها تأثيراتها البالغة على شباب الأمة العربية، فهم الآن في حالة ضياع وتيه في فوضى هذا الفكر العولمي الذي لا يستطيع أن يحل إشكالياتك المحليّة، هو يخدم مصالح واضحة المعالم للدول الرأسمالية الكبيرة الغنية والشركات الكبيرة، أما أنت بوصفك فردًا فلا. اليوم يشهد الغرب أيضًا حركة تمرّد بالنسبة للفكر العولمي، وهناك نقطة لا بد من الدخول فيها؛ الصراع الطائفي في المنطقة الآن له تأثيراته البالغة في تفكير الشباب فهم لا يفكرون في العدالة الاجتماعية أو في حرية الإنسان، ولا في المواطنة أو الدساتير أو القوانين؛ لأنهم ببساطة مشغولون جدًّا بقضية الشيعة والسنة.

• في هذا السياق الخطاب الطائفي الذي استشرى في منطقتنا وتحركت مفاعيله بالشكل المزعج والكارثي عائد بالدرجة الأولى لغياب الدولة العربية العادلة؟

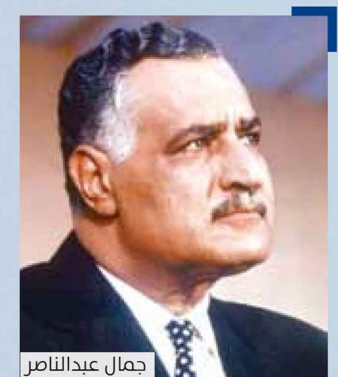
■ تمامًا... الذين يسكنون في دولة ما إذا هم شعروا بأن الدولة تحميهم من خلال القوانين والدساتير والتوزيع العادل للثروة والمساواة وتكافؤ الفرص، لن يحتاجوا إلى ارتباطاتهم الفرعية لتحميهم؛ لأن الدولة تحميهم.

• وهنا، أي في غياب الدولة، يرتد الفرد إلى الجماعة...

■ تمامًا... عندما يشعر بأن الدولة لا تحميه فليس هناك مواطنة متساوية، ولا تكافؤ فرص، فإلى أين يتوجه؟ هو وحده لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، يلجأ إلى انتماءاته الفرعية: الانتماء القبلي، والمذهبي، والديني، فهناك أيضًا أديان أخرى، وقد يكون الانتماء الحزبي؛ لأن الحزب أيضًا يحميني، لكن الحياة الحزبية في الأرض العربية تكاد تلفظ أنفاسها، ما عادت موجودة. إذن الإنسان يتوجه أكثر ما يتوجه إلى القبيلة أو المذهب الطائفي من أجل أن يحميه، أعطني في أي مكان في الأرض العربية أعطني قوانين عادلة، وأعطني نظامًا ديمقراطيًّا معقولًا يشعر فيه الإنسان بأن هناك أملًا في أن أمتنع من

أكبر إهانة تُوجَّه للشعب العربي هو القول بأنه ألعوبة في أيادي كل من هب ودب، ما حدث في الربيع العربي هو زخم تاريخي حقيقي

انتخاب حكومة ظلمتني، الحزب الذي يمثّلها في البرلمان لا أنتخبه، حينئذٍ لا حاجة لأن يستعمل العنف أو يتوجه إلى أيّة جهة لتحميه، هو قادر بصوته أن يُحدث فرقًا كبيرًا جدًّا، لكننا للأسف لا نمتلك مثل هذه الوسائل والطرق التي يتوجه لها الإنسان فيضطر لأن يلجأ إلى العنف، إذن القضية هي أن بناء الدولة العربية على أسس حديثة لم يتم حتى الآن، وما لم يتم ذلك فالإنسان العربي سيذهب ويتوجه إلى قبيلته أو مذهبه أو إلى عرقه.


جمال عبدالناصر

إرث استبدادي

• ما الذي يمنع قيام الدولة العادلة؟ من خلال مسار التاريخ تجد أن النخب الحاكمة في المناطق العربية تُبقي على تلك النتوءات التي تضع طائفة ما في مقابل طائفة أخرى، وهل أنت مع من يذهب إلى أن السلطات تعمل على استثمار تلك النتوءات لصالحها؟ وهل هي فكرة صحيحة أصلًا للحكم هو أنني متى ما زرعت تلك الفرقة سيدوم عمر الحكم لدي؟

■ أولًا أنت تسأل لماذا، لأننا نمتلك إرثًا تاريخيًّا استبداديًّا، بعد سقوط الفترة الراشدية التي هي محاولة لأخذ رأي الناس في الحاكم الذي سيعين، حتى لو كان ذلك بشكلٍ محدود، حتى جاء الحكم الأموي وظهر (الملك) والمُلْك، استمر هذا معنا منذ ذلك الوقت، إنه ما يسميه محمد عابد الجابري عقلية الغَلَبة؛ الذي يغلب هو الذي يحكم، الآن الغلبة قد تكون لقبيلة أو لعسكر وقد تكون لأجانب من الخارج. الأرض العربية حكمت من قبل الأتراك لمئات السنين إذن كان حكم الغلبة، من يستطيع ومن لديه القوة هو من يحكم، حسنًا، لديك هذا الإرث كيف يمكنك تغييره إلى نظام وأن الدولة هي ملكك أنت؟ ليست رعية وراعيًا، أنت مواطن وفكرة الرعية هي نفسها فكرة قديمة ربما كان لا بأس بها في زمانها، لكنها ما عادت صالحة، مع ذلك نجدها باقية مترسخة حتى اليوم، هذا ما يتعلق بتاريخك. إذن تاريخك يؤدي إلى الاستبداد، انقساماتك التي تحدثنا عنها تؤدي إلى الاستبداد، ثم أنت بالفعل مستهدف من الخارج وليس في ذلك ذرّة شك، يكفي أن نذكر سايكس بيكو، التي قسمت البلاد

العربية وجزأتها ووزعتها بخطوط. جلس مستر سايكس ومستر بيكو وتقاسموا الأرض، كانت البلاد العربية بلادًا واحدة واليوم الوجود الصهيوني داخل البلاد العربية يقول بالحرف الواحد بأننا لا يمكن أن نعيش إلا إذا ظلت البلاد العربية مقسّمة، ولا يقف الأمر عند التقسيم، بل تقسيم المقسّم، حتى العراق يجب أن يصبح ثلاث دول، وسوريا خمس دول، ومصر وغيرها، لن يسلم أحدٌ من هذا الأمر في ظلّ هذه الظروف. الإرث التاريخي والوضع الداخلي نفسه المبني على الغلبة لا على الشرعية الديمقراطية، أن أنتخبك يعني أنّ بيني وبينك عقدًا اجتماعيًّا، نحن في الأرض العربية ليس لدينا عقد اجتماعي ينصُّ على أنّ (أنا وأنت) سنعيش في هذه الدولة مستندين لأسس محددة، هناك دستور وقوانين وكذا وكذا، هناك انتخابات وتعددية، نحن نفتقر لكلّ ذلك، إذن كل تلك الأمور هي التي أدت إلى أن الدولة العربية تصبح دولة ضعيفة وفاسدة في داخلها، مع الأسف.



● في هذا السياق، سياق تدخُّل الخارج في شأن المنطقة، ماذا عن الثورات العربية، الربيع العربي، هناك من يرى أنها تأتي في سياق صراع السيطرة، وأنها نتاج تلك المقدمات التي صاغتها فكرة الفوضى الخلاقة وفكرة صناعة جغرافيا مغايرة للمنطقة، سأذكر في سنة ٢٠٠٥م حين تحدثت كونداليزا رايس عن الشرق الأوسط الجديد، وعندما فشل في أعوام قريبة (٢٠١٢م)، أيضًا مدير الاستخبارات الفرنسية، قال في مؤتمر بواشنطن: إن دولًا عربية مثل العراق وسوريا لن تستعيد حدودها السابقة أبدًا؛ هل الربيع العربي في حقيقته هو نتاج مطالب أبناء المجتمعات العربية بشكل خالص، أم هو صنيعة؛ كي يصلوا إلى ما تحدثت عنه من تقسيمات؟

■ أعتقد أنّ أكبر إهانة توجه للشعب العربي هو القول بأنه ألعوبة في أيادي كل من هب ودب، ما حدثَ هو زخم تاريخي حقيقي في المجتمعات العربية التي ملت الاستبداد والفساد والظلم، ملّت التوزيع المزعج للثروة المعنوية والمادية ولا شك في ذلك أبدًا، لنأخذ مصر مثلًا، المصريون ملوا من حكم كان فاسدًا واستبداديًّا، تونس أيضًا، وقِسْ على ذلك، لكن مع الأسف الشديد، فتلك الثورات الرائعة التي أبهرتِ العالم، وأعتبرها نوعًا من الثورات التي لم يمارسها أحد قبل العرب، اعتماد وسائل التواصل والزخم والإصرار اليومي إلى أن يسقط النظام، مثلما حدث في تونس وفي مصر، أسقط جهدها ثلاثة أشياء؛ الشيء الأول هو قلة خبرة من قاموا بهذه الثورات من الشباب، فلم تكنْ لديهم الخبرة الكافية في الحياة السياسية، والدليل على ذلك في مصر وغير مصر أنّ الشباب بعد سقوط النظام لم يسعوا لأنْ يتضافروا، ويكونوا أحزابًا وحركات جديدة، بل انقسموا وتوجهوا يمينًا وشمالًا، هذه إذن قلة الخبرة. الشيء الثاني لا شك أبدًا في أنّ الخارج قد خاف مما يجري، القول بأنه كان يرحب بالأمر هذا غير صحيح، كان هناك خوف من أن تدمّر تلك الثورات كل المصالح الموجودة للخارج في الداخل، وبالتالي ترك تدخلاته هنا، نوع التدخل يختلف لأنه يعتمد على هذه البلاد وتلك، هذه الجماعة والجماعة الأخرى. والجانب الثالث هو أن هناك ثورات مضادة؛ بمعنى أنك اليوم تمتلك قوة كبيرة جدًّا كانت مترسخة، عندها قدرات مالية وقدرات اقتصادية، وقدرات عسكرية وأمنية استطاعت أن تسترجع أنفاسها بعد الصدمة الجديدة في أول سنة، وتلملم نفسها، وتعود وتهجم مرة أخرى والنتيجة كما ترى...

لكنّ السؤال: هل انتهت؟ أنا في اعتقادي أن ما بدأ في سنة ٢٠١١م سيستمر في الانفجار بين الحين والآخر إلى أن يصل إلى مرحلة معينة من الاستقرار عبر عشرات السنين في المستقبل، الذين يعتقدون أن المجتمع العربي مات وانتهى أمره، ووصل إلى مرحلة، ولن يعود مرة أخرى هم مخطئون

ما زالت لدى حزب النهضة في تونس محاولات لتطوير الفكر السياسي الإسلامي، بحيث يتعايش أكثر مع العصر الحديث، لكنه تطوير محدود، فتونس بلد صغير لا يمكن أن يؤثر كثيرًا على المستوى العربي



جدًّا، تاريخ المجتمعات العربية تاريخ مليء بالحركات الثورية، مليء بالمحاولات سواء على مستوى الاستقلال الوطني من قبل، أو بالنسبة للثورات على أشكال من الخلافات. الخلفاء، أمراء المؤمنين هنا وهناك، والشعب العربي من أكثر الشعوب التي ضحّت بملايين من البشر في ثورات مختلفة، يكفينا مثلًا الجزائر التي دفعت أكثر من مليون شخص ثمنًا لحريّتها، إذن هذا الشعب ليس من الشعوب غير المستعدة لتقديم نفسها من أجل الاستقلال ومن أجل الحريّة ومن أجل المبادئ التي يؤمن بها، إنما نحن الآن مثل كل الثورات تصعد وتنزل، ثم تبدأ في الصعود من جديد، ولا أشعر بالخوف من أن لها عودة في المستقبل، النقطة المهمة أنّ الدول الكبيرة هي القادرة على جرّ القاطرة العربية، دول صغيرة ليس لها حول ولا قوة، اليوم مثلًا بالرغم من النجاح الكبير الذي حققته تونس مقارنة بالآخرين لكنها بوزنها الصغير جغرافيًّا وسياسيًّا لم تكن فاعلة في التغيير العام، تصور لو أن هذا النجاح قد حدثَ في مصر، لكان الوضع العربي اليوم مختلفًا تمامًا بسبب ثقل البلد، فأنا أعتقد بأن القول استهزاءً بأن الربيع انقلب إلى خريف هذا كلام فارغ، هذا الربيع نفسه هو الربيع، ولكن تعتريه عواصف وشح في المطر وبالتالي يعاني، إنما هو ربيع وسيأتي وقته.

● هناك ما يشي بأن الآخر الغربي دائمًا ما يكون مدفوعًا لأن يقسم العالم لمصالحه؟

■ ليس هناك ذرة من الشك في أن الخارج يلعب دورًا، وما من شك في أنّه لا يريد لهذه الأمة أن تتوحد، يخاف من توحدها، ويريد أن يبقيها ممزقة، الآن وسابقًا كنا نقول: إن الإنجليز والفرنسيين أساسًا لا يريدون لهذه البلاد أن تتوحد، اليوم دخل عنصر ثالث بالغ الخطورة وهو العنصر الصهيوني، ولك أن تقرأ الكثير من كتاباتهم وأقوالهم التي تشير إلى استعدادهم التام إلى نسف وتدمير أي عنصر قد يستشعرون منه خطرًا ما ولو في المستقبل البعيد جدًّا، وقد يفسّر لنا ذلك كيف دمروا إمكانية القدرات الذرية في العراق سابقًا بمجرد بدء التفكير فيها، ودمروا اتحاد مصر وسوريا وساعدتهم دول عربية في تدمير ذلك، ومنعوا أي نوع من الاتحاد الجدّي، ويدخلون دائمًا في قضايا إذا ما تعلّق الأمر بذلك، إذن على المستوى الخارجي لا توجد ذرة من الشك، لكن السؤال الذي يجب أن أطرحه؛ أنا شخصيًّا لا يهمني ما يريده الخارج، أو ما يفعله وليس في يدي أن أغيره أو أحركه، ما في يدي هو الداخل، هل نحن الآن نبني حركة أو تيارًا على مستوى الأرض العربية كلها متماسكًا متناغمًا بعضه مع بعض، يفكر ضمن إستراتيجية في حدها الأدنى على الأقل؟ إستراتيجية مشتركة من أجل أن يقف ضد الخارج وتدخلاته، من أجل أن يقف ضد الاستبداد الداخلي، من أجل أن يدفع نحو مزيد من الديمقراطية ومزيد من العدالة.

هذا ما لا يحدث للأسف، واللوم هنا علينا نحن الشعوب العربية، فأنت لا تستطيع أن تمنع الخارج إلا إذا تمكّنت من حلّ مشكلة ضعف الداخل، طالما أن لديك أنماطًا لا حصر لها ولا عدّ من الضعف الداخلي، على سبيل المثال فلننظر إلى الصراع

الطائفي، الطائفيون هم الذين يذهبون إلى الخارج ويستعينون به، وهذا معروف فهناك حركات شيعية وسنية وليبرالية أيضًا كلها تستعين بالخارج، حتى أولئك الذين ينضمون لجماعاتهم على أسس عرقية مثل الأمازيغ والأكراد وغيرهما، كلهم يتوجهون إلى الاستعانة بالخارج، لماذا؟ لأنك أنت ضعيف، وبالتالي هم يتوجهون للخارج ويستفيدون من ذلك، فالقضية الأساسية هي أنك إن لم تَسِر ضمن حركة ما يسمى بالكتلة التاريخية إذا لم يكنْ هناك كتلة تاريخية حقيقية تنطلق منها وتعود إليها، يعني جمال عبدالناصر حاول أن يبني تلك الكتلة التاريخية، حزب البعث حاول أن يبني تلك الكتلة التاريخية لكنهم لم يعرفوا كيف يبنونها، وبالتالي كيف تستمر، ما يجب الالتفات إليه الآن في الأرض العربية هو: هل نستطيع أن نبني كتلة تاريخية تخرجنا من هذا الجحيم الذي نعيشه أم لا؟ هذه قضية لا أنا ولا أنت نستطيع أن نجيب عليها، مَنْ سيجيب عليها هم من فجروا تلك الثورات منذ خمس سنوات، ثم غلبوا على أمرهم، هل يستطيعون العودة من جديد لتفجير ثورات جديدة وحركات جديدة؟

إيران والخليج

● **في سياق سابق تحدثتَ فيه عن خطر إسرائيل... الآن في منطقة الخليج العربي هناك إيران في قبالة دول الخليج والمنطقة، ومن خلالها برزت عناوين كثيرة مثل: صراع السيطرة على مفاصل حيوية في المنطقة كمضيق هرمز، والحرب من أجل استعادة الشرعية في اليمن، كيف تقرأ ما يحدث الآن؟ وهل بإمكان الصراع أن ينتج شيئًا إيجابيًّا في مستقبل المنطقة؟**

■ أولًا أنا أعتقد أن مشكلتنا في الخليج هي أننا لا نضع إستراتيجيات طويلة المدى بالنسبة إلى موضوعات مثل: علاقة الدول العربية في الخليج بإيران، والفكر الإستراتيجي يقول ما يلي: إيران هي نصف الخليج؛ سكّانًا ضعفَا الخليجِ، اقتصادًا لا تقل عن دول الخليج، لديها البترول، بل أكثر فلديها إلى جانب البترول الزراعة والصناعة وعندها كل شيء، هذا هو الواقع الجغرافي، في الطرف الآخر هناك واقع تاريخي، قضية الإسلام وعلاقة إيران بالإسلام، هي دولة إسلامية بغض النظر عن قصة المذهب، فهذه ليست قضية كبرى. أرى أنه كان من المفترض من دول الخليج أن تتحد؛ إذا كانت تريد أن تكون علاقتها أخوية لكن نديّة مع إيران. وكثيرًا ما كتبت وقلت: إنه ليس فقط اتحاد الدول الست بل معهم العراق واليمن، عند ذاك أنت تبني دولة مساوية وكيانًا مساويًا لإيران، ليس من أجل أن تضاد إيران وتضعفها، إنما من أجل أن تقول لإيران نحن متساوون، نحن أخوَان متساويان، فلا تعتدوا علينا ولا نعتدي عليكم، هذا جانب والجانب الآخر في اعتقادي كان يجب أن تدمج إيران في

من المفترض أن تتحد دول الخليج؛ إذا كانت تريد أن تكون علاقتها أخوية لكن نديّة مع إيران

الاقتصاد الخليجي، فعندما تبني مصالح اقتصادية تقل المخاطر السياسية، فتفكر إيران ألف مرة لأن لها مصالح، والخليج يفكر ألف مرة لأن له مصالح، نحن أمام وضع مع الأسف مرة أخرى لم نعرف كيف نتصرّف إزاءه، ما أريد قوله هو أننا لم نبنِ حوارًا مع إيران، ولم نُدخلها في الحياة الاقتصادية، وليست لدينا محاولة لحل الإشكالية الفقهية التي تقسمنا، وإيران تقف بفهمها البليد للقضية الإسلامية، ونحن كذلك لا نوفر جهدًا في بلادة الفهم.

لنكن صريحين مع أنفسنا، ماذا يعني إن كان الحق لأبي بكر أم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما؟ وقد كانت القضية في حينها، وذلك لا يعني أن أبقى مجترًّا لهذه القضية بعد ١٥٠٠ سنة، لكننا بكل أسف ما زلنا على اجترارنا لها، لماذا نسمح للتاريخ بأن يحكم الحاضر؟ الأمة البليدة وحدها هي التي تفعل ذلك، علينا أن نستفيد من التاريخ ونتعلّم منه لا أن نتركه يحكم حاضرنا، وهذا ما يجري الآن في إيران وفي أوطاننا، نحتاج إلى عقلاء يخرجون الأمّة من هذه الدوامة بكلّ بلادتها وتخبطها، لا بدّ لنا من الوصول إلى حالة ننظر فيها إلى ذكرى مأساة الحسين بوصفها بطوليّة وليست بكائية، هذا الرجل الذي وقف من أجل مبادئه رجلًا ومات رجلًا، دون أن نختزل القصة في شربة ماء وحالة عطش. سبق أن كتبتُ كثيرًا في التاريخ وكيف صار يحكمنا، نحن يجب أن نخرج من هذه الدائرة، ونُخرج القرآن من قبضة التاريخ، وننأى عن تفسير الآيات بمزاجيّة ومذهبيّة، دون أن نصنف مقاصد الله بحسب ما يخدم أهواءنا، وكأننا نريد أن نمسك رقبة القرآن بالتاريخ، لا بدّ لنا من تطهير التاريخ، تطهير الذاكرة الجمعيّة المملوءة بالأمراض وهذه مسؤوليتنا كلنا، مسؤولية المفكرين والفقهاء والحكّام، لا سيّما فقهاء السلاطين ومن كتبوا التاريخ تزويرًا، بالنهاية وللأسف القوّة هي التي تكتب التاريخ.

الثقافة العربية عامرة بمحاولات الكثير من المفكرين العرب الذين كتبوا أشياء كثيرة جدًّا عن تغيير هذه الثقافة وعن تطهيرها، الإشكالية ليست هنا، بل في أن كلها محاولات فرديّة، والمحاولات الفردية لا تصل إلى نتيجة، نعود بحديثنا إلى الإصلاح الديني؛ مثلًا عندما بدأ محمد عبده بمحاولة الإصلاح آنذاك بدأ يتكون تيار لكنه مع الأسف لم يتمأسس، محمد عبده في جهة، والأفغاني في جهة، ويأتي بعدهم أناسٌ آخرون وهكذا، المذهب الشيعي اليوم يشهد محاولات حقيقية في إيران بالذات، وفي لبنان أيضًا نجد محاولات حقيقية لإجراء

إصلاح في المذهب الشيعي نفسه، وكلنا يعرف أن قصة ولاية الفقيه مختلف عليها، والتاريخ الفقهي مختلف عليه، كما في المدارس السنية تمامًا إنما دائمًا على مستوى الفرد، وهذا لا يكفي أنت تحتاج إلى مؤسسات لتخلقَ تيارًا، وهذا ما لم نحظَ به مع الأسف، لو عدنا إلى الغرب لوجدنا تقاطع الفكر مع الثورة فما قاله فولتير وما قاله مونتسكيو وغيرهما انتهى في ثورة، الثورة الفرنسيّة التي اعتمدت على ذلك الفكر لتبني نفسها وبعدها مؤسسات ودساتير وبرلمان، نحن لم نتبنَّ فكرًا ونبني عليه الثورة، وهنا الاختلاف.

• تحدثت عن فشل كثير من الخطابات، ومنها الخطاب الديني والخطاب اليساري وغيرهما، التي بشكل أو بآخر أسهمت في فشل الخطاب العربي الجامع، لكن ألا ترى أن الخطاب القومي أيضًا كان من بينهم، وربما كان أكثر الخطابات فشلًا في أطروحاته الحالمة؟

■ منذ ما يقارب ٣٠ سنة كانت هناك صيغة للحوار القومي الإسلامي عبر المؤتمر الذي حمل اسم الفريقين؛ الحوار القومي الإسلامي، الذي كان محاولة للتقارب والوقوف على نقاط الاختلاف والخلاف وحقيقة الصراع القائم خلال حقبة الخمسينيات والستينيات، تبيّن أنّ ٨٠٪ من الفِكرين القومي والإسلامي هي أفكار واحدة لا خلاف عليها، بقيت ٢٠٪ التي علينا أن نطرحها على طاولة الحوار وما يمكن أن نفعله تجاهها، طفح ذلك على السطح بعد أن حكم الإسلام السياسي بعض البلاد العربية، وأقولها بصراحة: إن الانتهازية تبدت، فبعض الذين كانوا في المؤتمر القومي الإسلامي وأكدوا على ضرورة التفاهم، تغير فكرهم تمامًا بعد تسلُّم الحكم في مصر.

• هل هي أزمة ثقة؟

■ أزمة ثقة وأزمة استعجال. لنكُنْ واقعيين، الثقافة العربية فيها جوانب سلوكية متخلفة ما زالت حتى الآن سلوكيات قبلية بدائية، مثلًا: ما زال هناك تخوّف من استعمال اليد، العربي يأنف من الاشتغال بيده، انظر أيضًا إلى جانب الكرم المبالغ فيه، والمظهرية، أَضُرُّ بعائلتي وبوضعي لأبدو بمظهر الكريم وهذا غير حقيقي. الأمر ذاته في البرلمانات، فهي غير فاعلة، معظم أعضائها لا ينظرون لمن انتخبهم، بل من يستطيع إعطاءهم الامتيازات. لا يقتصر الأمر فقط على النفط، تلك الامتيازات كانت في برلمان سوريا وفي برلمان مصر، من يعطيك الامتيازات هي الدولة، التي تمسك بالمجتمع من رقبته، بل أكثر من ذلك هي ما أعبّر عنه بأن الدولة العربية الحديثة ابتلعت مجتمعاتها في جوفها، أصبحت المجتمعات في جوف الدولة بدلًا من أن تكون هي وسلطة الدولة.

هي ليست حديثة، حديثة بمعنى الاستقلال، الحداثة نحن لم نصل إليها بعد، ومشكلة الحداثة هي مشكلة أخرى، فحين تتحدث مع من يدعون إلى الحداثة ويريدونها، تجدْ أنّ الحداثة بالنسبة لهم هي الحداثة الغربية، في حين أنها حداثة للغرب، أنت يجب أن تبني حداثتك، انظر مثلًا إلى الصين أو اليابان فهم يبنون حداثتهم، لديهم أشياء مختلفة عن الغرب، هذا لا ينطبق علينا مع الأسف الشديد، فقد ابتلينا بشيئين، بالسّلفي الذي يعتقد أن الحداثة هي ما فعله الآباء والأجداد، السلف الصالح، وبأولئك الذين يريدون أن يغربونا بالقضاء على ذاتنا، على إبداعنا، يدفعون بنا لبناء ما لا يصلح لنا، المطلوب هو حداثة عربية، تأخذ من الثقافة الإسلامية، فالإسلام هو جزء لا يتجزأ من ثقافتنا ولا يمكن القفز فوقه لأن الملايين من العرب يؤمنون بذلك، علينا أن نأخذ أفضل ما في الدين الإسلامي، خذ مثلًا فكرة العدالة؛ الدين الإسلامي يسمي نفسه دين الحق والقسط والميزان هو قائم على ذلك، خذ بهذه الفكرة وأدخلها بقوة وبشدة في ثقافتك السياسية. فهذا هو إرثنا الحقيقي، وليس استنادًا إلى ما قاله هوبز وفلان، لدينا الأسس



الحقيقية في قلب الدين الإسلامي، أنت هنا لا تنسب نفسك إلى المتدينين، لكنّ دينك يعرض عليك فكرًا مستنيرًا مفهومًا وأنتَ ترفضه وتستعين بالفيلسوف الفلاني، لا يعني ذلك ألا نستعين بهم، لكن لديّ ما يوازيه أو يفوقه فلمَ لا أعتمده أساسًا، ويكون سواه مجرد عامل مساعد.

• فكرة أن الغربي كافر معضلة أنتجها خطاب ديني بائس...

■ فعلًا... فالقضية معقدة كثيرًا، والوضع العربي كلما أمعن الإنسان فيه كلما أدرك أن الترقيعات لن تحل إشكالاته، الأمر يحتاج إلى أكثر من ترقيع.

• لبناء الدولة؟

■ نعم لبناء الدولة، وهذه قضية كبرى، الأقليات التي تحكم لن تستطيع أن تفعل شيئًا حتى لو أرادت، أتاتورك في تركيا أراد هو وجماعته لكنّ هذا لا يكفي، لديكَ مجتمع، المجتمع نفسه يجب أن يتغير، المجتمع التركي بدأ ينظر إلى نفسه ويقول لديّ إرث إسلامي لا أستطيع التخلي عنه، لكنّي أيضًا أريد الإرث الحداثي الجديد، وأريد أن أمزجَ بينهما، لن تكون العملية سهلة فتطهير الماضي يأتي أولًا عن طريق منجزات الفكر الحديث ومناهج الفكر الحديث، المنهجية في تطهير الماضي وفي قراءة التاريخ وفي قراءة الدين، القضية معقدة جدًّا، لذلك عليك أن تقرأ المحاولات الإصلاحية، نحن مثلًا في مركز دراسات الوحدة العربية أوجدنا المشروع النهضوي القائم على ست نقاط، حتى الآن وبالرغم من غناه لكنه لم يبنَ على أسس فلسفية معرفية بالغة العمق، فيه نوع من التمنيات، ينقصه التحليل القوي الفلسفي الفكري العميق، وهذا أمرٌ يحتاج إلى مفكرين لا أدري إن كنتَ على علم بهذا المشروع النهضوي المطروح، لكنه ربما أفضل ما توصلنا إليه، هو محاولة لتحسين الفكر القومي.

• هل النخب الحاكمة على استعداد بأن تلقي نظرة...؟

■ لا أبدًا، لا تلقي نظرة فقصة الفجوة بين الحكم وبين الفكر في الأرض العربية كبيرة جدًّا.

الحاجة إلى فكر سياسي جديد في الخليج

• بعد نحو ٨ عقود على ظهور النفط في منطقة الخليج، وعقب تحولات حادة شهدتها المنطقة نفسها، هل يمكن أن نتساءل اليوم عن انعكاس النفط على الخليج ثقافيًّا واجتماعيًّا، لماذا بقي حضوره في الأدب خجولًا، هل أفاد الخليجيون من النفط في تشييد مدن ومؤسسات ثقافية مؤثرة في الوعي والوجدان والمجتمع وليس مجرد تشييد مبانٍ، ما الذي جعل النفط ينحصر فقط في بعده الاقتصادي، هل لذلك علاقة بالموقف العربي، اليساري تحديدًا، من النفط والبترودولار، رغم أنه ثروة طبيعية لا علاقة لها بالأيديولوجيا، كما يرى بعض الخليجيين؟

▪ الخليج أضاع وما زال يضيع فرصة تاريخية كبرى وهي فرصة البترول، فهو لا يستعمل البترول لبناء اقتصاد إنتاجي معرفي حقيقي، بالغ القدرة على الاستمرار في المستقبل، بنينا نعم، بنينا البنايات وأنشأنا المدارس، لكننا لم نبنِ تنمية شاملة مستمرة على المدى البعيد، لذلك إن انتهى البترول في يوم ما فهذه المنطقة ستعاني كثيرًا. كثيرًا ما أشبه ذلك بما حدث في الغرب الأميركي، فبعض المناطق اكتُشف فيها الذهب فانصبّ الناس عليها، بنيت فيها البيوت وصار فيها بهجة الحياة، وشرب وأكل وإلى آخره من الأمور الحياتية، لكن ما إنْ انتهى ونضب حتى اختفت وأصبحت الآن مدن ينعق فيها الغراب والأشباح. أنت مهيأ لذلك في الخليج إذا لم تفتح عينيك بأسرع ما يمكن، الآن بعد أن بدأت أسعار البترول في الانخفاض بدؤوا يفكرون في ضرورة البحث عن مصدرٍ آخر، وهذا ليس بالأمر الهيّن، دول تعتمد في ٩٠٪ من ميزانيتها على البترول، وهذا يعني أنها إن نضبت فلن يكون بين يديك ما يفي مقدار رواتب الموظفين والعمّال، ولا شكّ بأن دخل البترول الآن ما عاد كافيًا لأبسط الأمور، هذا جانب، الجانب الآخر؛ ما الذي يؤخر وحدة الخليج؟ كلها دويلات صغيرة تتحدث عن التهديد الأمني، ما الذي يمنع قيام وحدة فيدرالية؟ لسنا نطالب باندماج تام، استغرقنا ٣٠ سنة لتوحيد التعريفة الجمركية، في حين هو أمر لا يستغرق عامًا واحدًا فقط، مرّ عشر سنوات ونحن نتحدث عن توحيد العملة النقدية، وما زال الأمر معلّقًا، لا بدّ لنا من التفكير الجاد في أن كلًّا منا مجرد جزء وما سيبقى بالنهاية هو محيطك العربي ومحيطك الإسلامي، في حين وبكل أسف ما يجري الآن هو أن كل دولة في الخليج ترتبط بأخرى أجنبية لتحميها، الشيء الآخر هو أن الحكم كان قبليًّا، ويجب أن تنقله الآن من النظام القبلي إلى النظام الديمقراطي، أنت تعلّم الناس في المدارس والجامعات وتخرجهم، ثم تتعامل معهم كرعية، هذا غير منطقي إطلاقًا، نحن بحاجة أيضًا إلى فكر سياسي جديد داخل الخليج، يرى أن هناك شراكة حقيقية بين الحكم وبين المجتمع، ليس هناك من يطالب بزوال الحكم، لكن الجميع يطالب بإصلاح الحكم.



آمال قرامي
أكاديمية وباحثة تونسية

كرنفال داعشي

تداولت وسائل الإعلام العربية والغربية منذ ٢٠١٦م، خبر فرار أعداد كبيرة من مقاتلي «تنظيم داعش» من المعركة، وهو أمر يتعارض مع «السردية» التي سعى التنظيم إلى الترويج لها منذ سنوات. فقد صوّرت «الأدبيات الجهادية» الرجال التابعين لـ«تنظيم داعش» على أنّهم الأقدر على الفتك بـ«الطواغيت» والأكثر رغبة في طلب الشهادة. وأشاد علماؤهم باقتداء الشبّان المقاتلين بسير الصحابة والتابعين والغزاة والمناضلين بدءًا بعمر بن الخطاب وصولًا إلى عمر المختار. ولم تتوقّف صناعة الأبطال وتشكيل المتخيّل «الجهادي» عند هذا الحدّ إذ تكفّل الجهاز الإعلامي للتنظيم بصناعة الأفلام الوثائقية والأناشيد «الجهادية» التي تُخَلِّد ذِكر الأسود، وترسم ملامح الرجولة «المتوحّشة والمُرعبة» صاحبة الإرادة التي لا تعرف القهر والعزيمة الجبارة الكبرى تلك التي «تمزّق الطاغوت والكفر» ولا تهاب الموت.

ولكنّ الأخبار والفيديوهات المتداولة بشأن «الدواعش الفارّين» أقامت الدليل على زيف الخطاب الذي روّج له التنظيم وتهافته. فالذين عبّروا عن «شوقهم إلى الجهاد» ورغبتهم في «المنيّة»، وبكوا وَجْدًا وتاقوا إلى يوم يلاقون فيه حور العين سرعان ما ولّوا أعقابهم، وفرّوا من المواجهة مُتجاهلين كلّ الموروث الذي تجمّع حول الفروسية وأحكام الجهاد وصفات الجنود وأخلاقهم وسلوكهم.... بل إنّهم لم يكترثوا بالنتائج المترتّبة عن الفرار قانونيًّا واجتماعيًّا ورمزيًّا. ولعلّ أشدّ عقوبة يواجهها المنهزمون تلك التي تسلّطها النسوان على الرجال. فقد تضمّنت كتب الغزوات والحروب أخبارًا تصف أشكال استهزاء النساء بأشباه الرجال والجبناء وممثّلي الرجولة الهشّة، وحوت كتب الأدب قصائد الهجاء التي تُدين الفارّين وتصوّر أساليب التعبير التي تعتمدها النساء لتأديب من تجرّد عن صفات الرجولة وارتمى في أحضان الأنوثة.

لم يكترث الفارّون من المعارك بما قالوه أو فعلوه طيلة سنوات، بل كان همّهم الأكبر النجاة حتى إن اقتضى الأمر تغيير الهيئة والظهور في هيئة النسوان. وبعد أن أرسى منظّرو «تنظيم داعش» قواعد العيش في دولة الخلافة فحدّدوا أشكال حضور النساء في الفضاء الخارجي، ومعاملاتهن مع الرجال، وتشدّدوا مع كلّ من خالفت الأوامر ها هي فئة من الفارّين تُقبل على التنكّر في أزياء نسائية مبرّرها في ذلك أنّ أضمنَ طريقةٍ لإنقاذ الحياة هي في التزيّي بزيّ النسوان، وأنّ السلامة تقتضي إتقان الأدوار النسائية. ولا حرج في ذلك ما دامت الغاية تبرّر الوسيلة.

تعدد هيئات النساء

غير أنّ اللافت للانتباه في «كرنفال الهروب» نوع أقنعة التنكّر «التي اختارها عدد من الرجال الذين وعدوا بأنّهم «سيبقون ثابتين» وردّدوا طويلًا «حبّ الموت بالعزّ مرام». فبالاطلاع على عدد من الصور والفيديوهات ننتبه إلى أنّ الفارّين قد أقرّوا بتعدّد هيئات النساء، وميلهم إلى تنويع أزيائهم بالرغم من حرص رجال الخلافة الشديد على فرض الهيئة المنمّطة واللون الأسود الموحّد على جميع النساء. فهذا منهزِم يفضِّل النقابَ والعباءة، وذاك يُؤثِر الثوب الملوَّن، وذاك يبرز في الزي الباكستاني، وهذا يلبس الملابس الداخلية فيضع الصدرية، والآخر يريد أن تكون له عجيزة مكتنزة فيستعين بما وفّرته السلع الصينية من بضائع تفي بالغرض. والجدير بالذكر أنّ التنكّر لم يتوقّف عند التدقيق في اختيار الأزياء بل عثرنا على رجال يتقنون التبرّج وهم الذين أدّبوا النساء على التشبّه بالمشركات والتغريبيات. (فيديو هروب الدواعش بملابس النساء في الموصل، بتاريخ ٢٢ أكتوبر ٢٠١٦م). وبين الملابس «الخليعة» وأحمر الشفاه وبودرة الخدين وتغيير أشكال الحواجب... ضاعت معالم الرجولة «الكاملة».

أمّا أطرف قصص الفرار فتتمثّل في تنكّر أحد الفارّين في هيئة عروس تزفّ في ثوبها الأبيض، وتسدل الستار على وجهها تعفّفًا وحياءً، وتحمل باقة الورد (فيديو لحظة القبض على أحد الدواعش وهو متنكر بزي عروس، بتاريخ ١٤ يونيو ٢٠١٦م)، وكأنّ بالفارّ يشير إلى ما ترسّخ من تمثلات في المتخيّل الجمعي. ولكنّ فرحة المتنكّر لم تكتمل إذ سرعان ما «وقع» في يد الجيش العراقي، فاستُقبل بالسخرية والفكاهة والتندّر والتهكّم بعد القبض عليه متلبّسًا بتهمة التشبّه بالنسوان، هذا فضلًا عن التهم الرئيسية كالذبح والتحريق... وهكذا تولّى الجنود العراقيون وغيرهم من المشاهدين تأديب من ضحّوا بمبادئ الذكورة المهيمنة في سبيل حفظ حقّ الحياة (نعثر على تعليقات كثيرة في هذا الصدد في فيديو بُثّ بتاريخ ٢٥ مايو ٢٠١٦م).

ولمّا كانت حفلات الكرنفال في الساحات العامة قائمة على طقوس وشعائر هزلية، فقد رضخ الفارّون لقوانين الجنود فحُلق الشعر الطويل أمام أعين المارّين بطريقة عنيفة تُذكّر بتضحيات سابقة. فقد تخلّص أغلب رجال «التنظيم» من الشوارب واللحى التي طالما اعتنوا بها تهذيبًا وتخضيبًا، وكذا فعل بعضهم بالشعر الذي كثيرًا ما تباهى به «أبطال الخلافة». وإذا اعتبرنا أنّ الكرنفال هو فعل تحرّر من القيود وانبعاث مخبر بولادة جديدة، فإنّ طقوس التشفّي من الذي خان مقتضيات الرجولة تهدف إلى إهانته وإذلاله. وما دام التصوّر الكرنفالي يجيز استعمال الكلام البذيء وقاموس الفحش فلا مشاحة من توجيه الكلام النابي إلى الفارّين وتأنيث أسمائهم (من داعشي إلى داعوشة) ومناداتهم بأسماء تطلق على النساء إمعانًا في إذلالهم. وليس أشدّ على الرجل الذي أبدى كرهًا للنساء واحتقارًا للأنوثة من أن يتموقع بعد إلقاء القبض عليه في مكانة المرأة التي تنسب لها الثقافة مجموعة من الصفات السلبية كالجبن والضعف... وتعكس الأغاني التي انتشرت بشأن هؤلاء المتنكّرين مدى انتشاء القوم بالاستهزاء والسخرية اللاذعة من أشباه الرجال. فهؤلاء «أسود الخرافة الداعشية جبناء يهربون من الشهادة بملابس نسائية» وعندما يمسك الجنود بهم فإنّهم يكونون في «ملابس نعجة تركض وراءها الطليان»، (فيديو الدواعش: أغنية «العب بيها يا بوجحيشة»، بتاريخ ٢٥ يونيو ٢٠١٦م).

ولئن ادّعى المنتمون إلى تنظيم داعش أنّهم يعملون بالكتاب والسنّة ويطبقون الشريعة بصرامة، وأنّهم خير ممثّلين للإسلام والرجولة الكاملة، فإنّ تصرفاتهم زمن التحقّق من الخطر الداهم تكشف النقاب عن أشكال

> **ليس أشدّ على الرجل الذي أبدى كرهًا للنساء واحتقارًا للأنوثة من أن يتموقع بعد إلقاء القبض عليه في مكانة المرأة التي تنسب لها الثقافة مجموعة من الصفات السلبية كالجبن والضعف**

التصرّف في المرجعيّة وفق السياق. فقد أدّب فقهاء التنظيم من تشبّه بالنساء مستندين في ذلك إلى حديث رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال. (صحيح البخاري). ثمّ إنّ المسؤولين عن الحسبة عاقبوا كلّ من حلق لحيته وشاربه ولم يقصّر ملابسه، ولكنّهم اليوم يتجاهلون حكم النهي أو التحريم وكلّ الحجج التي قدّموها.

هيمنة التمثلات الاجتماعية

تنمّ «حفلات» تأديب الرجل - المقاتل الذي تقمّص شخصية المرأة عن هيمنة التمثلات الاجتماعية الخاصة بالأنوثة - الذكورة واستمرار المجتمعات المحافظة والتقليدية في تبخيس الأنوثة في مقابل إشادتها بالرجولة المهيمنة. وليس العنف اللفظي والمادي المسلّط على المتنكرين في زيّ النسوان إلّا علامة دالة على أنّ المجتمع لا يرحم من تعدّى الحدود الجندرية (المتعارف عليها بين الجنسين)، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يضحّي الرجل بشرف الذكورة وتعاليها، وأن يقبل بالتخلّي عن امتيازات الرجولة. إنّ الموت أهون بكثير من التماهي مع النسوان: ناقصات العقل والدين، وحبائل الشيطان وصاحبات الكيد.

وبالرغم من إيمان المجتمع الذكوري بهذه التصوّرات فإنّ للحظة الحاسمة قوانينها. فعندما يمتلك الرعب قلب المقاتل يرتدّ إلى حضن أمّه، فيتماهى مع الأنوثة زيًّا ومشاعر، وهي مشاعر تتجاوز الحدود الجندرية الصارمة التي تمنع الرجل من إبداء الخوف والخور والانكسار وتقيّده بمجموعة من القيود والأدوار... إنّ لحظة الانكسار تجبّ ما سبق... تقفز على المعايير والقيم والنظام، وتؤكّد بما لا يدع مجالًا للشكّ على أنّ الرجولة رجولات وهي مسار من الاختبارات ولها صولات وجولات.

الاستشراق الجديد..

جنون هوياتي أم تكريس لكراهية العرب؟

الفيصل خاص

كشف الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠١م عن الدور البارز الذي لعبه الاستشراق الجديد في تشكيل مخيلة الغرب نحو المنطقة العربية، فعبر عدد من مراكز الأبحاث وأقسام الجامعات ووسائل الإعلام صدَّق العالم أن العراق مقبل على إبادة البشرية. يومها وقف وزير الخارجية الأميركي كولن باول يستعرض أمام مجلس الأمن علبة صفيح قديمة بوصفها دليلًا على مدى تطور البرنامج النووي العراقي، مطالبًا بتشكيل تحالف دولي لانتزاع قوى الشر من مكمنها. هكذا صنعت أفكار برنارد لويس وصمويل هنتنغتون وجيوش من صحفيين وباحثين عاملين في مضمار ما يعرف بالاستشراق الجديد رأيًا عامًّا بارَكَ احتلال العراق، فضلًا عن إلقاء آلاف الأطنان من المتفجرات على رؤوس أطفاله وشيوخه.

سهّلت القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي وأدوات الاتصال الحديثة للمستشرقين الجدد عملهم في إنتاج مزيد من التصورات الخاطئة عن الإسلام ومنطقة العالم العربي، بدءًا من أن انعدام الديمقراطية في الشرق هو الذي أدى إلى خروج الإسلاميين من بلدانهم لتهديد المجتمعات الغربية، مرورًا بأن الحل يكمن في إحلال الديمقراطية الأميركية ووصول الإسلام السياسي إلى سدة الحكم؛ كي لا تتكرر مأساة تفجير بُرجَي التجارة العالمي من جديد.. هذه الأفكار روّجت لإعادة تقسيم المنطقة العربية على أسس طائفية وعرقية، وعجّلت بخلق جماعات تؤكد وجهة نظر الغرب في الإسلام.

لكن السؤال: ما ملامح الاستشراق الجديد؟ ما الذي يختلف به عن الاستشراق الذي فنده المفكّر الراحل إدوارد سعيد؟ ما غايات هذا الاستشراق وأهدافه التي أطلت برأسها مع احتلال العراق في مطلع الألفية الثالثة؟ أسئلة تطرحها «الفيصل» على عدد من الباحثين والكتاب.

يقول الباحث العراقي فاضل الربيعي في كتابه «ما بعد الاستشراق»: إن غزو العراق كشف عن الدور المتنامي لمراكز البحوث والجامعات ووسائل الإعلام الغربية والأميركية في صياغة وعي الجمهور العام وآرائه ومواقفه، كما كشف عن الدور المذهل الذي لعبه الاستشراق الجديد في تكريس صورة نمطية لا سابق لها، وهي جميعها، كما يذكر الربيعي، عناصر أساسية ساهمت في شيطنة مجتمعات بأكملها، من بينها العراق الذي كان قبل غزوه طوال سنوات الحصار الجائر موضوعًا أثيرًا لدى جيل جديد من المستشرقين. ويرى الربيعي أن على العرب الذين أصبحوا موضوعًا دراسيًّا للاستشراق الجديد أن يقدموا تعريفًا دقيقًا لذلك الكم الهائل من الكتب والمقالات والدراسات التي اهتمت بالعالم العربي السياسي والثقافي، ورؤية طبيعة صلتها بما أنتجه الاستشراق القديم الكلاسيكي من مواد شبيهة مماثلة.

محمد عمري: لماذا يكرهوننا؟

لا أعتقد أن الاستشراق الجديد موحّد أو أنه استطاع إنتاج معرفة جديدة حول المنطقة بعد ٢٠١١م. وإذا أخذنا الاستشراق الجديد بمعنى الخبرة الأكاديمية في خدمة القرار السياسي الغربي، فأغلب المجهود اتجه نحو كيفية المحافظة على المصالح في منطقة متقلبة. كما تواصل التركيز على ما يسمى بالحرب على الإرهاب ومحاولة إيجاد مواقع للتأثير في واقع متقلب، كسوريا مثلًا. وتدعمت فكرة البحث في سؤال: «لماذا يكرهوننا؟»، وبخاصة في الولايات المتحدة، بالإجابة عنها بعودة الشعبوية وتقديم المصلحة القومية أولًا، كما



محمد عمري:
صعود اليمين المتطرف والخطاب المعادي للهجرة، دليل على قوة الفكر الاستشراقي الجديد وفعله في صنع الرأي العام والقرار

ظهر في الخطاب الذي أوصل دونالد ترمب للرئاسة. وإلى حد مهم دعم مصير الثورات العربية فكرة الاستثناء العربي وعدم قدرة المنطقة على استيعاب الديمقراطية لدى من كان يحملها قبل ٢٠١١م. ولذلك تواصلت الدعوات إلى الحلول الأمنية والتدخل العسكري ومساندة «الحكام الأقوياء» بدلًا من تدعيم الديمقراطية والمراهنة على القوى المعارضة. أما في الغرب فلعل صعود اليمين المتطرف والخطاب المعادي للهجرة، وبخاصة في البلدان الإسلامية، دليل على قوة الفكر الاستشراقي الجديد وفعله في صنع الرأي العام والقرار.

أكاديمي تونسي أستاذ الأدب المقارن بجامعة أكسفورد.

عبد الله الوهيبي: من الاستشراق إلى التسطيح

«الاستشراق الجديد» -وهو مصطلح لا يخلو من غموض؛ لقلة تداوله ولضبابية حدوده- تحوَّل تدريجيًّا لحالة سيولةٍ وتذرٍّ وتفتُّتٍ. ففي الحقبة الاستشراقية التي امتدت قرابة القرنين حتى أواخر القرن المنصرم كان الإنتاج المعرفي الغربي تجاه المشرق يتمحور في الإنتاج في اللغويات والرحلات، ثم تطور لدراسات أنثروبولوجية وسسيولوجية واقتصاد سياسي وغيرها من المنهجيات، وكان ذلك في العموم يصدر عن الأكاديميات الغربية بالدرجة الأولى، ومن المراكز العلمية والبحثية السياسية والمستقلة في مرحلة تالية، ثم مع الانتشار الهائل لشبكات الاتصال الحديثة ابتداء من ذيوع القنوات، ثم الإنترنت، ثم الشبكات الاجتماعية، تحولت المعرفة الاستشراقية لأنواع جديدة تسطيحية وكليشيهات ساذجة يصرح بها «خبير» في الجماعات الإسلامية أو «معلّق» يعمل في مركز راند أو ما شابه، كما صار من السهل مشاركة العربي والمسلم في إنتاج هذه المعرفة، لظروف كثرة الباحثين من أصول عربية في الغرب عمومًا، ولظروف تزايد الهجرة و... إلخ. فالتحول الأحدث في





عبدالله الوهيبي:
الاستشراق الجديد مصطلح لا يخلو من غموض؛ لقلة تداوله ولضبابية حدوده

المعرفة المنتجة عن الشرق العربي هي هذه السمة التسطيحية والتفتيتية، فلم تعد الأبحاث الجادة أو الأطروحات العميقة هي المؤثرة أو لها الأولوية في تكوين الصور والمواقف العمومية عن حوادث المشرق وتداعيات الأحداث في المنطقة العربية، بل الخبير/ المعلق/ الصحفي الذي يقدم معرفة للاستهلاك العاجل.

باحث سعودي أصدر كتاب «حول الاستشراق الجديد - مقدمات أولية»

فخري صالح: استشراق ذو أغراض وغايات أيديولوجية فاقعة

إذا نظرنا إلى ما قدمه الاستشراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، في دراسة تاريخ الشرق ولغاته وتراثه، فسنجد أن من الصعب تجاوز هذا الميراث الهائل من المعرفة الاستشراقية حول العالمين العربي والإسلامي. وبغض النظر عن نقد الاستشراق الذي مارسه مفكرون مثل أنور عبدالملك، وإدوارد سعيد، وطلال أسد، وضياء الدين ساردار وآخرين غيرهم، فإن الاستشراق الكلاسيكي قام بدور عظيم في دراسة الشعوب الشرقية وميراثها. أما ما سميته في كتابي الأخير «الاستشراق الجديد»، أو بالأحرى «الاستشراق الراهن»، ممثلًا في كتب برنارد لويس الدعويَّة الأخيرة، وتنظيرات صمويل هنتنغتون، وسياحة الكاتب الترينيدادي الأصل، والبريطاني الجنسية والثقافة: في. إس. نايبول في العالم الإسلامي، فهو يتسم بالسطحية، وتغلب عليه الصور النمطية، والتحليلات المستمدة من مصادر ثانوية.

إنه «استشراق» ذو أغراض وغايات أيديولوجية فاقعة ومفضوحة. فإذا كان الاستشراق الكلاسيكي واقعًا في شرك العلاقة المعقدة بين المعرفة والخطاب والسلطة فإنه سعى، في أعمال المستشرقين الكبار مثل المجري إغناتس غولدتسيهر أو الألماني كارل بروكلمان، إلى دراسة الميراث الإسلامي العظيم، وقراءة هذا الميراث في تاريخيته. أما النسل الجديد من المستشرقين الجدد لوزارة الخارجية الأميركية، وللسي آي إيه، ومراكز صنع القرار في أميركا والغرب، فوجدوا لتوفير معرفة نظرية يمكن من خلالها اتخاذ قرارات التدخل وشن الحروب على مناطق ذات أهمية حيوية بالنسبة للولايات المتحدة. لا شك أن بعض الاستشراق القديم كان في خدمة الإمبراطورية، لكنه لم يكن كذلك في معظمه، أما ما كتبه برنارد لويس وتلامذته، الأقل منه شأنًا ومعرفة دون أي شك، منذ ثمانينيات القرن الماضي، فلا قيمة معرفية له، بل هو دعاية تشبه الدعاية الغربية ضد الاتحاد السوفييتي أيام الحرب الباردة. إنها مجرد مواد إعلامية دعوية هدفها اصطناع عدو جديد للغرب وأميركا لغايات إستراتيجية، وكذلك هوياتيَّة في مواجهة الآخر: المسلم، الذي يعتقد هؤلاء أنه يهدد هوية الغرب المسيحي -العلماني- الديمقراطي. يمكننا أن نرى الآن هذا الجنون القومي -الهوياتي- المعادي للأجانب (وهم في الأغلب: المسلمون) الذي يجتاح أميركا وأوربا، لنفهم إلى أي حد أساء هؤلاء المستشرقون الجدد إلى أميركا والغرب قبل أن يسيؤوا إلى العرب والمسلمين. إننا مُقبِلون على كارثة بعد أن أصبحت كراهية الإسلام سياسة يعتنقها

عمار علي حسن: الاستعراب في مواجهة الاستشراق

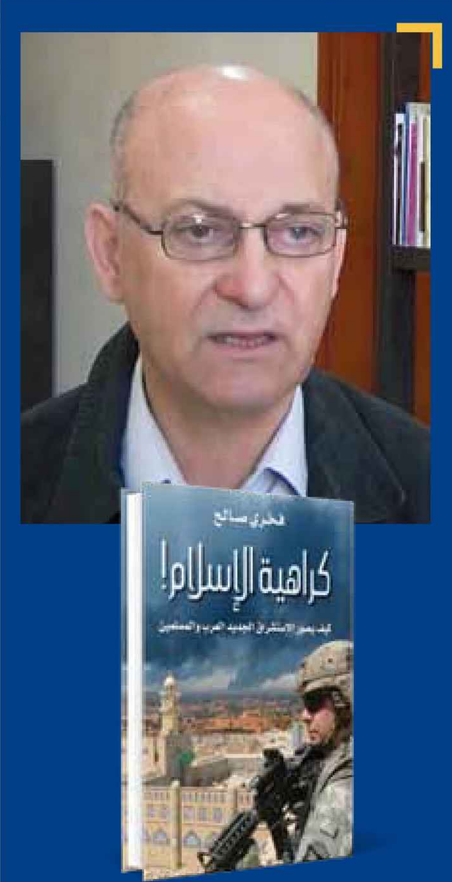
الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، ووصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه، وهو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه... وهو إنشاء استطاعت به الحضارة الغربية أن تتدبر الشرق - بل حتى تنتجه، سياسيًّا واجتماعيًّا وعسكريًّا وعقائديًّا وعلميًّا وتخيليًّا، حتى أصبح صعبًا على أي إنسان أن يكتب عن الشرق، أو يفكر فيه، أو يمارس فعلًا متعلقًا به، من دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل، ولا يعني هذا أن الاستشراق، بمفرده، يقرر ويحتم ما يمكن أن يقال عن الشرق، بل إنه يشكل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة، يكون فيها الشرق موضعًا للنقاش.

أما «الاستغراب» فهو دعوة حالمة متفائلة لدراسة الغرب، وتفكيك ثقافته وتوجهاته، وفهمها وهضمها، لامتلاك آليات فاعلة للتعامل معها. لكن هذه الدعوة لم تنتج تيارًا عريضًا متدفقًا مثل الذي أنتجه الاستشراق، وهي ليست سوى جهود فردية متناثرة، تضرب يمينًا ويسارًا، بلا هدف محدد، ولا خطة ناظمة. لكنها في كل الأحوال لا تقوم على تشويه الغرب، اللهم إلا في بعض كتابات أتباع التيار الإسلامي، مثل ما كتبه سيد قطب ومحمد قطب، بل تنطوي

عمار علي حسن:
أصبح صعبًا على أي إنسان أن يكتب عن الشرق أو التفكير فيه، من دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل

الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترمب ومساعدوه في البيت الأبيض. ولا شك أن ذلك ينسحب على أوربا التي ستعاني كثيرًا بسبب السياسة الأميركية الجديدة التي تتجه بسرعة صاروخية إلى التقوقع حول هويتها البيضاء البروتستانتية الديانة، الإنجليزية الثقافة، وهو ما نظَّر له صمويل هنتنغتون في آخر كتبه «من نحن؟» (٢٠٠٤م)، وهو الذي نبه من قبلُ إلى خطر المسلمين، ثم أضاف في كتابه الأخير المهاجرين من أميركا اللاتينية الذين رأى أنهم يهددون هوية أميركا في بدايات القرن الحادي والعشرين. هذه الرؤى النظرية، إذا اعتُنِقت، قد تقود إلى حروب أهلية ومواجهات كونية، وربما حروب عالمية. وها نحن نرى دونالد ترمب يوقع مراسيم سياسية بإقامة جدار بين المكسيك والولايات المتحدة، ويمنع دخول المسلمين إلى أميركا؛ لأنهم في نظره إرهابيون. ومع أنني لا أومن أن الأفكار وحدها يمكن أن تقود إلى صناعة السياسات، فثمة عوامل اقتصادية وسياسية وجيو-إستراتيجية وثقافية، فإن أفكار لويس وهنتنغتون والمحافظين الجدد، إضافة إلى صحفيين وكتاب رأي وباحثين في بيوت الخبرة الأميركية، قد صنعت رأيًا عامًّا في الأوساط اليمينية المتطرفة كانت نتيجته انتخاب رئيس أميركي شعبوي، جاهل، معادٍ للثقافة، معادٍ للتجربة الديمقراطية الأميركية، كاره للأجانب، محتقر للنساء، قد يجرُّ العالم إلى كارثة، وربما مواجهة نووية.

ناقد ومترجم فلسطيني مؤلف كتاب «كراهية الإسلام.. كيف يصور الاستشراق الجديد العرب والمسلمين»



في أغلبها على الإعجاب به، ومحاولة تمثله، والاقتداء بما أنجزه في المعارف التطبيقية والإنسانية والفنون، وفي العمران البشري، لا سيما في مجال الديمقراطية وحقوق الإنسان. ويحتاج حوار الحضارات إلى تصحيح الصور النمطية المغلوطة، وإلا ظل مجرد ترف نخبوي، ورتوش مزيفة، وخطابات علاقات عامة، تظهر وقت الأزمات، وتُستَخدم مطية لأحوال السياسة وتقلباتها.

باحث مصري في علم الاجتماع السياسي.



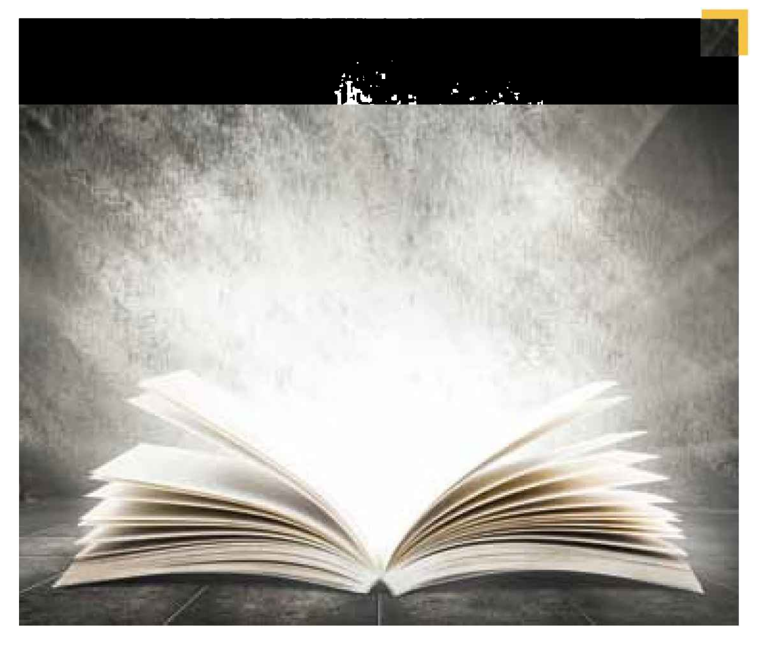
عبدالكريم المقداد:
لا أرى في الاستشراق الجديد إلا نسخة أحط وأبشع من الاستشراق القديم الذي كرّس للشرق صورة نمطية لا تعكس سوى الجهل والهمجية

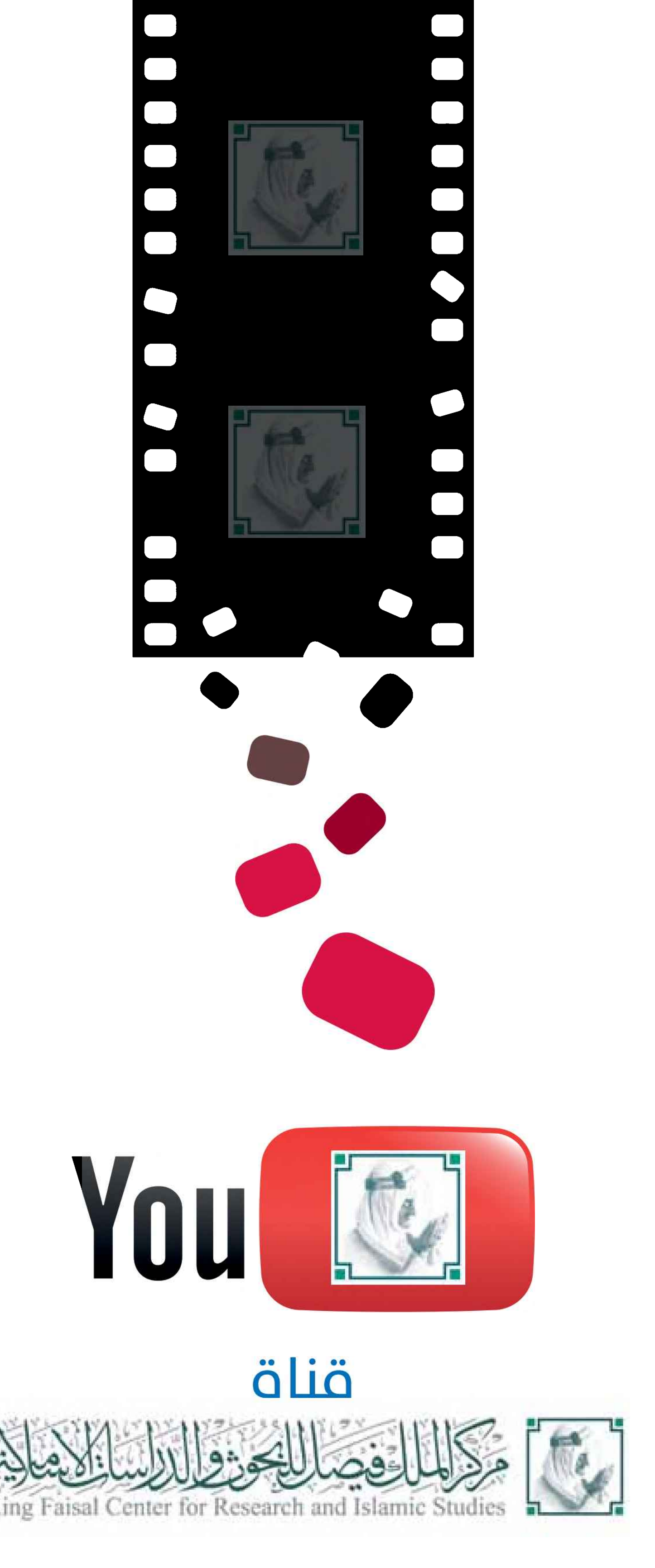
عبدالكريم المقداد: في مقعد الجواسيس

لا أرى في الاستشراق الجديد إلا نسخة أحط وأبشع من الاستشراق القديم، الذي كرّس للشرق صورة نمطية لا تعكس سوى الجهل والهمجية وعبادة الشهوات. لطالما نظر إلينا المستشرقون بنظرة المتعالي، ووضعونا في خانة الأدنى. ولست أجافي الحقيقة إذ أقول: إن أغلبهم لم يبرح موقع الجاسوس في رصده للشرق، وتركيزه على مسارب الضعف التي تمكن الغرب من التسلل منها للاستحواذ على مواردنا وإرادتنا وقرارنا بصور خادعة زخرفها بمنمنمات فنية تحرف النظر عن خبث تلك الصور. لم تفلح كل المحاولات العربية والإسلامية من خلال التواصل والتعايش مع الغرب بعد ذلك في تغيير تلك الصورة، التي التصقت في وعي ولا وعي الغرب، وصارت مُسَلَّمة لا تُدحَض. كان الغرب يوارب ويلفّ ويدور لعدم الجهر علنًا بمفاهيمه عن الشرق، لكن ما أن تلقى صدمة الملك فيصل بن عبدالعزيز في وقفه تصدير النفط له في عام ١٩٧٣م حتى جهر بما كان يداري، فاكتظ إعلامه بصور وأوصاف للمسلمين والعرب أهون عناوينها الهمجية والتوحش والبداوة والجِمال والرّقّ! حاول المستشرقون بعد ذلك تغليف هذه النظرة بغِلالة جديدة، فكان الاستشراق الجديد، وظهر صموئيل هنتنغتون وبرنارد لويس وأضرابهما.

تمت «مكيجة» الوسيلة فقط، أما الهدف فلم يتغير: الاستحواذ على الشرق وثرواته وعدم تمكينه من أمره وقراراته، وإغراق مواطنيه في دوامة الركض خلف رغيف الخبز، والحرص على جعل الحرية والعدالة والكرامة مجرد كماليات لا يستطيع اقترافها حتى في الأحلام. تماهى المستشرقون مع القادة فخلقوا (القاعدة)، وابتكروا بعدها فزاعة الإرهاب، ثم شرعوا بشيطنة الإسلام، وراحوا يؤدلجون المسلمين بتقسيمهم إلى معتدلين ومتطرفين، وبدأ اللعب على أوتار المذهبية والإثنية، وسهلوا لإيران أن تلعب دورًا رئيسًا في المسرحية، فغرق شرقنا العتيد بالدماء. فهل نرجو من هذا الغرب الذي بنى أيديولوجياته على أفكار المستشرقين الجدد الأخطبوطية أن يسمح بنجاح الربيع العربي، فنملك أمرنا وموقفنا ونصبح أحرارًا؟ التجارب ماثلة أمامنا، وما زالت تتفاعل في مصر والعراق وتونس واليمن وسوريا وليبيا، وما زال نهر الدم يتدفق بغزارة منذ سنوات، أما الغرب، الذي يثور إذا ما عثر كلب في أحد أزقته، فيواصل الاستمتاعَ بمشاهدة مسلسل الإبادة في الشرق.

ناقد وباحث سوري.




You
قناة
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies
KFCRIS
www.youtube.com/user/KFCRIS



خذلتهن الثورة الإسلامية واليسار تخلى عنهن

الكاتبات الإيرانيات يعِشن في جحيم مفتوح

اعتقالات وتعذيب وتهجير.. في كل الأزمنة

متعب القرني مترجم وأكاديمي سعودي

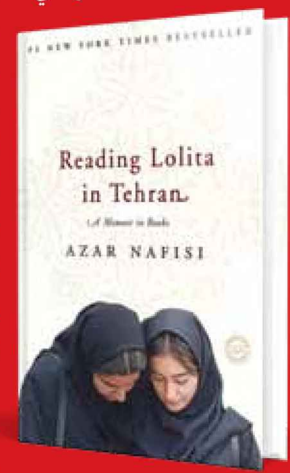
حين كان الرئيس الإيراني حسن روحاني (١٩٤٨م-) يتسلّى بنشر تغريداته عبر تويتر، باغته مؤسس تويتر جاك دورسي بسؤال على غير المتوقع: «هل يا سعادة الرئيس يستطيع الشعب الإيراني قراءة تغريداتك الآن؟»، في إشارة مُلجمة إلى الحظر الذي فرضته الحكومة الإيرانية على وسائل التواصل الاجتماعي منذ عام ٢٠٠٩م. كان هذا الرد كفيلًا لأن يفتح علبة من القضايا الساخنة التي لا تزال عالقة في كهوف الغيب عن مأساة النشر والتعبير بإيران، ذلك البلد الذي استحال بعد الثورة الإسلامية إلى شبكة من الاعتقالات والاغتيالات، كانت سببًا في تهجير الأدمغة المفكرة ودفعها لحالة دياسبورا مريرة ونوستالجيا تائهة بين خيارات المهاجر والأوطان.

كان لهذا التنكيل بالشخصيات الناقدة تداعياته السلبية على البلاد، إذ تسبب في إخلاء الجامعات الإيرانية من علمائها وأضعف النهضة العلمية من مواصلة تطلعاتها، حتى صارت إيران تستجدي تلك الشخصيات للعودة والمشاركة في التنمية والنهوض. يذكر الكاتب أوس الشمّسان بأنه على هامش مؤتمر علمي بجامعة طهران، سأل أحد الصحفيين أستاذ الصيدلة بجامعة ألبرتا الكندية البروفيسور الكندي (الإيراني الأصل) فخر الدين جمالي (١٩٥٠م-) عن الوقت المناسب لمغادرة كندا والعودة إلى إيران، فكانت إجابته: «عندما أبول واقفًا في حمام جامعة طهران!» مشيرًا إلى محنة زميله الذي اعتقل من الجامعة بحجة البول واقفًا، وذلك في السنوات الأولى من انتصار الثورة. كانت الجامعة حينها تتربص بذلك الأستاذ وتحاول انتهاز الفرص للإطاحة به، فأسرّوا إلى جماعة الباسيج بأنه يبول واقفًا، فرُفعت العرائض مطالبةً بفصله لكونه يسيء للأمة الإيرانية ومبادئ الثورة الإسلامية. استدعته الجامعة وأقامت مجلسًا تأديبيًّا فطالبته بالحلف المغلّظ بعدم البول واقفًا، فحلف أمام لجنة حزبية مؤكدًا أن الثورة كسرت كل المباول الواقفة في الحمامات لتطهير مظاهر حكم الشاه الدكتاتوري. فقامت اللجنة بعد ذلك بالتشكيك في حلفه، فلم يكد ينجو من التهمة حتى أدلى ثلاثة شهود عدول بشهادتهم مؤكدين أنهم لاحقوا الأستاذ أثناء خلوته ولم يسمعوا شخشخة بوله، ما يؤكد عدم بوله واقفًا.

لم يكن هذا التهجير وَقْفًا على الرجال، فقد لاقت المرأة الإيرانية مضايقات واعتقالات دفعتها للهجرة وترك البلاد. هنا نسلط الضوء على ملامح من هذا النضال النسوي، وقصص اضطهادها وحصارها، بالعرض الروائي الاستعراضي، بدءًا بمطاردات آذار نفيسي على حلقاتها السرية في قراءة رواية «لوليتا»، واعتقالات الروائية بارسيبور على البروشورات والطابعات، وصولًا إلى تهديدات الكاتبة المسيحية نيمار نيمات وزواجها الإكراهي من السجّان، وانتهاءً بضحايا جُدد لا تزال إلى اليوم تقضي فتراتها في السجون بلا تُهم!

آذار نفيسي.. قراءة لوليتا في طهران

لم يعش الروائي الروسي فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩-١٩٧٧م) طويلًا كي يسمع بأن روايته «لوليتا، ١٩٥٥» قد حُظرت في إيران بعد الثورة الإسلامية، ولا ليسمع بالمعاناة القاسية التي لاقتها الطالبات الإيرانيات في سبيل قراءتها، ولا ليرى اسم روايته وهو يتمحور كعنوان في مذكرات أستاذة الأدب الإنجليزي بجامعة جونز هوبكنز الأميركية آذار نفيسي (١٩٤٨م) حيث أوردت قصة حلقاتها في مذكراتها الواقعية «قراءة لوليتا في طهران، ٢٠٠٣» بأسلوبٍ مدهش تركها على قائمة أفضل مبيعات النيويورك تايمز لسنتين متتابعتين، حتى تُرجمت لما يجاوز الثلاثين لغة. «إن أحداث ومعطيات هذه القصة حقيقية إلى أقصى مدى تستطيع أن تحمله ذاكرتي من صدق، بيد أنّي بذلتُ قصارى جهدي لئلا أسيء لأحد من أصدقائي وطلبتي، فرُحْتُ أعمِّدهم بأسماء جديدة وأقنعهم بأقنعة عديدة؛ كي تكون أسرارهم في أمان».



تستعيد نفيسي ذاكرتها حين عودتها إلى طهران بعد ١٧ عامًا من العيش الحر المتقطع بين سهول أميركا وجبال سويسرا. تعود

لتجد والدها المثقف سجينًا بتهمة المعارضة بعد أن كان العمدة لمدينة طهران، فتتزوج برجل شُوقي لا يقرأ ولا يقيم وزنًا للقراءة، «كان لا يشبهنا، لم يكن يُعير أي اهتمام للكتب، وكان يقول: مشكلتك أنت وأهلك أنكم تعيشون في الكتب أكثر مما تعيشون في الواقع!». تضطر نفيسي بعد عام أن تسافر رِفقةَ زوجها لأوكلاهوما حيث درست الأدب الإنجليزي فزادت مرارة اضطهادات زوجها عليها حتى أعلنت انفصالها وطلاقها منه بعد سماعها خبر الإفراج عن والدها.

عادت نفيسي بعد إنهاء دراستها إلى جامعة طهران، حيث كانت موئلًا للأنشطة السياسية الساخنة. هنالك بدأت تعد الخطة الدراسية لمواد الأدب، فتُطعّمها بعدة روايات مثيرة، من أهمها رواية «غاتسبي العظيم» للروائي الأميركي فرنسيس سكوت فيتزجيرالد (١٨٩٦-١٩٤٠م)، التي أثارت جدلًا في القسم وبين الطلاب. تذكر نفيسي أن هذه الرواية وغيرها كان كثيرًا ما يخترق فصولها شظايا من أخبار الاعتقالات والإعدامات التي تنفّذها الدولة ضد النشطاء، على رأس ذلك خبر إعدام الطالب البريء عميد غريب بعد أن حُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات بتهمة التغربن وإبداء النزعات اليسارية المضادة لتوجهات الدولة، فلم يكمل السنتين في سجنه حتى أُعلن خبر إعدامه عام ١٩٨٣م في ظروف غامضة. ظلت نفيسي في جامعة طهران مناضلة ضد توجهات الدولة الاستبدادية في فرض الحجاب الإجباري على النساء، وشاركت في عدة مظاهرات ضد تشريعاتها الجديدة؛ كتخفيض سن الزواج من ١٨ عامًا إلى ٩ أعوام، أو تشريع قانون الرجم بصفته عقوبة للزنى، حتى طُردت مع بعض زميلاتها من الجامعة.

انتقلت نفيسي للتدريس بجامعة العلامة الطباطبائي، حيث تُردد مقولة الحرس الثوري المتذمرة «إيران استحالت سويسرا»، فإذا ما أسرعت طالبة لتلحق بالدرس، عاقبوها على الهرولة؛ وإذا ضحكت عاقبوها على الضحك في الممرات، وإذا ما ضُبطت وهي تتحدث مع الجنس الآخر عاقبوها بتهمة الاختلاط. «ذات يوم، اقتحمت طالبتي ساناز قاعة الدرس قبل نهاية المحاضرة بقليل وهي تبكي، تأخرتْ لأن حارسات البوابة عثرنَ على أحمر الخدود في حقيبتها عند التفتيش، وكنَّ قد حاولنَ إعادتها إلى البيت مع خطاب توبيخ!».

كانت مهمة الجامعة التضييق على كل الأساتذة ممن يبدي نزعات تقدمية، بحجة وقوفها ضد مبادئ الثورة. «كانوا يراقبونني ويزيدون من مضايقتي ويقيدون حركتي بشتى الوسائل: بالتجسس عليَّ وعلى زوّاري، أو بتحديد نشاطاتي، أو بالمماطلة لسنوات في منحي استحقاقي بالتثبيت كأستاذة. وحين قدمت استقالتي عمدوا إلى إغاظتي بادعاء التمسك بي ورفض الاستقالة... كيف لنا أن نقوم بالتدريس كما يجب



آذار نفيسي

استحالت إيران بعد الثورة إلى شبكة من الاعتقالات والاغتيالات، كانت سببًا في تهجير الأدمغة المفكرة ودفعها لحالة دياسبورا مريرة ونوستالجيا تائهة بين خيارات المهاجر والأوطان

حينما يكون أقصى اهتمام لمسؤولي الجامعة مُنصَبًّا على لون شفاهنا، وعلى القابلية التدميرية لخصلة شعر يتيمة قد تطيش من تحت الإيشارب، وليس على كفاءتنا في أداء واجباتنا العلمية؟!»

في خريف ١٩٩٥م، نالت نفيسي أخيرًا حريتها باستقالتها، فقامت بتكوين فصل دراسي خاص يُعقَد كل خميس، التقت فيه سبعًا من طالباتها النجيبات بالإضافة إلى طالبٍ أبدى مثابرةً ورغبةً للانضمام. «انتقيتُ طالباتي ولم أمعن النظر في خلفياتهن الأيديولوجية والدينية... كثيرٌ من طالباتي كنَّ أكثر مثابرة ومواظبة في الحضور من طالباتي النظاميات اللائي يحضرن لأجل الشهادة». كان هذا الفصل متنفسًا للحرية، كان «صفًّا يمنحني الحرية التي حُرمت من ممارستها في الفصول الدراسية التي قمتُ بتدريسها في الجمهورية».

ورغم ذلك، كان الوصول إلى الكتب من أشق المهمات، لا سيما وقد أُغلقت معظم المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية بعد الثورة، وكان الاعتماد على مخزون كتب بعض الأصدقاء هو الحل الوافر. «أما كتاب لوليتا فقد كان العثور عليه صعبًا جدًّا، خصوصًا الطبعة المزدانة بالهوامش، التي كانت ترغب فيها بناتي. وقد صورنا الرواية كاملة بصفحاتها الثلاث مئة لكل



مسيرة نسائية بطهران ضد فرض الحجاب الإجباري، في اليوم العالمي للمرأة، ٨ مارس ١٩٧٩م

من لم تستطع إيجاد تلك الطبعة. إن ما يبعث على اليأس في قصة لوليتا ليس اغتصاب فتاة في ربيعها الثاني عشر على يد عجوز قذر فحسب، وإنما أن يصادر شخص حياة شخص آخر. فهي رواية متفائلة من حيث إنها دفاع عن الجمال والحياة، بكل المتع اليومية الطبيعية التي حرمت منها لوليتا وحرمت منها طالبتي ياسي؛ كنَّا جميعًا مثل لوليتا نحاول أن ننأى بأنفسنا بحثا عن جيوب صغيرة للحرية، ومثل لوليتا أيضًا لم نكن ندخر جهدًا للتمايل طربًا بتمردنا! كنا نظهر شيئًا من خصلات شعرنا من تحت الإيشارب، أو ندس قليلًا من اللون في ذلك التشابه الممل القائم في مظهرها أو نطيل أظافرنا أو نستمع لموسيقا ممنوعة، أو نُحب!»

ظلت هذه الحلقة الدراسية عن رواية لوليتا وغاياتها وجمالياتها تتم في أجواء سرية للغاية، مع تحفظات وتحرّزات من أن تُكشف أسرار الأطراف المنضمين إليها فيخضعن جميعًا للعقوبة بالسجن أو الإعدام. ولم تكن حلقةً دراسيةً فحسب، بل مجلسًا علميًّا يجمع البروفيسورة وطالباتها المعجبات، يتبادلن فيه قضايا الحب والأدب، والحلم والأمل، وطرائق الهروب من تلك المعيشة الخانقة. «أتذكر إحدى طالباتي وهي تقول: لن أتزوج أبدًا أبدًا، لأنني لم أجد فتى أحلامي إلا في الكتب». كان هذا الفصل عند السلطة أشبه ما يكون بالخلية السرية الخطرة، بينما كان عند الطالبات «محاولة للهرب من تفرّسِ عينيْ رقيبٍ أعمى، ولو لسويعات يتيمات كل أسبوع». ظلت هذه الحلقة تنعقد أسبوعيًّا لعامين متواصلين حتى تبرمت نفيسي من مراقبات السلطة ومن توعّداتها لها بالاعتقال بتهمة خرق القانون، فأعلنت هجرتها الأبدية من إيران عام ١٩٩٧م.

شهرنوش بارسيبور.. قُبلاتٌ على السيف

مدّت الاستخبارات الإيرانية يدها الطولى لتصادر الطابعات والمطبوعات، وفرض العقوبات الشديدة على كل من أخفاها أو امتلكها. يتجلى ذلك في قصة ابنة أحد المحامين الشيرازيين، الروائية الإيرانية شهرنوش بارسيبور (١٩٤٦م-) التي نالت قسطًا وافرًا من الاعتقالات في مرحلتي ما قبل الثورة وما بعدها. ففي عام ١٩٧٤م، قدّمت الشابة بارسيبور (٢٨ عامًا) استقالتها



شهرنوش بارسيبور

من العمل في التلفزيون الإيراني، معلنةً إيقاف برنامجها الإسبوعي «النساء البدويات» احتجاجًا على التعذيب الشنيع والإعدامات اللامسؤولة التي قادها الشاه محمد رضا بهلوي (١٩١٩- ١٩٨٠م) ضد الشعراء النشطاء على يد منظمة السافاك (منظمة الاستخبارات والأمن الوطنية). وعلى هذا الاحتجاج، أُودِعت السجن بلا تهمة. أُفرج عن بارسيبور بعد شهرين كاملين لتتزوج من رجل عامّي أضفى على حياتها ضغوطات تعليمية متجددة؛ إذ كانت تدرس السوسيولوجيا بجامعة طهران بسريّة مع عدد قليل من الطالبات آنذاك.

تخرجت بارسيبور من الجامعة، فأعلنت تخفيف هذا التوتر الأسري والسياسي بإعلان انفصالها عن زوجها متجهةً لإكمال دراساتها العليا بجامعة السوربون بفرنسا، حيث درست الفلسفة الصينية في الفترة من عام ١٩٧٦م إلى عام ١٩٨٠م. «سافرتُ إلى فرنسا، فأرهقتني الالتزامات المادية وحاصرتني الوحدة أنا وطفلي، فاضطررتُ لإرساله إلى أبيه ليكمل دراسته بإيران... ظللتُ أقاوم وحيدةً في عجزٍ اقتصاديٍّ كليٍّ حتى عام ١٩٨٠م. فمع مخاض الفوضى الثورية، وجدتُ نفسي غير قادرة على الصمود والاستمرار، فقررتُ العودة وما كنتُ أعلم ما يخفيه الوطن لي من مأساة».

عادت بارسيبور مع انفجار الحرب بين إيران والعراق (١٩٨٠-١٩٨٨م)، لتجد نفسها مباشرةً في السجن على غير المتوقع، إذ قامت الثورة الإسلامية بتصفية الأحزاب سريعًا وتكويم الأعداد بسجن إفين سيئ السمعة الذي شيَّده الشاه عام ١٩٧٢م، وهو ذات المعتقل الذي عُذبت فيه المصورة زهرة كاظمي (١٩٤٨-٢٠٠٣م) حتى ماتت متأثرة بجراحها عام ٢٠٠٣م.

سُجنت بارسيبور شهرين بعهد الشاه بتهمة الاستقالة، لكنها لم تتوقع أبدًا أن تَزُجَّ بها الثورة الإسلامية مع شعاراتها التحريرية في السجن برفقة والدتها وأخيها لنحو خمس سنوات كاملة، فقط بسبب بروشورات وُجدت بالخطأ في خزانة سيارتهم. كان السجن يكتظ بالنساء من كل جانب «كان هناك عدد من السجناء لا يستطيعون المشي، كانت أقدامهم متورمة بحجم البرتقال، وكان من الصعب عليهم استخدام حمامات القرفصاء الصينية». في السجن «تمت إعدامات كثيرة، أعداد كبيرة من الناس تم إعدامهم، ربما ستة أو سبعة آلاف شخص، فضلًا عن الإعدامات التي حدثت عام ١٩٨٨م، كانت هذه السنون بحق مرعبة بما فيها من تعذيبات وتحقيقات. كدمات سوداء وزرقاء متفرقة على أجساد السجناء، حتى أصبحت السجينة تضطر لأن توقف عذاباتها بإقامة علاقات حميمة مع السجان. لا أزال أتذكر صديقتي اليسارية ذات البشرة الزيتونية شهين التي اعتقلت لأجل طابعة! كانت قد تنبأتْ بإعدامها الوشيك؛ إذ بدأ المحقق يتلمس نهديها في ليلة ما قبل الإعدام. كان من المعروف أن السجّانين يتزوجون قسرًا بالسجينات في لياليهن الأخيرة حتى لا يُدفنَّ أبكارًا. يقولون بأن الفتاة إذا قُبرت بِكرًا فإنها تفتن شابًّا وتغريه إلى قبرها. توقعتْ شهين ذلك المصير، فتم إعدامها في اليوم التالي!».



متأثرةً بمجموعة الروائي الأميركي إرنست هيمنغوي (١٨٩٩- ١٩٦١م) «رجال بلا نساء، ١٩٢٧م»، خرجت بارسيبور من المعتقل لتكتب مجموعتها القصصية «نساء بلا رجال» التي احتفظت بتفاصيلها إلى حين نشرها عام ١٩٩٠م قبل أن تتحول إلى فلم للمخرجة الإيرانية شيرين نيشات (١٩٥٧م-). تهاجم بارسيبور في مجموعتها تداعيات النظام المؤسساتي للدولة الذكورية، وتحكي آلام المرأة الإيرانية وما رافقها من اضطهاد جنسي عبر التاريخ لأجل رقعة بكارة. «كانت والدتي تخبرني بأن البكارة ستارة، فلتحذر الفتاة، ربما إن قفزت من علوٍّ تمزّق بكارتها. إنها ستارة سهلة التمزق!». أحدث هذا الكتاب ضجةً إعلاميةً، ما تسبب في حظره من التداول بإيران، وإيداع بارسيبور مجددًا في السجن بتهمة الخوض في موضوعات حساسة. «لقد سُجنتُ ثلاثَ مرات، كلُّها بلا تُهمة ولا جريمة، فيما عدا الثالثة؛ كانت بتهمة مُلفَّقة لم يطل سكوت المحكمة حتى اعترفت بزيفها».

أُفرج عن بارسيبور لتتلقى مزيدًا من الضربات والملاحقات مع سعيٍ حثيثٍ لتوريطها في قضايا جديدة، ما دفعها أخيرًا لإعلان هجرتها الأبدية من إيران. ظلت بارسيبور في شتات المنفى بين أميركا وإنجلترا وألمانيا، حتى حطّت رحالها بكاليفورنيا حيث نالت زمالة الكتاب العالمية بجامعة براون. هنالك سطرت تفاصيل معاناتها في السجون في مذكراتها الأخيرة «تقبيل السيف: مذكرات السجن، ٢٠١٣» وحكت فيها أحوال السجناء بدقة، واصفةً تداعيات غربتها على حياتها وما رافقها من تردي صحي وعجز اقتصادي واضطهاد نفسي. «خلال سنين السجن لم آخذ ملاحظات، ربما نسيت بعض أسماء المساجين المظلومين، فقد كان المحقق يقوم بتقطيع كل ما أكتب، ولكني كنتُ دقيقةً بقدر ما تسعفني الذاكرة في تبيان تلك الأهوال».

مارينا نيمات.. سجينة طهران

لم يكن الهجوم الثوري يستهدف المسلمات فحسب، بل تعدى طوقه ليخنق المسيحيات من أمثال الكاتبة الروسية مارينا نيمات (١٩٦٥م-


مارينا نيمات

) المولودة في طهران التي بسطت معالم تجربتها المريرة في مذكراتها «سجينة طهران: ٢٠٠٦» و«ما بعد طهران: استعادة الحياة، ٢٠١٣» حيث تُرجم الأول لما يفوق ١٣ لغة بعد أن نال صدًى إعلاميًّا واسعًا. «أغلب المسيحيات هاجرنَ إلى إيران بسبب اقترانِهنَّ بأزواجهنَّ الإيرانيين الذين كانوا يعملون بروسيا. وبعد الثورة الشيوعية عام ١٩١٧م، اضطروا للهجرة لإيران لكونهم معارضين للشيوعية وليسوا بروسيين، ففرَّ معهم جدّاتي المسيحيات المعارضات للشيوعية».

كان من نصيب الطالبة نيمات (١٧ عامًا) أن اعتُقلت في الخامس عشر من يناير لعام ١٩٨٢م، وأُودِعت سجن إفين مع زميلاتها لسنتين كاملتين بعد أن عارضت إدخال قضايا السياسة في حصص الرياضيات، وقادت على إثر ذلك إضرابًا واحتجاجًا جماعيًّا؛ كما شاركت في مظاهرات ضد السياسات القمعية التي أطلقتها الحكومة الثورية، وكتبت عدةَ مقالاتٍ مناهضة للثورة في مجلة المدرسة. «سألوني ما إذا كنتُ أعمل مع مجموعات شيوعية فقلتُ: لم أفعل. كانوا قد سمعوا بالإضراب الذي بدأتُهُ ضد المدرسة، وكانوا يرون من الاستحالة لفردٍ بلا علاقات مع أحزاب سياسية غير قانونية أن ينظّم إضرابًا! أخبرتهم بأنني لم أنظّم شيئًا، وهي الحقيقة. فقط سألتُ مدرسة الرياضيات أن تدرّس الرياضيات بدلًا من السياسة، فطردتني من الفصل؛ فخرجتُ وخرجتْ زميلاتي خلفي، فرفض الجميع العودة للمدرسة. لم يكن

لم تتوقف سلسلة الترويع في السجون الإيرانية ضد النساء بعد العقود الأولى من الثورة الإسلامية، بل استمرت في عقد حلقاتها الشائكة في القرن الحادي والعشرين

المحقق يصدّق ذلك؛ إذْ يدّعي ورود معلومات بأن لي علاقة بمجموعات شيوعية».

حُكم على نيمات بالإعدام بتهمة الشيوعية، فلاقت في السجن صنوف الأذى والعذاب. «كانت هناك صيحات مشبعة بالألم تملأ المكان. أصوات ثقيلة وعميقة ويائسة تخترق جلدي، وتنتشر بكل خلية في جسدي، وكأنَّ لوحًا من الرصاص يجثم على صدري... فجأة وإذا بشخصٍ يجرني بالحبل الذي عُقد على يديَّ، ويجرني لخطواتٍ، ثم يلقيني على الأرض فتسقط عصابةُ عيني، ثم يجرُّ عصابتي رجلٌ في الأربعينيات في غرفة خالية من كل شيء فيما عدا سرير خشبي ووسادة حديدة، قائلًا: «الحبل لا يكفي، سنستخدم ما هو أشد وأقوى»، ثم وضع الحديد على يدي... إنَّ السجناء السياسيين يتعرضون دائمًا لصنوف منوعة من العذاب، يكفي من سماعها أن تصيبك بالغثيان. ذات ليلة استيقظنا جميعًا على صوت إطلاق نار فنهضتُ مع الفتيات وحدقنا من النوافذ. كل رصاصة كانت تعني حياة ضائعة، نفس حبيب وعزيز تتمزق بينما تنتظره أسرته وتتأمل عودته. سوف يُدفن القتلى في قبورٍ بلا شواهد ولا شهود».

وعندما كانت نيمات تستعد كغيرها للإعدام، وقع سجّانها ومحققها علي موسوي في غرامها، فتدخّل سريعًا لإنقاذها من فرقة إطلاق النار عارضًا عليها الإسلام والزواج، لِقاءَ التوسط لها عند الأسرة الحاكمة إذ كان على علاقة مقربة بهم. قبلتْ نيمات العرض فدخلت الإسلام كَرْهًا، فتم استبدال حكمها بالإعدام بالسجن المؤبد. تزوجت نيمات من موسوي وعاشت معه كل معالم الزواج في السجن، وكان يهددها بأذيّةِ أسرتها وحبيبها إن هي خالفت أوامره، حتى تم اغتياله من الأحزاب المعارضة ووُجدت جثتُه مرميةً عند عتبات منزله. «لقد استطاعت الثورة الإسلامية أن تمزق الإيرانيين جميعهم بشعاراتها وتضعهم في مواجهاتٍ بينية، فلا هم الذين يستطيعون الخروج جميعًا على النظام الشمولي الخميني، ولا هم الذين يستطيعون العيش في أحضان الغازي الأميركي المزعوم!»

سعت أسرةُ علي موسوي بكل جهودها للإفراج عن زوجة ابنهم - نيمات - بعد اغتياله حتى نجحت، فخرجت نيمات أخيرًا لتتزوج من حبيبها المسيحي أندريه نيمات،

مدّت الاستخبارات الإيرانية يدها الطولى لتصادر الطابعات والمطبوعات، وفرض العقوبات الشديدة على كل من أخفاها أو امتلكها

هودفار وآرايي.. ضحايا جُدد

لم تتوقف هذه السلسلة من الترويع في السجون الإيرانية ضد النساء بعد العقود الأولى من الثورة الإسلامية، بل استمرت في عقد حلقاتها الشائكة في القرن الحادي والعشرين، متمثلًا ذلك في اعتقال البروفيسورة الكندية (الإيرانية الأصل) بجامعة مونتريال هوما هودفار (١٩٥١م-) عام ٢٠١٦م. أُودعت هودفار سجن إفين لأربعة أشهر بتهمة الاشتغال بالحركة النسوية والانخراط في القضايا الأمنية، حتى أفرج عنها بعد أن طلبت كندا وساطة عُمانية. «قررتُ كأنثروبولوجية أن أكون بطلة، وأن أحوّل السجن إلى ميدان لعملٍ أنثربولوجي، لم يكن مشروعًا اخترته بل مشروعًا اختارني فكتبتُ عنه». قامت هودفار بتحليل ٣٠ حوارًا تحقيقيًّا أخضعها لها المحققون، فقدمتْ دراسةً رصينةً عن طرائق تهديداتهم واختياراتهم لكلماتهم، حتى «طريقة استخدامهم لموسيقا جنازة زوجي التي وجدوها بهاتفي منذ عام ٢٠١٤م؛ كانوا يقومون بتشغيلها مرارًا وتكرارًا في زنزانتي بُغية كسري روحيًّا». خرجت هودفار في ذات العام بعد أربعة شهر وقبل أن تُنقَل من زنزانتها الصغيرة إلى زنزانة أكبر، رِفقةَ الكاتبة البريطانية (الإيرانية الأصل) نازنين زاغري رتكليف (١٩٧٨م-) التي اعتقلت مع طفلتها في إبريل في ذات العام، ولا تزال إلى اليوم في بدايات تنفيذ حكمها بالسجن لخمس سنوات.

كما تواجه الكاتبة غولورخ إبراهيمي آرايي (١٩٨٠م-) هذه الأيام حُكمًا بالسجن لخمس سنوات على خلفية كتابتها قصة قصيرة (لم تُنشر بعد) تناقش قضية «الرجم حتى الموت» وذلك بتهمة انتهاك المقدسات والتأليب على النظام الحاكم؛ وقد عُثِر على قصتها في شقة زوجها الناشط أراش صديقي (١٩٨٦م-) الذي يمضي حكمًا بالسجن لـ ١٩ عامًا، وقد تسبب الحرس الثوري في وفاة والدته بأزمة قلبية بعد مداهمةٍ شديدةٍ لمنزلهم. «أصبح منزلنا كالجحيم، يخبرني والدي دومًا بأنني كنتُ سببًا في قتل أمي وأنه لا يريدني مجددًا في المنزل، أنا أفضل أن أعود إلى السجن! تذكر زوجته آرايي بأنها كتبت قصتها القصيرة لبعث التساؤلات عن هذه العقوبة البشعة، ورفع معاناة السجينة فاريبا كاريغي التي حُكم عليها بـ«الرجم حتى الموت» بتهمة

ثم لتعلن هجرتها النهائية من إيران عام ١٩٩١م إلى كندا مع زوجها الجديد وطفليها الصغيرين. هاجرت نيمات فرارًا من إيران الخمينية أسوةً بفرار جداتها من روسيا الشيوعية، وكأنما التاريخ يصر على تخريج دفعات من المهاجرين من نير الأيديولوجيات. ظلت نيمات ٢٢ سنة بكندا، حيث مهجر ٧٠ ألف إيراني، كمحاضرة في جامعة تورونتو الكندية ومقدمة لدروس خاصة في فن كتابة المذكرات. «هناك مثل فارسي قديم يقول: السماء بذات اللون حيثما تكون، ولكن السماء الكندية تختلفُ عن تلك التي أتذكرها في إيران، إنها ذات ظلال داكنة من الزرقة وتبدو بلا حدود؛ كأنما تتحدى الآفاق».


أحد الاحتجاجات النسائية بطهران، أكتوبر ٢٠٠٧م

التورط في علاقة جنسية مع قاتل زوجها، ولا تزال تقضي فترة سجنها منذ عام ٢٠١٣م.

ربما لاقت المرأة الإيرانية في سبيل خياراتها الخاصة شدائد متوقعة من الأحزاب الإسلامية المتطرفة، غير أن هذه الشدائد لا ترقى لمستوى ما وجدتُهُ من خذلان الحركات اليسارية، الحليف الأول للحركات النسوية في عهد الشاه. تذكر الباحثة والناشطة الإيرانية بارڤين بيدر (١٩٤٩- ٢٠٠٥م) في كتابها: «نساء في عصر الحداثة، ١٩٩٥» أنه ورغم كسب التيارات اليسارية لعدد من النساء في عهد الشاه باسم تحرير المرأة، فقد قلبوا لهنَّ ظهرَ المِجَنِّ وتخلَّوْا عنهن متخذين الثورة الخمينية بدلًا، بل كانوا يرون النساء المناضلات ضحايا للتقليد الغربي ومطايا لتحقيق المؤامرة الإمبريالية ضد إيران.


هوما هودفار


غولورخ إبراهيمي آرايي

كان اليساريون جزءًا أساسيًّا من المجتمع البطريركي الإيراني، بل تأزّم الحال حين أصبحت المرأة اليسارية نفسها في مواجهةٍ شرسةٍ مع قريناتها، متجليًا ذلك في عضوة حزب توده الشيوعي الناشطة مريم فيروز (١٩١٤- ٢٠٠٨م) التي ما فتأت تخلع المدائح على الخميني وتصفه بأنه أعظم مناصر لحقوق المرأة في التاريخ. لم يطل إعجاب فيروز حتى وقع زوجها نور الدين كيانوري (١٩١٥- ١٩٩٩م) ضحية للخميني، فزُجَّ به في السجن بتهمة التجسس لصالح السوفييت حتى مات في محبسه، ثم أُمر بإعدام غالب أعضاء حزب توده، وأخضعت مريم نفسها وهي ذات السبعين عامًا تحت السجن القسري ببيتها وتحت الرقابة السياسية حتى وفاتها عام ٢٠٠٨م.

المنفيون

روبرتو بولانيو كاتب وشاعر تشيلي

ترجمة: عبدالله الزقّاي قاص ومترجم سعودي

كونك منفيًّا لا يعني أن تختفي ولكنك تتقلص، فتصبح أصغر فأصغر ببطء أو بسرعة حتى تصل إلى طولك الحقيقي، الطول الحقيقي للذات، كانت سويفت -سيدة المنفيين- تعلم ذلك جيدًا، وبالنسبة لها كان «المنفى» هو الكلمة السرية للرحلة، هذا التعبير الذي سيرفضه العديد من المنفيين الذين يُشحَنون بقدر من المعاناة يتجاوز أسباب الرحيل. يحمل الأدب كله المنفى بداخله، سواء كان الكاتب قد جمع أغراضه ورحل في سن العشرين أو لم يغادر موطنه قط.

ربما كان أول المنفيين على الإطلاق هما آدم وحواء، هذا أمر لا جدال فيه، كما أنه يثير بعض الأسئلة: هل يمكن أن نكون جميعًا منفيين؟ هل من الممكن أن كل واحد منا يجوب الأرض غريبًا؟ إن مفهوم «الأراضي الغريبة» (مثلها في ذلك مثل «أرض الوطن») لديه بعض الثغرات، التي تطرح أسئلة جديدة: هل «الأراضي الغريبة» هي واقع جغرافي موضوعي أم أنها تصور عقلي في تغير مستمر؟ دعونا نتذكر «ألونسو دي إرثيبا». (شاعر وجندي إسباني اشتهر بقصيدته الملحمية «لا أروكانا») بعد رحلات قليلة عبر أوربا، يسافر إرثيبا، وهو جندي وسيد نبيل، إلى تشيلي ويحارب الهنود الحمر القدماء تحت راية «ألديريتي» (جيرونيمو دي ألديريتي وهو قائد إسباني عيِّن حاكمًا لتشيلي، لكنه توفي عام ١٥٥٦م قبل أن يتولى منصبه). وفي عام ١٥٦١م قبل أن يبلغ سن الثلاثين، عاد واستقر في مدريد، وبعد عشرين عامًا قام بنشر «لا أروكانا» -أفضل قصيدة ملحمية في عصره، التي قام فيها بربط الصدام بين الهنود الحمر القدماء والإسبان بالتعاطف الواضح مع الهنود الحمر، هل كان «إرثيبا» في المنفى خلال فترة الشتات الأميركي عبر أراضي تشيلي وبيرو؟ أم أنه شعر بالنفي عندما عاد إلى المحكمة؟ وهل كانت ملحمة «لا أروكانا» ثمرة ذلك الداء السوداوي لوعيه الشغوف بالمملكة الضائعة؟ وإذا كانت هذه هي الحال، وهو ما لا أستطيع أن أقطع به على وجه اليقين، ما الذي فقده «إرثيبا» في عام ١٥٨٩م، قبل خمس سنوات فقط من وفاته، بخلاف الشباب؟ ومع شبابه، الرحلة الشاقة، التجربة الإنسانية التي خاضها من خلال التعرض لعناصر قارة هائلة وغير معروفة، وجولات طويلة على ظهور الخيل، ومناوشات مع الهنود والمعارك ضد «وتارو» (أحد



قادة المقاومة ضد الغزو والاستعمار الإسباني. قتل عام ١٥٥٧م) و«كوبوليكان» (قائد عسكري تحولت له قيادة المقاومة بعد مقتل وتارو) التي لاحت في الأفق الواسع مع مرور الوقت وتحدثت إليه، إلى «إرثيبا»، الشاعر الوحيد والناجي الوحيد من أمر ما، حينما تُوضَع على الورق، سوف تصبح قصيدة، لكنها في ذاكرة الشاعر القديم هي مجرد حياة أو عدة حيوات، تصل إلى الشيء ذاته. وما الذي تركه الدهر لإرثيبا قبل أن يكتب «لا أروكانا» ويموت؟ ترك «إرثيبا» بشيء ما يمتلكه جميع الشعراء - حتى إن كان في الشكل الأكثر تطرفًا وغرابة، لقد ترك له الشجاعة، الشجاعة لا تساوي شيئًا في سن الشيخوخة، مثلما كانت تساوي في سن الشباب، لكنها تمنع الشعراء من إلقاء أنفسهم من أعلى الجرف أو الانتحار برصاصة في الرأس، وفي وجود صفحة بيضاء، تخدم الغرض المتواضع من الكتابة.

منافٍ مدى الحياة

المنفى هو الشجاعة. المنفى الحقيقي هو المقياس الحقيقي لكل كاتب. عند هذه النقطة أود أن أقول على الأقل عندما يتعلق الأمر بالأدب، فأنا لا أومن بالمنفى، إن المنفى هو مسألة أذواق والشخصيات، إعجاب وعدم إعجاب، بالنسبة لبعض الكتاب المنفى يعني مغادرة منزل العائلة، وبالنسبة لآخرين هو مغادرة البلد أو المدينة التي نشأ بها، وبالنسبة لآخرين يعد المنفى بصورة أكثر تعمقًا هو النمو والنضج، ثمة منافٍ تستمر مدى الحياة، بينما تستمر غيرها لنهاية الأسبوع فقط، «بارتبلي» (هو أحد أبطال «هيرمان ميلفيل» في قصته الشهيرة «بارتلبي النساخ») الذي لم يكن يفضل الترحال كان مثالًا للمنفى المطلق، كما لو كان كائنًا فضائيًا على وجه الأرض، أما «ميلفيل» الذي كان دائم التنقل والترحال، لم يختبر يومًا أو لم يتأثر سلبًا ببرودة كلمة المنفى، أما فيليب ديك (روائي وكاتب أميركي، توفي عام ١٩٨٢م) فقد عرف أكثر من أي شخص آخر كيفية التعرف على اضطرابات المنفى، وكان «وليام بوروزو»(كاتب وروائي أميركي اشتهر بروايات تتحدث عن المخدرات والشذوذ الجنسي، توفي عام ١٩٩٧م) تجسيدًا لكل واحدة من تلك الاضطرابات.

ربما كنا جميعًا، كتابًا وقراءً على حد سواء، نعيش في المنفى، أو على الأقل في نوع معين من المنفى، حينما تركنا الطفولة وراءنا، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى استنتاج مفاده أنه لا يوجد شخص منفي أو فئة منفية لا سيما فيما يتعلق بالأدب، المهاجر والبدوي والمسافر والسائر نائمًا كلهم موجودون، بعكس المنفى؛ لأن كل كاتب يصبح منفيًّا ببساطة عن طريق الخوض في الأدب، وكل قارئ يصبح منفيًّا ببساطة عن طريق فتح كتاب. لقد ذهب كل الكتاب التشيليين تقريبًا في مرحلة ما من حياتهم إلى المنفى، وضُبط العديد منهم ممن ظل متبوعًا بإصرار من قبل شبح تشيلي وإعادتهم إلى الحظيرة، بينما تمكن آخرون من زعزعة الشبح والاختباء، في حين غيَّر آخرون أسماءهم وطرقهم، ونسيتهم تشيلي لحسن الحظ.

كل كاتب يصبح منفيًّا ببساطة عن طريق الخوض في الأدب، وكل قارئ يصبح منفيًّا ببساطة عن طريق فتح كتاب

حينما كنت في الخامسة عشرة، في عام ١٩٦٨م، غادرت تشيلي إلى المكسيك، بالنسبة لي في ذلك الوقت، كانت «مكسيكو سيتي» مثل الحدود، تلك الأرض غير الموجودة والواسعة حيث الحرية والاستحالة هي العملة الشائعة. على الرغم من كل ذلك لم يُمْحَ ظل وطني الأم قط، وفي أعماق قلبي الغبي استمر اليقين أن قدري كان يقبع هناك. عدت إلى تشيلي حينما كنت في العشرين للمشاركة في الثورة، بقدر كافٍ من الحظ السيئ حيث


روبرتو بولانيو

جاء الانقلاب بعد وصولي إلى «سانتياغو» بأيام قليلة واستولى الجيش على السلطة، كانت رحلتي إلى تشيلي طويلة، وأحيانًا أفكر لو أنني قضيت وقتًا أطول في «هندوراس» على سبيل المثال، أو انتظرت قليلًا قبل أن الإبحار من «بنما»، ربما كان الانقلاب ليحدث قبل وصولي إلى تشيلي ولاختلف مصيري تمامًا.

على أية حال، وبالرغم من المصائب الجماعية ومصيبتي الشخصية الصغيرة، أتذكر الأيام بعد الانقلاب كأيام كاملة، مكتظة بالطاقة، مفعمة بالإثارة الجنسية، الأيام والليالي التي يمكن أن يحدث بها أي شيء، ليس ثمة طريقة كنت أرغب أن يقضي ابني عامه العشرين بها، لكن ينبغي أيضًا أن أعترف أنه كان عامًا لا ينسى، تجربة الحب والسخرية السوداء والصداقة والسجن والتهديد بالقتل كانت مكثفة فيما لا يزيد على خمسة أشهر غير متناهية، كنت أعيش فيها حالة من الدهشة والإلحاح، كتبت خلال ذلك الوقت قصيدة واحدة، لم تكن بنفس القدر من السوء مقارنة بالقصائد الأخرى التي كتبتها في ذلك الوقت، وكلها كانت سيئة بشكل موجع، عندما انقضت تلك الأشهر الخمسة كنت قد غادرت تشيلي مرة أخرى ولم أعد إليها منذ ذلك الحين. كان ذلك بداية منفاي، أو ما يعرف عادة كمنفى، على الرغم من أنني لم أكن أراه على هذا النحو في الحقيقة. يعني المنفى أحيانًا ببساطة أن يخبرني التشيليون أنني أتحدث مثل الإسبان، وأن يخبرني المكسيكيون أنني أتحدث مثل التشيليين، ويخبرني الإسبان أنني أتحدث مثل الأرجنتينيين، إنها مسألة لهجات. إن المصائر التي اختيرت من قبل أولئك الذين ذهبوا إلى المنفى غالبًا غريبة، بعد الانقلاب التشيلي في عام ١٩٧٣م، أتذكر أن عددًا قليلًا من اللاجئين السياسيين شقوا طريقهم إلى سفارات بلغاريا أو رومانيا على سبيل المثال، في حين كانت فرنسا وإيطاليا هي الدول المفضلة من قبل الكثيرين، وبالرغم من ذلك كما أذكر، فقد ذهب علية القوم إلى المكسيك والسويد أيضًا، وهما دولتان مختلفتان تمامًا بحيث إنهما ربما استقرا في اللاوعي الجماعي التشيلي كاثنين من مظاهر الرغبة المتناقضة، على الرغم من أن الكفة في ذلك الوقت كانت تميل نحو الجانب المكسيكي، وبدأ العديد ممن ذهبوا إلى المنفى في السويد العودة إلى المكسيك، فقد ظل غيرهم الكثير في ستوكهولم أو غوتنبورغ، وكنت أصادفهم حين كنت أقيم في إسبانيا كل صيف في الإجازة، وكان التحدث بالإسبانية مذهلًا على الأقل بالنسبة لي؛ لأنها كانت الإسبانية التي كنا نتحدث بها في تشيلي عام ١٩٧٣م، ولا يتحدث بها الناس الآن في أي مكان سوى السويد.



توماس مان

جيمس جويس

المنفى خيار أدبي

والمنفى في معظم الحالات قرار طوعي، لم يجبر أحد توماس مان على الذهاب للمنفى، كما لم يجبر أحد جيمس جويس على الذهاب للمنفى، وبالعودة إلى أيام جويس، ربما لم يكن الأيرلندي ليهتم بالبقاء في دبلن أو الرحيل، أو أن يصبح كاهنًا أو يقتل نفسه، المنفى -في أفضل الحالات- خيار أدبي، على غرار خيار الكتابة، لا أحد يجبرك على الكتابة، يدخل الكاتب المتاهة طوعًا -لأسباب كثيرة بالطبع لأنه لا يريد أن يموت، أو لأنه يريد أن يكون محبوبًا... إلخ- لكنه لا يجبر على ذلك، في نهاية المطاف فهو ليس مرغمًا سوى بقدر ما كان السياسي مرغمًا على الخوض في السياسة، أو كان المحامي مرغمًا على دخول كلية الحقوق، مع ميزة عظيمة للكاتب عن المحامي أو السياسي حيث إن كليهما خارج بلدهما الأصلي يميلان إلى التعثر مثل سمكة خارج الماء، على الأقل لفترة من الوقت، في حين يبدو أن الكاتب خارج وطنه تنمو له أجنحة، ينطبق الشيء نفسه على مواقف أخرى، ماذا يفعل السياسي في السجن؟ ماذا يفعل المحامي في



المستشفى؟ أي شيء إلا العمل، وفي المقابل ماذا يفعل الكاتب في المستشفى أو في السجن؟ إنه يعمل، بل أحيانًا يعمل أكثر من المعتاد، وناهيك عن ذكر الشعراء في ذلك الموقف، وبطبيعة الحال ربما يرتفع زعم بأن المكتبات في السجن ليست جيدة، وفي المستشفى لا وجود لها غالبًا، وربما يدفع في معظم الحالات بأن المنفى يعني فَقْدَ الكاتب لكتبه من بين خسائر مادية أخرى، حتى في بعض الحالات فقدان أوراقه ومسوداته ومشاريعه ورسائله التي لم تكتمل، وما المشكلة في ذلك، فأن تفقد المسودات أفضل من أن تفقد حياتك، على أية حال، فإن الفكرة تكمن في أن الكاتب يعمل أينما كان، حتى حينما يكون نائمًا، وهو ما لا ينطبق على المهن الأخرى، يمكن أن يقال: إن الممثل يعمل باستمرار، لكنه ليس بقدر الكاتب، فالكاتب يكتب وهو واعٍ للكتابة، في حين يكتفي الممثل بالنحيب، تحت تهديد السجن، رجال الشرطة دائمًا هم رجال شرطة، لكن ذلك ليس متشابهًا أيضًا؛ لأنه «أن تكون» شيء و«أن تعمل» شيء مختلف تمامًا، والكاتب يكون ويعمل في أي موقف، أما الشرطي فإنه يكون فقط، وينطبق الشيء نفسه على القاتل المحترف والجندي والمصرفي والعاهرة، ربما يقترب أي منهم في ممارسة مهنته من ممارسة الأدب.

الشاعر اليوناني أرخيلوخس من القرن السابع قبل الميلاد، هو خير مثال على هذه الظاهرة، حيث ولد في جزيرة «باروس»، وكان وفقًا للأسطورة من المرتزقة ومات في القتال، ويمكننا أن نتصور أن حياته انقضت في التجول في مدن اليونان. وفي أحد المقاطع التي كتبها، لا يتردد «أرخيلوخس» في الاعتراف بأنه في خضم المعركة، وربما في مناوشة، أسقط ذراعه وذهب يجري، التي كانت بالنسبة للإغريق عمومًا دون شك أكبر وصمة عار، ناهيك عن الجندي الذي يكسب قُوته اليومي من شجاعته في القتال، ويقول أرخيلوخس:

> **يعني المنفى أحيانًا ببساطة أن يخبرني التشيليون أنني أتحدث مثل الإسبان، وأن يخبرني المكسيكيون أنني أتحدث مثل التشيليين، ويخبرني الإسبان أنني أتحدث مثل الأرجنتينيين، إنها مسألة لهجات**

أحد ساكني جبال سايان
اصطدم اليوم بدرعي
فألقيته أرضًا خلف شجيرة وركضت
حينما حمي الوطيس
بدت الحياة بطريقة ما أكثر قيمة
لقد كان درعًا جميلا
عرفت أين يمكنني شراء درع آخر
مثله تمامًا، بنفس الاستدارة

وقد كتب الباحث الكلاسيكي كارلوس غارسيا غوال عن أرخيلوخس: إنه اضطر إلى مغادرة الجزيرة التي ولد فيها ليكسب قُوته بحربته، كجندي مرتزق، عرف أن الحرب ما هي إلا عمل روتيني مجهد، ليس بوصفها مجالًا للأعمال البطولية، حظي بشهرة لنزعته التشاؤمية التي ظهرت في أسطر قليلة من النثر حكى فيها كيف هرب من ساحة المعركة بعد أن ألقى درعه بعيدًا، لقد كان انفتاحه على الاعتراف بمثل هذا العمل المشين لافتًا للنظر، في تكتيكات الهوبليت (مقاتلون في اليونان القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد)، الدرع هو السلاح الذي يحمي خاصرة الجندي، إنه رمز الشجاعة، شيء لا يمكن أن يفقد، «إما أن تعود بالدرع أو تهلك دونه» هذا ما كان يقال في سبارتا، جل ما كان يهتم به الشاعر الواقعي هو إنقاذ حياته، لم يكن يهتم بالمجد أو ميثاق الشرف.



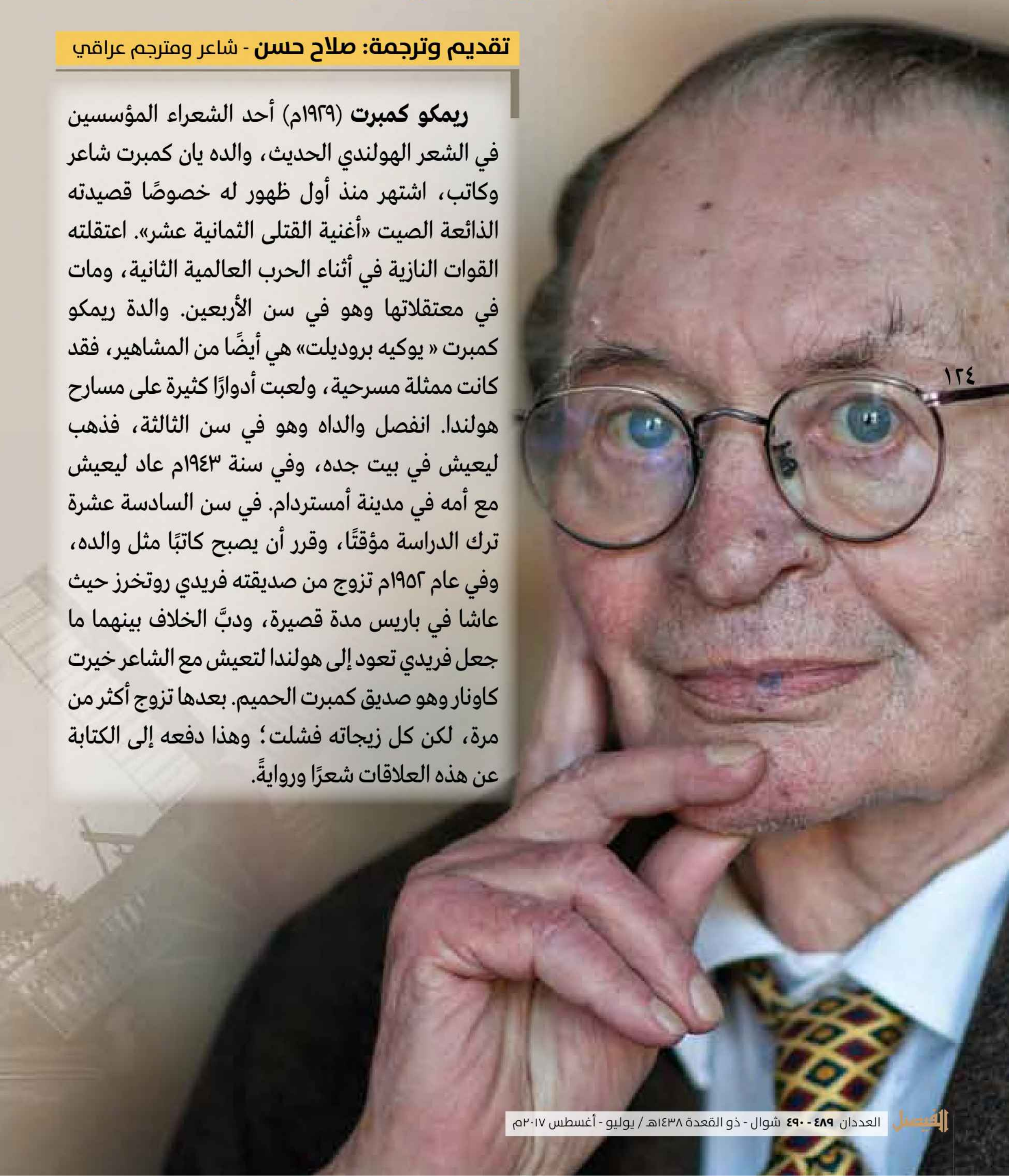
ساحة أرماس، الساحة الرئيسية في سانتياغو، عاصمة شيلي

من الشعر الهولندي المعاصر

ريمكو كمبرت.. وضع المجتمع في صلب قصائده

تقديم وترجمة: صلاح حسن - شاعر ومترجم عراقي

ريمكو كمبرت (١٩٢٩م) أحد الشعراء المؤسسين في الشعر الهولندي الحديث، والده يان كمبرت شاعر وكاتب، اشتهر منذ أول ظهور له خصوصًا قصيدته الذائعة الصيت «أغنية القتلى الثمانية عشر». اعتقلته القوات النازية في أثناء الحرب العالمية الثانية، ومات في معتقلاتها وهو في سن الأربعين. والدة ريمكو كمبرت « يوكيه بروديلت» هي أيضًا من المشاهير، فقد كانت ممثلة مسرحية، ولعبت أدوارًا كثيرة على مسارح هولندا. انفصل والداه وهو في سن الثالثة، فذهب ليعيش في بيت جده، وفي سنة ١٩٤٣م عاد ليعيش مع أمه في مدينة أمستردام. في سن السادسة عشرة ترك الدراسة مؤقتًا، وقرر أن يصبح كاتبًا مثل والده، وفي عام ١٩٥٢م تزوج من صديقته فريدي روتخرز حيث عاشا في باريس مدة قصيرة، ودبَّ الخلاف بينهما ما جعل فريدي تعود إلى هولندا لتعيش مع الشاعر خيرت كاونار وهو صديق كمبرت الحميم. بعدها تزوج أكثر من مرة، لكن كل زيجاته فشلت؛ وهذا دفعه إلى الكتابة عن هذه العلاقات شعرًا وروايةً.



شكل ريمكو كمبرت مع مجايليه لوشبير وكاونار وسيمون فنكناوخ وبعض الشعراء الآخرين من جيل الخمسينيات تيارًا تجريبيًّا، ونشروا تجاربهم في نهاية الأربعينيات عبر مجلتي «براك» و«بلورب» كأصوات جديدة ذات اللغة الحية والتعابير المُوحِية. أراد هؤلاء الشعراء أن يكون الشعر حيويًّا واضحًا وفنًّا برَّاقًا يعبِّر عن الحياة، فعزفوا عن الشعر التقليدي الذي كان سائدًا في تلك المرحلة، وسعوا إلى تحرير اللغة نحوًا وأسلوبًا ومزجها بالحواس، ووضع المجتمع في صلب قصائدهم، على أن تكون التجربة الذاتية عمودها الفقري. ظل ريمكو كمبرت مُخلِصًا لتجربة الشعراء الخمسينيين منذ ديوانه الأول الذي صدر في عام ١٩٥١م حتى هذه اللحظة، وفي هذه المختارات سيجد القارئ أن طريقته في تناول موضوعات قصائده لم تتغير كثيرًا، بل إنه في قصائده الأخيرة تحوَّل إلى الكتابة اليومية التي تتناول الواقع كما هو، لكن بطريقة تصويرية ولغة صافية كالماء الزلال. ولأنه ملتصق بالواقع فإن موضوعاته تتناول الموت والحياة والطبيعة والأسرة، وغالبًا ما تمتزج هذه الموضوعات بعضها مع بعض إلى درجة لا يمكننا التفريق بينها تمامًا.

يكتب كمبرت عن الحب أيضًا، وعن الفقد من خلال تجاربه الكثيرة التي عاشها في أكثر من مكان وزمان في باريس وانتفيربن البلجيكية، وبعض المدن الألمانية الصغيرة التي عاش فيها مدة قصيرة. كما أنه يكتب عن الحرب والحرية ولا يفوته أن يعبر عن كل هذه الأفكار بلغة واقعية شفافة تكاد تلامس الواقع المعيش أو تكاد تتطابق معه لكن بصيغة فنية تصويرية، تقوم أحيانًا بقلب هذا الواقع من خلال الإشارة إلى أحداث لم يتناولها الشعراء الآخرون في قصائدهم وهي الأشياء المهملة التي لم تعد صالحةً شعريًّا.

طغيان الموت

يحضر الموت في قصائد كمبرت حضورًا طاغيًا كما تحضر الحياة بكل صخبها وجمالها، وتحضر الطبيعة أيضًا بنفس القدر. يتجسد الموت بفقدان الأحبَّة والأصدقاء في نصوص كمبرت كحدث لا بد منه وكقدر واقع على الجميع، لكنه يمر بهدوء وبدون بكاء أو مراثٍ طنانة عبر لغة سلسة تجعل من هذا الموت المرعب حدثًا كغيره من الأحداث اليومية كما في هذه القصيدة التي كتبها لزوجته ديبورا:

يحضر الموت في قصائد كمبرت حضورًا طاغيًا كما تحضر الحياة بكل صخبها وجمالها

إذا كنت سأموت
آمل أن تكوني بقربي
أنظر إليك
وأنتِ تنظرين إليَّ
وأستطيع أن ألمس يدك.
عندها سأموت بهدوء
ولن يحزن عليَّ أحد..
سأكون محظوظًا.

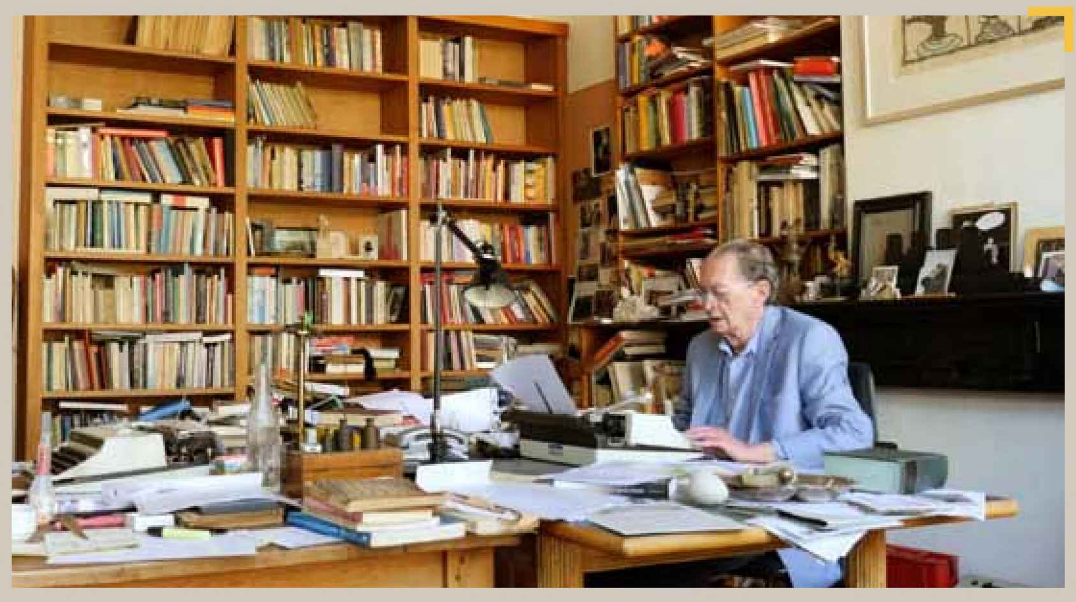
غالبًا ما تتجسد الحياة في الطبيعة، وفي شعر ريمكو كمبرت تمتزج الطبيعة بالحياة، أو تصبح صورة أخرى لها عبر أنسنة الأشياء والجماد والماء، حتى الصخور السوداء تجد حضورها، ويتمنّى لها أن تكون صخورًا زرقاء من خلال الماء الحيّ:

لا أريد مياهًا تلاطم الصخور
بل مياهًا تمضي إلى الصخور
الصخرة السوداء الجافة
تصبح زرقاء،
صخرة ماء.

يعكس شعر ريمكو كمبرت حياة المجتمع الهولندي منذ خمسينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا من خلال تلقائيته وتداعياته ولغته الغنائية الصافية، ليس في شعره فقط، لكن من خلال روايته وقصصه أيضًا. أصدر الشاعر كمبرت أكثر من ستين كتابًا في الشعر والرواية والقصة، وتُرجِمت نصوصُه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية، وحاز جوائزَ كثيرةً في هولندا وبلجيكا على مجمل أعماله.

لا يضاهى

في الصباح الباكر
سار شعراء كثيرون
عبر أمعاء المدينة المنهكة



بعيون حمقاء وملابس مثل رايات مبللة
ثملين بنظاراتهم،
نساء مثل كنائس القرى
لا يتعبن من الوقوف قرب رجال
شرطة نحاسيين،
سائقو الدراجات الهوائية يتساءلون
وعازف الهارمونيكا
إلى أين؟
على الميناء حيث الحزم الزرقاء
كانت الشمس تلوّن المشهد.
بعيون مثل أوراق الذهب
وفم مفتوح رائع كالخريف
حدق بهم الفضاء.
ساعات الشوارع قذفت الأمراض
على سمعهم
الهواء طوى الخضرة فوق أيديهم
الشارع كشف عظام أقدامهم
ومنازل (هاملين)* وزعت
أطفالها في الطريق
في الصباح الباكر
سار شعراء كثيرون
أضلاعهم غنت إلى أقصى ما تستطيع
أجسادهم التي من أرائك وأحجار
كفندق كبير
فندق (ترمناوس) بنوافذ مفتوحة
ومياه تشبه النبيذ..
في كل غرفة حيوان
ودرس منهجي عن الناس والرجال.
على الأرصفة والأسفلت
بكت المدينة،
دموعها الصباحية والضباب المتلاشي
من الدخان والدم
من الضجيج والمحبة
جعل الفضاء يتوهج بالناس.
السير في الصباح الباكر
قبل أن تصحو الطيور والعجلات
عبر المدينة،
الشعراء الذين يعيشون مرة واحدة
تحت أجنحة الشعر المظلمة
لا يضاهون إلى الأبد:
يتحدثون حديث الريش
ويطيرون بالزغب
يعيشون ويحاربون
بالكلمات التي تمنح الأنفاس.

* مدينة ألمانية.

كنائس *

«في كل مكان»
الكنائس ما زالت موجودة
ما زالت تبنى
يجد المرء دائمًا امرأة أو اثنتين
تصليان من أجل الأحفاد
أو من أجل جحيمهن الشخصي
صمت في الكنائس
أكثر صمتًا من رياح الطبيعة.
باردة أيضًا هي الكنائس
صامتة وباردة
يقول الناس: إنها هادئة.
في ساعات اللقاء يمكن أن تغني.
الكنائس في المدن والقرى
مشتتة في البلاد
مثل محطات تعبئة الوقود
وفي كل مكان
أي شخص يمكنه
أن يلمع زجاج سيارته
ويملأها بالوقود ثم يدفع الثمن
ويمضي إلى داخل السيارة
ليطالع الجريدة.

* أصبحت الكنائس في أوربا فارغة مثل محطات تعبئة الوقود الجديدة التي لا تحتاج إلى عمال لأنها تعمل إلكترونيًا.

موقف

ينام الجنرال في فراشه متقلبًا.
حصان يصهل في إسطبل بعيد
في أرض غير موجودة،
أرض الحكايات حيث (ليغسطور)*
ما زال يبعث رائحته
والوحل الثقيل تحت قدميك.
الطنين يقلق نوم الجنرال
البعوض والصراصير والضفادع،
لا تريد له أن يحلم بمعركة
مجزرة.
لا يريدون ذلك؟ وأنا؟
أنا شاعر أكتب ورق الورد.
أكتب ورق الورد
ببطء يد مليئة بالغضب،
ساخط مثل إغفاءة اللوز
ولكنني لا أبصق.
سوف أبقى معلقًا حولك
مثل رائحة لا تزول
أبني من ورق الورد
سجنًا
وأخط كلماتي حوله كالأحجار.
أفكاري جرائم قتل.
سوف أُنهي حياتي في قصيدة
وأترك سمائي فوق ساحة
صغيرة للحب.
يتمدد الجنرال في سريره
بينما جنوده يرزحون،
هذه الأمنية لي
حلم مثل غاز سام
يتخلل عقله وقلبه
ويجعله خاملًا
حلم كالكراهية
حلم ناعم.
أكتب ورق الورد
في الليل.. نعم
أصنع الإيمان..
أنا أعمى وأحمق وأصمّ،
والجنرال أيضًا..
لأن جنوده يموتون،
حارسه يئنّ بينما
هو ينام
نومًا قلقًا.

* نبات قوي الرائحة



عبدالقادر عبداللي..

ترجمان الألسنة يغيب في روايته الأخيرة

سامر إسماعيل صحافي سوري

لا يعرف أورهان باموق كيف سيتدبر أمره بعد الآن، فقد غاب الكاتب لا المترجم، ربما اختلط الأمر على الأديب التركي، ربما راوده السؤال: من فينا الكاتب ومن فينا المترجم، أنا أم عبدالقادر عبداللي؟ سؤال لا نبالغ إن كرّسناه في هذا التقرير، ملتفتين إلى إرث صاحب «اسمي أحمر» وقد دخلنا سوق النقاشين التركي، حاملين معنا لغو الألسن وعجمتها، فليس اللسان هنا شيئًا أمام براعة تقليبه وتقمص حركاته وأحرفه اللثوية، ليست الشفاه ولا مخارج الحروف ولا نبرات الكلام وتصاعده وهذيانه، بل هي الترجمة بكل أبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية التي نقلها المترجم السوري الراحل من التركية إلى العربية، ناقلًا معها أقصى خلجات أدبائها وأشد حالاتها المفارقة، متمثلة في ترجمة السخرية.

مهلًا.. وهل نستطيع ترجمة السخرية؟ أجل لقد فعلها عبدالقادر عبد اللي، الذي انطفأ مؤخرًا عن ستين عامًا قضى جُلّها في الترجمة، لا تنطحًا ولا تطاولًا على أدب عزيز نيسين، بل من باب معرفته بالشيء، وغوصه العميق في الشيفرا الثقافية التركية التي كان خبرها عن قرب أثناء دراسته فنون المسرح والمشهد في «جامعة المعمار سنان» في إسطنبول. من هناك اقترب ابن مدينة إدلب (شمال غرب سوريا) من المعيش التركي، مقتحمًا أسواقه وجلسات مثقفيه وشوارعهم. عطلًا على الثراء الحياتي للشعب التركي، وناهلًا من معين حِرَفهم وتقاليدهم وطرفهم اليومية، ليتبلور هذا الوعي لا باللغة وحسب، بل بالكلام كمادة تصوغ الفكر والمنطوق، وتوازن بين الفصيح والشعبي، بين المكتوب والمحكي.

هكذا فعلها (عبد اللي) هو الترجمان الصميم الذي ما فتئ يصيغ خيمياء اللغة على ميزان ذهب، مصدّرًا أدب الأناضول إلى المكتبة العربية، كاشفًا الحجاب عن روايات وقصص (نيسين) ويشار كمال، وخلدون طانر، وإليف شافاق، وذلك بعد أن ترجم العديد من أشعار تلك البلاد، كان رأسها الأعمال الكاملة لناظم حكمت. تراجم حملت تلك التوازنات النصية المعقدة والمركبة بسلاسة ولين، وجرأة فنية لافتة في إيجاد حلول لغوية وتراكيب ماهرة، سبك (عبدالقادر) عبرها جواهر الأدب التركي، منافحًا عن روح ساخرة ومريرة في البنية النصية التي قدمها، مجاهِرًا مع كل ترجمة يخترعها باللغة عن معين فياض ودفق لا نهائي في إعادة


أورهان باموق


ناظم حكمت

تأليف هذه النصوص للقارئ العربي، لا خيانتها بل توضيبها من داخلها للنفاذ إلى ظرف زمان ومكان الأدب التركي، إن كان قصة أو رواية أو قصيدة.

صنعات أدبية وفنية

هذه الحرفة التي أتقنها (عبد اللي) كما يعرف الجميع لم تكن الوحيدة في رصيده؛ بل جمع المترجم الراحل بين صنعات أدبية وفنية عديدة، فعمل بصمت على لوحته التشكيلية، مستنبطًا زيت وزيتون مسقط رأسه ليكون مرادفًا لأجواء أعماله التشكيلية التي نستطيع أن نرى تقاطعاتها مع عبقريته في الترجمة، وإدراكه الرهيف أن توزيع عناصر اللوحة وتوازنات بؤرها اللونية، وتوليف مناخاتها بين الرطوبة واليبوسة، لا يقل شأنًا عن مادته الأصلية في فن الترجمة الذي خبر دهاليزه، مستوحيًا ذلك من تمارينه اليومية في الكتابة للصحافة، مطوِّرًا بذلك نمطًا جديدًا

موسوعي يختفي

بهذا يكون عبدالقادر عبد اللي واحدًا من هؤلاء الموسوعيين الكبار الذين اختفوا في عصور التخصص، عصر ثقافة التخصص تلك التي كرّست الأميّة الثقافية، وجعلت من ثقافة العمق قفصًا للمعارف الجزئية، مطلقًا لم يكن هذا الكاتب والمترجم والفنان والصحفي لينضم إليها، غير قانع بمعارف التكنوقراط الجديدة، بل مثابرًا على الدوام على أبحاثه اللغوية العميقة، مطوِّرًا معارف اجتماعية من خلال معمله اللغوي والتشكيلي الذي أفل باكرًا ليغيب في قبرٍ بعيد من بلاده في مدينة أضنة التركية.

يبقى أن نقول ما وصل إليه عبد اللي كان غيضًا من فيض أنشطته السياسية، وعمله الدائب على تحقيق مطالب التحرر والكرامة والعدالة الاجتماعية، وتشهد لذلك مقالاته الجريئة ونزعته الدفينة ببلاد أكثر عدلًا ومساواة، فالمترجم الذي أمضى سحابة عمره خلف أوراقه ونصوصه، لم يكن يدعي أدوارًا لنفسه، بل كان عمله لافتًا في ترجمة نتاج العديد من الأدباء الأتراك، ومن المشارب السياسية كافة. من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مع ميله عقائديًّا لهذا الأخير، فلا تحزب لتيار محافظ وليبرالي أو شيوعي، ولا إهمال لأدب الهامش التركي، بل كان المتن لدى عبد اللي هو النص، بغض النظر عن اتجاهات كتّابه. النص بريئًا من كل هذه الإحالات والإنشاءات العقائدية، وهذا برأيي ما جعل منه مترجمًا مستقلًّا، ولعله يستحق بذلك مناصفة باموق على نوبل، ويفتح الباب عريضًا على حقوقه المهدورة لدى الأوساط التركية السياسية والثقافية التي لم تصنع ما يليق بوداع رجل من هذا الطراز الرفيع.



عبدالقادر عبداللي



عزيز نيسين

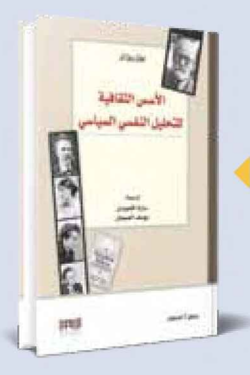


إليف شافاق

من المترجمين دائمي السعي نحو رشاقة الجملة والتنويع عليها والخروج بها من سجنها اللغوي الأم -إن صح التعبير- إلى لغته العربية. لقد أبعد هذا الرجل مخاوف عديدة تكتنف الكثير من مترجمي العربية، متكئًا في ذلك على الأديب الذي في داخله، فلم يكن تقنيًّا ينقل حذافير العبارات ميكانيكيًّا، بل شدد على روح النص، مسترشدًا بسيمياء عالية الجودة، ليشتغل على طزاجة غير معهودة في تنميق تراجمه وتخفيف غلظتها عبر الاستعانة بعلوم الإشارة والدلالة، لكن بعفوية نادرة واطّلاع واسع على مرادفات الجمل والتراكيب، وصولًا إلى الوقت الذي أصبح فيه هذا المترجم الأديب (شيخ المترجمين) من التركية إلى العربية، محتلًّا المرتبة الأولى عند أدباء أتراك كبار، آثروا أن يكون (عبد اللي) سفيرهم المخلص إلى لغة الضاد.

قد لا نسوق مديحًا هنا إن قلنا: إن (عبدالقادر) كان بحق سفيرًا فوق العادة للأدب التركي في العالم العربي، ومرشدًا نزيهًا لرواياته، فالثقة التي حازها الراحل الكبير جعلت منه رجلًا بحجم مؤسسة، لا سيما مكانته التي انتزعها لدى الأكاديميين الأتراك في بحوثهم الجامعية التي تعمل اليوم على دراسة تجربة (عبد اللي) والتمحيص في مختبرها اللغوي الهائل، الذي استطاع تنقية هذا الكَدَر بين ثقافتين، لَطَالما كانتا على طرفي نقيض بفعل النزعات القومية والتاريخ الاستعماري الطويل منذ الاحتلال العثماني للبلاد العربية، فالجهود التي بذلها هذا الرجل الموهوب لم تتوقف على لغة المنقول عنه، بل دراية عميقة حصلها الراحل في لغته الأم، منصاعًا إلى جذور الأسماء والأفعال، ومهندسًا لكنايات واستعارات وتوريات حاذقة، أعاد عبدالقادر إحياءها في النص المترجم، خالصًا إلى اشتغالات عدة نقلته فيما بعد إلى ترجمة أعمال سينمائية ودرامية (أبرزها وادي الذئاب) إلى محطات البث العربية.

كان عبدالقادر عبد اللي بحق سفيرًا فوق العادة للأدب التركي في العالم العربي ومرشدًا نزيهًا لرواياته، فالثقة التي حازها الراحل الكبير جعلت منه رجلا بحجم مؤسسة



الكتاب: الأسس الثقافية للتحليل النفسي السياسي

المؤلف: بول روزان

المترجم: سارة اللحيدان، ويوسف الصمعان

الناشر: جداول

يشرح المؤلف بول روزان أبرز مؤرخي حركة التحليل النفسي الصلة بين السياسة وعلم النفس في عمل المنظِّرين السياسيين؛ أمثال ميكافيللي وروسو وبيرك وتوكوفيل قبل الفرويدية أو بعدها مثل إيزايا برلين. ويخص حنة آرندت التي رفضت أفكار التحليل النفسي بفصل منفرد.

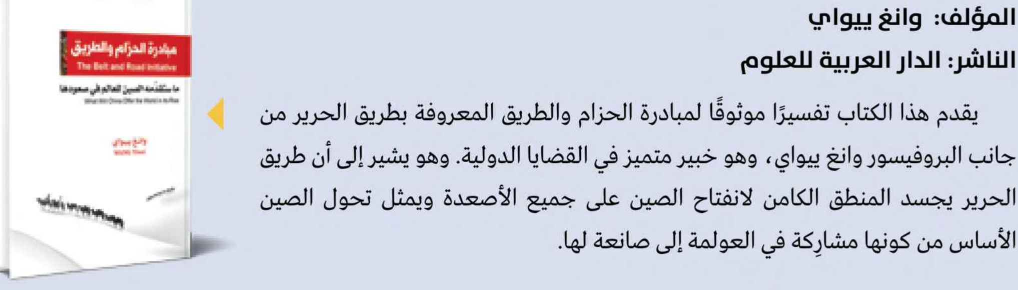


الكتاب: إشكالية السلطة والدين في العالم العربي

المؤلف: قاسم حسين صالح

الناشر: دار العرب للنشر والتوزيع

لا تزال إشكالية السلطة والدين تثير جدلًا واسعًا في العالم العربي، يتحدد هذا في الكتابات القديمة والحديثة؛ من نقد الدين إلى نقد النص، إلى نقد العقل، إلى نقد المشروعات الأصولية والعقائد الاصطفائية.. وسواها من أفكار وطروحات شائكة، لكن المؤلف اختار أن يقدم مقاربة جديدة عن «إشكالية السلطة والدين» تستند إلى (تحليل سيكوبولتك)، يحاول من خلاله تفسير العلاقة بين السياسي والديني عبر «تساؤلات محرجة».

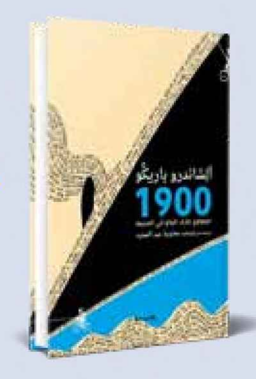


الكتاب: مبادرة الحزام والطريق

المؤلف: وانغ ييواي

الناشر: الدار العربية للعلوم

يقدم هذا الكتاب تفسيرًا موثوقًا لمبادرة الحزام والطريق المعروفة بطريق الحرير من جانب البروفيسور وانغ ييواي، وهو خبير متميز في القضايا الدولية. وهو يشير إلى أن طريق الحرير يجسد المنطق الكامن لانفتاح الصين على جميع الأصعدة ويمثل تحول الصين الأساس من كونها مشارِكة في العولمة إلى صانعة لها.



الكتاب: ١٩٠٠ - مونولوج عازف البيانو في المحيط

المؤلف: ألِسَّاندرو باريكُّو **المترجم: معاوية عبدالمجيد**

الناشر: منشورات المتوسط

قصة الكتاب كما رواها صديق، عازف ترومبيت، على شكل مونولوج، عن داني بوودمان، عازف البيانو على متن عابرة المحيطات فيرجينيان، تلك الباخرة التي كانت تتنقل بين أميركا وأوربا محملة بأصحاب المليارات وبالمهاجرين في الوقت نفسه. وعلى متنها كل مساء، عازف بيانو استثنائي، صاحب تقنيات هائلة في العزف، يعزف هناك، للأغنياء وللفقراء. يقولون: إن قصته مجنونة جدًا، وإنه وُلد على متن الباخرة، وإنه لم يطأ الأرض أبدًا، ولا أحد يعرف لماذا!

الكتاب: ذكريات... سيرة لم تكتمل

المؤلف: قسطنطين زريق

الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية



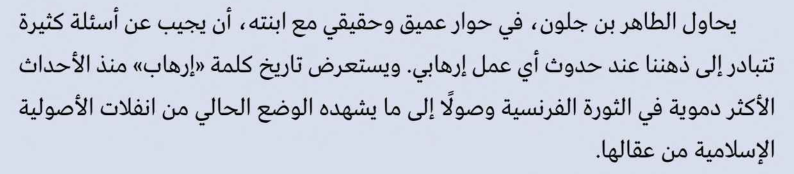
كتب قسطنطين زريق هذه الذكريات في الأيام الأخيرة من حياته. ولم تمهله الأيام ليتمّها كما كان ينوي؛ لذلك اقتصرت ذكرياته على أيام طفولته وشبابه، ولم يحدثنا، كما أشار، عن مواقفه وآرائه، وكيف تبلورت عندما نضجت وعالجت القضايا الكبرى للأمة العربية، ولم يحدثنا عن نضاله من أجل تنشئة جيل عربي ملتزم، وتربية عربية رصينة، وواعية وفاضلة؛ لذلك فإن هذه الذكريات، التي تنشر لأول مرة، هي ذات شأن مميّز، فهي تلقي الضوء على مسيرة أحد أبرز المفكرين العرب في القرن العشرين، وأثر التجارب المريرة والهزائم والنكبات التي مُنيَ بها في هذه المسيرة.

الكتاب: الإرهاب كما نشرحه لأولادنا

المؤلف: الطاهر بن جلون

الناشر: الساقي





يحاول الطاهر بن جلون، في حوار عميق وحقيقي مع ابنته، أن يجيب عن أسئلة كثيرة تتبادر إلى ذهننا عند حدوث أي عمل إرهابي. ويستعرض تاريخ كلمة «إرهاب» منذ الأحداث الأكثر دموية في الثورة الفرنسية وصولًا إلى ما يشهده الوضع الحالي من انفلات الأصولية الإسلامية من عقالها.

وأمام قلق ابنته التي تطالبه ببريق أمل بسيط، يؤكّد ابن جلون أن الرهان هو على التربية، على أمل المساهمة في نشأة جيل من الشباب متحرّر من الأوهام التي تجعله يصدّق أي شيء.

الكتاب: سجلات المحكمة الشرعية «الحقبة العثمانية» المنهج والمصطلح

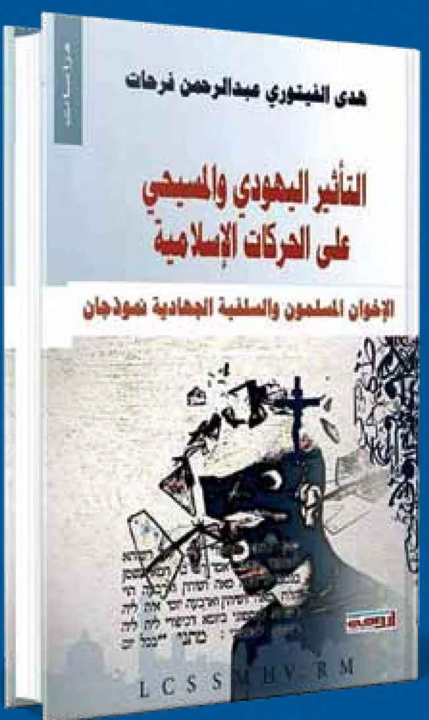
المؤلف: خالد زيادة

الناشر: المركز العربي للأبحاث



يجمع الباحث خالد زيادة أعمالًا أعدّها أثناء اشتغاله على وثائق محكمة طرابلس الشرعية، التي يبتدئ تاريخها في عام ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م. وانطلق في بحثه المستفيض من أن وثائق المحاكم الشرعية تحتلّ موقعًا مميزًا بين مجموعات الوثائق التي يمكن أن يستند إليها المشتغلون بالتاريخ في الحقبة العثمانية، مثل: الوثائق القنصلية والتجارية والكنسية وغيرها، مع تميز وثائق المحاكم الشرعية باتساع موضوعاتها لتشمل جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى حفظها ما كان يرد من عاصمة الدولة العثمانية من فرمانات ومراسلات.

المشترك والمختلف بين الديانات الثلاث



الفيصل القاهرة

لا تكاد الديانات السماوية الثلاث يختلف بعضها عن بعض في الأطر الأساسية لجميع المؤمنين بها، فجميعها تعامل مع أتباعه بالمنهج نفسه؛ أنهم خير الأمم، وأنها خير الرسالات، وهو ما منحهم نوعًا من التميز عن التابعين لأي من هذه الرسالات الأخرى، لكنه أيضًا وضعهم على طريق التصادم الحتمي مع الآخرين، كما جعلهم يبدون للمتابع من الخارج كما لو أن بعضهم تأثَّر ببعض في حركات الإحياء والعودة إلى الأصول، وفي مقدمتها الحركات السياسية التي قامت على مبادئ دينية.

هذا ما انتهى إليه الباحثان هدى الفيتوري وعبدالرحمن فرحات في كتابهما المهم «التأثير اليهودي على الحركات الإسلامية - الإخوان المسلمون والسلفية الجهادية نموذجان» الصادر حديثًا عن دار أروقة للنشر بالقاهرة.

في هذا الكتاب استعرض الباحثان تاريخ الحركات الإسلامية السياسية، مؤكدين أن التاريخ الإسلامي مليء بالعديد من الحركات السياسية التي قامت على أسس دينية، في مقدمتها حركات القرامطة والشيعة والخوارج في العصور الوسطى، وفي العصور الحديثة ظهرت الوهابية في الجزيرة العربية، والسنوسية في شمال إفريقيا، والمهدية في السودان، والدهلوية في الهند، لكن هذه الحركات لم تكن الأساس الذي قام عليه كتاب الفيتوري وفرحات، فقد كان التعانق بين جماعة الإخوان المسلمين والسلفية الجهادية أساس ظهور جماعات الخروج المتوالية في العصر الحديث، بداية من الجهاد والتكفير والهجرة وصولًا إلى القاعدة وداعش وجيش النصرة، فقد كانت أفكار حسن البنا وسيد قطب الركيزة التي انطلقت منها هذه الجماعات التكفيرية في سبعينيات القرن الماضي، وما زالت تؤتي أكلها حتى الآن في الجسد العربي الذي تحلل من كثرة الخروق فيه.

الجماعات الأكثر تشددًا

قسم الباحثان كتابيهما ثلاثة فصول: درسا في الفصل الأول ما سمياه مفاهيم الدراسة؛ إذ توقفا أمام مصطلحات «الدين» و«الأصولية» و«السلفية» و«الإصلاح»، مقارنين بينها من المنظورين العربي والغربي، ففي الوقت الذي تعارف فيه الغرب أن كلمة أصولية تعود إلى المتمسكين بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس، سواء لدى البروتستانت أو الكاثوليك، وهو المفهوم الذي تحول إلى مذهب باسم الأصولية المسيحية في بداية القرن العشرين، وأخذ على عاتقه معاداة المجتمعات العلمانية، فإن المنظور العربي لا يكاد يوجد في معاجمه اللغوية مقابل واضح لكلمة أصولية، وكل ما هنالك هو كلمة «أصل»، وقد اختلف العلماء في تفسير المصطلح؛ إذ ربط بعضهم دلالته

بالبنية الثقافية التي تستخدمه كما فعلت رابعة جلبي، لكنهم في العموم ربطوه بالفضاء الديني وقصروه على الجماعات الأكثر تشددًا.

أما مصطلح السلف فقد قصروه على القرون الثلاثة الأولى من عمر الحضارة الإسلامية، ومنه جاء مصطلح السلفية التي عرفها محمد عبده بأنها (فهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى)، ومن ثم فكل ما يعود إلى هذه القرون هو من قبيل السلف، لكن هذا المصطلح لم تظهر بوادره إلا في القرن الرابع الهجري؛ إذ ظهر من يغلبون ظاهر النص على التأويل والقياس والرأي، وكان أولهم الإمام أحمد بن حنبل الذي يُعَد حجر الأساس فيما عرف بالسلفية النصوصية، تلك التي تطورت مع ابن تيمية إلى السلفية العقلانية، ثم جاءت السلفية النجدية على يد محمد بن عبدالوهاب، التي رفضت البدع والخرافات التي طرأت على الإسلام، لكن بداوة البيئة الحاضنة لها خلقت نوعًا من الحذر الشديد من المدنية ومفرداتها.

في الفصل الثاني رصد الباحثان تطور فكر الإسلام السياسي وجماعاته، بداية من جمال الدين الأفغاني الذي سعى إلى إنجاز عمل سياسي عبر الإصلاح الديني، وقد تأثر به مفكرون كثر في مقدمتهم تلميذه محمد عبده الذي جمع بين عباءة الأزهر من جانب وعباءة الفكر الأوربي الذي عايشه مع أستاذه الأفغاني، فقدّم رؤية خرج منها من أراد التقدم على أساس الشك والتنوير الغربي؛ أمثال طه حسين وعلي عبدالرازق وعباس محمود العقاد وغيرهم، كما خرج أيضًا المتشددون الذين رأوا في منهج السلف طريقهم القويم، في مقدمتهم الشيخ رشيد رضا الذي فتن به حسن البنا، فظهرت على يديه جماعة الإخوان المسلمين في ظل سقوط الخلافة في تركيا، فغازل البنا الملك فؤاد ومن بعده ابنه فاروق الأول بأن يكون خليفة المسلمين، لكن ثورة يوليو التي قامت على أكتاف الشيوعيين والإسلاميين معًا سرعان ما انقلبت على الجميع، فدخل الإخوان السجون وكتب سيد قطب كتابة «معالم في الطريق» الذي استقاه من أفكار أبي الأعلى المودودي في باكستان، هذا الكتاب الذي آمن بأفكاره الكثيرون، فظهرت في مصر جماعات الجهاد والتكفير والهجرة والجماعة الإسلامية والفنية العسكرية وغيرها من الجماعات التي رأت في السبعينيات ضرورة الخروج المسلّح على المجتمع، وانتهى الأمر بظهور جماعة القاعدة في الثمانينيات، ثم وصول الإخوان إلى الحكم في مصر عقب ثورة ٢٥ يناير، لكنهم سرعان ما فقدوه لأخطاء عديدة في التجربة وعدم التماسّ مع أرض الواقع.

في الفصل الثالث سعى المؤلفان إلى إيجاد تماسات بين الديانات الثلاث وأتباعها فيما يخص العمل السياسي القائم على أساس ديني، وكانت الصهيونية اليهودية أبرز هذه الحركات، فقد نشأت في البدء كحركة علمانية تسعى إلى إقامة وطن لليهود، وهو الأمر الذي يناقض المعتقد اليهودي بأن الشتات سيستمر إلى أن يظهر المسيح اليهودي ويطهر الأرض ويقيم العدل ويحكم ألف عام قبل أن تأتي القيامة، لكن أقطاب الصهيونية وقادتها استطاعوا ترويض معارضيهم من الحاخامات والمفكرين اليهود المرتبطين بما جاء في التوراة والتلمود، وساعدت الهولوكوست الصهاينة في التفوق على خصومهم الذين أضعفتهم المحرقة، فتحول المعارضون إلى موالين متشددين، ثم إلى حركات متشددة داخل الإطار الصهيوني، هكذا قامت الدولة الصهيونية، وهكذا تحول الجدل بين العلمانيين والدينيين إلى إقامة دولة تمزج ما بين العلمانية والدين المتشدد في إطار واحد.

الغرب ليس بعيدًا من الأصولية

لم يكن الغرب ببعيد من الفكرة السلفية والأصولية، فقد نشأت البروتستانتية على أساس العودة إلى النص الإنجيلي فقط، ولا حاجة إلى تفسيرات وتأويلات البابوات والكهنة، وانتصر البروتستانت نظرًا لرغبة الأمراء والملوك في تقليص سلطات الكنيسة الكاثوليكية، لكن البروتستانت الثوريين تحولت رؤاهم فيما بعد إلى تكلس حرفي في شرح النصوص والتعامل معها، وسرعان ما ظهرت جماعات أصولية تدعو إلى التمسك الحرفي بالنص، وكان الطرح المشترك لدى المتشددين في الديانات الثلاث هو الإيمان بأنهم خير أمة، وأن فكرتهم هي الفكرة الجامعة المانعة، وأنهم نهاية التاريخ أو الديانات، وأن ما سيأتي هو المهدي أو المسيح الذي سينتصر على الظلم ويقيم العدل، وأن النص ليس بحاجة إلى تأويل أو قياس.

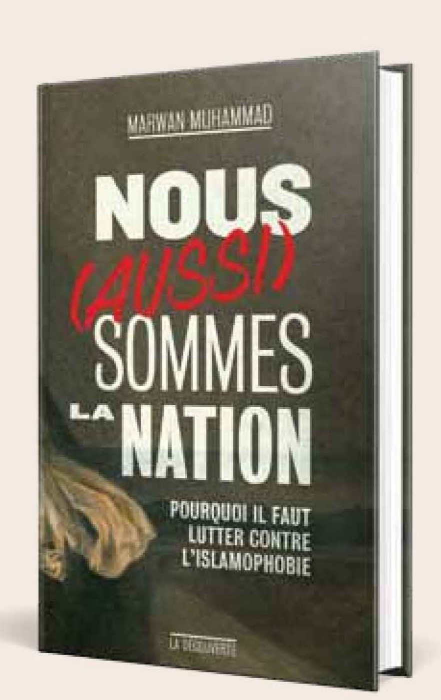
هكذا تشابهت اليهودية مع المسيحية مع الإسلام في البنيات الأساسية المنتجة للمتشددين الراغبين في إحياء أصول الدين، والعودة إلى السلف الصالح، لإقامة دولة العدل القوية، وهكذا كان الضعف والقلق وعدم الشعور بالرضا عما آلت إليه حال الديانة وأتباعها هو الدافع نحو ظهور التشدد، والرغبة في بعث السلف الصالح من مرقدهم عبر تمثل أقوالهم وأفعالهم وطرائق تعاملهم مع الحياة، لكن ذلك كله لا يقول بأن ثمة تأثيرًا واضحًا من اليهودية والمسيحية في حركات الإسلام السياسي، وإن كان ثمة تشابه في المقدمات والنتائج التي ظهرت مع أتباع كل ديانة.

«نحن أيضًا من الأمة»..

رصد عميق للآليات المؤسِّسَة لفوبيا الإسلام

نزهة صادق باحثة مغربية

يحلل الكاتب المصري الفرنسي محمد مروان ظاهرة الإسلاموفوبيا من عمق واقع تمكن من الغوص في حيثياته بشكل عملي وجلي. فعندما قرر مروان نشر كتابه «نحن أيضًا من الأمة؛ لماذا يتوجب مناهضة الإسلاموفوبيا؟» (الصادر عن «منشورات لاديكوفيرت» باريس ٢٠١٧م) كان على علم عميق بالتغيرات الجلية التي عرفها المجتمع الفرنسي، ولم يقتصر الفحص الدقيق على مستوى الساحة الإعلامية والسياسية للظاهرة، بل حاول تفكيك الآليات المؤسِّسة لفوبيا الإسلام، والإجابة عن السؤال العميق؛ لماذا يجب محاربة الإسلاموفوبيا؟ ويتميز كتاب «نحن أيضًا من الأمة: لماذا يتوجب مناهضة الإسلاموفوبيا؟» بقدرته على رسم معالم مؤسِّسة لدور ومصلحة المسلمين في محاربة العنصرية والإسلاموفوبيا؛ للخروج من الفخ الذي يحيط بالمجتمع الفرنسي برمته، كما يمكن القارئ من تعرف وضعية فوبيا الإسلام ومستوياته في النسق الفرنسي عن قرب، وذلك من خلال خمسة فصول أساسية مع عناوين فرعية.



سافر الكاتب محمد مروان في الفصل الأول من الكتاب والموسوم بـ« ليس تمامًا مثل الآخرين» بالقارئ بين ثنايا قصته التي تشكل نموذجًا للتعددية وللتنوع؛ فمن طفل ولد في باريس من والدين مهاجرين أب مصري وأم جزائرية، إلى إطار وشخصية مهمة في المجتمع الفرنسي، تمكن مروان من سرد قصته المتميزة التي توجت بالنجاح لإيمانه بالدور المعرفي. في كل محطة يرصدها، أكد مروان أن اختيارات أمه المستقلة لوضع الحجاب، أو تدين أبيه، ما هي إلا اختيارات شخصية لا تدعو إلى تحويل فرنسا إلى أرض الإسلام، بل هي قناعات تتفاعل مع السياق الفرنسي من منطلق مبادئ الجمهورية التي تؤمن بالاختلاف وبحُرِّيَّة الاعتقاد والدين، ولعل ذِكْر الكاتب لتعلمه في المدرسة العمومية الكاثوليكية أبلغ دليل على ذلك، فعندما قررت أم مروان، التي لها صلاحية كبيرة وحرية في اتخاذ قرارات البيت، بحجابها أو بغيره، تسجيل ابنها في المؤسسة الكاثوليكية لم يكن إلا لإيمانها بقدرة مبادئ الجمهورية على ترسيخ قيم التعايش.

وقبل أن يسبر مروان في الفصل الثاني وعنوانه: «صراع الجمعية الفرنسية لمناهضة الإسلاموفوبيا» أغوار الدور الرئيس الذي تلعبه الجمعية، طرح في البداية أرضية مفاهيمية لمفهوم الإسلاموفوبيا، مشيرًا إلى الأعمال التي سبقته ومنها، أعمال الكاتبين عبدالعالي حاجات ومروان محمد، وهو سوسيولوجي يحمل اسم الكاتب نفسه.

كما أشار في هذا الفصل إلى أن الكاتبين عالجا ظاهرة الإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام) من منظور سياسي وثقافي معرفي وسوسيولوجي غير مسبوق، كما نسخا المفاهيم المغلوطة للإسلاموفوبيا، وبخاصة مفهوم الكاتبة كارولين فوريست وباسكال بروكنر اللذين قالا: إن أصل مفهوم الإسلاموفوبيا يعود إلى عام ١٩٧٠م، وهو بالأساس خلق لمنع

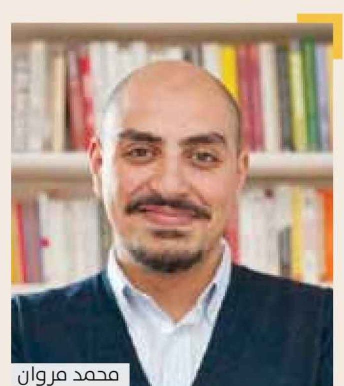
أي انتقاد للإسلام. في حديثه عن «الجمعية الفرنسية لمناهضة الإسلاموفوبيا» التي يرأسها، لم يقتصر مروان على رصد فلسفة الجمعية والضرورة التاريخية التي فرضتها، بل أكد على دورها الأساس في المجتمع الفرنسي الذي على الرغم من أنه ينبني على قوانين تحترم حقوق الإنسان، فإن ما يعيشه المسلمون من عنصرية، لا تتم معالجته بالأهمية نفسها المحددة لخطورته؛ وهو ما يستدعي التدخل القانوني والحقوقي للجمعية لمتابعة شكاوى المحكمة التي تتوزع بين العنف اللفظي والجسدي.

اليسار والمسلمون

في الفصل الثالث الموسوم بـ«تعليمات حول تفكيك الأيديولوجيات المعادية للإسلام»، استطاع الكاتب توضيح كيف أن الأوضاع تغيرت للأسوأ، على الرغم من أن للإسلاموفوبيا تاريخًا خاصًّا في السياق الفرنسي، وأكد من خلال العودة للتاريخ الذي يصم علاقة المسلمين بالسياسات الفرنسية أنه «لا يمكننا أن نكون متطرفين بما أننا يساريون». وقد عبر عن هذه العلاقة بكون العديد من مسلمي فرنسا، وبخاصة الفئة التي تحيا في المناطق المهمَّشة، التي تشكل فئة الأسد من مجموع مسلمي فرنسا، يتعاطف مع اليسار نظرًا للتاريخ الذي جمع بين اليسار والمسلمين، الذي يتجلى في التأطير الإداري أو الاجتماعي لمنظمات المجتمع المدني اليسارية للمسلمين. وأضاف مروان أنه من أجل أسباب سوسيولوجية محضة عاش مسلمو فرنسا تحت وصاية اليسار، ورحب عدد كبير منهم بتولي الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتيران الرئاسة عام ١٩٨٠م، نظرًا لأن هذا الأخير منحهم شرعية في فرنسا ودافع عن وجودهم، وتميز بنشره لخطاب يؤمن بالاختلاف ويعترف بالجالية العربية، حيث إن ميتيران تمكن من خلال التلفزة الفرنسية، الوسيلة التي كانت معبر تواصل بامتياز في تلك الحقبة، من إلقاء خطابات بلاغية متميزة أبهرت المتلقي المسلم، ويعد الخطاب الذي ألقاه في ندوة في جامعة السوربون من أهم رسائله، حيث قال: «نحن الفرنسيون وأجدادنا المتجذرون من جبال الغال ما هم إلا مزيج من القليل من الرومان، والألمان، واليهود، والإيطاليين والإسبان، والبولنديين، حتى العرب»، وبذلك أكد الرئيس الفرنسي أن فرنسا تتميز بكونها بلد التعددية الثقافية بامتياز؛ إذ إن الثقافة الفرنسية ما هي إلا خليط، كما شكلت جملته الشهيرة هذه نموذجًا متميزًا لمحاربة التعصب ومواجهة أفكاره التي تتبنى الحقد والكراهية. وبيّن الكاتب أن التاريخ القوي بين اليسار والمسلمين، يتجلى في إيمان الأحزاب اليسارية بقدرة المسلمين على المشاركة السياسية الفعالة التي تتميز بالموضوعية وبالاستجابة الذاتية.

تتجلى أهمية مناهضة الإسلاموفوبيا في نزع القناع عن الثمن الذي تدفعه فئات المسلمين اجتماعيًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا؛ إذ لا يمكن حصرها في علاقات شخصية بين الأفراد

وعلى الرغم من ثقة اليسار في المسلمين فإن محمد مروان يقول: «لم تكن تعيش تنظيمات اليسار في غالب الأحيان نفس التوترات التي يمر منها المجتمع الفرنسي فقط، بل تفاعلت معها من خلال ردود أفعال حماسية، ويعد نموذج رئيس المجلس البلدي (فيتري- سور- سين) الاشتراكي بول ميرسيسا نموذجًا تاريخيًّا معبرًا عن هذا التفاعل، ففي ٢٤ ديسمبر عام ١٩٨٠م أمر بول بهدم مبنى كان مخصصًا لـ٣٢٠ عاملًا ماليًّا. ويتضح في هذا الفصل، أن الكاتب تمكن من خلال هذه الأحداث أن يوضح للقارئ أن تطور العنصرية وتصاعدها ضد المهاجرين والمسلمين ليست نتاجًا لإعادة إحياء اليمين المتطرف كحزب ذي أغلبية في فرنسا، بل يعود إلى حقائق سابقة الوجود على مستوى الخطابات وتفعيلها أيضًا، وأن ما يعيشه المسلمون اليوم ما هو إلا استمرارية لتاريخ اليسار، وما يعتري خطابه من توترات حول موضوع الإسلام والمسلمين والهجرة.

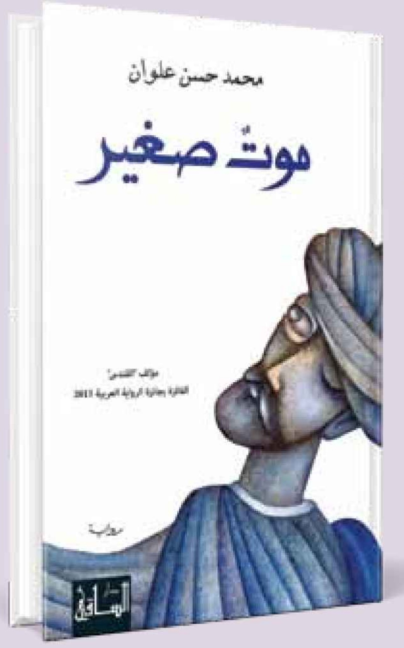

محمد مروان

تتجلى أهمية مناهضة الإسلاموفوبيا في نزع القناع عن الثمن الذي تدفعه فئات المسلمين اجتماعيًّا، وسياسيًّا، وإعلاميًّا؛ إذ لا يمكن حصرها في علاقات شخصية بين الأفراد، الأمر الذي خصص له الكاتب محمد مروان الفصلين الرابع والخامس من الكتاب داعيًا الدولة الفرنسية للتدخل للحد من الاضطهاد الذي يطول المسلمين، ومراجعة خطابات الدولة التي تثبت الفكر الرُّهابيّ ضد الإسلام من خلال الخطابات السياسية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد خطاب مانويل فالز الذي عَدّ محاربة الحجاب «نضالًا حقيقيًّا للجمهورية».

ما يميز كتاب «نحن أيضًا من الأمة، لماذا يجب مناهضة الإسلاموفوبيا؟» أنه لا يعد اعتذارًا، ولا هجاء ولا حتى تصفية حسابات، وهو ليس دعوة للعنف، ولا للسلام، كما أنه ليس برواية، ولا مقال، هو مجرد محاولة للغوص في واقع فائِر، لا يتحدث فيه المتحدث باسم المسلمين، كونه لا يتوافر على القدرة الكافية للتعبير على كل الأصوات التي تسكنه، ولا يتحدث إلى المسلمين؛ لأن ما يقوله يهم المجتمع الفرنسي كافة، كما جاء على لسان محمد مروان.

التقنية السردية والصوت غير الطبيعي في «موت صغير»

مبارك الخالدي ناقد سعودي



في البدء لا بد من التنويه بأنني لا أنظر إلى محيي الدين ابن عربي في «موت صغير» للروائي محمد حسن علوان، الفائز بجائزة الرواية العربية «البوكر» إلّا كشخصيةٍ مُتَخَيَّلةٍ تُولَدُ وتحيا وتموت في عالمٍ تخييلي، لا علاقةَ لها بابن عربي الكائن الصوفي الحقيقي التاريخي. من هذه الفكرة المبدئية تنطلق محاولتي تحليل التقنية السردية في الرواية، بدءًا بتفحص السلوك السردي لابن عربي كأنا/ ذات ساردة، لغايةِ التعرف على شخصيته ومَوضِعِه في تصنيفات النظرية السردية للرواة، ثم النظر إلى طبيعة العلاقة بينه كذات ساردة وكأنا/ ذات مسرودة في عالم التجربة التخييلي في الرواية- وتقصي تأثير تلك العلاقة في تمثيله وتشكيل صورته.

في أثناء سرده قصة حياته، لا يظهر ابن عربي قط وهو يواجه، ولو للحظة خاطفة، أية موجة من الشك واهتزاز الثقة في تذكره للأحداث التي يرويها من قبل ولادته إلى ما بعد مماته؛ ولا يتوقف ثانيةً ليحكّ رأسه كيما يستحث محتوى ذاكرته على الانثيال، أو يقف مرتبكًا ومتلعثمًا بسبب ضبابية أو عتمة غَشَت ركنًا من ذاكرته، وحفرت فجوة في تتابع الأحداث، ليواجه بالتالي ضرورة التفكير في تجسير تلك الفجوة بشيء من الظن، أو التخمين، أو الاحتمال ليربط ما قبل تلك العتمة أو الضبابية بما بعدها. لا شيء من هذا القبيل يحدث، فابن عربي ساردٌ يحملُ في رأسه ذاكرةً ذات قوة غير عادية، حتى كأنما الأحداث التي يرويها كانت قد نَحَتَتْ نَفْسَها في ذاكرته نحتًا لا يطوله الانمحاء والتآكل مع تقادم الزمن به.

تكشف ذاكرةُ ابن عربي قوتها ونشاطها، على نحو خاص، في التقديمات المشهدية للحوارات بين الشخصيات التي يبسطها أمام أعين القارئ، كأنه سارد كلي المعرفة يخفي وجهه بقناع السارد بضمير المتكلم. ابن عربي ساردٌ بضمير المتكلم بَيْد أنه يختلف عن نظرائه بصفات وامتيازات السارد كلي المعرفة؛ لهذا السبب يختلف على سبيل المثال عن نظيره هاني محفوظ -الشخصية الساردة- الذي جاوره في رواية محمد عبد النبي «في غرفة العنكبوت» على قائمتي البوكر العربية الطويلة والقصيرة. هاني محفوظ سارد بضمير المتكلم ابتكره عبد النبي بمهارة إبداعية عالية على نموذج السارد بضمير المتكلم في التخييل السردي الواقعي التقليدي، فجاء متفقًا ومتسقًا في معرفته حجمًا وعمقًا مع مُحدِّدات ومواضعات السرد الواقعي؛ إذ ينحصر سرده في حدود ما يتهيأ له معرفته عبر تجربته الشخصية، وما يقع في مدار إدراكه، أو ما تسنح له فرصة معرفته عن طريق آخرين.

وزيادة في الإيضاح أضيف أن ابن عربي لا يشبه، مثلًا، ديفيد كوبرفيلد في رواية تشارلز ديكنز «ديفيد كوبرفيلد»، الذي يعزو كلَّ ما تحويه حكايته إلى دقة ملاحظته كطفل وإلى قوة ذاكرته. يُستشَفُّ من خلال تنويه ديفيد كوبرفيلد حرص ديكنز على تعزيز البعد المحاكاتي الواقعي لحكاية ديفيد ولضمان استمرار التزام القارئ بعقد «إيقاف عدم التصديق». وعلى الرغم من احتمال خروج ابن عربي من «المعطف» لنيكولاي غوغول، فإنه غير مسكون بالخشية من خذلان ذاكرته مثل السارد فيها حين يروي تاريخ ميلاد «بطلها»: «وهذا ما حصل: ولد أكاكي أكاكيفيتش في ليلة ٢٣ مارس، إن لم تخني ذاكرتي» (ت. الخزاعي، ١١). إن ابن عربي سارد غير عاديّ، وصوت من الأصوات السردية «الشاذة» والمتجاوزة للنمطين التقليديين (السارد بضمير الغائب، والسارد بضمير المتكلم)؛ تلك الأصوات التي يسميها برايان ريتشاردسون اصطلاحًا «أصواتًا غير

طبيعية» في كتابه «أصوات غير طبيعية» (٢٠٠٦م). في هذا الكتاب، يتناول ريتشاردسون تنظيرًا وتحليلا ما يُمَثِّلُ من زاويةِ رؤيتِهِ إحدى الخصائص الأكثر أهمية للسرد الحداثي المتأخر والطليعي وما بعد الحداثي: خاصية خلق الأصوات السردية، وتشظيها، ثم تركيبها (أو تكوينها) من جديد. بتعبير آخر، يُعنَى ريتشاردسون في «أصوات غير طبيعية» بتقصي تحولات السارد، وتحولات أدواره ووظائفه.

ابن عربي السارد في «موت صغير» مُرَكَّبٌ من السارد بضمير الغائب والسارد بضمير المتكلم؛ له وجهُ الأخير ولسانُه، ومعرفةُ الأول، وامتيازُ سردِ أحداثٍ لا يكون شاهدَ عيانٍ لها، كما لا يوجد في المتن الحكائي أدنى ما يوحي بأن أخبارها وصلت إليه عن طريق آخرين. بهويته المزدوجة غير الطبيعية هذه، يلتقي ابن عربي مع ما سميتها الساردة المركّبة في رواية بدرية البشر «غراميات شارع الأعشى»، التي تسرد بضمير المتكلم في خمسة من فصول الرواية، وتنفذ إلى أعماق الشخصيات ووعيها، كما ينفذ السارد العليم، لتُحَدِّثَ عمّا يَعْتَمِلُ في داخلها. إنها صوت سردي غير طبيعي، هي الأخرى، في ضوء تنظير ريتشاردسون؛ وربما هي كابن عربي، ممن خرجوا من «معطف» غوغول.

وتمثل العلاقة بين ابن عربي ساردًا ومسرودًا موضعًا تتجلى فيه سمة أخرى من سماته كصوت غير طبيعي؛ إذ يظهر في بعض المواقف السردية كسارد «غير ثقة» أو «غير جدير بالثقة»، وهو ما يستدعي الحذر وعدم الانخداع في بعض ما يقول. ومنشأ هذه الخاصية حالة التماهي والاتفاق شبه المطلق بين الذات الساردة والذات المسرودة. إن حالة التماهي هذه، تَحُولُ، إلا في مواقف قليلة، دون تشكل مسافة بين الذاتين تتيح للذات الساردة تأمُّلَ نظيرتها في عالم الرواية، وتقويمها، والحكم على تصرفاتها. إن انعدام هذه المسافة النقدية، إذا صح التعبير، واقترانها بحالة التناغم ورضا الخارج عن الداخل أدّيَا إلى ظهور مفارقات وتناقضات بين تلفظات الذات الساردة وتصرفات وابن عربي وأفعاله في الداخل، إضافة إلى لجوء ابن عربي في الخارج إلى تبرير وتمويه بعض ما يحدث في الداخل. في هذا السياق أرى أن قصة زواج ابن عربي من مريم بنت عبدون وانهيار زواجهما مثال مهمّ ومناسب للبرهنة على تأثير العلاقة بين الخارج والداخل في السلوك السردي للأنا الساردة، وبالتالي في تشكل صورة ابن عربي كذات مسرودة.

الخروج من الخطاب السردي

بعد قرار مريم بنت عبدون الرجوع إلى بجاية (المغرب) من مكة، يُعلق السارد أن الحب أو بعضه لا ينمو في أي بلاد، محملًا بالتالي مكة المسؤولية عن افتراقهما «وهكذا أرادت لنا مكة»، من دون أن يفكر في التوقف لحظةً ليتساءل، مثلًا، عن دور موت ابنتها في فتور العلاقة بينهما، وعن دور عوامل أخرى مثل إدراك مريم أنها أقل أهمية في حياة زوجها من أوتاده، زوجها الذي كان ابتهاجه بحملها بزينب مضاعفًا لما وجد فيه ذريعة للسفر من إشبيلية إلى مراكش بمفرده، مرغمًا زوجته، رغم رغبتها في السفر معه، على البقاء من أجل الاعتناء بفاطمة بنت المثنى. لا يكتفي السارد بمكة سببًا للجفوة بين مريم وابن عربي، بل يتهم مريم بسحب حبها «مريم تسترد حبها وترحل بعيدًا»، ويوسّع دائرة الإسقاط لتشمل القدر «هكذا شاء الله». لا مناص من دور المشيئة الإلهية في الحدث، لكن السارد نفسه هو من يُخرِجُ مريم من الخطاب السردي ليضعها وراء ظهره. فبعد حديثه عن الوداع الخالي من القبلات، وغياب ناقة مريم وراء خط الأفق، يقفز السارد إلى المستقبل ليروي أنها ماتت بعد ست عشرة سنة في بجاية: «استأنفت الناقة سيرها بعد قليل وغابت في الأفق. ولم أرَ مريم بعد ذلك إلا في المنام. عادت إلى بجاية وأقامت مع أهلها ست عشرة سنة ثم ماتت وجاءني من يعزيني بها بعد أشهر طويلة».

بهذا الاستباق، يُفْرغ السارد مستقبلَ الخطاب السردي من مريم ومن موتها باستدعاء خروجها من الحياة إلى حاضر السرد ليتزامنَ ويتجاورَ في الخطاب مع خروجها من حياته كذات مسرودة. بكلمات أخرى، تتعرض مريم للكنس إلى خارج الخطاب ليخلو وجه السارد لنظام بنت زاهر والحديث عنها. يغيّب الأفقُ مريم، ويُخْرِجُها السارد عبر الاستباق من الخطاب في لحظات. لا يستمر السارد إلى أن يصل في سرده إلى موتها في موقعه في التسلل الزمني/الكرونولوجي للأحداث، بل ينتزعه من سياقه ويجره إلى الحاضر ليروي عنه في سطور قليلة، لتصبح مريم بعد ذلك نسيًا منسيًّا إلا طيفًا في الحلم: «ولم أرَ مريم بعد ذلك إلّا في المنام».

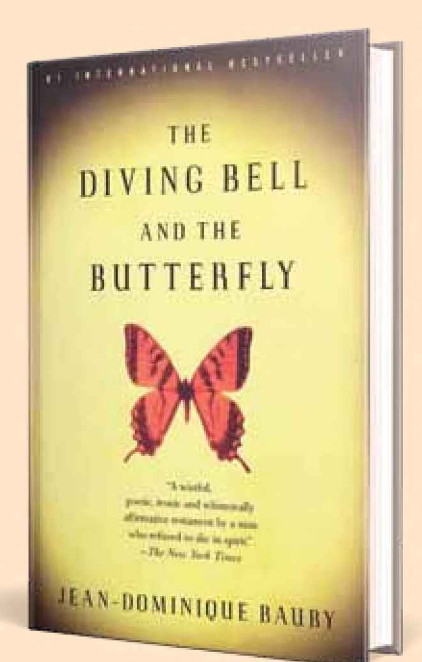
قبل زواجهما، كان السارد يهيئ القارئ لحياة غنية أدبيًّا وعلميًّا بين فردين متوائمين بوصفه مريم على لسان فاطمة بنت المثنى بأنها «أديبة خلوقة عالمة أريبة، وأيضًا جميلة». بيد أن الحياة الغنية المثرية أدبيًّا وعلميًّا للطرفين على السواء لم تتحقق إطلاقًا. فما يتحقق بالفعل هو غياب مريم الأديبة والعالمة الأريبة، وحضور مريم، المرأة الجميلة والمهملة التي تسافر لمسافة طويلة بصحبة ابنتها وعبد سابق وآخر جديد إلى زوجها البعيد في مكة، وتفجع بموت ابنتها في الطريق؛ أو تحضر جسدًا يتغنى زوجها بجماله: «أحببت مريم. ذقنها الحاد وعيناها الوثابتان وجسدها المائل للامتلاء، وكفّاها السمينتان اللتان كانت تخجل منهما»، «ما أجمل جسد مريم وما أنعمه وأصفاه...جسمها ريّان بسمنة خفيفة». وبعد التِمام شملهما في مكة، وفي أول خلوة بينهما بعد انتهاء العزاء بموت زينب، يكون جسم مريم هدفًا لعيونه المتفحصة: «خلوت بها أخيرًا فإذا بها تغيرت علي. زادت شحومها وكأنها لم تسافر ولم تكل». والكلام عن مريم خاتمة الكلام في هذه المقاربة التي ربما أصابت بعض النجاح في تحليل التقنية السردية في «موت صغير» واستكشاف طبيعة ابن عربي ساردًا، وتبيان خصائص أسلوبه السردي، وتأثير علاقته بالذات المسرودة في تشكيل صورة الأخير، وتحديد الملامح الفنية لسرده.

«بذلة الغوص والفراشة»

جون دومينيك بوبي..

ذاكرة منكوبة ترتحل في جغرافيات متخيّلة

هيثم حسين كاتب وروائيّ سوريّ مقيم في بريطانيا



يركّز الفرنسي جون دومينيك بوبي في روايته «بذلة الغوص والفراشة» على قوّة الإرادة الكامنة لدى الإنسان، ودورها في تخطّي المآسي التي يجد نفسه غارقًا فيها في رحلة حياته، وضرورة البحث عن سبل للتأقلم مع الوقائع والمستجدّات مهما كانت قاسية أو مضنية، وذلك في مسعى لعقد نوع من المصالح مع الذات والعالم، وتقبّل الأمور كما هي بعيدًا من التندّب والتحسّر والتباكي والرثاء. يستهلّ دومينيك روايته (منشورات مسكيلياني، تونس، ترجمة شوقي برنوصي، ٢٠١٧م) بتظهيره مشاعره وأحاسيسه بوجع يداهمه، ورأسه مثل السندان، وجسمه كما لو أن بذلة غوص تقيده بالكامل. ينظر إلى غرفته حين يدخلها ضوء النهار، يتمعن في صور أحبائه، وما يحيط به من ملصقات تشير إلى أحداث وتواريخ لها صدى في ذاكرته.

يقول دومينيك الذي كان رئيس تحرير مجلة نسائية في باريس: إنه لم يحتج للتفكير طويلًا ليعرف أين هو، ويتذكّر أنّ حياته قد انقلبت رأسًا على عقب قبل شهور حين تعرّض لحادث سيارة، وقبل ذلك لم يكن قد سمع بجذع الدماغ، وحينها اكتشف ما يصفها بالقطعة المحورية لحاسوب الإنسان الداخليّ، حين وضعتها أزمة قلبية حادة خارج الخدمة. أصيب الكاتب بمتلازمة المنحبس، التي تكون عبارة عن حالة يكون فيها المريض برغم وعيه التام مشلولًا من كل عضلات جسمه ما عدا عضلة العينين. يشعر أنه بمرور الشهور أصبحت بذلة الغوص أقل ضيقًا، ويمكن للروح أن تتسكّع مثل فراشة. يقول: إن هنالك الكثير ليفعله. يمكن أن يطير في الفضاء أو عبر الزمن، أن يرتحل إلى أرض النار أو فناء قصر الملك ميداس. يمكن أن يزور المرأة التي يحب، ينزلق إلى السرير بجانبها ويداعب وجهها وهي نائمة. بإمكانه بناء قصور في إسبانيا، والاستيلاء على الصوف الذهبي، واكتشاف أطلانطس، وتحقيق أحلام الطفل ومنامات الكهل.

يقول: إن عليه أن يؤلف داخل رأسه الصفحات الأولى لرحلته المتخيلة الكتابية الخالية من الحركة؛ كي يكون جاهزًا عندما يأتي مبعوث ناشره ليأخذها عن طريق الإملاء. يذكر أنه يعجن كل جملة عشر مرات، يحذف ويضيف، يحفظ نصه عن ظهر قلب فقرة بعد أخرى. يحكي عن عزلته ووحشته، وصدمته حين تمّ حمله على كرسي نقال، واكتشافه عدم

قدرته على الحركة والكلام، وأن لا أحد رسم له صورة تامة لحالته، ومن خلال الأقاويل الملتقطة نحت لنفسه يقينًا بأنه لن يلبث أن يعود سريعًا للحركة والكلام، ويؤكد أن روحه الجامحة هيأت ألف مشروع أدبي وحياتي. يلفت إلى أن صدمته تلك شفته من أوهامه بالتماثل القريب للشفاء. صارت الأمور أكثر وضوحًا. كف عن بناء المشاريع الوهمية، واستطاع أن يحرر الأصدقاء من صمتهم، وكانوا قد بنوا من حوله سدًّا عاطفيًّا منذ وقوع الحادث.

اختراع أبجدية

يخترع بوبي أبجديته الخاصة به، يسرد أنه حين يبقى وحيدًا ويجن الليل، ولا يبقى من أثر للحياة سوى النقطة الصغيرة الحمراء المنبعثة من التلفزيون المغلق، وهي إشارة على سريان الكهرباء فيه، يمتلئ عشقًا لحروف أبجديته. حروف صامتة وصائتة تتراقص لأجله بإيقاعات مميزة. أبجديته الخاصة كانت ليتمكّن من التواصل مع العالم الخارجيّ، يصف الأسلوب بأنه كان بدائيًّا جدًّا، لكنّه كان مجديًا وفعّالًا. إذ تُنثَر الحروف عليه بالترتيب إلى أن يستوقف محدّثه برمشة عين واحدة للكلمة التي يوجب تسجيلها -عينه اليسرى هي العضو الوحيد الذي يمكنه التحكّم به من جسمه- ثم يُكرِّر الأمر نفسه لتحصيل الأحرف التالية. وبعد جهد يتحصلون على كلمة، ثم مقاطع جمل واضحة. كانت النظرية تتمثل في طريقة الاستعمال والدليل التفسيري. يشير إلى الصعوبات التي كانت تكتنف عملية التدوين الشاقّة، إذ كان يرتبك بعض في حين يحسن آخرون الإدراك، ولم يكونوا جميعًا متساوين أمام شيفرته الخاصة، طريقته بترجمة أفكاره. يسوح في جغرافيا متخيلة، يلتقي أشخاصًا كان يعرفهم، يحاورهم في خيالاته، يتنقل من مكان لآخر بروحه المتماهية مع فراشة حرة في حركتها وحريتها، يرى انعكاس صورته في المرايا، يكتئب وينتكب ثمّ يواسي نفسه، يتعامل أحيانًا مع شكله الجديد وحالته البائسة بنوع من السخرية، يقول: إنه شعَرَ بغبطة غريبة مثيرة للتعجّب، لم يكن منفيًّا ومشلولًا وأبكم ونصف أصمّ ومحرومًا من الملذات كافة، ومختصرًا في كيان قنديل بحر فحسب، بل كان علاوة على ذلك كله بشعًا.

يصف ذاكرته بالمنكوبة، يستعيد كثيرًا من المشاهد والتفاصيل والذكريات، يحاول إحياءها بخياله ومواساة نفسه من خلالها، أو إبقاء نفسه على صلة بعالمه الماضي وحياته السابقة، ينطلق في عالم الأحلام التي يبقي نفسه من خلالها على صلة بالآمال التي يعقدها عليها لتسعفه في محنته المريرة. يتماهى مع شخصية الجد نوارتييه في رواية «الكونت دي مونت كريستو» لألكسندر دوما، وكانت تلك الشخصية الحالة الوحيدة التي ظهرت في الأدب تعاني متلازمة المنحبس. ويجد أنه ما إن تخلص وعيه من العتمة الحالكة التي ألقى به الحادث فيها، حتى راح يفكر بالجد نوارتييه، ومن ثمّ بدأ في إعادة قراءة الرواية مرة أخرى في خياله، ليجد نفسه في قلب الكتاب، ويذكر أنه لم يعد قراءة تلك الرواية اعتباطًا، بل كان لديه مشروع، يصفه بمحطم للتماثيل، يتمثل في إعادة كتابة الرواية بطريقة معاصرة.

يعيد رسم صورة مدينة باريس في خياله، كأنّه يعيد اكتشافها من جديد وهو على سرير المرض، يقول إنّه يبتعد ببطء، لكن بثقة، مثل بحّار يتابع من عرض البحر اختفاء الساحل الذي انطلق منه، يحسّ بماضيه يتلاشى، لا تزال حياته القديمة موقدة في داخله، ولكنها بصدد التحول شيئًا فشيئًا إلى رماد للذكرى. ويعترف بأسى أنّه منذ أن استوطن بذلة غوصه، قام برحلتين خاطفتين إلى باريس، ويصف نظرته المختلفة كلّ مرّة وكيف أنّها بدت كما هي، لكنّه هو الذي تغيّر وأصبح خارجها. يشعر بالفراشات تحلّق من حوله، يشعر بأنّ روحه فراشة تتنقّل من زهرة إلى أخرى، يكون الماضي بالنسبة إليه حقل زهور رحب ينهل منه قدر ما يبقيه على قيد الأمل، يتحدّى الصمم الذي يجتاح أذنه، ويقوّي تلك الطاقة البسيطة المتبقّية لديه على السمع، يقول: إنه بعيدًا من الجلبة التي كانت تحيط به أحيانًا في المشفى، وفي الصمت الذي استعاد كان يمكنه الاستماع إلى الفراشات الطائرة عبر رأسه. كان الأمر يتطلب منه كثيرًا من الانتباه والتأمّل؛ لأنّ خفقات أجنحتها تكاد لا تدرك، وأنه كان يكفي تنفّس قويّ ليغطّيها، وأنّه لأمر مذهل أنّه رغم عدم تحسّن سمعه كان يسمعها أفضل وأفضل.

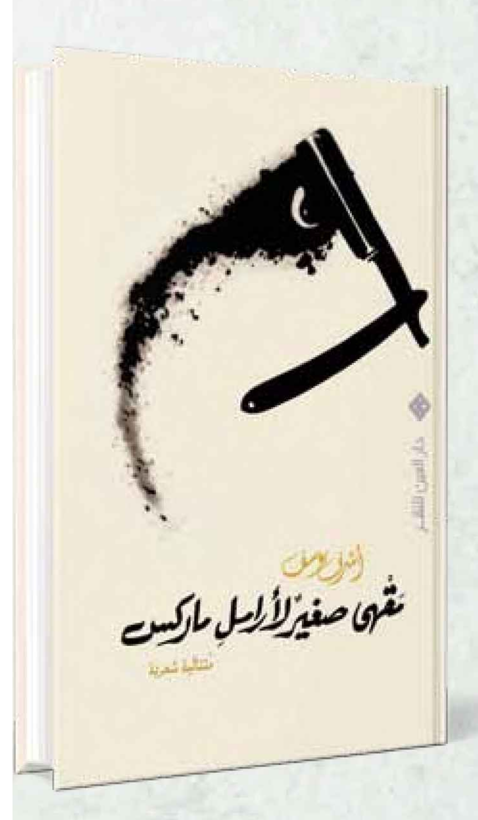

جون دومينيك بوبي

يختم دومينيك روايته؛ التي تحوّلت إلى فلم سينمائيّ من إخراج جوليان شنايبل، بتوصيفه حالته وهو يشرد في تأمّل مناظر متخيّلة مستعادة ويغرق في التفكير، يتساءل: «هل هناك في هذا الفضاء مفاتيح لأفتح بذلة غوصي؟ خطّ مترو دون محطّة وصول؟ عملة قوية بما يكفي لأشتري حرّيتي من جديد؟ يجب أن أبحث في مكان آخر. سأذهب إليه». ويكون ذلك إيذانًا بانتهاء رحلته الحياتيّة وتحرّر روحه من قيود جسده.

مقهى صغير لأرامل ماركس..

محنة الشعر.. أم محنة الأيديولوجيا؟

محمود قرني شاعر وكاتب مصري



بقدر ما أنتجت الرمزية من التباسات، فإنها أنتجت في المقابل نظامًا للعلامات خفضَ من سطوع الواقعية وغباء المحاربين باسمها. وفي الديوان الضخم (٤٦٤ صفحة) «مقهى صغير لأرامل ماركس» للشاعر أشرف يوسف الصادر بالتعاون بين داري العين وشرقيات، يبدو أمر الرمزية أكثر تعقيدًا مما تصوره مالارميه صاحب أبرز بياناتها. فيوسف الذي استفاد تقريبًا من المذاهب الشعرية كافة في ديوانه يبدو على وعي تام بمرجعية تلك الهلوسات التي سارت شعرية الديوان تحت وطأتها، فتشكلت على هيئة زمن دائري قوامه اللغة الهشة والمناخات الغرائبية، لكن هذا الزمن الدائري الذي يبدأ منه الألم ولا ينتهي لا يسعى لعلاج مرضاه، بل يستقصي طاقات لوعتهم وبقايا ظلالهم التي تركوها في أماكن غارقة في عتمتها السحرية.

وتبدو رسالة الشاعر هنا بين أعلى التعبيرات الكاشفة للكثير من زيف لحظته. فالعصر الذي بدا متصالحًا مع قضاياه الكلية بدا في الديوان كواحد من عشرات الحقائق العارية. وقد شكلت شعرية الديوان أكبر افتضاح ممكن للمأزق الإنساني عبر تلك التمثيلات التي استغرقها ضمير المؤنث الذي غلب على معظم قصائد الديوان. وربما كانت درجات السخرية المتفاوتة من الأيديولوجيا واحدة من أبرز تلك التعبيرات. فالمقهى الصغير ذو الملامح الاعتيادية، الذي حمل الديوان اسمه، تجوهر حول صورة مفارقة عندما ربطه الشاعر بأنه مقهى «لأرامل ماركس» على ما تحمله التسمية من انتهاك لعصر كامل من الحروب العقائدية، ومع ذلك لم تتجاوز تعبيرات تلك الحروب كونها أحد تمثيلات انهيار اليقين. المقهى هنا لم يعد ملائمًا للاعتراف بالحب ص٣٨٢، كما أنه يمثل «ذلك الركن المعتم» الذي يبدو الذهاب إليه قدرًا مقدورًا ص ٢٣٢، وفي موضع أكثر جلاءً يقول أشرف يوسف: «كيف أقتل اشتياقي الحار/ لصوته في مقهى صغير

يدعى أرامل ماركس/ ولست مهتمة على الإطلاق بهذا الماركس ولا بأرامله» وسيتبدى ذلك أيضًا في قصيدته «امرأة يهودية» التي يتعامل فيها بخفة مماثلة مع ليون تروتسكي ص ١٩٩.

مضامين أكثر سوداوية

لذلك ليس غريبًا أن يكون المفتتح الفاتن للديوان نعيًا لـ«مؤلف الكتب» الذي يخاطبه الشاعر ممتلئًا بالازدراء: «تعالَ يا مؤلف الكتب/ أيها الرجل المغرور/ سآخذك معي في صياعة منتصف الليل/ وسأسليك بتلك الخواطر التي يقال: إنها حياتي». إن انعدام الثقة في مؤلف الكتب هنا تجد معادلاتها في مشاهد عدة تعكسها معرفية تناثرت في أرجاء الديوان بين أسماء تمثل نوعًا من الغوث بالنسبة للشاعر مثل بول شاؤول، ومحمود درويش، وإدوارد سعيد، جان دمو، وغيرهم، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى بدت مضامين السرد الشعري أكثر سوداوية من أن تحتويها لغة، فتحولت تلك الاستغاثات إلى نوع من الرفض المطرد للعالَم المعيش ولتعبيراته الثقافية التي تبدت في رفض الكثير من مقولاته، وتبرز تلك التجليات بشكل ظاهر في تلك التناصات المستخفة غالبًا، بنصوص تاريخية مثل التوراة والإنجيل وبعض المأثورات المنقولة عن فقهاء ووُعّاظ وكُتاب وعوامّ، وسنرى ذلك في المفارقة التي يرصدها الشاعر ص ٢٩. عندما يقول: لا زال لديّ رأس يفكر / وقلب لشاعرة من بلاد فارس كأنه خريطة / ويؤمن على طريقته أن لويز فيديليو عاهرة / بخمسة فرنكات ولديها طريق واحدة لكسب المال / بالإكثار من الحديث عن الأخلاق في الفن».

تتراوح شعرية ديوان أشرف يوسف بين السردية المحضة في قصائد ليست قليلة حتى بدا بعضها كأعمال قصصية رفيعة السرد والأبنية لا سيما في «أتون وردة لأنثاه الافتراضية»، و«وجوه يناير» وقصائد أخرى، فبدت جزءًا فاعلًا في متوالياته الشعرية، كذلك تبدت تلك المراوحات في الغنائية التي غلفت أجزاء ليست قليلة من الديوان لا سيما في النشيد الثاني وفي قصيدته أساطير التي يقول في مطلعها: «يا جبلنا العظيم أنا إيزيس العاشقة، جئت لأمسح رأسي في ترابك وأشفي» ثم في قصيدة الفتى حيث التناص التوراتي «يا ابنة جبل الأطياب، ياحبيبتي، يا جميلة وزنجية.. كوني تقية»، وكذلك أنسنة التشيؤ في قصيدته «كتالوج لغسالة كهربائية»، ثم الاجتراءات اللغوية الفريدة في قصائد عدة أبرزها في قصيدة «نبية الليل» ص ١٧٨، وهي تمثل واحدة من مراتب التماهي في مدارج

> شعرية الديوان أكبر افتضاح ممكن للمأزق الإنساني عبر تلك التمثيلات التي استغرقها ضمير المؤنث الذي غلب على معظم القصائد



الشاعر أشرف يوسف

القدسية بالمعنى الصوفي. في الوقت نفسه بدت الأجزاء التي خلصت إلى الشعرية المحضة أكثر من فاتنة، يتبدى ذلك في القسم الأول من الديوان وبعض القصائد الأخرى مثل: «قرين، حلم بداخل فلم، النشيد الأول والنشيد الثاني».

رمزية النص الجديد

ولا شك أن الشعرية الطافرة، الغنية والمكتنزة في ديوان «مقهى صغير لأرامل ماركس» في تجاوزاتها وقفزاتها خارج الأسوار الواطئة التي ارتضتها لنفسها قصيدة النثر تبدو تعبيرًا عن قيمتين رئيستيْن لدى الشاعر أشرف يوسف. الأولى: إدراكه أن رمزية النص الجديد لا تعني تحويل الكائنات الشعرية إلى أوثان، بل تعني الاستفادة من معظم القيم التاريخية على امتداد التراث الإنساني، من هنا بدا الديوان مستفيدًا من غالبية المذاهب الشعرية دون أن يعني ذلك فقدانه للرؤية.

ثانيًا: تبدو قناعات أشرف يوسف بوظيفة الفن مرتبطة بشكل ما بوظيفته الاجتماعية رغم المناخات الإنسانية المضطربة التي تعكسها حركة السرد الشعري؛ لذلك لم تتخلَّ تلك الشعرية عن قارئها، أعني أنها لم تمتهن حواسّه، من هنا بدا وعي الشاعر متجاوزًا للكثير من التصورات المجانية التي أشاعها شعراء يؤمنون بمذهب الفن للفن. وبقي القول: إن تلك المجانية التي بدت عليها استطرادات التخييل وكثافات الصور الشعرية في القصائد التي مالت إلى النثرية المحضة أكثر إخلاصًا للرمزية في صيغتيها الغربية والشرقية، ولعل نموذجها البارز لدينا يمثله نص الشاعر اللبناني وديع سعادة لكنها شعرية، على أية حال، لم تكن ناجزة لخصائص مؤثرة في مسارات قصيدة النثر لارتباطها بحالة تطهرية أقرب إلى اللاهوتية التي عرفتها لغة النثر الفرانكفوني في القرن الثامن عشر، وربما لذلك تجوهرت شعرية هذا الديوان المهمّ في مواقع بعيدة من تلك القصائد.

طرد بريدي إلى أقرب مكتب أعياد

أشجان هندي شاعرة سعودية

مرارة!

كم مرَّة عليّ أن أغمسَ أصابعي
في مرارةِ ريقِ النسيانِ؛
لأقلبَ صفحةَ الزمنِ؟!
وكم مرة عليّ أن أغمسها
في مرارةِ جوفِ الجرأةِ؛
لأقلبَ الطاولةَ
على رأسِ الذكريات؟!

لندن ٢٠١٤م

اسم على غير مُسمّى

أسميتُكَ الحلوَ،
ونقعتُكَ في الشهدِ مرارًا؛
تغيَّر اسمُكَ،
وطعمُ مرارتِكَ
لمّا يزل يجرحُ حلقي!

لندن أغسطس ٢٠١٦م

طَرْدٌ بريديّ

حين تُسرِفُ الزينةُ في زينتِها،
وتصبغُ الأشجارُ وجهَها
بالثلجِ الأبيضِ،
وشفاهَها بحُمرةِ الكَرَز؛
أُغلّفُ قلبي بحريرٍورديّ،
وأُرسلُهُ
دونَ طابعٍ بريديّ
إلى أقربِ مكتبِ أعياد.

جدة ١ مايو ٢٠١١م

ضربة شمس

الشمسُ الحارقةُ..
لا تتوقّفُ عند إشارةِ المرورِ؛
والحياةُ باردة!
والمشاعرُ الصاخبةُ..
تختبئُ خلفَ خوفٍ جليديٍّ؛
هربًا من ضربةِ شمسٍ
عاريةٍ من الصحّة!

لندن فبراير ٢٠١٤م

صانعُ الأقنعة

تأملتُ طويلًا صانعَ الأقنعةِ؛
وهو يصنعُ وجوهَنا البرّاقة الملوّنة
تأملتُهُ طويلًا،
و تساءلتُ كثيرًا:
لو ماتَ صانعُ الأقنعةِ؛
كيف سنعرفُ بعضنا البعض؟!

مارس ٢٠١٧م

خُصوصيّة

عند بابِ الحجرة الأبويّةِ
ذاتِ النقوشِ الباليةِ،
والجدرانِ العاليةِ،
والساعةِ المُذهّبةِ التي
تسيرُ عقاربُها برتابة أبديّة
عكسَ الوقت؛
فتّشتُ في جيوب الصمت؛
عن اللحظةِ التي



تحوّل فيها المفتاحُ
إلى قفلٍ فولاذيٍّ
بنكهةِ الخصوصيّة!

لندن ٢٠١٤م

جينات

القصيدةُ التي تُغطي وجهَها،
ويتصبّبُ عَرَقُها
خجلا
القصيدةُ التي
تُغيّرُ لونَها،
ومِشيتَها:
تحسُّبًا
القصيدةُ التي
تَعُدُّ أنفاسَها،
وتتلفّتُ
خوفًا؛
لا يَضمُّها ديوان،
ولا تَتوارثُ جيناتها ذاكرة!

لندن أغسطس ٢٠١٦م

سِــرٌّ على الجمر!

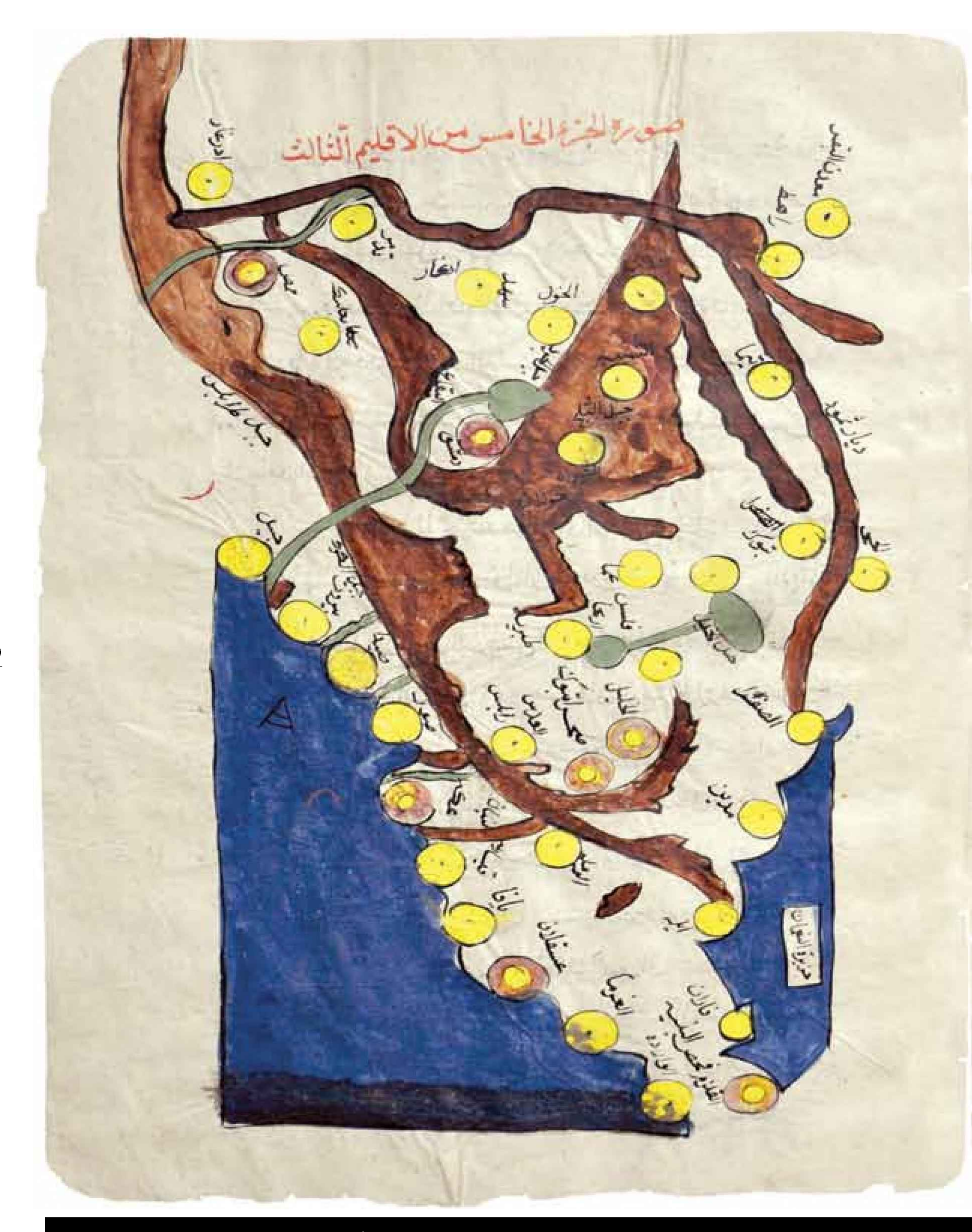
فلمّا تدانى الغيمُ دندنَ وارتقى، تجلّى؛ فسالَ البرقُ من راحةِ القَطْرِ
ومالَ على نحري؛ فقلتُ: عليلةٌ؛ فقال: وإنّي مثلُ ذلكَ لو يدري
بيَ العشقُ لاختارَ الضلوعَ منازلًا، وأَسكَنَ آهاتِ المُحبّينَ في صدري.
فقلتُ له: عشقي، ورُوحي، وسيدي، وقيدي الذي يسري بأوجاعهِ أسري،
وسرّي، وبوحُ الوردِ إن جاء باكيًا؛ يُخبّئُ لونَ البوحِ في ريشةِ السِّرِ،
وفجري، ونورُ الشمسِ، والعصرُ، والضُّحى، أنايَ، وأنّاتي، وذاتي، ولا غيري:
فدتكَ الليالي الساكناتِ تلطُّفًا، فدتكَ الصباحاتُ الغريقةُ في العطرِ
فَدَتْ عشقَكَ المخبوءَ في خدِّ زهرةٍ حقولُ الهوى الغافي على لوعةِ الزَّهرِ
فديتُكَ: ما أبقى النوى غير دمعةٍ، وما أبقتِ الآهاتُ للصبرِ من صبرِ
لنرحلَ: خلفَ الضوءِ خبّأتُ نارنا؛ فإن أظلمت دنياكَ دونكَ ذا جمري.

جدة ٢٠١٥م



مخطوط: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أو: روض الفرج ونزهة المهج.

المؤلف الجغرافي المغربي: محمد بن محمد الإدريسي الشريف (ت ٥٦٠ هـ).



نسخة من القرن الثالث عشر الهجري. اشتملت على خرائط مصوّرة وملوّنة بألوان عدّة.
من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

«الآخر» لم يعد أجنبيًّا..

مجرد مرايا متعددة لـ«أنا» مركَّبة



يوسف بزي - شاعر وكاتب لبناني

في يوم ربيعي من عام ٢٠٠٧م، كنا مجموعة من كتّاب وصحافيين في روما، نجلس على طاولة رصيف لمطعم يهودي إيطالي، متكئين على منزل من القرون الوسطى تقول دكنته وانطوائيته تلك العتمة التي عاشتها أوربا مع الخوف والجوائح والحروب. لكنها الآن تبدو كديكور سينمائي رومانسي. وأمامنا على بعد مترين ينتصب معبد روماني بجبروت عتيق وحجري، ومن ورائه يطلّ مشهد الفاتيكان الكاثوليكي. نحن الزبائن، «مسلمون» و«مسيحيون»، عرب وأوربيون، على طاولة مطعم لعائلة يهودية، يديره مهاجر مصري، مسلم، يتحدث الإيطالية والعربية. الفتاة الجزائرية لا تجيد سوى الفرنسية (ولا كلمة بالعربية). الشابة الإيطالية تتحدث العربية بطلاقة وباللهجة المصرية، اللبنانيان يفضلان التحدث بالإنجليزية. الصحافية الفرنسية تختار التحدث بالإيطالية. والطاولة «حوارات» وترجمات متبادلة. اليابانيون، بالقرب منا، الإسبان أيضًا، الأميركيون كُثُر، جنسيات العالم تقريبًا في مئة متر مربع، حيث مهرجان اللغات - الثقافات، من وراء الأطلسي إلى قلب آسيا، هنا في هذه المدينة المتوسطية. في الزُّقاق الضيق ذي الإنارة الشاحبة كما لو أنه مضاء بالشموع. ونحن لا نفعل شيئًا سوى تداول هذه «العجينة» من اللغات الخائنة لهوياتها.







حنان الشيخ

هيام يارد

في خريف عام ٢٠١٦م، كنا مجموعة من أربعة كتَّاب هولنديين (منهم كاتب من أصل ليبيري)، ولبنانيين كُثُر (بينهم كاتبة فرانكفونية) وكاتب بولندي متخصص بالشؤون التركية، وكاتبة هندية. على المائدة أربع لغات: العربية، والفرنسية، والهولندية، إضافة إلى الإنجليزية كلغة وسيطة، ركيكة في الأغلب. أيضًا، ثمة ثلاث لغات: البولندية (والتركية) والهندية يحتفظ بها أصحابها. بين اللبنانيين الكاتب فادي الطفيلي وزوجته الفنانة التشكيلية منيرة الصلح اللذان يعيشان في أمستردام ويُتقِنان اللغة الهولندية. الكاتبة الهولندية ديوك بوبينغا متخصصة بالأدب العربي، تدريسًا وترجمة. يحدث أني عشت في ليبيريا وعملت في الكويت، والكاتب الليبيري فامبا شريف الذي عاش في ليبيريا والكويت أيضًا يقول لي: «هذه المرة، اذهب أنت إلى هولندا ودعني أنا في بيروت، هكذا نكمل الدائرة». كان ترمب، المرشح للرئاسة الأميركية حينها هو نجم السهرة. القلق من الوجهة التي ستسلكها أوربا بعد أزمة المهاجرين والبريكست البريطاني يسيطر على الأحاديث. الكاتب الهولندي الشاب مارتين كنول يفاجئني بالسؤال عن حركة «بيروت مدينتي»؛ كيف له أن يعرف بتفصيل محلي للانتخابات البلدية في العاصمة اللبنانية؟ مآلات «الربيع العربي» والكوارث التي حلَّت بالشرق الأوسط تختلط بالكلام عن رحلتي إلى «غوا» في أثناء حديثي مع الكاتبة الهندية أوشا كونيغا راماسوامي. كنا نجلس على شرفة مطعم هو بالأساس منزل لبناني قديم بهندسة هجينة محلية وإيطالية وعناصر من العمارة الكولونيالية الفرنسية، نطل على خرائب بيوت حجرية باقية من زمن الحرب، وعلى برج سكني حديث يشبه تلك النابتة في دبي أو هونغ كونغ. «هوياتنا» مسيحية (كاثوليكية، بروتستانتية)، وإسلامية (سنية، وشيعية، ودرزية)، وهندوسية.. ومعظمنا على ما أظن علمانيُّو النزعة والقيم.

وعود ليبرالية

بهذا المعنى، كانت الطاولة نموذجًا صغيرًا عما حققته الوعود الليبرالية في العقدين الماضيين: عولمة في القيم والأفكار والمعلومات والحساسية الأخلاقية، وهي اليوم مهددة بارتدادات عنصرية وشوفينية وأنواع من رهاب الأجنبي والمختلف. المجموعة نفسها كانت في صباح اليوم ذاته قد تلاقت لأول مرة، داخل قاعة في

الجامعة الأميركية ببيروت التي يعود تأسيسها إلى أكثر من ١٥٠ سنة. والمدهش أن اللقاء كان فرصة ليس للتعرف إلى هؤلاء الكتّاب الأجانب وحسب، بل أيضًا كي ألتقي لأول مرة الكاتبةَ اللبنانية حنان الشيخ التي تعيش في لندن، والكاتب اللبناني عيسى مخلوف المقيم في باريس، الذي لم ألتقِ به منذ عشرين عامًا. ربما هذا هو الأمر: نحن لا نتعرف إلى الآخرين بل إلى أنفسنا عبر الآخرين. هم أيضًا يفعلون ذلك. سرعان ما تجاهلنا خدمة الترجمة الفورية، طالما أننا عفويًّا رحنا نتداول عجينة لغاتنا، كما فعلت على نحو مبهج الكاتبة اللبنانية الفرانكفونية هيام يارد، وراحت عباراتها تتقافز بين عربية ركيكة وفرنسية راقية وإنجليزية متقنة. كذا كانت الكاتبة الهولندية ديوك بين عبارات عربية بلهجة مصرية وإنجليزية صافية.

أتينا للقاء تحت عنوان «طرق الحوار»، وكل منا لديه ما أسميه «أوراق اعتماد» كتلك التي يقدمها السفراء، أفكار جاهزة بنوايا جيدة، كأن نتلفظ بكلمات «الانفتاح» و«التسامح» و«التنوع» بوصفها عناوين للصواب السياسي والثقافي والأخلاقي الذي يتوجب علينا التقيد به. وهذا صحيح وحقيقي تقريبًا في عالم الكتّاب حول العالم، فالمثقفون اليمينيون واليساريون والليبراليون وما بين بين، بات لديهم «مرجعية» ما بعد الأيديولوجيات، إنسانوية إذا صح التعبير. وعلى هذا النحو، كنا في اللقاء الصباحي نردد كل هذا الذي نؤمن به، أي ترفّعنا على القوميات والفوارق الدينية والعرقية والثقافية، نحتفل باختلافاتنا بوصفها التنوع الإنساني ومصدرًا للغنى الثقافي.

خلال ثلاثين عامًا من تمرسي في العمل الصحافي والأدبي، غالبًا ما كان يتسم أي لقاء أوربي - عربي (شرق أوسطي تحديدًا) باستنفار سجاليّ، يضمر شعور التفوق من جهة وشعور الدونية من جهة أخرى، ويستحضر الماضي الاستعماري عند العرب، والخطاب الاعتذاري عند الأوربي (أو التبرؤ من التاريخ الإمبريالي)، عدا طبعًا منسوب الجهل بالآخر والأفكار النمطية ووطأة «مركزية الغرب» ومسألة الصراع العربي - الإسرائيلي.. إلخ. وكان أكثر ما يغيظ المثقفين العرب هو أنهم مطلعون على أبرز نتاجات الغرب الأدبية والفكرية والفنية، في حين -إذا استثنينا المستشرقين والمستعربين- لا دراية للكاتب الأوربي عمومًا بما ينتجه العالم العربي أدبًا وفنًّا وفكرًا. ويضاف إلى ذلك، التفاوت الاقتصادي واختلاف نمط العيش والسلوك والمظهر والتقاليد والأعراف الاجتماعية. كان هذا النوع من اللقاءات المغلقة بالدماثة تتسم بالنفور والتكاذب أو الجفاء أو الحذر الدبلوماسي. أظن أن ذلك تضاءل إلى حد كبير، بزخم من حركتين كبيرتين حدثتا تحت جناح «العولمة»: حركة الفكر ما بعد الكولونيالية في الغرب، وحركة الفكر ما بعد القومية في العالم العربي. التقت الحركتان في منتصف الطريق، هناك عند تقاطع بروز نخبة ليبرالية عربية بعد عام ٢٠٠٠م، واستشراء «نقد الحداثة» في الغرب (ما بعد الحداثة).

> **يتسم** أي لقاء أوربي – عربي باستنفار سجالي، يضمر شعور التفوق من جهة وشعور الدونية من جهة أخرى، ويستحضر الماضي الاستعماري عند العرب، والخطاب الاعتذاري عند الأوربي

عمليًّا، خلال العشرين سنة الماضية، ورغم الأحداث الاستثنائية (٩ سبتمبر ٢٠٠١م، غزو العراق، والإرهاب العالمي، والأزمة الاقتصادية.. إلخ)، أجد أن السفر والإنترنت خلقا عالَمًا شديد التواصل، وأحيانًا بسرعة أكبر من القدرة على الاستيعاب. وبعيدًا من السياحة عبر التكنولوجيا أو عبر المطارات، وبسبب الوقائع الثقيلة الوطأة، يمكن القول: إن منسوب الجهل بالإسلام وبالعرب بات أقل في الغرب، ومن جهة أخرى أصبح الغرب أكثر قربًا من العرب والمسلمين، ليس فقط بسبب جاليات المهاجرين، بل أيضًا بسبب التعليم وحركة الترجمة وسهولة التنقل والتلفزيونات الفضائية والإنترنت، وأدوات التواصل الفوري، والتعامل التجاري الواسع النطاق والمعاشرة شبه اليومية، إلى حد انتفاء المسافة على نحو أصاب الفزع أولئك الذين باتوا اليوم وبسبب هذا الفزع تحديدًا «جهاديين» انتحاريين. ويمكنني الادعاء أن أيديولوجيا الإرهاب الإسلامي ولدت من شعور حقيقي بأن الحدود انتفت مع الغرب، بالضبط كما حركات اليمين المتطرف في أوربا نهضت من شعور حقيقي بأن الحدود مع الشرق انتفت. ثمة حرص عند متطرفي جانبي الحدود على إرث الكراهية والعداء المتناسل ربما منذ الحروب الصليبية. هو ما أسميه حرصًا على «البقاء في التاريخ»، إعادة تدوير للماضي.

الأدب طريق إلى الحوار

أعود إلى ذاك الصباح في منتصف نوفمبر ٢٠١٦م، في حضن الجامعة الأميركية ببيروت. كل منا يقدم نفسه ويتكلم عن أفضل سبيل لـ«الحوار»، أي تجسير العلاقة مع «الآخر». وبإيمان ثابت، الجميع تقريبًا يرى في الأدب، والقراءة، والفن.. طريقًا رحبًا وواضحًا لهذا الـ«حوار». شخصيًّا، أنتبه إلى أن الآخر هو مجرد ذريعة كي يحاور واحدنا نفسه، يكتشف ذاته أكثر. «الآخر» موجود طبعًا، لكنه بات أقل آخَروية بكثير مما كانه في الماضي. أقصد أن الآخر فقدَ اختلافه، فما من أحد أجنبي تمامًا، خصوصًا في الأدب. ذاكرتي الأدبية قائمة على قراءات معظم روايات أميركا اللاتينية. ما من رواية أميركية بارزة إلا وكلنا قرأناها (كل شعراء الولايات المتحدة منذ وولت ويتمان لهم حضورهم في القصيدة العربية الحديثة!). ويليام فوكنر هو الروائيّ المفضل عندي. الأدب الياباني ليس غريبًا ويمكننا أن نعدد ١٥ روائيًّا يابانيًّا نعرفهم مترجمين إلى أكثر من عشرين لغة على الأقل. نشأنا على قراءة نتاج الأدب الفرنسي، والألماني، والتشيكي، والروسي، والإسباني، بل حتى العلامات البارزة في الأدب الهندي والإفريقي

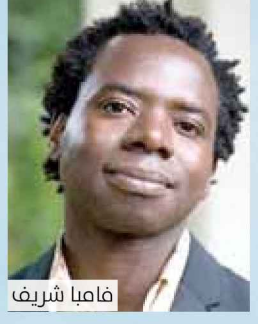
والصيني.. إلخ. أقرأ في هذه الأيام رواية «فتيان الزنك» للكاتبة البيلاروسية سفيتلانا أليكسيفيتش.

ربما يجوز التحسر على الماضي حين كان ثمة «غريب» و«إكزوتيكي» و«أجنبي» ينبغي اكتشافه والتمتع بسحر الغرابة والتعجب والدهشة. كل هذا خسرناه. العالم بات أليفًا إلى درجة محبطة. ما من جغرافيا مجهولة بعد اليوم، وعلى الأرجح ما من «محلية» صافية. حين قَرَأتِ الروائيةُ الهندية أوشا راماسوامي نصوصَها، تلقفنا على الفور وعلى نحو اعتيادي حيلتها الأدبية وأسلوبيتها ومصدر تخييلها ومسعاها في استثمار الإرث الديني والأسطوري في مواجهة الوقائع اليومية ومغزاها الدرامي. لم يكن «أجنبيًّا» نص مارتين كنول الكئيب، السينمائي النزعة، ومنحاه الوجودي الغارق بأرق الوحدة والجوع العاطفي والفردانية المعاصرة. شعرنا بألفة فائقة مع نص ويتولد جابلوسكي وهواجسه السياسية وسخريته اللاذعة، طالما أننا كأدباء من الشرق الأوسط لا نفعل سوى التفكير بالسياسة والسخرية ومقارعة الفساد واليأس. فامبا شريف، قرأ مقاطع من روايته، المكتوبة بأسلوب يتقاطع فيه الذاتي مع التاريخي، ونستوعب تمامًا تلك «المعلومات» التي يضمرها السرد ووجهة الحكاية. نعرف تمامًا أن مأزق الهوية هو الحافز والعصب في كتابته.. تمامًا كما في كتاباتنا. هكذا نحن جميعًا، أصبحنا أولاد «تقاليد» أدبية معولمة. إذًا، ما من «آخر» لكن مجرد مرايا متعددة لـ«أنا» مركّبة، باتت معتادة حتى على مستوى اللغة. منذ اليوم الأول، لزم الأمر ساعة، ودردشات جانبية في استراحة القهوة، أو في أثناء الغداء، مستأنفين السجال «الرسمي» الذي دار في الجلسات، لا لكي نستعرض مهاراتنا الفكرية أو النقدية، لكن كي نوطِّد لحظات التواطؤ الشخصي ونحوِّلها إلى صداقة. هذا ما حدث لي مثلًا مع مارتين كنول، حينها رحنا باستمرار ننتحي جانبًا بالحديث، أو نختار الجلوس متجاورين. أو أن ننقسم في المساء إلى مجموعتين: مدخنين وغير مدخنين. وتصير هذه الصفة «حزبًا اجتماعيًّا». أو عندما ننتهي من يوم حافل بالجلسات والنقاشات والقراءات، وننقسم في سهرنا بين هواة «الكارايوكي» والنافرين منه.



عيسى مخلوف


أوشار اماسوامي


فامبا شريف

ربما يجوز التحسر على الماضي حين كان ثمة «غريب» و«إكزوتيكي» و«أجنبي» ينبغي اكتشافه والتمتع بسحر الغرابة والتعجب والدهشة. كل هذا خسرناه. العالم بات أليفًا إلى درجة محبطة

عامل استيقاظ

أذكر أن إيمان حميدان، رئيسة جمعية القلم الثقافية في لبنان، حين راحت تشرح لي مشروع استضافة الكُتَّاب الأجانب في بيروت ضمن برنامج «طرق الحوار»، لم أكن مقتنعًا كفاية بالجدوى الثقافية منه. لكن، حدث في اليوم الثالث للنشاط، حين ذهبنا جميعنا إلى مدينة صور، وتحلَّق حولنا في منتدى المدينة جمعٌ غفير من الجمهور، من بينهم طبيب هندي وزوجته، وصاروا يناقشون الكاتبة الهندية والكاتب الهولندي، عبر الترجمة الفورية، انتبهت إلى «المعنى» من حضور «الضيوف الأجانب». إنهم عامل استيقاظ. ما أن يأتوا حتى نجتمع ونبدأ بالعمل الجماعي، ونتواطأ على الإصغاء وعلى تقديم أفضل ما عندنا ونشحذ همتنا، ونبرز ما نظنه فضائلنا. بوجودهم تسنَّى لي لأول مرة أن أصغي للشعراء اللبنانيين: فوزي يمّين، ومحمد ناصر الدين، وللكاتبات اللبنانيات: سحر مندور، وحنان الشيخ، وزينة الخليل، وهيام يارد. مرة أخرى: «الأجنبي» ذريعة للتعرف إلى «الذات». الأفضل من ألفة الكتّاب فيما بينهم، هي الألفة الفورية بين الجمهور والكُتَّاب الضيوف، خصوصًا في المدن خارج العاصمة: طرابلس، وبعلبك، وصور، وبعقلين.. ثم هناك في المدارس مع الطلاب. ربما التعليم المتعدد اللغات في لبنان (الفرنسية والإنجليزية والعربية) سهل الأمر كثيرًا، لكن ما نسمِّيه Pop culture «الثقافة الشعبية» (السينما، والتلفزيون، والموضة، والموسيقا..) لا تخلو من معرفة أدبية غير مباشرة، تسهم في توحيد الذائقة والمرجعية، وأحيانًا الخيال وطرائق التعبير وقاموس المجاز. تجربة الأسبوع من المعاشرة والقراءة ومشاركة الطعام والسجائر وتداول الأفكار.. منحت الكُتَّاب الضيوف معرفة حسية ومباشرة من تنويعات الأدب اللبناني، من الحياة اللبنانية. اكتسبوا دراية سياسية بالتعايش الصعب والمنازعات الخفية بين الجماعات والطوائف هنا، وهو ما قد يستثمرونه أيضًا في بلدانهم بمواجهة الأسئلة الملحَّة اليوم في أوربا إزاء مسألة الهجرة والتنوع الديني والتعصب العرقي أو القومي.

بالنسبة لي، كان مشهد روما عام ٢٠٠٧م، الذي ذكرته في البداية، يتوِّج إنجازات الزمن المبتدئ منذ انهيار جدار برلين. ومشهد بيروت ٢٠١٦م، يشكِّل فِعل مقاومة ضد «تسونامي» الانعزالية المتفاقمة في كل مكان.

عن مستقبل قصيدة النثر العربية..

أحتاج عينًا ثالثةً لأرى الغيب

منذر مصري - شاعر سوري

لم أسأل يومًا، بالرغم من أنني أحد شعرائها، الذين قضوا جل حياتهم يكتبونها، ويدافعون عنها، ويبشرون بها: «ما مستقبل قصيدة النثر العربية؟» إلّا وأبديت بعض التردد، لدرجة أبدو بها كأني غير راغب بالإجابة. ولكن، مرة، وأنا أحاول التهرب كعادتي، بحجة أني لست الشخص المناسب لتقديم الجواب الشافي على هذا السؤال، واجهني صديقي الشاعر عباس بيضون بسؤال آخر، من النوع الذي يحار المرء مهما بلغت حجته كيف يرد عليه: «لماذا لا؟». حقًّا، لماذا لا؟! وها أنذا أفعل. ولكن ذلك لن يحول دون ذكري الأسباب التي كانت تدفعني للتردد، وهي مثلها مثل كل شيء نبرر به ما نفعله وما لا نفعله، تنقسم إلى، أسباب خاصة، داخلة بي، وأسباب أخرى خارجة عني، عامة، داخلة في الموضوع نفسه:

الفرح ليس مهنتي.. والنقد كذلك: أولًا، مشيرًا إلى ظاهرة، أن عامة المشتغلين في نقد الشعر عندنا، هم الشعراء أنفسهم. عملًا بالقول الجاري: «أهل مكة أدرى بشعابها»، فذلك يستدعي أول ما يستدعي السؤال: ما إذا كان الشعراء حياديين عند الحكم على أنفسهم أو على نتاج أقرانهم؟ أو ما إذا كانوا مؤهلين؟ أو هل يمتلكون الحق؟! ولا أظن التذكير بمكانة ص. ت. كولريدج كناقد، أو شارل بودلير، أو بول فاليري أو ت. س. إليوت، أو أرشيبالد ماكليش صاحب كتاب «الشعر والتجربة»، وغيرهم من الشعراء الذين عُرفوا بكتاباتهم التنظيرية والنقدية عن الشعر والشعراء، يصلح كإجابة داحضة لهذه التساؤلات. ذلك أنهم، كانوا أقرب إلى المنظرين لمدارس ومناهج ورؤى شعرية جديدة، منهم إلى نقاد مختصين. كما أنهم أقرب لأن يشكلوا ظاهرة لافتة وليس قاعدة عامة.

وفي المقابل لم أجد عند الشعراء العرب، قديمًا وحديثًا، من أعطى شعر الآخرين ما يكفي من الوقت والجهد، للحد المطلوب من الناقد. فأدونيس رغم الحجم الكبير لدراسته في «الثابت والمتحول» والعديد من كتبه حول الشعرية والحداثة وغير ذلك، لم يقم بأي دراسة نقدية لشاعر، إلا بعض المقدمات لعدد من المختارات الشعرية، كمختاراته من قصائد يوسف الخال إصدار دار مجلة شعر ١٩٦٢م. فجوهر عمل أدونيس حول الشعر تنظيري استشرافي أكثر منه نقدي. وكذلك، بطريقة ما، الدكتور كمال أبو ديب. وعشرات الشعراء العرب الذين إذا كان لهم مساهمات نقدية نظرية أم تطبيقية، فهي لا تزيد عن كونها اجتهادات جاءت لتملأ الفراغ النقدي الذي يشكو منه الجميع. أما بالنسبة لي، أنا الذي يحاول الآن معرفة المآل الذي ستمضي إليه قصيدة النثر في المستقبل، فيومًا لم أَتَنَطَّع لأكون دارسًا لحركة شعرية ما، أو لجيل شعري محدد! ويومًا لم أعمل على جمع مقدمات، أو معطيات، أستطيع أن أستنتج بواسطتها خلاصة ما. وكنت دائمًا أفتقد القدرة على إصدار أحكام، فلطالما آمنت ببراءة الجميع، وصدقت بما يسوقونه من مبررات وأدلة غياب. أما عن كوني، مثلي مثل الكثيرين، قد كتبت عددًا من المراجعات النقدية لمجموعات ولتجارب شعرية كنت أعرفها عن قرب، بطريقة أو بأخرى، فهذا شيء، والقدرة على تقديم خلاصات أو تعميمات، شيء آخر.

ثانيًا- كنت أهزأ، من بين الأشياء الكثيرة التي كنت أهزأ منها، من أن للشعر ملكة التنبؤ بالمستقبل، كتشبه الشعراء بزرقاء اليمامة أو كاهنة معبد دلفي، ومن أنهم يتمتعون بقدرة سحرية على رؤية ما سيأتي في الغد، وأشياء أخرى من هذا القبيل. فيومًا لم أقرأ شاعرًا عربيًا أو غير عربي بلغ به الخبل لأن يقول: «سوف يحدث كذا، وتنبهوا من كذا، في المكان كذا، والزمان كذا». ذلك أني لا أصدق أن إنسانًا عاقلًا، شاعرًا كان أم غير شاعر، يمكنه أن يدعي بأنه كائن

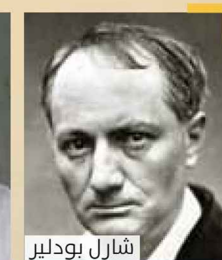
عامة المشتغلين في نقد الشعر عندنا، هم الشعراء أنفسهم، وذلك يستدعي السؤال ما إذا كان الشعراء حياديين عند الحكم على أنفسهم أو على نتاج أقرانهم؟ أو ما إذا كانوا مؤهلين؟ أو هل يمتلكون الحق؟!

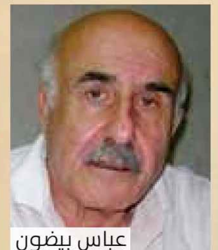
استثنائي، خرافي، يملك المقدرة على معرفة الغيب.. ما أستطيع الادعاء أني أعرفه، هو ما مضى، ما عبَر من أمامي وتنبَّهت له، فقد كنت أردد قولًا، لا أذكر من قاله: «لا أكتب إلَّا عمّا رأيت وسمعت». وهو قول أصلح للقصاصين والرواة منه للشعراء.

ثالثًا- يحتاج البحث في مستقبل قصيدة النثر العربية، متابعة حثيثة، ومن ثم معرفة واسعة، للأنسال الجديدة التي تدخل مضمار قصيدة النثر في البلاد العربية وخارجها، الأمر الذي شُفيت منه وما عاد شغلي الشاغل منذ زمن، فما أقوم بفعله اليوم هو أكثر ما يعنيني إن لم أقل كل ما يعنيني، أما عن حرصي على الاطلاع على ما يكتبه الآخرون؛ الأسماء التي أتابع تجاربها لأهميتها المؤكدة، والأسماء التي يتناهى لي بعض التصفيق لها وهي تدلف الساحة، الشعراء الجدد الذين يتواصلون معي، فلم يكن يومًا بدافع المقارنة والحكم. وقد يستغرب المرء كيف له أن يجد مفرًّا من إجراء المقارنات والتوصل إلى، إن لم يكن إلى أحكام، فليكن إلى آراء، إلا أنني في الحقيقة أفعل هذا لمنفعتي الشخصية، وبوجوه عدة، أهمها، أني أغذي به ذلك المزاج الذي أحتاجه للاستمرار والمتابعة.

مفرد بصيغة الجمع.. وجمع بصيغة المفرد

أولا- ليس فقط لأني شفيت من حمّى قراءة كل شيء، بل لأنه أصلًا لا يتوافر بين يدي ما يكفي لألقي نظرة متفحصة ولتكوين فكرة صحيحة عن واقع قصيدة النثر العربية. وهذا ما يمكن له أن يجعل من الكتابة في هذا الموضوع، إن لم يكن قفزة في الظلام، فهو وقوع في السياج الشائكة الكثيرة التي تقيمها الكتابة باللغة العربية التي ينطق بها ما يقارب ثلاث مئة مليون إنسان، ولكن بنسبة أمية عالية، ونسبة قراءة متدنية لدرجة كارثية، يتوزعون على عشرين بلدًا، يتصل بعضها ببعض على شكل سلسلة ذات حلقات مغلقة. فما يكتب في الأردن لا يتخطى الأردن، فلا كتب ولا مجلات ولا صحف أردنية تدخل بلدًا متاخمًا له كسوريا، وأغلب ما يكتب في سوريا لا يُعرَف إلا في سوريا. حتى في داخل سوريا، البلد الذي اتصف بالاستقرار لعقود سنين طويلة، ذي التطور الاجتماعي والتقاليد الثقافية الفاعلة، نجد أن شعراء مدينة حلب، حتى أصحاب المجموعات الشعرية منهم، مجهولون في اللاذقية وحمص وأيضًا في العاصمة دمشق


شارل بودلير


عباس بيضون



علاء خالد


سعدي يوسف

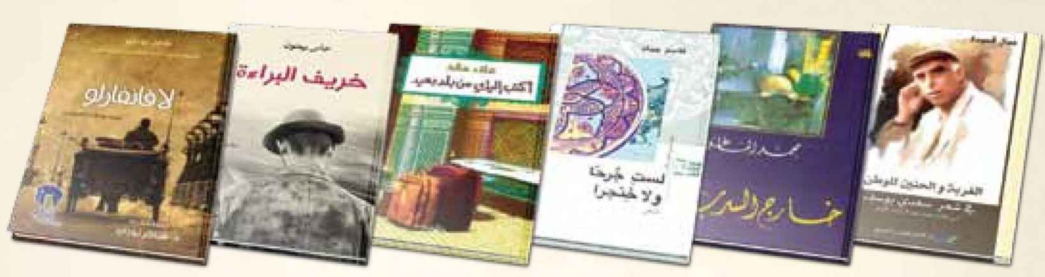
قاسم حداد

حيث يفترض أن يصبّ فيها كل شيء، إلا إذا حدث وانتقل أحدهم على نحو شخصي، وبخاصة بعد أن تعففت دور النشر المهمة عن طباعة كتب الشعر إلا للأسماء المستطيرة! وصار الشعراء يطبعون على حسابهم عددًا ليس كبيرًا من النسخ، تضاءل في العقدين الأخيرين من ألفي نسخة إلى ألف، ثم إلى خمس مئة، ثم إلى لا أكثر من مئتي نسخة!! يوزعها الشاعر على أصدقائه وأقاربه وعلى شعراء مدينته، وأحيانًا على الشعراء الذين يستطيع الوصول إليهم في مدن أخرى ضمن بلده؛ الأمر الذي يضطره أحيانًا للسفر بنفسه، وغالبًا ما يكون من المتعذر عليه أن يقوم بذلك لإيصالها إلى شعراء بلد عربي مجاور، فكيف إلى بلد عربي يأتي في السلسلة على بعد خمس حلقات!!

وأحسب أنه قد حدث للعديد من الشعراء أن اجتمعوا في مهرجان ما مع شعراء عرب آخرين من جيلهم أو من جيل سبقهم، وهم لم يسمعوا بمجرد أسمائهم، ثم إن كانوا قد سمعوا بهم سماعًا، فهم ليسوا على أي اطلاع على نتاجهم. فأول مرة سمعت باسم علاء خالد مثلًا كان عند لقائنا في مهرجان كافالا في اليونان عام ٢٠٠٢م، أما جرجس شكري، المصري الآخر فقد عرفته فقط في مهرجان جرش عام ٢٠٠٤م. ولا أخجل إن قلت في ذلك المهرجان عرفت لأول مرة أن رئيس اتحاد الكتاب في المغرب هو الشاعر حسن نجمي، ولم أستطع أن أحدد ما إذا كنت قد سمعت باسمه في السابق أم لا.. في سوريا لا تستطيع أن تحصل على المجموعات الشعرية المهمة التي تميزت بها دار الجديد البيروتية، في الثمانينيات والتسعينيات، فكيف لك أن تحصل على أعمال لشعراء تونسيين أو جزائريين أو يمنيين، يومًا لم تقع عيناي لا في المكتبات السورية ولا اللبنانية على كتاب سوداني أو تونسي أو ليبي، والسؤال هو: ألا يطبعون كتبًا في السودان وتونس وليبيا والجزائر والصومال واليمن وقطر والبحرين على الإطلاق؟! وهذا لا يقتصر على الشعر وحده، بل أيضًا الروايات والقصص القصيرة حتى الكتب المترجمة، أما ما يصلنا من مجلات ودوريات ثقافية، لا أدري إن كانت توزع في أنحاء الوطن العربي كافة أم لا، فإنك حتى إن قرأت قصائد لشاعر ما، فإنك سرعان ما سوف تنساه، وذلك لكثرة الأسماء، الداخلة الخارجة في ساحة الشعر. وهذا ما حدث لي عندما كتبت عن الشاعر العراقي الراحل رعد عبدالقادر، فقد ظننت أن قصيدته التي قمت بدراستها في ردّي على ما كتبه سعدي يوسف عنها أول عمل أقرؤه له، مع أن عددًا من قصائده كان منشورًا منذ مدة ليس بعيدة، على الصفحة المقابلة لقصائد لي في مجلة نزوى العمانية.

ثانيًا- هناك الآن، لا بد من الاستدراك، مصادر أخرى متاحة للاطلاع والمتابعة، إذا كان لدى المرء الرغبة والوقت وجهاز كمبيوتر موصول بشبكة الإنترنت. مواقع ثقافية مثل موقع «جهة الشعر» الذي يشرف عليه الشاعر البحريني قاسم حداد، وموقع «كيكا» بإشراف، لا أدري بماذا أصفه، الشاعر والروائي والناشر العراقي صموئيل شمعون، وموقع عراقي آخر هو «الإمبراطور» يشرف عليه شاعر عراقي آخر هو أسعد الجبوري وهناك أيضًا عدة مواقع سورية جديدة مثل: «الجدار» و «ألف» و«أبابيل» و«أوكسجين» هذه كلها يغلب فيها النتاج الشعري، إلا أن موقعًا كـ«قصيدة النثر المصرية» الذي يشرف عليه الشاعر المصري عماد فؤاد يسمح على نحو استثنائي بالاطلاع الوافي على حال هذه القصيدة في بلد عربي كبير تأخر فيه ظهورها نسبيًا عن لبنان والعراق وسوريا، حيث يتضمن ملفًا عن كل من سبعة وستين شاعرًا وشاعرة من الأجيال الثلاثة الماضية للقرن المنصرم. كما أنه يتوافر على صفحات «الفيسبوك» عشرات المواقع الفردية لشعراء من كافة البلدان العربية.

ثالثًا- ما يربك هنا هو، ليس الكثرة والتنوع فحسب، بل أيضًا مستوى النتاج، التراكم الكمي الذي يبدو كأنه استطاع الهروب من حتمية أن التغير الكمي يؤدي إلى تغيير نوعي، وكأن ما يأتي لاحقًا

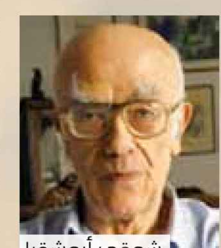


لا يقوم على محو ما أتى سابقًا، أو كأن كلَّ شيء يبدأ بنفسه على نحو ما، ذلك أني التقيت شعراء شبابًا كثيرين يكتبون قصيدة النثر، لا يعرفون توفيق الصايغ ولا شوقي أبي شقرا ولا عصام محفوظ ولا حتى أنسي الحاج، أما في سوريا فسليمان عواد الأب الروحي لمحمد ماغوط شبه نكرة، وإذا كان عواد شاعرًا ظهر في الخمسينيات، فماذا يقال عن شاعر سوري آخر هو بدوره شبه مجهول في بلده، مثل نوري الجراح الذي أصدر أعماله الشعرية بمجلدين سميكين منذ ثماني سنوات؟ رغم ما يعرف عني من حرص على رؤية الأشياء من الزاوية الجيدة، وتصديقي بأن الرسامين والشعراء والموسيقيين يشتهرون بفضل عددٍ من أحسن أعمالهم وليس بأعمالهم كلها، ورفضي لفكرة القراءة بهدف إصدار الأحكام والبحث عن أدلة، وذلك لحرصي بالمقابل على الاستمتاع بهذا الفن الذي وصم حياتي، أجدني غارقًا بشعور معاكس تمامًا، أقرب للشعور بهدر الوقت وإضاعة الجهد والأحاسيس، منه للمتعة والفائدة، وصولًا إلى الشعور بالإحباط والخيبة.

أسماء كثيرة، ومجموعات شعرية كثيرة كثيرة، وقصائد كثيرة كثيرة كثيرة، نستطيع قراءتها هنا وهناك، لا تصنع سوى ذلك التراكم الذي لا يحتاجه أحد، وقليلها يستحق أن يتوقف المرء عنده، ويعيد قراءته محاولًا أن يبقيه في ذاكرته. ولكن، ولكن، يأتيني صوت، وسؤال: «أليس هذه هي الحال دائمًا، أليس دائمًا هناك تلك القلة التي يُعوَّل عليها بأن تقوم بصناعة الفرق؟!».

رابعًا- أحسب أن أي محاولة تبصرية لمعرفة مستقبل حركة أدبية ما، تحتاج إضافة لاجتهاد صاحبها، وقدراته، أن يتوافر لديه بعض المراجع والدراسات التي سبق وقدمت تصورًا، صغيرًا أو كبيرًا لموضوع البحث. وهنا مرة أخرى، تعترضنا إعاقة قاسية في بدن الحركة الشعرية العربية الحديثة، وهي عدم مواكبتها بحركة نقدية حقيقية، نظرية وتطبيقية. مع اعترافي بأنه يساورني قدر كبير من الشك ما إذا كان الشعر العربي اليوم يدين، سلبًا أم إيجابًا، لهذا الغياب النقدي، حيث أكتفي بترجمة بعض المراجع والمنطلقات النظرية التي مهَّدت لقصيدة النثر عالميًّا، مع محاولة بسيطة وساذجة لتأصيلها، بوصف النص القرآني والسرديات العربية بأنواعها، جذورًا لها. أما تطبيقيًّا فلم يزد الأمر عن عدة كتب نقدية

محمد الماغوط



شوقي أبوشقرا

تطرقت للرواد على نحو أساسي، فقد رافقتهم حركة نقدية لافتة بالمقارنة مع من جاء بعدهم، أولئك الذين لم يحظوا في أفضل الأحوال سوى بمتابعات لمجموعاتهم الشعرية في الصحف والدوريات التي تصدر هنا وهناك، تجمع أحيانًا في كتاب، وغالبًا ما تهمل. ولكن منذ فترة وجيزة، نتيجة لهذا النقص وهذه الحاجة بدأت تظهر بعض المحاولات لرصد حركة الشعر العربي الحديث، ومن الغرابة أن ما اتفق على تسميته أنطولوجيات شعرية صدرت كلها بلغات أجنبية.

ماضي الأيام التي لن تأتي

انطلاقًا مما ذكرت، يمكن أن يرسل المرء نظره إلى مستقبل قصيدة النثر في اتجاهين مختلفين، الأول: هل سيكون لقصيدة النثر مستقبل؟ والثاني: ماذا ستكون عليه قصيدة النثر في المستقبل؟ كيف ستكتب؟ وبأية أشكال ستوجد؟ وأحسب أن البحث في كلا الأمرين على تكاملهما الصوري، يشبه حقًّا الرجم بالغيب، وبخاصة في بلاد كبلادنا، لا أحد، حتى المنجمون، يستطيع أن يخمن مستقبلها، التي لم تجد في بحثها عن نقطة انطلاق إلا أن تعود القهقرى لما وراء نقطة الصفر. وإذا اعتبرت أن مستقبل قصيدة النثر العربية هو مستقبل الشعر العربي، أو جزء من مستقبل الشعر العربي، فكثيرًا ما قرأت، أن مستقبل هذا الشعر، يتوقف أساسًا على مستقبل الإنسان العربي نفسه، الناطق باللغة العربية. ثم يأتي ذلك الاستنتاج، الذي لا تعيبه عموميته بالقدر الذي تعيبه شاعريته، بأنه ما دام هناك عرب سيكون هناك لغة عربية، وما دامت هناك لغة عربية فسيكون هناك شعر عربي؟! ولكن ما نعدّه اليوم شعرًا ونفكر فيما يمكن أن يكون مستقبله، قد يختلف لدرجة يصير بها فنًّا من جنس آخر، باختلاف كبير في الطرائق والأدوات كما في الأغراض والمآرب، لا بل قد يأتي يوم ليس بهذا البعد كما يبدو، تزداد به عزلة الشعر وتزداد هامشيته، حتى ينقرض. عندها يمد رأسه ذلك السؤال الصفيق: «ومن قال: إن البشر، لا يستطيعون الحياة بدون الشعر؟». ففي العالم اليوم، يولد ويحيا ويموت الملايين من البشر، عربًا وغير عرب، محرومين أم مرفّهين، متخلفين أم متحضرين، أكلة كافيار أم نابشي حاويات قمامة، دون أدنى اعتبار لوجود الفن التشكيلي أو المسرح أو... الشعر. وبخاصة بعد أن دفع بالأخير أصحابه الشعراء، لسبب أو بدون سبب، ليصير إلى هذه النصوص المربكة التي يتعذر فهمها وتقديرها إلا من قبل أهل الكار أنفسهم، أي أولئك الذين بدوافع جيدة أو سيئة هم الأقل مصلحة في هذه العملية.

يحتاج البحث في مستقبل قصيدة النثر العربية، متابعة حثيثة، ومن ثم معرفة واسعة، للأنسال الجديدة التي تدخل مضمار قصيدة النثر في البلاد العربية وخارجها

اقرأ المادة كاملة في موقع المجلة



بيت في الصحراء.. بحثًا عن نقطة الأصل

كتابة: علاء خالد شاعر وكاتب مصري
فوتوغرافيا: سلوى رشاد فوتوغرافية مصرية

بدأت تتشكل رحلة علاقتي بواحة سيوة عام ١٩٩٢م، عندما لجأت إليها فارًّا من موت أبي ومن مشكلاتي النفسية التي أورثتني إياها علاقات المدينة وزحامها الذي يختزل الموت وآثاره، ويضيِّعه داخل ثنايا العادة والتكرار والملل والسأم. المدينة التي تختزل أي مسافة، وتضعك في عراك مع حافة جسمك، ومن دون أي براح إضافي، تنتقل فيه أنت وحياتك ومشكلاتك وموتك الشخصي إلى مكان جديد. كانت صحراء سيوة في مخيلتي هي المكان الذي لا مكان بعده، وسأجد فيه نفسي، كونه يقع في أبعد نقطة من مدينة الإسكندرية، على الحافة من كوني الخاص، والوصول إليه يعني أن أجرّ معي حياتي ولو لعدة أيام باتجاه هذه الحافة. كما كنا نتخيل صغارًا، حافة الكرة الأرضية، التي بعدها يمكن أن ننزلق، أو نبدأ من جديد.



ثم دخلت في كتابي «خطوط الضعف» محاولًا تلمس العلاقة بين الصحراء، أو الواحة، بوصفها ملتقى خطوط الضعف بين عدة كتل صخرية، وسيرتي الذاتية، التي كنت أراها تمثيلًا جيدًا لهذا التعريف؛ ملتقى خطوط الضعف لعدة كتل صخرية تمثل ترسبات السلطة الأبوية في تاريخنا. في تلك الزيارة، والكتاب، ركزت على فكرة «الزوال» التي تحوط هذا المجتمع الصحراوي؛ بسبب التحولات المدينية وطرق التحديث الخاطئة، نتيجة للطريق الأسفلتي الذي ربطها بالمدينة، وأفقدها عزلتها التي حافظت على جوهرها آلاف السنين. وإن هذا التحديث الخاطئ، سوف يقضي على الواحة، وليس الصحراء، أو على الأقل سوف يؤثر في استمرارها، واستمرار أشكال الحياة فيها.

خلال زياراتي التي تكررت، قل شعوري بالزوال، وتعرفنا هناك إلى أصدقاء بعدد شعر رأسنا، تحدثنا أغلب الوقت في الظلام، أكثر من النهارات، فوق رمال الصحراء الساخنة، وسط غرف لا مرئية للحشيش. لم نر بعضنا جيدًا، لكن استمع كل منا لصوت الآخر بقوة، على أجهزة كشف الكذب القلبية، وكوَّن كل منا للآخر ملامح من هذه الذبذبات. كل من نقابله من أهل الواحة يصبح صديقًا لنا، وله حق علينا، ولنا حق عليه، كما تملي أعرافهم. كل من نقابله ولو مرة واحدة يصبح من الواجب عليَّ لو جئت مرة أخرى أن أسأل عنه وربما أشاركه

الصحراء لا تَقدُم ولا تَتقادَم، ثابتة في الزمن، لا يظهر عليها العجز، المكان الذي ننسى فيه أعمارنا لأنها أيضًا بلا عمر، كولادة أُولى ونهائية، نقطة الأصل الأرضية التي جئنا منها، تضع بيننا وبين مرور العمر ستارة من الرمال، لتحجبه

الطعام، وهذا خلق مفارقات كثيرة. نصبح أصدقاء بقوة قانون الحياة والإنبات، وليس بالفعل. هذا الحق المكتسب، لهم ولنا، جاء بقانون سابق علينا فرضته الصحراء، قانون اللاملكية، حتى في الوقت، الذي يخضع للمصادفة والسمر والثرثرة والغناء والنميمة وقليل من أعمال الفلاحة. هناك؛ كلُّ ما تملك ليس لك: لا الوقت ولا المال ولا الضحك ولا الأسرار.

من الصعب أن تجد سرًّا لأحد أهالي الواحة، دقيقًا وربما جارحًا؛ لا يعرفه الجميع، ويتداولونه في جلساتهم بكل أريحية،





ولا يعني هذا علاقة بالنميمة أو رغبة في تجريح صاحبهم، ولكن تخطى «السر» حاجزًا ما إنسانيًّا. أصبحت وظيفته أن يعري ولا يكشف فقط. كأن جسد الواحة عارٍ في حكاياتهم به العديد من الجروح التي ستظل تنزف من دون توقف أو اندمال. كل شيء مشاع حتى الأسرار.

المكان الذي لا نعود مُميزين فيه طبقيًّا وجنسيًّا. تشعرك الصحراء بأنك مالِكٌ لها لأنها ليست ملكًا لأحد، وأيضًا تشعرك بأنها تملك كل شيء وأنت لا تملك شيئًا. تتبادل معك كل صيغ الملكية والسلب والوهب. ولأنها بلا حدود تذوِّب تمامًا أي حس قومي أو عنصري. يقول ويلفرد ثيسجر، وهو أحد المتخصصين في الصحراء العربية، وأول من قام برحلة في صحراء الربع الخالي القاسية عام ١٩٤٥م، ولمدة خمس سنوات، قال عندما عاش وسط البدو هناك: «لم أشعر بالدونية إلا وأنا وسط البدو».

جئتها منذ خمسة وعشرين عامًا بحثًا عن هوية، أو بالأدق نسيانًا لها، وأنستني واستوعبت غضبي ومنحتني بيتًا ثانيًا من رمال، ألجأ إليه كلما زادت الحياة من وطأتها. ذهبت وعدت منها مرارًا. واشترينا هناك، أنا وسلوى زوجتي، أرضًا وسط الصحراء بالقرب من تلال الرمال، ونوينا بناء بيت سيوي بداخلها، مع حفر عين للمياه، ويحوطهما مساحة خضراء، تخيلناها خليطًا من نباتات وأشجار الصحراء والمدينة والعالم. كان هذا البيت بمنزلة البيت الصحراوي لتصفية النفس من متاعب رحلة الحياة بأكملها. دائمًا ما نحلم بأن نقضي فيه سنوات مختلفة عن سنوات المدينة وضوضائها وأضوائها، والدهون العالقة بعزلاتها. الصمت هناك يبتلع أي ضوضاء داخلية. الغشاء

كأن جسد الواحة عارٍ في حكاياتهم، به العديد من الجروح التي ستظل تنزف من دون توقف أو اندمال. كل شيء مشاع حتى الأسرار

الصحراوي الذي يحجب أي إضاءات زائدة، لكنه في الوقت نفسه لا يحجب أضواء الحياة الأساسية. لم نبنِ هذا البيت حتى الآن، منذ فكرنا فيه عام ٢٠٠٠م. لكن هذا البيت المؤجل أصبح يربطنا أكثر بالمكان. بيت الرمال الذي يوجد فقط في الخيال، ويكبر داخله دون أن ينهار.

أعرف تمامًا أن هذا البيت، لو بنيناه، لن يكون ملكًا لنا وحدنا أنا وسلوى. سيشاركنا فيه كل السيويين من الأصدقاء. نحن طارئون على حياتهم وصحرائهم، وسيقتسمون معنا أي شبر باعوه من صحرائهم؛ لأنهم تحملوا، هم وأجدادهم، صعوبة العيش في الصحراء وعلى حوافها. هذا هو القانون العادل للحياة. يعرفون وربما يضحكون في أكمامهم، عندما يرون كل هذه الأراضي والأملاك والفيلات المبيعة ستعود في النهاية لهم ولأولادهم، أو على الأقل سيقتسمونها مع أصحابها بوصفهم أحد الورثة الأصليين؛ لأنهم الأطول نفَسًا في صراع الحياة والاستمرار، والخاسرون من البداية، الذين تعرضوا لضغوط شديدة طوال حياتهم عوَّدتهم على أن يربضوا ويقرفصوا في انتظار لحظة الانطلاق للقبض على الغنيمة، مهما زاد زمن القرفصة والانتظار.

في زيارتي الأخيرة لسيوة، منذ شهر تقريبًا، بدأت تتكون نظرة جديدة غير تلك التي كونتها عن الواحة. ربما كنتُ أحمل معي في حقيبة السفر في الماضي أسطورة «نهاية العالم»، التي سيطرت على نظرتي تجاه الحياة ونفسي.

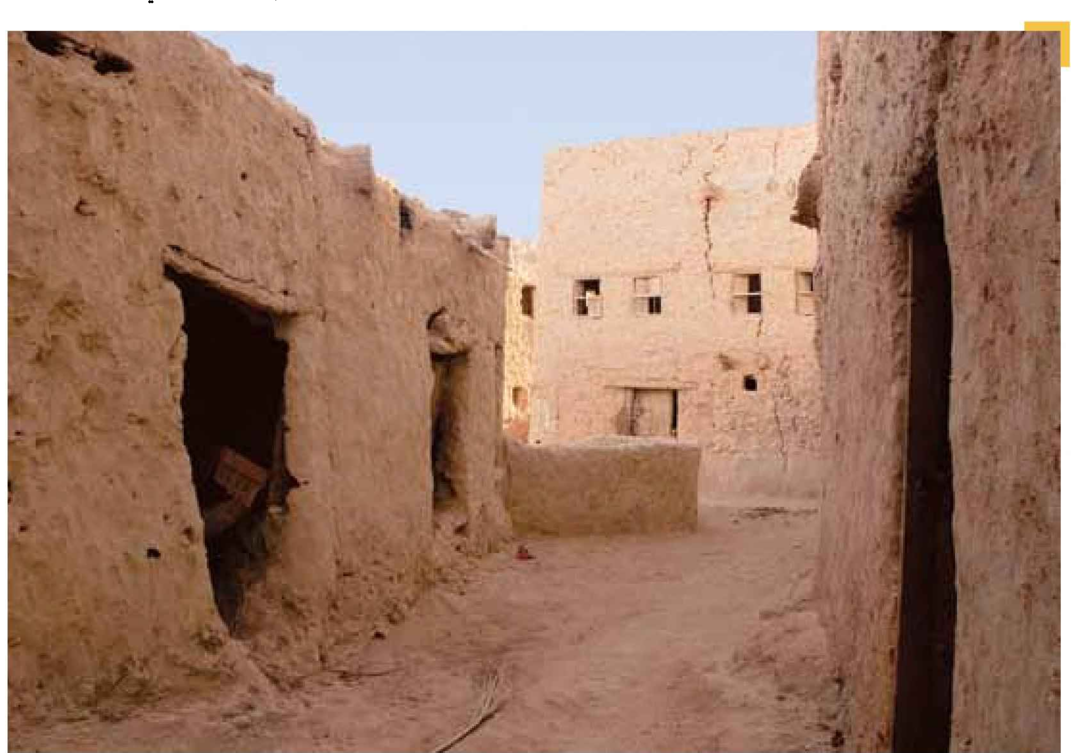
لقد خالفتِ الواحة توقعاتنا، ربما تغيرت أشياء كثيرة داخل نطاق الحياة اليومية، ولكن لا يزال هناك فلاحون يقضون النهار كله في الأرض، ويعودون مع مغرب الشمس إلى بيوتهم فوق عربة الكاروصة التي يجرها حمار. ما زال هناك أطفال يلعبون في عتمة الحواري المتربة ولا يحلمون إلا بالذهاب مع آبائهم للحقول والعودة معهم مع المغارب فوق «الكاروصة» التي تهتز باستمرار، وتتحول لمرجيحة لأحلامهم الطفولية. ومجرد عدو بعضهم وراء بعض، وإثارة التراب، وملامسة أقدامهم الحافية؛ أحد مصادر سعادتهم. ولم ينعزلوا بعد في غرف أمام شاشات مضيئة أو ألعاب رقمية.

ما زالت في هذه المدن القديمة عناصر استقرار وبقاء تعادل أو تتفوق أحيانًا على عناصر التحول والتغيير والمسخ. هناك شيء قديم وجوهري في المكان هو الذي يحافظ على ذكريات وآثار الناس، شبيه بالعنصر المشعّ في الانشطار النووي الذي يقضي عمره كله في نشاط، وربما لن يدرك لحظة همودِه، ربما الصحراء نفسها هي هذا الشيء القديم والجوهري.

الصحراء فضاء الذي لا يقبل التحول، لتمنُّعه وصعوبة السكن فيه. إنه للإقامة المؤقتة العابرة، مهما طال زمنها. كل من اقترب منها، فهو يقدم على مغامرة تستخدم هذه الأفعال الخاصة: يرتاد، يقتحم، يغزو، يعبر. كون الصحراء كونًا منيعًا مكتفيًا بذاته. ولا يمكن أن تعيش عمرك غازيًا، أو مقتحمًا، أو مرتادًا، أو عابرًا. إما أن تصبح أحد أبنائها، وهو اختيار صعب للغاية، أو ترحل كما يرحل الغزاة والمستعمرون.

عندما سافرت إلى سيوة للمرة الأولى عام ١٩٩٢م كنت أبحث عن عزاء يهزم حزني المديني والمكرر. لم أفقد الحزن هناك لكنه تحول لحزن شفاف ليس له مركز محدد، يمكن أن يذوب ولا يكون به سواك. كل ما كنت أهرب منه: الحزن، الموت، الملل، الزهق، تضخم ذاتي، الفقد؛ وجدته هناك، لكن مصحوبًا بسعادة إضافية بعد أن صُفِّي من شوائب المدينة، بعد أن عاد لأصله الكوني مجردًا وذائبًا في فضاء لا تصنيفات طبقية أو عمرية أو اجتماعية له. من دون ملوثات المدينة وأفكارها المنصبة على الصراع والخناق والتنافر والتزاحم والصعود الطبقي. عاد الحزن هناك مثل الرمح المسنون حادًّا وواضحًا وصريحًا ومؤلمًا أيضًا.

الصحراء لا تَقدُم ولا تَتقادَم، ثابتة في الزمن، لا يظهر عليها العجز، المكان الذي ننسى فيه أعمارنا لأنها أيضًا بلا عمر، كولادة أُولى ونهائية، نقطة الأصل الأرضية التي جئنا منها، تضع بيننا وبين مرور العمر ستارة من الرمال، لتحجبه. العمر داخلها يُحسَب بحركة الكثبان، بنمو الهضاب والسهول، بتآكل الجبال، بلمعان عظام الحيوانات التي نفقت بها كأنها





عظام بلاستيكية، بتحول الصخور إلى صخور ملساء يمكن أن تغني، بدوران الريح، بالانتقال من نقطة إلى أخرى داخل هذا الكيان غير المحدود، بصورة البحر المعكوسة بداخلها، بالغرق والتيه وسط بحر الرمال. الكيان الذي يمتد عمره قبل ميلاد الإنسان، لذا هو يسبق في ذاكرتنا نقطة الأصل حيث وُلدنا، إنه الستارة الرملية التي تقف خلف نقطة الأصل مثل شلال من الرمال. الموت بدون جثة أو شاهد، هذا الاتساع اللانهائي هو الشاهد. البصر يسقط من التعب قبل أن ينتهي الأفق، قبل أن تكون النهاية.

يقدم مايكل أشر، الرحّالة الإنجليزي، وأحد أهم مرتادي الصحراء العربية والإفريقية في القرن العشرين في كتابه «الرحلة المستحيلة» الذي يروي فيه رحلته الطويلة مع زوجته عبر الصحراء بالجمال من موريتانيا مرورًا بمالي والنيجر وتشاد والسودان ومصر؛ يقدم الكتاب بأبيات للشاعر الأميركي ت. س. إليوت: أبدًا لن نكف عن التجوال بحثًا عن أماكن أخرى/ وليكن آخر ما نستكشفه/ هي تلك النقطة التي بدأنا منها/ عندها فقط سنتعرف على هذا المكان/ كأننا نراه لأول مرة.

بالفعل غاية أي رحلة أن نستكشف نقطة الأصل، التي عادة ما نغادرها بعد ولادتنا ونضجنا لنبحث عن أماكن أخرى، وتظل هذه النقطة عالقة بنا وتتحرك معنا في انتظار أن نعود إليها ونكتشفها. لا شك أن الصحراء أحد نقاط الأصل بجانب الموطن، والبيت، والقبر، ورحم الأم.

الصحراء بطبيعتها غير مجاملة لأنها لا تعكس شيئًا،

من دون ملوثات المدينة وأفكارها المنصبة على الصراع والخناق والتنافر والتزاحم والصعود الطبقي. عاد الحزن هناك مثل الرمح المسنون حادًّا وواضحًا وصريحًا ومؤلمًا أيضًا

سوى نفسها، ولا تمتلئ بأحد، إلا نفسها. صاحبة العصمة، ولا سابق لصورتك بها؛ لذا تشعر بنفس اندهاشك الأول في كل مرة تزورها، كأنك غريب عنها، ولا رفقة مشتركة بينكما. تزورها كل مرة بروح الغريب. ليست مرآة لأحد، لا تضخِّم ولا تصغِّر، لكنها تشفّ صورتك، تتجاوزها إلى ما يقبع وراء المرآة. لا تعكس سوى الصمت بداخلك الذي يخفي بدوره تلك الذات المتضخمة، ويسحبها كذبيحة داخل هذا الصمت بكل ثقله وإزاحاته الممكنة وقدسيته.

أصبحت سيوة، والمدن المشابهة، خط رجعة لنا، نحن أبناء المدن، لنوع من الحياة التي سنلجأ إليها يومًا ما كما نلجأ للملاجئ الجماعية وقت الحروب. هؤلاء المتمسكون بجمرة هذه الحياة، هم قادتنا في المستقبل. هم الذين سيحملون لنا كشافات الإضاءة وسط ظلام صالات السينما. سيكونون قادتنا من دون ادعاء ومن دون أي رغبة في القيادة، إنها اضطرارات نهايات العالم، أو بمعنى آخر: بداياته.

الإسكندرية ١٧ مايو ٢٠١٧م



إصدارات إدارة البحوث

"Useful Syria" and Demographic Changes in Syria

«سوريا المفيدة» والتغيير الديموغرافي في سوريا

Masarat

Iran's Presidential Elections of May 2017 – An Overview

30



ص.ب (٥١٠٤٩) الرياض ١١٥٤٣ - المملكة العربية السعودية - هاتف ٤٦٥٢٢٥٥ (١١ ٩٦٦+) فاكس ٤٥٧٧٦١١ (١١ ٩٦٦+)
البريد الإلكتروني research@kfcris.com الموقع الإلكتروني www.kfcris.com



محمد سبيلا
مفكر مغربي

العرب والتقدم

مفهوم التقدم هو مفهوم حديث، فهو يقوم على نظرة مقارنة ضمنية بين درجات تطور المجتمعات على خط تاريخي واحد هو الخط (الافتراضي) للتطور العالمي الذي يتضمن ويفترض تفاوتات على الخط العام، وتفاوتات قطاعية أيضًا. مجالات التطور التي يفترضها هذا المفهوم هي التطور التاريخي عبر مفاصل أصغر هي التطور الاقتصادي، والتطور الاجتماعي، والتطور السياسي، والتطور التقني.

يمكن أن نرى كل هذه المفاصل إما من المنظور الكمي أو من المنظور الكيفي. فالتطور أو التقدم الكمي هو حساب درجة التطور الاقتصادي مثلًا من خلال عوامل أو مفاعيل كالناتج الخام الوطني، ومنسوب كل فرد سنويًّا، ومستوى الاستهلاك والإنتاج والتصدير، ومؤشر النمو الاقتصادي. كما يمكن أن تقاس درجة التطور أو التقدم التقني من خلال مستوى التصنيع إنتاجًا واستهلاكًا ونسبة توزيع واستعمال الآلات على المستوى الوطني. بل إن القياسات الكمية للتطور بدأت تطول المجالات كافة، فالتقدم السياسي يقاس اليوم بدرجة الاندراج في السيرورة الديمقراطية التي بدورها تقاس بمعيار الحريات والحقوق السياسية، والأحزاب السياسية، والنقابات المهنية، والمؤسسات التمثيلية السياسية المحلية والوطنية... حتى التقدم الثقافي على الرغم من سمته الكيفية الأساسية فقد أصبح قابلًا للقياس من خلال حرية الصحافة ومستوى القراءة والإنتاج والتوزيع الثقافي للكتب والمجلات والصحف، وقد أضيف إليه اليوم الاطلاع على المصادر الثقافية في الشبكة العنكبوتية، إلى غير ذلك من المؤشرات.

من المؤكد إذن أن علاقة العرب بالتقدم يمكن أن تخضع لتقديرات كمية كما يمكن أن تخضع لرؤية كيفية، تتطلب النظرة الأولى تجميعًا للمؤشرات الكمية القُطْرية والقطاعية إلا أنها تظل في حاجة إلى رؤية شمولية على مستوى من التعميم والتجديد، ومن خلال الاعتماد على رؤية دينامية تاريخية شاملة لا تخلو من افتراضات وتقديرات كيفية. يشكل العرب اليوم كتلة بشرية يجمعها تاريخ يلحمها تجمع مكاني وروابط تاريخية ومعنوية كثيرة، أهمها وحدة اللغة وهيمنة معتقد ديني يأخذ تلوينات مختلفة، وثقافة مشتركة ذات جذور تاريخية متجذرة.

دينامية الصراع

تاريخ العرب الحديث هو تاريخ تحكمه دينامية قوية هي دينامية التحديث أو على الوجه الأصح دينامية الصراع بين التقليد والتحديث، وذلك منذ أن هبَّت أول رياح التحديث على المنطقة العربية منذ أواسط القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد منذ غزو نابليون لمصر. فالقانون الأساسي الذي يحكم تاريخ العرب الحديث هو بندول النهوض والسقوط، والمراوحة بين هذين الحدين: إرادة النهوض وعوامل السقوط.

تعود إرادة النهوض عند العرب إلى إرث تاريخي قوي يتمثل في أن العرب صنعوا فترة من التاريخ العالمي، وبلغوا ذروة التاريخ بين القرنين التاسع والثالث عشر عبر علومهم وآدابهم وتمددهم الجغرافي. لكن التاريخ مدٌّ وجزر. وظل هذا الحلم التاريخي يراود حسهم ووعيهم رغم كل الانكسارات والخيبات. يتمثل الامتحان التاريخي العسير الذي تعرض له العرب في العصر الحديث في سيرورة الحداثة التي انطلقت من أوربا وانتشرت عالميًّا خلسة وقوة، وأصبحت تمثل شرطًا أساسيًّا للوجود في العالم وللانتماء إلى العصر. ورغم ما للعوامل الخارجية المتمثلة في الاستعمار والإمبريالية وإرادة الهيمنة الغربية، فإن المآلات السلبية يمكن أن تفسر بدينامية وأهمية الكوابح الداخلية التي يتحايل الوعي العربي على نفيها أو تذويبها وإنكارها؛ لأن الوعي التاريخي وعي ماكر من حيث إنه يمارس ويؤسِّس للتضليل الذاتي بإسقاط ما هو داخلي على ما هو خارجي، أو ما هو رُوحي على ما هو عقلي، وما هو ذاتي على ما هو موضوعي أو تاريخي في مراوَحة حادة بين الاستهداء والتيه. اكتشف العرب العصر الحديث تدريجيًّا عبر مسلسل اكتشافات كانت كلها صدمات خادشة وجارحة للشعور بالذات أو بما سمِّي بالنرجسية وبالجروح النرجسية المؤلمة.

مر اكتشاف الحداثة عبر صدمات متلاحقة معالمها الحديثة والتاريخية الكبرى هي صدمة غزو نابليون لمصر (١٧٩٩- ١٨٠١م) وصدمة الاستعمار ابتداءً من ١٨٣٠م، وصدمة سقوط الخلافة ١٩٢٨م، وصدمة احتلال فلسطين ١٩٤٨م، والهجوم الثلاثي ١٩٥٦م، والهزيمة ١٩٦٧م،

واحتلال العراق ٢٠٠٣م... وهي كلها صدمات ذات وجهين: العنف والتحديث، صدمات مزدوجة أو مركبة، سطحها حداثي وتاريخها، وعمقها فكري وثقافي.

ردود الفعل المختلفة التي واجهت هذه الصدمات هي أشكال متباينة من الوعي المراوح بين الوعي المغلوط أو المماوه والوعي التاريخي الحاد والجارح، وكذلك ردود أفعال من إرادة النهوض لدرجة تسمح بالقول بأن تاريخ العرب الحديث هو تاريخ النهوض والسقوط المستمر. وهو القانون نفسه الذي يحكم أشكال حركية الوعي العربي المراوح بين الارتداد والانفتاح، بين النكوص والاستجماع؛ ولعل الوعي التاريخي العربي الحديث هو وعي ظل يراوح بين استلهام الأصولية الإسلامية، أو استنشاق بعض هواءات الحداثة كما تمثل ذلك النزعة القومية في صيغتها الليبرالية والاشتراكية، بل إن المنحنى التاريخي للوعي العربي ظل بمنزلة حركية جيبية تراوح بين النزعة الإسلامية (أوائل القرن التاسع عشر في مصر والجزيرة) والنزعة القومية/ الاشتراكية (ابتداء من أربعينيات القرن العشرين إلى سبعينياته) ثم العودة القوية للتيارات الإسلامية بعد هزيمة ١٩٦٧م وبداية الثورة الإسلامية الإيرانية (١٩٧٩م)، أي في مراوحة مستمرة بين وعي تقليدي ووعي تحديثي تتخلله مزاوجات وتطعيمات، تسويات وتطرفات ذات اليمين أو ذات الشمال.

ورغم أن التضخم التدريجي لتيارات التطرف والعنف التي استمر تدرجها في سُلَّم تبنِّي العنف الداخلي والخارجي بوصفه في نظرها السبيل الأمثل لتحقيق الأهداف التي تبلورت في الوعي العربي الإسلامي، وتحوَّل ذلك إلى مشكل عالمي، فإن بإمكان القيادات الثقافية والسياسية للوعي العربي استعادة التحكم في هذا التوجه المتطرف بإعادة تدوير الدفة الثقافية للنواة الأصلية نحو الانفتاح والقبول بالاختلاف والتعدد على المستويات كافة، واستيعاب تغيرات العالم فهمًا وتعاملًا، وذلك في اتجاه التصالح مع تحولات العصور الحديثة والقبول ببعض سياقاتها ودلالاتها ومنظوراتها. تدخل كل هذه المخاضات ضمن ما يمكن تسميته مخاضات الحداثة والتحديث التي هي دينامية أو ديناميات تفرض نفسها بشكل موضوعي بعدّ العالم كله قد ركب قطار الحداثة منذ انتشار آلية التحديث عالميًّا التي بدأت مع مرحلة الاستعمار، واتخذت بعد ذلك أشكالًا أكثر شبكية.

رعاية مخاضات التحديث

لقد عهد إلى المؤسسات الدولية المختلفة السياسية والتقنية والثقافية الوصية برعاية مخاضات التحديث على المستوى العالمي بمتابعة ومراقبة سيرورات ومؤشرات النمو على مستويات التطور كافة ابتداء من المؤشرات الثقافية (نِسَب الأمية والإنتاج والاستهلاك الثقافي) إلى المؤشرات الاقتصادية (نسب النمو، والموازنة المالية، وتقليص الحصة الاجتماعية في الإنفاق العام، والناتج الوطني الخام...) والمؤشرات السياسية (نسب المشاركة، والتمثيلية، وفصل السُّلَط، وحقوق الإنسان، وحرية المعتقد) إلى المؤشرات الاجتماعية، ونسب الفقر، وعتبة الفقر، وتوزيع الثروة الوطنية، والأمل في الحياة، وحقوق الإنسان (النساء، والأطفال، والعمال، وذوي الاحتياجات الخاصة) والبطالة، والسجون، والإجرام، والتمدرس، والخصوبة. فقد أصبحت المؤسسات الدولية هي الساهرة ضمنيًّا على عملية التحديث التي اتخذت بالتدريج طابعًا كونيًّا.

> **“ من المؤكد أن العرب يتقدمون وإن كان هذا التقدم، بناءً على المؤشرات الكونية، تقدمًا سلحفاتيًّا على وجه العموم، وبسرعة مختلفة داخل البلد الواحد، وغير متكافئ بين الدول (٢٢) المكوِّنة للمجموعة العربية ”**

من المؤكد أن العرب يتقدمون، وإن كان هذا التقدم بناء على المؤشرات الكونية، تقدمًا سلحفاتيًّا على وجه العموم، وبسرعة مختلفة داخل البلد الواحد، وغير متكافئ بين الدول (٢٢) المكوّنة للمجموعة العربية. إذا كانت مشكلات التقدم ومشكلات التحديث أو وتائره (وهما متداخلتان في المؤشرات الكونية) متفاوتة داخليًّا، فهي أيضا متفاوتة بَيْنيًّا. فعلى العموم إذا ما ميَّزنا بين مستويات ثلاث للتحديث أو التقدم، فإننا نلحظ أن سرعة التحديث التقني هي ذات وتيرة متسارعة قياسًا إلى غيرها، في حين نلحظ أن التقدم التنظيمي في وجهيه التقني (المعمار وتنظيم المدن والطرق...) والتنظيمي (السياسي: الدسترة والتمثيلية السياسية والمأسسة والديمقراطية) يسير بخطًا أكثر بطئًا؛ لأنه يصطدم بمقاومات ثقافية ومؤسسية عضوية أو أهلية.

أما على المستوى الثالث (المستوى الثقافي) فوتائر التقدم تتباطأ أكثر؛ إذ «تسير» بسرعة سلحفاتية في أحسن الأحوال لأن المستوى الثقافي الكوني هو الأكثر تشعبًا وتمثلًا للبنية الثقافية والفكرية للحداثة، ومن حيث إن التحديث الكوني هو تعريف للمقولة المركزية للحداثة والمتمثلة في فصل الديني عن الدنيوي، والروحي عن المادي، والمقدس عن التاريخ، أو ما يصطلح عليه بالتمييز الواضح بين السياسة والدين مؤسسيًّا وفكريًّا. هذا إضافة إلى شحنات الحرية والأنسنة التي تحملها الشرعة الكونية لحقوق الإنسان فيما تتضمنه من حقوق (فئوية ونوعية أهمها (حقوق الإنسان) والحريات (لعل من أبرزها حرية الرأي والمعتقَد).

فعلى هذا المستوى يبدو بندول التقدم العربي أكثر بطئًا وترددًا؛ لأنه يدخل في احتكاك حاد مع المكونات الميتافيزيقية للبنية الثقافية التقليدية، ويفرض ممارسة نوع من العقل التأويلي على العقل الجوهري، ويفترض تحويل النواة الثقافية من نواة جامدة وحيدة المعنى إلى سلسلة تأويلات وتكيفات وقوى تاريخية دافعة.

قصائد ابن الورد

عمر شبانة شاعر أردني

❖

أمشي وراءَ اسْمي،
أعلّمه الكتابةَ والغناءَ،
وخلفَهُ أمشي، يعلّمني الحياةْ

❖

عرفتُ الدربَ نحو اسْمي،
عرفتُ: الرّيحُ تحملُني إليهِ،
عرفتُ أشلاءَ المُغنّي في دَمي،
وعرفتُ أنّي سوفَ أجمعُها،
لأكتبَ سِيرتي الأولى،
وأجمعَ مِن شَظاياها..
حروفَ اسمِيْ

❖

عرفتُ الدربَ نحوَ اسْمي،
قرأْتُ دُروبَهُ ومشيتُ،
كان القلبُ مِصباحي
رأيتُ دمًا على الطُّرُقات،
ظِلّي كان مَشنوقًا على الحِيطان..،
كان اسْمي
حُروفًا مِن غُبارٍ بعثرتْها الريحُ،
في مُدُن الصّفيحِ،
وفي الخِيامِ،
وفي قِطاراتِ الغُروب،
وفي شِتاءاتٍ بلا نار،
وشمسٍ دونما مأوى..

❖

أريدُ اسْمًا يُخبّئُني،
شِتائيًّا ثقيلًا كَيْ يُدفِّئَني،
ويَحميني مِن النّيرانِ والطّلقات
أريدُ اسْمًا ربيعيًّا خفيفًا،
مِن زُهور اللوزِ،
واسْمًا للنّخيلِ.. الحُرّْ

❖

وكَتَبْتُ أسْماءَ الرّبيعِ
كَتَبْتُ أسْماءَ الخَريفِ،
كَتَبْتُ أسْمائي وأشْلائي،
لأعْرِفَ مَنْ أكونُ أنا،
كَتَبْتُ، وما عَرَفْتُ..،

كَتَبْتُ أيّامي فُصولا
للصَّباحِ/ وللظّهيرَةِ/ والمَساءِ
لأعْرِفَ السّاعاتِ/ والأيّامَ
أهْذي/ أو أغَنّي /
كَيْ أرانيْ
أو سأكتُبُ أيَّ حُلْمٍ
أكْتُبُ القُبُلاتِ والأحلامَ
أكتُبُ ليلَكِ المَخْمورَ بالأشْواقِ
كُوني كَيْ أكونَ، نكونَ
إنّي عاشِقٌ لِلكَوْنْ

❖

طويلًا..
حفرتُ على اسْمٍ يُلائمني،
وعميقًا حفرتُ لأرسُمَهُ،
ألفَ عامٍ حفرتُ، رسمتُ،
وجُبتُ العواصمَ حتّى اهتَديتُ،
وأيقنتُ أنّي ابتعدتُ، وتهتُ،
وأدركتُ «بالقَلبِ»
أنّي أنا اسْمي

❖

في الدرب جَدّي/ جَدّتي
وكأنّما الطوفانُ يقتلعُ البيوتَ،
كأنّما الحيتانُ تبتلعُ اللآلئَ والشواطئ

في الدرب كان أبي وأمّي،
كانت الغربانُ تنعبُ في الخرائب،
كانت الأوطانُ تمشي في اتّجاه
المَوت،
تأخذُنا إلى أسماءِ مَن صاغوا قواميسَ
البِلادِ من الأساطير،
استففْنا في الطريقِ إلى الفراغِ، كأنّنا
أعداؤنا، نمشي إلينا،
ثمّ عُدنا، عادت الروحُ العليّة، من
سَماوات الخَواء إلى جحيمِ الأرض،
عُدنا، كي نُعيدَ إلى الطبيعةِ ما تشاءُ
من العُذوبة والطَّهارة والغِناءِ، وظلّت
الدنيا تدورُ بنا كما دارتْ بِمَن سَبَقوا،
فدُرنا في الهَباءْ

❖

مِن أينَ جاءَ اسْمي إليّ،
أنا المُشرّد في البَراري والجِبالِ،
ولمْ أعَمِّر في البِلاد سِوى خَرابٍ،
ليس لي في الأرضِ أيُّ عِمارةٍ آوي إليها
عندما تَجتاحني ريح الشّمال،
أنا الذي، من ألْفِ عامٍ دُونما اسم
يدلّ عليّ قلبي،
أو يدلُّ دمي على رُوحٍ أسَمّيها.. بِلاديْ

❖

مِنْ أينَ يأتي اسْمي
إذا لمْ تَزْرَعيهِ في ثِيابِك،
وَرْدَةً في صَدْرِكِ الشَّجَريِّ،
واسْمي العِطْرُ مِنْ نَهْرَيكِ يَدْفُقُ،
وَهْوَ حَقْلٌ مِنْ حُقولِ يَدَيْكِ،
ظَلَّلَني قُرونًا بِاسْمِكِ السِّحْريِّ،
يَغْمُرُني بِحَوْضٍ أبيضٍ مُتَوَسِّطٍ
كَحَديقَةٍ سِرّيةٍ لِلعِشْقِ،
واسْمي نَجْمَةٌ مِنْ ضَوْءِ عَيْنَيْكِ
المُبارَكَتَينِ،
باسْمِكِ سَوف أصْعَدُ سُلَّمَ الأسْماءِ،
باسْمِكِ سَوفَ أهْبِطُ بِئرَ أسْمائي
وأنْهَلُ،
مِن حُقولِكِ سَوفَ أقْطِفُ وَرْدَ أسْمائي..
وأنْحَتُ مِنْ تُرابِ القَلْبِ أسْماءَ الرَّبيعْ

واسْمي الذي،
مِنْ طِينِ «حتّا»* رُوحُهُ،
مِنْ بِئرِها أمْطارُهُ وسَنابِلُهْ
يا تِينَ أسْمائي ويا زَيْتونَها البَرِّيّ،
يُزْهِرُ في دَمي النُّوّارُ،
تُزْهِرُ في السَّماءِ بَلابِلُهْ

واسْمي الذي من وردِ قلبي
جاءني في الحُلْمِ،
أعطاني حِكاياتي وأسمائي:
بلادُ التّينِ والزَّيتونِ،
واسْمي مِن بلادِ الناي،
أنْهارٌ وغاباتٌ، مُحيطاتٌ،
ولاسْمي ألفُ فلّاحٍ وبَنّاءٍ،
وفي قَلْبي تُشادُ سَلاسِلُهْ

واسْمي الزَّمانُ، أخُو المَكانِ،
وبُرْجُ أضواءٍ ومُوسيقا، وزَعْتَرْ
واسْمي عَلى جَبَلٍ صَباحًا،
في المَساءِ يكونُ في الواديْ،
وبَيْنَهما أنا سَهْلٌ، وحَنّونٌ، وبَيْدَرْ

واسْمي أنا بَحْرٌ
ومِينائي مُحيطٌ هائجٌ،
وسأرسِلُ الأمواجَ،
أمواجي، لتَهبطَ في رَبيعِكْ

واسْمي رَبيعٌ للحَدائقْ
واسْمي حُقولٌ للزَّنابقْ

فَلْتَحْفَظي يا شَمْسُ أسْمائي
احْفَظي يا أرْضُ
قامَتِيَ الجَميلَةَ
واحْفَظيني يا سَماءُ
بِكُلِّ أيّامي القَليلةْ

واسْمي أنا..
ما اسْمي إذا جُنَّ النَّهارُ؟
وما اسْمُ مُوسيقايَ في القُبَلِ..
الأغانيْ؟

واسْمي سأكْتُبُهُ مِنَ الأحْلامِ،
مِنْ عَيْنَينِ كالغاباتِ في قَلْبيْ،
ومِنْ عَسَلٍ وجُوريٍّ و.. شامْ

واسْمي غِناؤكِ في الصّباحْ

أنا مَنْ رأى في الشّامِ ضَوْءَ دِمَشْقِها
أنا مَنْ يرى فيها نَدى الأيّامِ

يا شامُ عادَ إليكِ
وَهْجُ الياسَمينُ الشّامي

هلّا تَعودُ لِعِطْرِها.. أيّامي؟
في الصّالحيّة عُدْتُ أشربُ قَهْوتي
في باب تُوما زَهْرَةُ الأحلامِ

وأنا الفلسْطينيُّ
مِنْ شامٍ دَميْ
ودِمَشْق قَلْبيْ

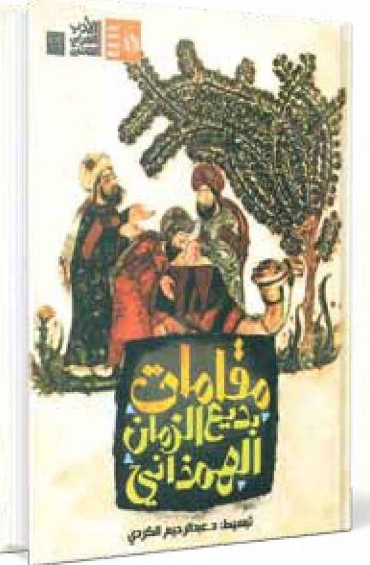
وأنا رأيتُ الشّامَ تَصْعَدُ
والرّياحُ تطيرُ مِن أعطافِها قُبَلا
كأنَّ الربَّ يَرْسمُ وَجْهَها

واسْمي بلادُ الشّامْ
مِنْ أينَ أبدأ يا بلاديْ؟

مقامات
بديع الزمان الهمذاني:
اكتشافات جديدة، نصّ لا ينضب



بلال الأرفه لي باحث لبناني



شكّلت مقامات بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م) موضوعًا شغل بال عدد كبير من المؤلفين العرب والمستشرقين في حقل الدراسات العربية. والهمذاني هو مبدع هذا الفن الذي ترك أثرًا كبيرًا في الأدب العربي والعالمي عامة على مدى أكثر من ألف سنة، ولذا فإن مقاماته تكتسب أهمية خاصة في التراث العالميّ. لكن منذ صدور طبعة محمد عبده لمقامات الهمذاني سنة ١٨٨٩م، لم تطرح الدراسات عن المقامات أسئلة عن التاريخ النصي لهذا العمل؛ فقد ساد الاعتقاد أن محمد عبده عدّل النص في مواضع قليلة ليتوافق مع العرف الأخلاقي السائد في عصره، وفيما عدا ذلك رسخ في أذهان الدارسين أن النص المطبوع يمثّل ما قاله الهمذاني، وبذلك أضحى نص محمد عبده، بكلّ سلبياته وأخطائه، في الغالب، المرجع المعتمد عند الحديث عن مقامات الهمذاني. لكنّ نظرةً متأنّية في عشرات المخطوطات التي وصلتنا تشير إلى أنّ نصّ المقامات قد قام برحلة مذهلة قبل أن يصلنا شكّلت معالمه وغيّرته.

غالب الظن أن مقامات الهمذاني لم تكن تمثّل عند مؤلّفها عملًا أدبيًّا متكاملًا، على الأقل في المرحلة الأولى من تأليفها؛ فالشاعر مثلًا يبدأ بنظم القصائد ومن ثم يجمعها في ديوان حين يتشكّل لديه عدد كافٍ منها، ويمكن للشاعر أن يضيف قصائد إلى ديوانه المجموع في مرحلة لاحقة. وغالبًا ما يجمع الديوانَ أحدُ المقرّبين من الشاعر أو رُواته في حياته أو بعد وفاته. هذا الأمر يصحّ أيضًا في دواوين الرسائل والخطب، ولعلّه الأقرب إلى الصواب أيضًا فيما يتعلّق بمقامات الهمذاني وجمعها، فنحن لا نعرف على وجه التحديد كم مقامة كتب الهمذاني أو ترك لنا، ولا نعرف ما إذا كان هو صاحب جميع المقامات المنسوبة له.

ويمكن بالعودة إلى أكثر من أربعين مخطوطًا لمجموع مقامات الهمذاني، تقسيم مخطوطات المجموع إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: وهي أكثر المجموعات تجانسًا، تتألّف من المخطوطات الخمسة الأقدم، وهي: فاتح ٤٠٩٧، ومدرسة اللغات الشرقية والإفريقية ٤٧٢٨٠، ويال - سالسبري ٦٣، وآيا صوفيا ٤٢٨٣، وباريس ٣٩٢٣.

المجموعة الثانية: مكوّنة من ٢٠ مخطوطًا تعود إلى ما بين القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) إلى القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). تعتمد هذه المخطوطات ترتيب مخطوط فاتح ١٠٩٧، وتتضمن عددًا آخر من المقامات والمُلَح، من بينها الهمذانية والشريفية والخاتمية.

المجموعة الثالثة: تتضمن ١٥ مخطوطًا تعود إلى ما بين القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) والقرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). ترتيب المقامات في هذه المجموعة هو الترتيب الذي نجده في طبعة محمد عبده، وتتضمن، إضافةً إلى المقامات الموجودة في مخطوط فاتح، المقامات التالية: المغزلية، والناجمية، والخلفية، والنيسابورية، والعلمية، والشعرية، والملوكية، والصفرية، والسارية، والتميمية، والخمرية.

مواد لم تتضمنها طبعة محمد عبده:

المقامة الشامية

هذه المقامة مثبتة في بعض طبعات المقامات، ولا يُشكّ بصحة نسبتها إلى الهمذاني. صحيح أن محمد عبده لم يضمنها طبعته، إلّا أن ذلك مردّه إلى دواعٍ أخلاقية بحتة؛ إذ إنه يقول في مقدّمة طبعته (*مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق محمد عبده، ص٦*): «وههنا ما ينبغي التنبيه عليه وهو أن في هذا المؤلّف من مقامات البديع -رحمه الله- افتنانًا في أنواع من الكلام كثيرة، ربّما كان منها ما يستحي الأديب من قراءته. ويخجل مثلي من شرح عبارته. ولا يحمل بالسذّج أن يستشعروا معناه. أو تنساق أذهانهم إلى مغزاه. وأعوذ بالله أن أرمي صاحب المقامات بلائمة تنقص من قدره. أو أعيبه بما يحطّ من أمره. ولكنْ لكلّ زمانٍ مقال. ولكلّ خيال مجال. وهذا عذرنا في ترك المقامة الشامية. وإغفال بعض جمل من المقامة الرصافية. وكلمات من مقامة أخرى مع التنبيه على ذلك في مواضعه. والإشارة إلى السبب في مواقعه». يتّخذ الراوية عيسى بن هشام في هذه المقامة دورَ قاضٍ في بلاد

الشام يختصم إليه رجل هو الإسكندري وامرأتان، الأولى تدّعي صداقًا، والثانية تلتمس طلاقًا ونفقة. يستمع القاضي إلى ادّعاء الرجل في تهرّبه من صداق الأولى، ثم يسمع ردّها، ثم دفاع الرجل الذي يتبيّن كذبه. بعدئذٍ تطلب المرأة الثانية الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، فيحكم القاضي للمرأة بنفقة قدرها «مئة» في الشهر. إلّا أن الإسكندري يجد أن هذا فوق الطاقة، فيهدّده القاضي بإبرام الطلاق. يعود الإسكندري بعد شهرين ليلتمس تخفيف النفقة فينذره القاضي بإبرام الطلاق مجدّدًا، عند ذلك ينشد الإسكندري أبياتًا في هجائه.

أضحى نص محمد عبده، بكلّ سلبياته وأخطائه، في الغالب، المرجع المعتمد عند الحديث عن مقامات الهمذاني. لكنّ نظرةً متأنّية في عشرات المخطوطات التي وصلتنا تشير إلى أنّ نصّ المقامات قد قام برحلة مذهلة قبل أن يصلنا شكّلت معالمه وغيّرته

المقامة الطبّية

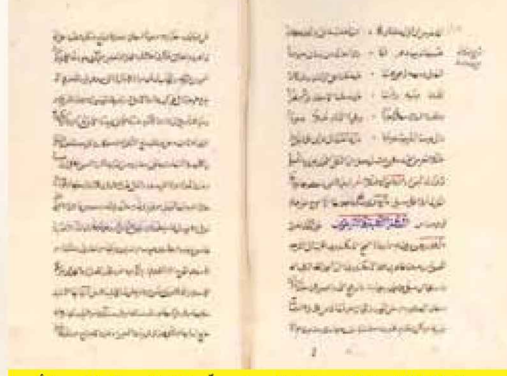
موضوع هذه المقامة، الموجودة حصرًا في مخطوط يال- سالسبري ٦٣، هو الطبّ والصيدلة. يقص راوي المقامات المعتاد عيسى بن هشام مغامرةً لطبيب في مدينة الدونق مع رفقة من مدينة الأهواز. بعد تعداد بارع ومسجّع للأمراض النادرة والعقاقير التي تشفيها، يستطيع الطبيب، بمساعدة ابنه، أن يخدع هذه الرفقة ويحصل منهم رزقه. وكما هي العادة في مقامات الهمذاني الأخرى، يكشف الراوي قناع أبي الفتح الإسكندري في نهاية المقامة. وقد ناقشتُ وموريس بومرانتز في مقالة نُشرت في مجلة أرابكا صحّةَ نسبة هذه المقامة إلى الهمذاني اعتمادًا على الأسلوب والشكل، مؤكّدَين أن وجودها ضمن هذا المجموع القديم يجعلها أكثر موثوقية من خُمس المقامات المنشورة في طبعة محمد عبده.

المقامة الهمذانية

وصلتنا هذه المقامة والمقامتان التاليتان في أكثر من أحد عشر مخطوطًا نشرتُها وموريس بومرانتز في مجلّة الدراسات العبّاسيّة. ومضمون المقامة الهمذانية أن عيسى ابن هشام يصل إلى مدينة همذان الخاضعة لزعامة شخص يدعوه الشريف الحسني. يلتحق عيسى بمجلس الحسني ويلتقي شخصًا «ينتمي لابن المشرّف الكاتب»، وآخر «بالدسكرة قد عاوَدَ الدَّعْوة الأولى [العبّاسية] وانْتَمى لبغداذ». يبدأ هذا الرجل بإنشاد شعر يحنّ فيه إلى الزمن الماضي، ذاكرًا الشيب والشباب، وبعد ذلك ينتقل إلى تعداد المناطق البغدادية والمناطق القريبة منها. يخلص الشاعر بعدها إلى مدح الشريف الحسني بالجود والعطاء والإحسان، وهي صفات تمكّن الشاعر من التغلّب على «ريب الزمان». وفي البيتين الأخيرين يشير الرجل إلى سفره واختباره بخل الناس وَجودهم قبل أن ينصرف إلى حضرة الشريف. وفي ختام المقامة يتعرّف الشاعر إلى هوية الراوي عيسى بن هشام، فينشد بيتًا في الغزل ينمّ عن هذا التعرّف ويتداركه ببيت آخر يستره، فيردّ عيسى بن هشام ببيتٍ يعِدُ الشاعرَ بكتمان سرّه.



المقامة الطبّية في مخطوط يال-سالسبري، ورقة ٢٩أ-٣٠ب



المقامة الشريفية في مخطوط مجلس ملّي ٢/٥٧٦٤، ورقة ١٢٤ب-١٢٥أ

المقامة الشريفية

راوية هذه المقامة هو ابن عيسى بن هشام، واسمه محمد. يروي محمد أنه شهد أبا الفتح الإسكندري يكتب للشريف الحسني نيابةً عن طاهر بن محمد الإسكندري، وأن فحوى ما كتبه رغبته في العودة إلى حضرة الشريف ومدحه بعد أن اضطرّته صروف الدهر إلى ترك تلك الحضرة. ينتقل كاتب المقامة بعد ذلك إلى وصف ما لقيه في بُعده من شقاء وقلق وسهاد وبخل الباخلين، ليمدح الشريف مجدّدًا في الختام.

المقامة الخاتمية

يروي عيسى بن هشام في هذه المقامة قصة خلاف حول «زوجَيْ خاتم» بينه وبين أبي سعد القائجاني، وكان أبو سعيد قد قايض أحد الزوجين بـ«توزيع» ناله من الأستاذ أبي علي الحسن بن أحمد، ولكنه ندم بعد أن عرف قيمة الخاتمين. عند ذلك يتحدّى القائجاني الراويَ في لعبة شطرنج يكون الخاتمان فيها من نصيب الرابح، فإذا بالقائجاني يغشّ في



مخطوطة فاتح ٤٠٩٧ وهي المخطوطة الأقدم لمجموع مقامات الهمذاني

المقامة الخاتمية في مخطوط مدرسة اللغات الشرقية والإفريقية ٤٧٢٨٠، ورقة ١٢٢ب-١٢٣أ

اللعب مرّتين. وكان القائجاني أقرع لا يتجاسر أحدٌ على ذكر الرأس أو القرع في حضوره، فإذا بالراوي ينظم شعرًا ينذر فيه القائجاني ويذكر رأسه لأنه رفض تسليم الخاتمين الآخرين. وتستمر المكاتبة والخلاف وذكر القَرَع إلى أن يجتمع الاثنان إلى مائدة أبي الحسن بن أحمد. إلّا أن الراوي يمتنع عن الطعام بسبب حضور القائجاني، وينشد أبياتًا يهجوه معرّضًا برأسه الأقرع. ولما استغرب أبو الحسن هذا الفعل على المائدة، قص عليه عيسى بن هشام ما حدث. في إثر ذلك تناول أبو الحسن الخاتمين من القائجاني وأعطاهما لعيسى وسأله أن يتوقّف عن الهجاء. وتنتهي المقامة بأبيات من الشعر لأحد الكتّاب يمدح فيها عيسى بن هشام لهجائه القاسي للقائجاني. غير أن القائجاني شكا هذا الأمر إلى الأستاذ أبي الحسن، فردّ عيسى بشعر يذكّر فيه القائجاني بأنه كان قد حذّره من مغبّة فعله.

خاتمة

أسّس الهمذاني في مقاماته لفنٍّ ترك أثرًا كبيرًا في الأدب العربي والعالمي، غير أن نص الهمذاني نص مفتوح لكثير من الأسئلة التي لا تتعلّق بتأويله فحسب، بل أيضًا بجمعه وتكوينه وتاريخه وتداوله. ويبدو أن مجموع مقامات الهمذاني تشكّل على صورة كتاب في مرحلة لاحقة من حياة المؤلّف، وذلك بتأثير من مجموع مقامات الحريري الذي تضمن خمسين مقامة. ولما كان ثمة مجموع مبكّر لمقامات الهمذاني قيد التداول يتضمن أربعين مقامة، فالظاهر أن نسّاخ مقامات الهمذاني وجامعيها أضافوا مقامات إلى هذا المجموع ليصل المجموع إلى خمسين. ولا يعنينا في هذا المقام صحة نسبة هذه القطع الأدبية إلى الهمذاني بقدر ما يعنينا أن إضافتها إلى مجموع مقامات الهمذاني دليل على أنها همذانية الطابع، وأن مجموع مقاماته كان لا يزال قيد التشكّل حتّى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) على أقل تقدير.



شكري المبخوت
أكاديمي وروائي تونسي

توفيق بكّار..
القارئ العاشق لعيون الأدب العربيّ

مثّل رحيل الجامعيّ والناقد والمثقّف التونسي توفيق بكّار (١٩٢٧ - ٢٠٠٧م)، خسارة كبرى لرمز من أهمّ رموز الثقافة التونسيّة وخسارة أكبر للجامعة التي غادرها منذ ما يناهز العقود الثلاثة، لكنّه ظلّ من فرسان العلم فيها بنصوصه واتّجاهه في النقد، وأثره في تدريس الأدب فيها. وليس من باب الصدفة أن تشيّعه نخبة متنوّعة من الجامعيّين والمثقّفين والأدباء والفنّانين والفاعلين في المجتمعين المدنيّ والسياسيّ التونسيّ من جميع الأطياف الأيديولوجيّة يتقدّمهم رئيس الحكومة ووزيرا التعليم العالي والثقافة، إضافة إلى عدد من رؤساء الجامعات. ولهذا الإجماع على شخص توفيق بكّار بوصفه رمزًا أسباب كثيرة نكتفي منها بإسهامه في تجديد الدرس الأدبيّ.

ينتمي توفيق بكّار إلى النخبة التي ساهمت في تأسيس الجامعة التونسيّة وتطوير الثقافة الوطنيّة. فما إن أتمّ دراسته الجامعيّة بالسوربون متحصّلًا على التبريز في اللغة العربيّة وآدابها أواخر الخمسينيات من القرن الماضي حتّى عاد إلى تونس للتدريس بجامعتها. وفي هذا السياق نفهم جوانب كثيرة من مآثره. فقد اهتمّ بالأدب التونسيّ توثيقًا له، وإبرازًا للأصوات القويّة فيه، وتنزيلًا له منزلته من الأدب العربيّ. فكان يدرّس إلى طلبته نصوص محمود المسعدي وعلي الدوعاجي ومحمّد العريبي والشابّي وحسن نصر وعز الدين المدنيّ وغيرهم على قدم المساواة مع نصوص كبار الكتّاب العرب من أمثال: نجيب محفوظ والطيب صالح وإميل حبيبي. وفي هذا كان بكّار يساهم مع أبناء جيله في بناء الذاكرة الثقافيّة التونسيّة من خلال الأدب ضمن مشروع أكبر هو بلورة الذاتيّة التونسيّة مع دولة الاستقلال.

بيد أنّ إضافته الأساسيّة لا تكمن في الاهتمام بالأدب التونسي في جامعة لم تكن ترى فيه ما يستحقّ التدريس، بل تكمن أساسًا في أن أصبح توفيق بكّار يُعرَف بمناهج الدراسات الأدبيّة. فقد أنشأ وحدة للتدريس تعتمد على تكوين طلبة شعبة العربيّة في المناهج النقديّة الحديثة. ويقصد بها آنذاك ما أفرزه النقد الجديد في فرنسا، متأثرًا بالشكلانيّين الروس أساسًا، من نظريّات وما صاغه من مفاهيم في اتّجاهات سمّيت الشعريّة والبنيويّة (تودوروف) والنصّانيّة (بارت) والبنيويّة التوليديّة (غولدمان). وإذا علمنا أنّ هذه التيّارات النقديّة كانت تخوض آنذاك في الجامعات الفرنسيّة معركة ضدّ التصوّرات النقديّة الكلاسيكيّة أدركنا حجم المغامرة الشجاعة التي أقدم عليها توفيق بكّار بنقلها إلى الجامعة التونسيّة الفتيّة. ولولا تكوينه المتين في اللسانين والثقافتين العربيّة القديمة والفرنسيّة والاحترام الذي كان يحظى به من زملائه لما أمكنه أن ينجح في مغامرة استنبات النقد الحديث في الجامعة التونسيّة. لقد كان من القلائل الذين استطاعوا إقناع زملائه بأهمّيّة أن يكون حظّ الطالب التونسيّ مماثلًا لحظّ الطالب الفرنسيّ في الاطلاع على تيّارات نقديّة معاصرة لم تستقرّ بعد الاستقرار الذي يقنع أساتذة درسوا عن المستشرقين علمًا كان يقدّم بمناهج كلاسيكيّة.

الجامعة مختبرًا للقراءة

لم تكن دروس توفيق بكّار بالنسبة إلى طلبته إملاء بليدًا، ولا محاضرات منقولة من الكتب يستشهد فيها بمن يعتقد أنّهم أئمّة النقد. بل يشهد طلبته الذين اختلفوا إلى تلك الدروس أنّها كانت دروسًا في المنهج: «كيف نحلّل نصًّا؟»، تعلّمهم مراس الكلام الأدبيّ شعرًا ونثرًا على نحو مدقّق لا يقنع إلّا بالنصّ منطلقًا ومادّة للاستدلال العقليّ. ولكنّ هذه الدروس كانت أيضًا فرصة للتمتّع بفصاحة نادرة فاتنة عُرف بها هذا الأستاذ الهادئ الرصين ذو الصوت الخافت الذي

يتجوّل بين المقاعد مفكّرًا ينحت قوله نحتًا، فتخرج الجُمَل من فمه موقّعة سلِسلة تأخذ الألباب. إنّه بعض من سحر توفيق بكّار الذي تجد أثره حتى في الفصول التي جمعها في كتب بداية من السنوات الألفين. لقد كانت قاعة الدرس عند بكّار مخبرًا يشتغل فيه مع طلبته على نصوص كثيرة من عيون الأدب العربي القديم (ابن المقفّع، والجاحظ، والهمذاني، والأصفهاني، وبشّار، وعنترة، وأبو نواس... إلخ) والحديث (المسعدي، والشابّي، والدوعاجي، ومحفوظ، والطيب صالح، ودرويش... إلخ). فالتلازم بين التدريس والبحث عنده كالتلازم بين التنظير، اطّلاعًا على دقيق المقاربات وجليل المفاهيم، والتطبيق، تحليلًا لخصائص المباني ومميّزات المعاني، هما عمدة هذه التوجّه الاختباريّ الذي كان يلحّ عليه توفيق بكّار غير مؤمن بإطلاقيّة المنهج ما لم يساعد على الإصغاء إلى النصّ وخفايا المعنى فيه، وييسّر الكشف عن أدبيّته. إنّ هذا المختبر النقديّ هو فضاء القراءة التي يتفاعل فيها المعرفيّ العلميّ بالحسّ الجماليّ الذي يمكّن من تتبّع دقائق النصّ بحثًا عن فرادته بين النصوص.

منهج بكّار في القراءة

ليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: إنّ لبكّار منهجه الخاصّ في ممارسة النصّ. فهو يسلّم، بادئ ذي بدء، بأنّ النصّ بعلاماته وشكله ومبناه أساس التحليل. لكنّه لا يقيّد نفسه بمدرسة في النقد أو منهج دون غيره، وإن كنّا نجد في أعطاف كتاباته اطّلاعًا دقيقًا عليها. فهو من الذين يتملّكون المنهج ويطوّعون المفاهيم لفكّ شفرات النصوص وإعادة تركيبها حتى يخرجوها مخرجًا طريفًا لا يعرف سرّه إلّا الفنّان المتذوّق لجيّد النصوص مثله. إذ يستحيل النصّ بين يديه شيئًا آخر غير النصّ وقد قرأه الواحد منّا دون شرح بكّار له. يكفي دليلًا على ما نزعم أن تقرأ المسعدي أو الطيب صالح أو إميل حبيبي من دون مقدّمة من بكّار. فالنصّ الأدبيّ عنده يصبح فضاء للترحال في المعاني ومجالًا للتفاعل بين ذات المبدع وذات الناقد الفنّان العاشق للنصّ الذي يصيب قارئه بعدوى هذا العشق. ومَنْ خبر نصوص بكّار يجده يعتمد على ما يسمّيه الجدليّات التي اقتبسها من تصوّر فلسفيّ يعدّ النصّ، شأنه شأن الظواهر جميعًا، مؤسّسًا على صراع النقيضين. وهما، عند التثبّت، قطبان دلاليّان يشدّان النصّ ويمثّلان عمودًا لتناسق مكوّناته الشكليّة والدلاليّة ومستوياته معنًى ومغنًى أو خبرًا وخطابًا. لذلك كثيرًا ما يختار في عناوين النصوص التي يحلّلها عبارات تمثّل جوهر التحليل من قبيل «جدليّة الحكمة والسلطان»، أو «المال والأقوال»، أو «الأدب والذهب» وغيرها كثير. وقد أخرج هذا



توفيق بكار

> **توفيق بكار من الذين يتملّكون المنهج ويطوّعون المفاهيم لفكّ شفرات النصوص وإعادة تركيبها حتى يخرجوها مخرجًا طريفًا لا يعرف سرّه إلا الفنّان المتذوّق لجيّد النصوص مثله**

المنهج في النظر تحاليل بكّار من الرتابة التي نلمسها في كثير من المقاربات التي تعتمد منوالًا واحدًا لا يفضي، في الأغلب الأعمّ، إلّا إلى التشابه والتكرار. ولكنّنا نجد فيما كتبه بكّار سعيًا واضحًا إلى وضع اليد على الخصائص المفردة للنصوص وما به تتميّز عمّا يندرج في جنسها سواء أكان نادرة أم مقامة أم خبرًا أم رواية أم قصيدة. فنحن دائمًا أمام ناقد يرهف السمع إلى النصوص، يتأنّى في تتبّع أدقّ تفاصيلها ومكوّناتها، لا يرضى بردّها إلى أشباهها، بل يعمل على تبيّن وقعها المختلف ونغمتها الفذّة.

لقد كان بكّار مجدّدًا كما تشهد على ذلك كتبه التي جمعها في «قصصيّات عربيّة» و«شعريّات عربيّة» و«مقدّمات». وكان محرّضًا لنخبة من طلبته على التجديد منذ بداية السبعينيات قبل أن تنتشر البنيويّة في العالم العربيّ، ومنهم حسين الواد وسالم ونيس، لكنّه كان في أسلوب مقاربته وطريقته في تخريج المباني والدلالات أمّة برأسها جمع إلى روح العالم الخبير بالنظريّات روح الفنّان وروح المثقّف واسع الاطلاع والمعرفة بالنصوص الأدبيّة.

لقد كان عاشقًا للأدب يحلل فرائده وعيونه فيتفنّن ويفتن.

شياطين الثورة الرقمية.. ماذا فعلوا بسينما الكائن الإنساني المتفرد؟

فجر يعقوب سينمائي وروائي فلسطيني

من المؤكد أن عباقرة الفن السابع الكبار يتحسرون على الأيام التي مضت حين كانت الكاميرا الثقيلة وحدها سيدة المشهد، وسيدة الفكرة والصورة والمحتوى. اليوم لا يبدو أن الاحتلال الرقمي للسينما قد صنع المعجزات بخصوص اللغة السينمائية التي طورها هؤلاء الكبار من وراء كراسيهم، وصنعوا أمجاد النجوم والنجمات من خلالها. ليس سهلًا التسليم بهزيمة من أي نوع هنا. لكن السينما تتغير باسم «الأثر المزيف» للصورة التي يشتغل عليها شياطين الثورة الرقمية من دون أن يضطر أحد لمعرفة أسمائهم، وهذا قد ينطبق على صناع أفلام من مثل «ماتريكس» حين يقوم البطل (كيانو ريفز) بإعادة إنتاج نفسه متجاوزًا فكرة الموت نفسها. ويسود اعتقاد قوي أنه بعد فترة من الزمن قد لا نرغب حتى بمعرفة أي من هؤلاء الشياطين يقف وراء هذه «الملحمة البصرية» أو تلك.

جل ما سنعرفه، أو تعرفه الأجيال اللاحقة سيكون بمستوى الحلول الرقمية التي لا يدركها عقل حساس إلا من خلال اللعبة البصرية الفانتازية، وهذا هو أخطر ما في الانقلاب الذي شهدته السينما في العقود الأخيرة، حين انحرف بها سدنة مختلفون في أمزجتهم ورؤاهم عن الطريق الذي شيده الكبار، وحرصوا دومًا على ملاقاة المشاهدين في منتصف الطريق: لغة خاصة لا تستنفد البعد الذهني للصورة التي تراكم في عقولهم ما يجب قوله واستنطاقه على الدوام.

الملاحم البصرية الحديثة التي استفادت من الانقلاب التقني الرقمي تغفل هذا البعد. أفلام مثل (آفاتار - سيد الخواتم) تقوم بأخطر عملية إعدام في تاريخ الفن السابع لما سبق وراكمه منظِّرو هذا الفن عبر أكثر من قرن. كل الكتابات التي تحرَّت نوع هذه الرؤية وقدَّمت مساهمات جليلة في إعادة إنتاج الطريق التي تعبر منها حلقات متماسكة نظريًّا وإبداعيًّا صارت في مرمى خطر، متقلب، يؤسس لما هو أبعد من انقلاب في نوع التقبل والتلقي الذي تُشَيَّد منه المحاكاة الرقمية لأبطال وبطلات بلا ملامح، وأبعاد نفسية وعاطفية كانت حتى عهد قريب أساس اللغة السينمائية والمعاشرة النظرية الفذة لمآلات لا يمكن الحكم عليها إلا من خلال الأبعاد النفسية والرمزية للصورة التي طالما ناصرها ودافع عنها مخرجون كبار، كانوا يدركون في نفس الوقت نوع المراهنة النظرية التي يستخلصون منها الدروس والعبر. قد لا تكتفي هذا المقدمة بتوضيح الأبعاد التاريخية والاجتماعية التي دفعت بهذا التطور التقني غير المسبوق إلى حشر اللغة السينمائية في مربعات رقمية لا نهايات أمامها، ولا نهايات لها، وكل ما تفعله، هو أنها تقدم منحنيات جديدة أمام هذه اللغة لا يعود ممكنًا معها التكهن بالمآلات التي تقود المشاهد إلى كل ما هو معاد لها.

إن إبداء القلق بخصوص الوضع الصحي للسينما إن جاز التعبير لا يعود كافيًا، فمحاكاة الألعاب الفيديوية تنتصر تدريجيًّا، وليس أدل على ذلك من فلم -على سبيل المثال أيضًا- (إنذار بورن النهائي) ٢٠٠٧م؛ إذ لا يبدو أنه بمستطاع أحد من «المنظِّرين الجدد» الذين لا نعرف أسماءهم في الواقع، شأنهم شأن شياطين الثورة الرقمية الذين قادوا هذا الانقلاب من وراء الشاشات، الادعاء بأن نظرية واحدة سوف تجمع كل ما يقدم رقميًّا من

بعض أسلوبيات هذا الفن هي شأن أخلاقي أيضًا، وليست شأنًا جماليًّا كما قد يتخيل بعض، وعليه فإن الانتصار للسينما التي نعرفها، هو احتفاء بالكائن الإنساني المتفرد

بوابة الفن الفسيحة حين تفقد السينما أهم مميزات اللغة التي سبق وانتمت إليها نظريات مجيدة لعبت دورًا كبيرًا بتطويرها من دون أن تفقد النضارة والأبعاد النفسية والفنية لكل ما هو جديد ومؤهل لأن يلعب دورًا كبيرًا في مجرى هذا الفن الكبير.

مآلات رقمية لا حدود لها

إن المنظومات الفنية الحديثة التي انتهت إلى مآلات رقمية لا حدود لها تمثل أكبر انتصار للعقل الإنساني حتى اللحظة بخصوص إعادة إنتاج المهارات التي تشكلت منها مسيرة الإنسان نفسه. ربما أدرك هذا المآل بحس إبداعي ملهم المخرج الأميركي فرانسيس فورد كوبولا حين أطلق أول فلم موسيقي إلكتروني عام ١٩٨٤م متنبئًا بحلول الفلم الرقمي مكان الفلم الذي نعرفه. بعد ذلك سوف يطلق جورج لوكاس أول فلم روائي طويل مصور بكاميرات رقمية بعنوان: «حرب النجوم» ٢٠٠٢م.

هذا الوضوح والتجلي الرقمي الذي يعد بمنزلة انتصار ساحق لجملة مفاهيم دافع عنها العلم المعاصر يغفل رغم انتصاراته غير المحدودة إمكان تعلم الحفاظ على مهارات النوع من التلاشي وراء نظريات علمية حديثة تقلل أيضًا من فرادة وتميز كل صاحب مشروع إبداعي على حدة حتى تبدو الطرق الصناعية في إنتاج كل قناة خاصة بهذا الفن السابع مثل منظومة الصوت - الدولبي، والأبعاد الثنائية والثلاثية في الصورة، وتقنيات حفر الغرافيكس، والنثر الرقمي الذي يهز شعرية السينما في مهدها، يخلق في الواقع أبعادًا خطرة على صعيد إنتاج الصورة السينمائية التي يجب أن تتجمع في نقطة واضحة طبيعية على الشاشة، حتى



يمكن القول بثقة: إن هذه الأقنية الصاخبة المتفجرة تصبح خطرًا حقيقيًّا على نوع النظرية التي يجب أن ترافق هذا التطور حين تصبح هي مصدر إنتاجها، ومصدر إنتاج القلق الإنساني أن ما يحدث على هذه الشاشة يتعدى نوع الفن السابع الذي عرّفه الكبار في أعمالهم ونظرياتهم، وهذا قد يبرر في جانب صعود السينما الوثائقية على الصعيد العالمي على حساب السينما الروائية التي تحفل بالإبهار والتقلبات الفيزيائية في نوع الرؤية ومستواها وبياناتها المعهودة؛ ذلك أن السينما هنا بمفهومها الشائع تصبح السينما التي يصنعها الجميع، والتي سيعرفها الجميع، فلأن الانقلاب الرقمي قد صنع هذه الانعطافة على صعيد السينما الروائية التي يموت معها منظومة النجوم في نفس الوقت كما يعبر إدغار موران، فإنها عملت أيضًا على بعث هذا الحس في التجريب الوثائقي مع بشر عاديين يريدون أن يروا أنفسهم في النقطة - البؤرة الحقيقية للصورة، حين ينكمش النجوم على أنفسهم عبر تقنيات رقمية لا تكف عن نفث الإبهار إلى ما بعد اللياقات العقلية الإنسانية.

ما تفعله السينما الرقمية، مع تسجيل أكبر اعتراف بأنها تقود المشاهد إلى مثل ما بعد اللياقات العقلية الإنسانية قد تصبح في الوقت نفسه طاردة لمعظم ما قيل من نظريات في هذا المضمار، وبالتالي تصبح عرضة لخطر الانزلاق في تسميات وتوصيفات قد تكون خطرًا على الفن السابع نفسه حين لا يمكنه التماهي فيها، إنما الدوران المغلق حول «خوارزميات



فلم سيد الخواتم

الفن السابع إلى مجاهل غامضة

ليس ببعيد أن تعلن السينما الوثائقية -مثلًا- عن فتوحات خاصة بها في مواجهة هذا الانفلات الرقمي الذي يقود الفن السابع إلى مجاهل غامضة، ليس من باب أن المرء بطبعه عدو ما يجهل؛ ذلك أن ما يحدث في مسيرة الكائن البشري غير مسبوق، ولا يمكن التكهن به، وقد يترك وراءه نوعًا من الأسئلة الأخلاقية الملتبسة؛ لأن بعض أسلوبيات هذا الفن التي نعرفها هي شأن أخلاقي أيضًا، وليست شأنًا جماليًّا بحتًا كما قد يتخيل بعض، وعليه فإن الانتصار للسينما التي نعرفها، بما تحمله من احتفاء بالجمال والبساطة التي لا تعرف هذا البذخ الرقمي هي احتفاء بالكائن الإنساني المتفرد الذي يترك وراءه عنوانًا واسمًا لامعين في فضاء الإبداع، وما تعوزه السينما في هذا الظرف هو الانفتاح على مرتكزات هذا الفن ومدارسه، وليس التنكر له.

فمن المؤكد أن الملاحم البصرية الرقمية التي يجري إنتاجها من وراء الحواسيب، وتطرح أسئلة رقمية ليس هناك إجابات عليها؛ لأنها تفتقد كل ما من شأنه إعادة إنتاجه في قوالب لغوية تسمح بتأكيد الأبعاد التي نشأت عليها الصورة السينمائية بما تحمله من ابتكارات أسلوبية قللت من «التخابث» البصري الذي ينشأ أحيانًا لأسباب تجارية في معظم الأحيان، وشجعت

معقدة» دفع لها شياطين يقبعون في الظل حتى تصل بهذا الفن إلى هذا المستوى المعقد من التطور. هذا يعني في جانب منه أن نظريات الفن السابع الشائعة التي عرفناها من خلال أسماء كبيرة لامعة سوف تتنازل عن كرسيها أيضًا لحساب «تنظيرات» جديدة غير معهودة ترتبط بها تقنيًّا وتعزل جماليات هذا الفن التي لا يعود يتدخل بها الإنسان نفسه، كما كان يفعل في الصعيد ذاته حين كان ينتصر للغة السينمائية وجمالياتها التي تخص كل مبدع على حدة.

المبدع يخسر موقعه

يكاد المبدع هنا يخسر موقعه في كل «ملحمة» بصرية مبهرة. هذا قول خطير بطبيعة الحال ينال من مكانة هذا الفن، وربما ينال من مراكمات جمالية امتدت على أكثر من قرن، ويكاد يلغي المسافات بين تلك النظريات التي اعتدنا عليها في تصحيح نوع الرؤية وطرق التعود في تقبل الصورة السينمائية بأسلوبيات مختلفة دفعت بأساطين السينما إلى التفرد وتخصيص مساحات ملهمة لكل فلم جديد، فيما يبدو أن تناسخ الصور هنا يفعل فعله في استغباء المشاهدين، وربما في استعدائهم على المراكمة البصرية التي حدثت في الماضي وصنعت مُشاهِدًا متميِّزًا يعرف أين يكمن الطقس السينمائي، وما حدود الغفلة التي تنتابه حين يغادر الصالة بلا ضجيج وصخب غير طبيعيين. تبدو الحالة أيضًا مريعة حين تتقلص الإمكانات النظرية في مواجهة هذا الانقلاب الرقمي: كيف يمكن الإمساك بالبعد الذهني للصورة، وكيف يمكن التوقف عن مزاحمة البعد الجمالي بألوان وخلفيات غرافيكية لا تحتمل قول شيء في تعريفها، وهي تغير أيضًا من طريقة الكتابة السينمائية التي تنحو باتجاه أفعال مستمدة من هذا الانقلاب غير المسبوق في تعريف الأشياء بأسمائها، وهذا الكلام ليس قولًا ناشئًا في معاداة مفهوم التطور، ولكنه مجرد تحسب من تطور غير محسوب ينفي عن الإبداع تميزه وفرادته اللذين ميزا الفن السابع عبر العقود الماضية، فكل ابتعاد من البعد الذهني للصورة، أو تفريغ لمحتواه تحت أي اسم أو فعل تقني يقود نحو تكسير هذا الفن ومعاداة طقس المشاهدة الأثير الذي تكونت منه السينما.



فلم حرب النجوم

> **السينما تتغير باسم «الأثر المزيف» للصورة التي يشتغل عليها شياطين الثورة الرقمية من دون أن يضطر أحد لمعرفة أسمائهم**

عليه الثورة الإعلامية الرقمية في مختلف الصعد، وهي لا شك تدفع إلى ولادة مفاهيم جديدة سيتربى عليها إنسان القرن الـ٢١ وقد تدفع إلى حدوث انقلاب مضاد، وهذا متوقع كما أسلفنا على صعيد نمو السينما الوثائقية وتفتحها التي تعيد تعريف هذا الإنسان في مجاهل هذا القرن الرقمي، وهذا ما سيحتاجه مخرجو الموجات ما بعد الجديدة التي قد تتبلور كرد فعل على الانقلاب الرقمي الذي قاد الفن السابع نحو ملاحم بصرية غير مكتملة وإن بدا أنها وصلت في نوع من التطرف غير المسبوق إلى قول كل ما يمكن أن يقال حتى لو لم يرد الكائن البشري قوله في سياق فلم أو مشهد مما يتاح صنعه في مثل هذه الملاحم.

كل ما قيل آنفًا، هو محاولة في توصيف هذه الواحة البصرية غير النهائية، التي يقف الإنسان أمامها حائرًا وقد انزلقت بها الأشباح المرئية إلى أعماق لا يمكن التكهن بقرارها، أو هي من غير أعماق ولا يمكن معرفة حقيقة المشاعر التي تنبثق منها؛ إذ تبدو من غير مشاعر وتستغرق بقول كل ما لا يمكن أن نريد قوله، ولذا فإن محاولات توصيف هذه الملاحم البصرية يمكن أن تأخذ منحى أخلاقيًّا أيضًا، وهنا تكمن أهمية ما سيقال لاحقًا عنها في كتابات قد لا نعرف من يقف وراءها، وقد لا يمكن الجزم بنوع الصورة التي يبحث عنها هؤلاء، وقد أطلقوا العنان لمخيلات تبدو من دون حدود، ولكن مع شيء من التركيز في تلك النقطة الوحيدة الواضحة التي ينبثق منها الفلم السينمائي سيمكن القول: إن هذه المخيلات أسيرة واقع رقمي معقد لا يمكن التكهن بمعرفته، أو التنظير الجمالي للدوافع التي ينطلق منها في محاكاة هذا الفن العظيم.

مداخل نظرية إلى السردية المابعد الدرامية

التحول في مفهوم الفرجة

وقصدية القطع مع صيغ الحكي التقليدية

عبدالرحيم الإدريسي باحث مغربي

تتأسس العلاقة بين السرد والمسرح على مسافة تحمي دومًا تحولها؛ ذلك أن هذه العلاقة ملتبسة بحكم سيرورة التحققات المسرحية، وبحكم تجدد القراءة وتبدُّلِها، بغية ضمان حيوية السرد في العروض المسرحية. فمن دون هذه الحيوية، يصبح المنعطف السردي في المسرح المعاصر، بما يفتحه من أفق متحول ومستمر، منذورًا لاستسهال تداخل الأنواع أو تجاور الإمكانات الدرامية وغير الدرامية المفتوحة.



جان لامبير وايل - موت آدم

وإن هذا الاستسهال لا يمكن دفعه إلا بمداخل نظرية، أهمها:

أولا- يعد الدرامي أصل بناء الحكي Le recit. والحكي لا يشير إلى الخطاب، بل إلى المؤدَّى السردي، بخلاف السرد الذي يضطلع بتعيين محفل الأداء والتلفظ ويدل على فعل السرد الذي له طبيعة تداولية تستند إلى تحققات نصية وغير نصية مفتوحة، وتجعل الحكي المسرحي يتحقق بوسائل أخرى غيرِ اللغة مثل الأداء المسرحي والصورة والوثيقة. ويبدو من الصعب في الفرجات المعاصرة عرضُ فعل من دون أن نحكي شيئًا، ولا يُهم أن يكون الأثر السردي حكايةً مبنية أو مجردَ مُسَوَّدة حكاية. في كل تجربة درامية أو ما بعد درامية نكتشف بداية محكي أو إمكانية حكاية يُقدم المتفرج على إكمالهما أو تخيلهما. إننا دائمًا نحكي شيئًا.

ثانيًا- نفترض نظريًّا السردَ Narration خاصيةً قد ترد في نصوص تخييلية مختلفة غيرِ حكائية (الشعر والمسرح والسينما)، أو غيرِ تخييلية (الإشهار، والتاريخ، والوثيقة، ومحضر حول واقعة أو اعتراف، وقصاصات صِحافية وتحقيقات...). ولا يمكن بموجب هذا الحد عدّ السرد عنصرًا حاسمًا في تحديد هوية النوع المسرحي، إنما يمكن أن يتساوى مع مكونات أخرى في هذا التحديد، ويرسمَ طريقة تجريبية ملموسة في التمثيل، تتسع فيه دوائر التخييل واللاتخييل وتتنوع أشكالها.

ثالثًا- إن فعالية السرد في مسرح ما بعد الدراما تتحقق في خبرة تتخذ من التخييل وسيلةً أساسًا لها. وتكتسب هذه الخبرة صبغة تمثيل Représentation وإدراكٍ معرفي وثقافي لا تتسع للحكايات الكبرى والأنساق المغلقة. وهذا أمر بالغ الدلالة في الفنون الأدائية، فالتمثيل السردي في المسرح ليس خلقًا لوهم المركزية أو إحالةً على عوالم يمكن أن تُنكرها «الحقائق الخاصة»، بل هو تخييل يقوم على الانتقاء والفصل وعزل عالم مصغر ووضعِه بين صيغتين (صيغتا الواقع والتخييل) ما يؤدي إلى خلق طبقات تخييلية فرجوية تحكمها «مرجعيات مفتوحة»، هي المرجعيات التي تستند إليها دراماتورجيا المتفرج وتسقط التخييل على الواقع. لذلك، فإن الأداء، من هذه الزاوية، وهو يسعى للتخلص من أسبقية المعايير الدرامية، لا يشكو من «انكفاء الفعل» ولا يحرص على مركزيته، فهو في كل مكان، لكنه (الأداء) يحتاج إلى «محكيات جزئية» يحولها إلى عالم فرجوي مكتفٍ بذاته ومنشغل بسؤال الكتابة وما يشترطه


من أعمال وجدي معوض

في كل تجربة درامية أو ما بعد درامية نكتشف بداية محكي أو إمكانية حكاية يُقدم المتفرج على إكمالهما أو تخيلهما، إننا دائمًا نحكي شيئًا

في العرض من حرية ومن إمكان الاستهداء إلى الذاكرة والاشتباه بين الواقع والتخييل.

الاحتفاء بانهيار المعنى

وفي هذا السياق اتخذت مصاحبة عروضِ الفرجات البديلة منحيين:

(Anne Monfort. Après le postdramatique: narration et fiction entre écriture de plateau et théâtre néo-dramatique. Mondes en narration N.3 | 2009.)

يقوم المنحى الأول على رصد تصور هذه الفرجات للسرد كلغة وإمكانية قبل تحقق تتبعِها في المنجز المسرحي، أفضى هذا التتبع إلى استنتاج أساسه أن المسرح المابعد الدرامي يستند إلى السرد في تركيب انشطاري دالّ على قصدٍ في عدم الانشغال بتأمين الوشائج بين مِفصل السرد ومفاصل أخرى، بقدر ما هو حريص


من أعمال وجدي معوض

على استنبات التدمير الذاتي والاحتفاءِ بانهيار المعنى والأشكال المعهودة، بقطعها وإعادة بنائها بالمجاورة، وتمكينِ السرد من عرض التخييلي واللاتخييلي. أما المنحى الثاني فيتغيا تأمل فعلِ السرد في الفرجات البديلة من خارج سياقه النوعي (السرديات اللغوية) بما يتيح تحليل صورٍ لخصائصِ الفرجات البديلة التي لا تتحقق بين الكتابة والعرض، إنما تبني سيرورتها المشهدية عبر الفرجة وفي أثنائها. هذان المنحيان يقودان إلى صلب الأسئلة المربكة، من قبيل: لماذا المسرح المابعد الدرامي مثلًا انعطف إلى السرد، على الرغم من حضوره في المسرح الدرامي؟

إن الفرجة المابعد الدرامية أكدت قصدية القطع مع كل صيغ الحكي التي تشير إلى الأشكال الدرامية التقليدية، ومفهوم السرد هنا غيرُ أشكال الحكي التي تصنعها مثلًا محكيات التراجيديا القديمة أو الحكي الداخلي في عمل درامي، بل سرد ينظر إليه من جهة حصيلته الأدائية، حيث إن الفرجة انحازت إلى سردية فرجوية تَحوَّل معها هذا الانحياز إلى إشكال، سواء من منظور مشروعه الدراماتورجي كفعل فرجوي أو من منظور التلقي المسرحي.

منذ عشر سنوات تَشكَّل في الفرجات الأوربية توجهان يمكن أن يوصفا كتحقق للمسرح المابعد الدرامي:

الأول: الكتابة الرُّكحية « Lécriture de plateau » كما يحددها Bruno Tackels (Tackels, Bruno (2001) : Fragments d'un théâtre amoureux.Les Solitaires intempestifs). التي حوَّلت مفهوم الكتابة السردية إلى مركز المشروع الدراماتورجي بمكوناته البصرية والكوريغرافية، فتؤدِّى الكتابةُ السردية من خلال مجموعِ الوسائط المكونة للفرجة، ويتحكم في هذه الكتابة وضعٌ خاص على مستوى التلقي، مثلًا في السرد البصري يُصبح من اللازم إخراجُ الصور من مستواها البصري إلى سياقها الفني المسرحي، ولا يمكن لهذه الخطوة أن تتحقق إلا بوجود متلقٍّ قادر على تحويل الصورة من خطها البصري كلغة إلى الحقل الذهني؛ لاستيعاب ممكنات ظهور المعنى لدى المشاهد، فنكون في هذا المستوى أمام فرجة تتحول العين معها من الإبصار إلى النظر.

الثاني: مفهوم مسرح الدراما الجديدة «Théâtre néo-dramatique» وهو تمسرح يقوم فيه نص الشخصيات والتخييل على أساس عمل مشهدي Travail scénique حتى لو قُوِّض النصُ وحُطِّمت الشخصيات، وصار التخييل محلّ سؤال، وبخاصة أمام تدفق الموضوع الوثائقي وانتفاءِ التخييلي من السردي (مجدي معوض)، مثلما نرى في محكيات القول الصحافي. في ضوء هذا التصور ترى «آن مونفور Anne Monfort» في مقارنتها بين مفهومي الكتابة الركحية ومسرح الدراما الجديدة، أنهما معًا يتجهان إلى إعادة النظر في المقولات الكلاسيكية للمحاكاة والحكي بما أنهما يتأرجحان بين الافتراضية والواقعية، فيتكفل الحكي، بالمقابل، داخل التمثيل المسرحي المعاصر بضمان التحول من خلال مستجدات الأحداث، ويصبح الجمهور أمام عالم مستمر الدوران السردي الذي به يصل المتلقي إلى تشكيل صورته التخييلية الخاصة.

الوهم الواقعي

لكن في أشكالٍ كثيرة للكتابة الركحية مثلما في الرقص المعاصر أو الفرجة يصبح التخييل الذاتي أو الجماعي إبدالًا سرديًا، كأن يضع الكاتب ذاتَه في المشهد حين يمر مفهوم التخييل الذاتي من الكاتب إلى الممثل، أو أن يؤدي الممثلُ فيه محكياتِه الذاتية باسمه كسارد، فيتقلب دوره بين التمثيل والأداء، محدثًا بذلك كسرًا - فجوةً كامنة في العرض بين التخييل واللاتخييل، هذه الوضعية عكست لدى «ليمان» سؤالًا مؤسسًا للمسرح المابعد الدرامي تتحين فيه من خلال هذا الكسر الكامن، صورُ التعايش أو التجاورِ بين مستويات التخييل واللاتخييل. Lehmann. P.205)) وهذا هو مصدر «الوهم الواقعي»؛ لأن العرض يحكي «الواقع» من خلال التخييل، ولا يمكنه أن يستند إلى التخييل إلا من خلال إسقاط الواقعي المرئي والمحسوس عبر اسم الكاتب أو الممثل وبعضِ إحالاتهما هنا وهناك. فلا يمكن لمحكيات «واقعية» أن توجَد إلا من خلال ممكنات التخييل ذاتِه للإيهام بحدث درامي. وهذا الوضع لا

الكاتب - المخرج - الممثل ذاتُه ليس سوى نسخة، أما الأصل فموجود في مكان آخر، هو الشخصية، الصوت الخفي - الظاهر الذي يكتب أو يؤدي حكايات الممثلين بطريقته الخاصة

يخص حجم «الحقيقة»، بل يدل على صيغة في تصورها. إن الوهم هو ما يأتي من الواقع، أما الحقيقة فموجودة بين مكونات العرض المتعددة والمفتوحة.

لذلك، فالمؤدي لا يفكر في «سيرته»، كصورة طبق الأصل، بل يريد صوغًا سرديًّا من صنع «ذاكرته»، لا من صنع الوقائع فقط. وذاك ما تدعو إليه الفرجة وتقوم بالتمثيل له من خلال كل محكياتها؛ فالكاتب - المخرج - الممثل ذاتُه ليس سوى نسخة، أما الأصل فموجود في مكان آخر، هو الشخصية، الصوت الخفي - الظاهر الذي يكتب أو يؤدي حكايات الممثلين بطريقته الخاصة. لكن هذا الأمر لا يعني تقابلًا بين «واقع» و«خيال»، بل نحن أمام تأرجح بين «أنا» اليقين الواقعي في حكايات الممثلين من جهة، وبين «أنا» الاشتباه التخييلي والتمثيلِ اللاحق الذي سيُحول الوقائعَ الحياتية إلى محكيات مسرحية، توهم بالقطعية، وهي، تبعًا لذلك، مدرجةٌ ضمن «ميثاق واقعي» يضمنه اسم المؤدّي، من حيث توقّعُ دورِه في الكتابة وتقطعاتُ صور من حياته داخل حالات حكيٍ واقعي، هو في الأصل جزء من انسيابية إيقاع مألوف، لكن التحويل المابعد الدرامي يقطع تحبيك هذا الإيقاع ويوقف سريانه بما أنه نسيج بنائي تقليدي رابط. إن الإيحاء بواقعية الحكاية هو الذي يسوغ تخييلية السرد التي يواجه الأداءُ المسرحي تعذرها تحت ضغط نفور مسرح ما بعد الدراما من مكونَي «الحدث» و«الحكاية» fable واستنادِه إلى سردية «موقف» أو حالة. وذاك هو مصدر «الصنعة» السردية في هذه الممارسة المسرحية وقيمةُ المضاف فيها أيضًا.



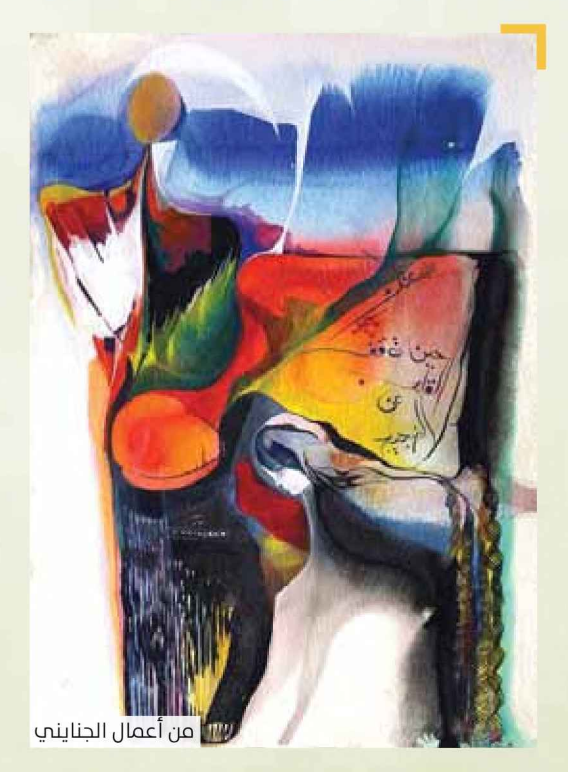
ذكر أن أعمال كبار الرسامين المصريين مهددة بالخطر

أحمد الجنايني:

مهمتنا ألا يتحول أتيليه القاهرة إلى مركز ثقافي إسرائيلي

الفيصل القاهرة

لا تكاد تشعر به، لكن أثره موجود في كل مكان، تراه في مقدمة صفوف الفنانين التشكيليين، حيث يشغل منصب رئيس مجلس إدار أتيليه القاهرة للفنانين والأدباء، هذا المكان الذي أسسه المصور المصري الكبير محمد ناجي عام ١٩٥٣م، ليصبح منارة ثقافية تدافع عن التشكيل والأدب معًا، إنه الفنان المصري أحمد الجنايني (١٩٥٤م) الذي تتلمذ على يد الفنان المصري الكبير حامد عويس عام ١٩٧٨ - ١٩٧٩م، وبعدها درس الفن في ألمانيا في المدة ١٩٨٠ : ١٩٨١م، وكتب الشعر والرواية، وصمَّم أغلفة العديد من سلاسل الكتب، وأنشأ دار نشر، ورأس تحرير مجلة «الخيال» المعنيَّة بالفنون البصرية، وهو القائل: إن تاريخ مصر التشكيلي في خطر. «الفيصل» حاورته حول تجربته إضافة إلى قضايا أخرى.


من أعمال الجنايني

مارستَ الفن التشكيلي والشعر والكتابة الروائية؛ فما رؤيتك الأساسية للفن؟

كنتُ واضحًا منذ البداية مع نفسي في أنه لا يوجد غرف مغلقة للصنوف الإبداعية، لكن كل الإبداعات تشكيلية أو موسيقية أو شعرية أو مسرحية،... جميعها يشتبك معًا، كان هذا عمود أستند إليه في رؤيتي لمشروعي الإبداعي، كما أن مثلث الإبداع لا بد أن يكون موهبة - خبرة - ثقافة، وأنه لا يمكن حذف أو إلغاء أي من العناصر الثلاثة، ولا يمكن أن يقدَّم عمل إبداعي بضلعين من دون الثالث.

لا تنتمي اللوحة لديك إلى سياق مدرسة فنية بعينها، وربما تكون مزيجًا من مدارس مختلفة، فما المؤثرات التي تدفعك لذلك؟

ممارسة العمل الإبداعي تشكيليًّا تعتمد على ماهية اللغة البطل، وماهية لغة التشكيل هي اللون - الخط - الكتلة - الفراغ - المساحة. أي جميع العناصر المرئية بصريًّا، لذا سيكون البطل دائمًا بصريًّا، رغم إمكانية اشتباكه مع الموسيقا أو الشعر. وبالنسبة لي فإنني أعتمد الجسد الإنساني، أو بمعنى أدق، الإنسانَ بطلًا للغتي التشكيلية، أحمله بكل المضامين التشكيلية سواء أكانت لونًا أو خطًّا أو مسافةً أو كتلةً أو فراغًا، لكن الهم الإنساني يكون حافزًا لطاقتي التشكيلية، وأنا ممن يؤمنون بموسيقا اللون، وبالتالي فإن لغة اللون عندي تعتمد كلية على فهمي الواعي للعلاقات اللونية سواء أكانت التضاد أو الهارموني أو غيرهما، المهم عندي أن أرى الموسيقا من خلال اللون، وهذا يمنح العمل جاذبية للتلقي، ويأخذ المشاهد إلى أبعاد أخرى ترتبط جميعها رغم مضامينها المختلفة بجماليات المشهد، ولكي أحقق هذا كان لا بد لي أن أمارس التشكيل بعيدًا من صناديق المدارس التشكيلية الجاهزة، فأنا أومن بحرية التعبير وحرية استخدام الفنان للغته الخاصة؛ إذ ليس من الضروري أن يكون واقفًا داخل صندوق مدرسة معينة، ويغلق على نفسه هذا الصندوق، من هنا كانت تجاربي مزجًا بين مدارس تشكيلية مختلفة، فالتجريد امتزج بسوريالية اللون، والتعبيرية امتزجت بدراما التجريد، وهكذا.

كيف تشكلت الذاكرة البصرية لدى أحمد الجنايني؟

أنا ابن قرية تنام في حضن النيل، حيث فرع دمياط؛ لذا فمنذ طفولتي كنت أشكل الطمي وأتعامل مع مفردات النهر ومفردات الطبيعة بوصفها المخزون الوجداني والثقافي والبصري، ورغمًا عني مارست ذلك من دون أن أفهم ذلك بوعي، ابن القرية الذي رسم بالطبشور على جدران المنزل وأبواب الغرف، وتعامل في «حصة» التربية الفنية في المرحلة الإعدادية مع الطبيعة، حيث كان يطلب منا مدرس الرسم على السبورة أمام الزملاء، وهذا ما شجعني على ممارسة التشكيل.

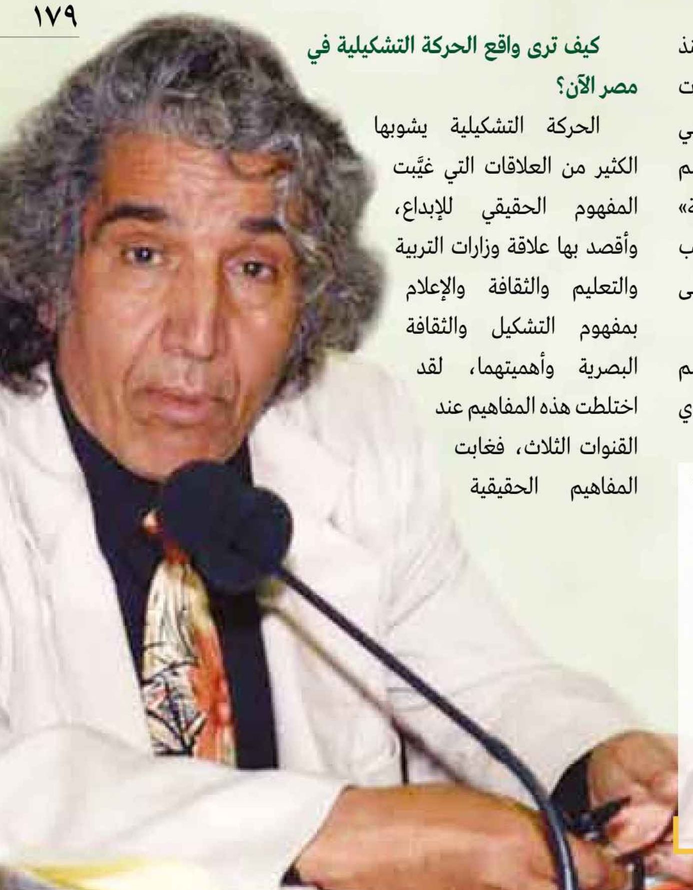
هناك جانب آخر مهم وهو مكتبة أخي الأكبر التي كانت تضم كتبًا مهمة منها كتاب التشريح للفنانين -مؤلفه يوجن وولف- الذي استفدت منه كثيرًا في المراحل الأولى من تكويني، فإذا أضفنا ذلك إلى حكايات القرية وألعاب الأولاد والبنات الشعبية التي كنا نمارسها بحب وفرح رغم ظلمة الشوارع التي لم تكن تعتمد إلا على المصابيح النفطية في ذلك الوقت، كل هذا شكَّل جزءًا كبيرًا من ذاكرتي البصرية.

مارستَ فن تصميم الأغلفة لعدد من سلاسل الكتب، فإلى أي مدى أسهم الكمبيوتر وما أتاحه من خيال جديد وبرامج عديدة في تشكيلك اللوحة وعالمها؟

لا تربطني أي علاقة بما نسميه فن الكمبيوتر أو العمل الفني من خلال الكمبيوتر، أنا أمارس الفن التشكيلي بأطراف أصابعي معتمدًا اللون بمختلف خاماته، سواء أكانت زيتية أو أكريلك أو ألوانًا مائية، وأنا من الفنانين الذين لا يؤمنون بتحضير اللوحة من خلال رسم إسكتشات ثم بعد ذلك نقل الإسكتش ليكون لوحة، أنا أومن منذ بداياتي بأن الشخصية الأولى هي اللوحة؛ لذلك تكون علاقتي مباشرة مع سطح اللوحة، من دون الاتكاء على عمل إسكتشات، ضربة الفرشة الأولى في اللوحة هي بمنزلة الطلقة الأولى التي تفتح لي سردابًا لا أعرف ما الذي يسكنه، لكنني أعرف تمامًا أنني لا بد أن أعبُر من هذا السرداب، هذه هي علاقتي الحقيقية بالعمل التشكيلي.

كيف ترى واقع الحركة التشكيلية في مصر الآن؟

الحركة التشكيلية يشوبها الكثير من العلاقات التي غيَّبت المفهوم الحقيقي للإبداع، وأقصد بها علاقة وزارات التربية والتعليم والثقافة والإعلام بمفهوم التشكيل والثقافة البصرية وأهميتهما، لقد اختلطت هذه المفاهيم عند القنوات الثلاث، فغابت المفاهيم الحقيقية



> **بدأ الصراع في أتيليه القاهرة حين تواطأ مجلس إدارة الأتيليه الأسبق عام ٢٠٠٨م مع من يمتلكون عقار أتيليه القاهرة، وهم ورثة ليندا كوهينكا اليهودية، وذلك بعدم دفعهم إيجار المقرّ على أن يقاضي الورثة مجلس الإدارة ويُستَصدَر قرار من المحكمة بطرد جمعية الأتيليه، وتسليم العقار للورثة**


من أعمال الجنايني

ليس من الضروري أن يكون الفنان واقفًا داخل صندوق مدرسة معينة، ويغلق على نفسه هذا الصندوق، من هنا كانت تجاربي مزجًا بين مدارس تشكيلية مختلفة، فالتجريد امتزج بسوريالية اللون، والتعبيرية امتزجت بدراما التجريد

في المراحل التعليمية، وهمشت في الثقافة، وتكاد تكون ألغيت في الإعلام، وبالتالي فهذه الجزر المنعزلة والمنوط بها رفع مستوى الثقافة البصرية لا تقدم شيئًا حقيقيًّا لتنمية الثقافة البصرية، ولم يعد بالإمكان القبض على مفاهيم جمالية تقدم على أرضية حقيقية للمواطن العادي، ومن ثم انفصل المجتمع بكليته عما يسمى الفن التشكيلي، وبالتالي فالفنان التشكيلي الحقيقي لا يستطيع في المجتمع المصري بل العربي ككل أن يمارس حياته بصفته فنانًا، ممارسة الفن لن تكون داعمة له لممارسة حياته بشكل طبيعي، من ناحية أخرى، وهي الأهم، إنه لكي تُقدِّم عملًا إبداعيًّا من خلال كونك فنانًا لا بد أن تمتلك رؤية لهذا العمل، وهذا ما نفتقده في كثير من الأحوال، نحن في حاجة ماسّة إلى الثقافة الإبداعية سواء أكانت إبداعًا أو ممارسة.

قلتَ في مقال: إن تاريخ التشكيل المصري في خطر؛ فكيف ذلك؟

التاريخ المصري يضع مصر رغمًا عن أي شيء في مقدمة الدول التي تمتلك تاريخًا إبداعيًّا حقيقيًّا، لكن ما يحدث الآن ربما يؤثر بشكل كبير في هذا التاريخ، حيث إن هناك «لوبي» -وأعني بها معناها الحقيقي- يعمل ضد الفن بتبنِّيه أعمالًا لا قيمة لها؛ كي تكون في سوق المزادات رهانًا على تشويه وتشويش الإبداع. ويتواصل مع ذلك الترويج للأعمال الفنية المزيفة التي شاع التسويق لها، مما أفقد المتاحف الفنية الكثير من هيبتها، فأعمال مزيفة لرموز فنية كبيرة من رواد الفن في مصر منهم: محمود سعيد، وسيف وانلي، والجزار، وحامد ندا وغيرهم، يفقد الفن التشكيلي في مصر مصداقيته وجلاله، وهذه مشكلة كبيرة طرحت وفاحت رائحتها في معرض السورياليين الذي أقيم في قصر الفنون بدار الأوبرا بالتعاون بين وزارة الثقافة وجهات خاصة أتت بكم هائل من اللوحات المزيفة، وحشرتها داخل المعرض فقط لتأخذ مشروعيتها في المزادات التي يقوم بها هذا اللوبي.

بوصفك رئيس أتيليه القاهرة، ما حقيقة الصراع الدائر على المقرّ منذ سنوات؟

بدأ الصراع في أتيليه القاهرة حين تواطأ مجلس إدارة الأتيليه الأسبق عام ٢٠٠٨م مع من يمتلكون عقار أتيليه القاهرة، وهم ورثة ليندا كوهينكا اليهودية، وذلك بعدم دفعهم إيجار المقرّ مدة أربع أو خمس سنوات، على أن يقاضي الورثة مجلس الإدارة ويُستَصدَر قرار من المحكمة بطرد جمعية الأتيليه، وتسليم العقار للورثة، كان هذا أساس المشكلة، وأُوقِفت هذه الإجراءات وعُزل هذا المجلس بقرار من وزارة التضامن الاجتماعي، ثم فصلهم من الأتيليه بقرار من الجمعية العمومية، لكن بعد خمس سنوات تغيرت الخريطة، وفوجئ مجلس الإدارة الحالي بخطابات تَرِدُ إليه من مدير التضامن الاجتماعي تُطالِب المجلس بإعادة الأعضاء المفصولين بوصفهم لم يفصلوا، وبدا المشهد مأساويًّا حين تَكشَّفت خيوط التعاون بين إدارة التضامن وعناصر من المجلس المفصول، لنكتشف أن كل ما تسعى له وزارة التضامن هو إعادة الوضع إلى ما كان عليه، بحيث يتمكّن المجلس المعزول من تسليم المقرّ إلى الورثة، وهذا ما وقفنا ضده، وقاضينا وزيرة التضامن ومحافظ القاهرة السابق، ونحن في انتظار حكم القضاء، ولا يهمّنا إلا أن نحافظ على كيان أتيليه القاهرة من أيدي العابثين الذين يسعون لتحويله إلى مركز ثقافي إسرائيلي، أو على أقل تقدير إطفاء شعلته الثقافية التي أسسها المصوِّر المصري الكبير محمد ناجي في مارس ١٩٥٣م، ولا يؤسفني في نضالنا هذا إلا تخاذل الكثير من المثقفين عن الدفاع عن هذا الصرح وتاريخه، وعلى رأسهم وزير الثقافة الذي لم يحرِّك ساكنًا رغم أنني وضعت الملف كاملًا على مكتبه، لكنه آثر الصمت البليغ.

مرآة لا تريني وجهي

مسفر الغامدي شاعر سعودي

مقهى

الوقت سريعٌ...

الوقت بطيءٌ...

ليس بطيئًا ولا سريعًا...

نحن نتدحرج فيه كصخرة، أو نتدفق كسيل جارف.

الوقت هو الآن، ما نحن عليه في هذه اللحظة فقط...

ليس هناك من وقت خارج اللحظة التي نعيشها...

يمضي الليل

تتخلله أصوات أخرى:

معلّق رياضي يمزق آذاننا بسكينه الحادة

طلقات مدوية لحبات الدومينو على طاولة مجاورة

طلبات الزبائن التي لا تنقطع

صراخ العاملين الذي لا يتوقف

و...

شتائمنا، لعناتنا، تبرمنا، ضحكاتنا، بكاؤنا، أحلامنا، أغانينا، استغاثاتنا، احتجاجنا...

و...

غمامة عقيمة تظلل رؤوسنا دون أن نعيرها انتباهًا

يمضي الليل

تأتي اللحظة الحاسمة لصياغة البيان الختامي للجلسة

المتحدث الرسمي يتلو البيان بنبرة دبلوماسية تصالحية هادئة:

الوقت ليس بطيئًا

الوقت ليس سريعًا

الوقت بطيء وسريع في نفس الوقت.

حسين

أشعر بالذنب

كلما أحسست أنني أتفق معك في رأي ما

ليس لأن ما تقوله خطأٌ

وما أقوله صوابٌ

ولكن لأنني اخترت منذ البداية أن تكون نقيضي

المرآة التي لا تريني وجهي الآن

بل الوجه الذي ضيعتُه منذ زمن بعيد!



ضياء

كمن يريد أن يقفز إلى المستقبل مباشرة

سألني:

متى سأتعلم القيادة؟

أجبته من خلف المقود:

عندما تصبح السيارة جزءًا منك

قدمَك التي تمشي عليها

يدَك التي تمسك بها

عينَك التي ترى بها

لسانَك الذي تنطق به...

التفتُّ إليه في حبور

لأرى الدهشة في عينيه

لكنه بدا حائرًا ومرتبكًا

أظنه كان يخفي عبارة من نوع:

أنت غبي جدًّا يا أبي...

لماذا تعقِّد الأمور إلى هذا الحدّ؟!



سعد البازعي
ناقد سعودي

ترف الحرية

استوقفتني عبارة للمفكر الفرنسي جان بودريار وردت في كتابه «كرب القوة». العبارة ستفاجئ البعض وتحزن البعض الآخر. هي عبارة تتضمن شكوى لم نألفها وترفًا لم يمر بنا: ترف الحرية. هكذا سيراه من يبحث عن فتات من تلك المحلوم بها أبدًا، الحرية، تمامًا كما هو شعور الجماهير تحت نافذة القصر الإمبراطوري التي يقال: إن ماري أنطوانيت أطلّت منها لتقول عبارتها الشهيرة: لِمَ لا يأكلون كعكًا، أو كما قالت. فماذا قال بودريار؟

قبل إيراد العبارة من الضروري معرفة السياق. جاءت العبارة ضمن مناقشة بودريار لما وصفه بالانتقال في تاريخ العالم الغربي من مرحلة السيطرة (domination) إلى مرحلة الهيمنة (hegemony)، الأولى هي مرحلة العبودية أو السيطرة المباشرة التي سادت في الماضي، والثانية هي مرحلة الخضوع غير المحسوس والمشاركة في عملية الإخضاع نفسها. وهذه الثانية هي المرحلة الحالية التي يسيطر فيها اقتصاد السوق والعولمة أو عملية التبادل التجاري الطاغي على كل شيء. ثم يشير إلى أن مرحلة العبودية أدّت في ذروتها إلى حركة تحرر سواء أكان سياسيًّا أم جنسيًّا أم غير ذلك، لكنها اتسمت بأفكار واضحة وقادة مرئيين، أما الثانية فلا تسمح، كما يقول، بالثورة عليها، وقبل إيضاح السبب وراء ذلك يلزم القول بأن الواقعين سواء تحت السيطرة أو الهيمنة ليسوا محصورين، كما قد يظن لأول وهلة، في أهل العالم غير الغربي، شعوب آسيا وإفريقيا... إلخ، الذين استُعمروا ونُهبوا طوال قرون، ليسوا أولئك فقط، إنما هم أيضًا الشعوب الغربية نفسها التي ظلت محكومة أيضًا بقوى سياسية واقتصادية واجتماعية، وبأوضاع من التفاوت الطبقي وعدم القدرة على تغيير شيء، مع أنها استفادت من الاستعمار والنهب الذي مارسته حكوماتها، وإن لم يشر بودريار إلى ذلك.



> **الواقعون تحت السيطرة أو الهيمنة ليسوا محصورين في أهل العالم غير الغربي، الذين استُعمروا ونُهبوا طوال قرون، إنما هم أيضًا الشعوب الغربية نفسها التي ظلت محكومة أيضًا بقوى سياسية واقتصادية واجتماعية وبأوضاع من التفاوت الطبقيّ**

حروب التحرر

ذلك كله يقف وراء النتيجة التي توصل إليها المفكر وعالم الاجتماع الفرنسي حين قال: «**كل حروب التحرر من السيطرة لم تزد على أن مهدت الطريق للهيمنة، أي عهد التبادل العام - التي لا مجال للثورة عليها؛ لأن كل شيء بات محرَّرًا**». التبادل العام هو اقتصاد السوق حيث تبادل السلع والأفكار وغيرها، السوق التي تعولمت ولم يعد ممكنًا السيطرة عليها، بل التي باتت هي، حسب بودريار تسيطر على الناس. في تلك السوق لم يعد مجال لثورة لأنه لم يعد هناك متسلط واضح يمكن الثورة عليه.

لكن هذا لن يبدو مقنعًا لشعوب كثيرة حول العالم تعرف المتسلطين، شعوب ما زالت في مرحلة تسبق تلك التي رأى بودريار أن العالم وصل إليها، مرحلة يهيمن فيها فرد مستبدّ أو عسكر، أو أقلية أو مجموعة من المتزمتين أو المؤدلجين أو أو. بالنسبة لأولئك سيبدو كلام بودريار ترفًا لا معنى له. ثمة أولويات تسبق العولمة. غير أن المشكلة لن تقف عند ذلك الحد. ستبدو المشكلة مضاعفة حين تكتشف تلك الشعوب أن ما يقوله المفكر الفرنسي لا يخلو من صحة، أن العولمة من خلال اقتصاد السوق وهيمنة الاستهلاك قوة طاغية أيضًا. صحيح أن بودريار لم يلتفت إلى تلك السلطة المضاعفة لكن ذلك ليس متوقعًا منه، فالالتفات هنا هو ما يجب على مفكِّري العالم غير الغربي فِعله.

مؤسسة الملك فيصل الخيرية

King Faisal Foundation















ص. ب: ٣٥٢ الرياض: ١١٤١١ المملكة العربية السعودية هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥(٩٦٦١١+) فاكس: ٤٦٥٦٥٢٤(٩٦٦١١ +)

P.O.Box 352 Riyadh 11411 Kingdom of Saudi Arabia Tel: (+966 11) 4652255 Fax: (+966 11) 4656524

www.kff.com